دموع تحترق



وليده عتو

رواية

دموع تحترق

- دموع تحترق

- وليدة عتو

- رواية

- الطبعة الأولى 2004

- صدرت عن دار عبد المنعم - ناشرون

- لوحة الغلاف

دار عبد المنعم - ناشرون

مؤسسة ثقافية تعنى بنشر الأدب والفكر والعلوم العربية والعالمية

سورية - حلب - شارع القوتلي - ص.ب 6567 - تلفاكس 2114512

إهداء

أطفأ حريق دموعي بهذه الكلمات المهداة إلى ابنتي الغالية ميرفت

حبيبتي ميرفت.. عندما تطول.. أيام بعدنا.. تحترم الأشواق من شدة لهيبها.. وتبحر مراكب الروح بين أمواج عالية.. تكاد تبتلع مركبتي الزاحفة نحو المجهول. آه يا صغيرتي.. من لوعة القلب.. وكيف أطفأ حريقه..

ميرفت.. من شرفة أحلامي.. تقفز صورة وجهك الطفولي الذي يسكن في ثناحيا روحي و ترقص ضحكتك العذبة على ضفاف مهجتي.. من حنين غربتي الهث خلف طيفك يا زهرتي الجميلة.. تتوسع خطواتي.. تسبق أفكاري.. يتمد نظري يبحث عن وجودك أفتح ذراعي.. ألفها حول جسدك.. فأجدها قد لفت حول سحابة هواء.. تهرب كما يهرب الحلم الجميل من الأجفان.. ميرفت.. هل تجانست روحك مع سنين الفراق.. و ارتدت ثوب غربتي.. آه يا صغيرتي.. ما أقسى لحظات وداعك.. لقد أصبحت دمعة مزروعة بين أجفاني.. وجرحاً يصرخ في ليالي غيابك.. لقد ضاقت بروحي مساحة المكان.. وبكت جراح قلبي من مرارة الغربة وعذاب بعدك..

ميرفت.. يا أيقونتي الجميلة.. وزهرة اللوتس في نافذة عمري.. يجتاحني الحنين إليك.. فتغرقني بحور الشوق.. تسير قافلتي محملة بشذا الشوق وعذاب الأيام ولوعة اللحظات.. فلا أملك سوى الدموع.. أسكبها.. وآهات تمزق صدري.. ميرفت.. يا وجعي.. ويا وجع الكلمة.. إنني أنام يا عمري على صورتك.. وهي ترقص بين أجفاني فتقبلها عيوني يضمها قلبي، يناديها عمري، وتشتاقها لحظاتي. إن بكاء الروح مزق جوف السماء.. وضجرت فضاءات الفكر من سؤال القلب عنك

فتنام الروح بين أحضان أيامك.. وتصحو العيون على ذكر طيفك وهو يرفرف بين الأجفان.. واسمك يطلق أنغامه على ضفاف الشفاه، حبيبتي.. عندما أضع رأسي فوق وسادتي تقفزين أمامي كطير كنار مغرد في لحظات عذابي.. ويطل وجهك من شرفة الغياب.. أعانقه أضمه إلى حنايا روحي أتشبث به كالمحتضر عندما يتشبث بلحظات حياته الأخيرة.

ميرفت إنني أناشد الصبر أن يرحمني.. ويسكن في نفسي.. فيأبى لأنه عجز عن صبري.. أتوسل للأيام أن تمدني بالقوة.. فأجدها أضعف من ضعفي.. أستجدي القدر أن ينصفني.. ويعيدك إلي.. فيصد عني.. ويبتعد كي لا تحرقه نيران قلبي فأهرب إلى خيال الفكر فينساب طيفك.. كشعاع النور وشمس تسطع في ظلمة أيامي ينتشلني من أنياب الفراق الذي امتص رحيق أيامي.. وقتل الفرحة من فوق صفحات وجهي واختطف البسمة من شفتي..

ميرفت إنك تقفزين من بين دفات كتابي تسطرك ريشة قلمي.. تبثك قصيدة شعر لعشق أمومتي.. آه يا غالية.. تمضي أيامي.. يضيع العمر.. تموت الروح.. يبكي الناي.. يحترق الورد من قسوة بعدك.. يبكيك قلبي.. تفتقدك روحي.

ميرفت.. يا نبضة قلبي.. وأنين نفسي. وقيثارة فرحتي.. فبعد غيابك يا صغيرتي.. ذبلت زهور حديقتي، ماتت أوراق الياسمين.. ميرفت.. هل أبوح للزمن أم لزاوية غرفتك.. أم لخصلات شعرك الغجري.. أم لشوق قلبي عن عمق حزني ولهفة روحي لرؤيتك، ميرفت.. يا عبق الحياة ويا قصيدة شعر في وجدان عاشق.. إنك جرح في عمق أيامي.. فتتوجع ليالي الحزينة.. تجتاحني رطوبة الحياة.. دون حرارة قربك. ميرفت.. يا زهرتي الجميلة.. إنك ما زلت طفلة تعيشين في أحشائي.. فكيف سارت بك الأيام وأصبحت أميرة شرقية يرقص لها القلب وتعانقها الروح ويترنم بها الناي.. ميرفت.. إن دموعك توجع روحي تمزق فؤادي تغتال الفرحة..

تميت ضحكة السماء.. تسير في جنازة الأمل.. حبيبتي: هل أكون يوماً قطرة ماء تطفئ نار حريقك.. هل أغدو قطعة إسفنجة أمتص نهر دموعك.. هل تمن عليّ الأيام وتحول آلامك إلى قلبي.. هل عمري يساوي ثمن ضحكة أزرعها على ثغرك ولحظة سعادة أدخلها إلى قلبك.. آه حبيبتي.. لست أدري كيف امتدت إصابع الزمن ونشبت حريقاً في حديقتي.. فهل تظنين يا حبيبتي بأن القدر سوف ينصفني يوماً ويعيدنا كما كنا ويجمعنا ويخلصني من هذا العذاب..؟ لست أدري والآن من هنا من غربتي من صحراء السعودية لا أجد سوى هذه السطور أهديها لك إلى ربيع عمرك وجبال وهضاب سورية الحبيبة.. جبلها قاسيون ونبعها بردى الذي عذفه صوت فيروز ونقشه التاريخ على جدران وجداننا.

وليدة

الفصل الأول

لسكان هذه القرية هبة الطبيعة من العفوية والعفة والجمال، عناب هذه القرية الغافية بين أحضان الطبيعة، تنام على الأحلام الوردية مع المسار الهادئ وتصحو على تدفق الينابيع، وزقزقة العصافير وخرير مياه الجداول التي تنساب بين الأعشاب وتتعانق مع بعضها كما يتعانق الحبيبان بعد طول غياب، لترسم بذلك أجمل لوحة يكللها قوس قزح.

في هذا الجو الخلاب ولدت سهير، أتت كنبتة بحرية تعشق الشواطئ والرمال، تلهو حلو الجداول، تركض بقدميها الصغيرتين لتترك خلفها بصمة تجعل الإنسان يتعلق بالأرض ويعشقها.

عاشت سهير في أحضان هذه الأسرة التي تكالب الفقر عليها، كذئب مفترس أدرك قطيعاً من الغنم دون راع فراح يختال ذات اليمين وذات الشمال.

هذه الأسرة التي نهش الفقر لحمها كانت تبحث عن لقمة عيشها من مخلفات حقلها الصغير الذي لم يكن يفي بالحاجة، ما بين سداد أجارها وتأمين ما يسد رمقها من ضروريات الحياة وفي ظل قسوة الأيام هذه ترعرعت سهير وشبت.. فكان بنيانها شبه ممزق حيث القسوة المرة وحلاوة الطبيعة التي تعيشها.. فلا تدري كيف تتخلص من العبء الذي وضع على ظهرها من جراء تمسكهم بتلك العادات والتقاليد التي صارت جزءاً من كيانها، فكانت أشبه بالوردة الفريدة التي التفت حولها اللؤلؤة فتحلت بصورتها ولم تتمكن من الدفاع عن نفسها، ولم تعط حتى حرية البوح وذلك لوجود قاض ظالم متمثل بما جرت عليه العادات والتقاليد الخرافية التي ما أنزل الله بها من سلطان أو ناموس.

لهذا أتت ثورتها وتمردها على الواقع من أعماقها، وما أحلامها إلا أشياء خرافية تهرب معها من الواقع الذي تعيشه، وهي منزوية في ركن من أركان الغرفة التي تجمع العائلة كلها، حيث كانت تعيش في بيت من الطين كسائر بيوت القرية، لا رأي لها في هذا البيت ولا كلام إلا بما تؤمر به من عمل ـ إنها تعيش في

ظل حكم الحجاج.. في ظل العبودية.. فوالدها ذاك الرجل الفظ القاسي القلب الذي لا يستطيع أي فرد من أفراد العائلة التفاهم معه، فشتائمه كانت تعم الجميع بدون استثناء، أما زوجته فلم تكن أقل منه تخلفاً وجهلاً وقسوة على سهير، لأنها كانت تفرق بين الذكور والإناث، وهي متناقضة الطباع، فيها طيبة القلب، وفيها القسوة في المعاملة والمعاشرة، لكنها بجملتها كانت تشكل الطرف الآخر للحجاج وخاصة بالنسبة لسهير، وذلك لضعف تفكيرها وشدة تأثرها بالعادات والتقاليد البالية.

فهي لا تفهم من الحياة سوى العمل في المنزل والحقل، أما المشاجرات التي كانت تنشب بينها وبين زوجها، وما أكثرها، كانت تنعكس سلباً على سلوك الأولاد وتصرفاتهم وهذا ما يجعلهم يتطبعون بطباع الأب المتخلف الذي لا يسمح للحضارة بأن تدخل بيته بأي شكل من الأشكال، وفي هذه الأجواء السامة التي تلف الجميع، حيث الفقر والحرمان والقسوة في المعاملة، كان قلب سهير يمتلئ بالكراهية لأهلها وبيئتها والقدر الذي جعلها ابنة هذه الأسرة، فراحت تعاتب الأيام قائلة. لم أعد أعرف إن كنت عادلة أم ظالمة أيتها الأيام؟ وأنت أيها الليل لم تسدل الستار بيني وبينك؟..

وهكذا تمر الأيام وتمضي السنون بين تلك الأطلال فتصبح سهير ابنتهم في الثالثة عشر وأخذت العيون تلاحقها لفرط جمالها وصارت أحاديث النسوة اللواتي يبحثن عن فتيات يخطبهن لأولادهن. وفي نهاية المطاف يكون الحظ حليف ذاك الغريب الذي جاء إلى القرية مصادفة ليسمع عن جمال تلك الفتاة.

ابنة ابراهيم الناصر، من أقاربه الذي نزل عندهم، وقد طلب منهم الذهاب إلى بيت أبيها في الحال ليخطبوها له. وما أن عرضوا على أهلها أمر الخطوبة حتى وافقوا فوراً، لكونه يسكن في المدينة، وهذا ما يحلم به سكان القرى بأن يزوجوا بناتهم إلى أبناء المدن وقد نسو أو تناسوا بأن سهير مازالت طفلة وأنها ليست أهلاً للزواج.

أما عملية الخطوبة فكانت أشبه بقطعة أثاث اتفقوا على بيعها وسرعان ما حدد موعد الزفاف، فأقيمت حفلة عادية، كما تقضي بذلك الوقت عادات أهل

القرية وتقاليدها ثم استقل سيارة وطار بزوجته سهير إلى المدينة، حيث وجدت نفسها في غرفة واحدة مع رجل وقع على عقد ليصبح لها زوجاً.

جلست على مقعد قرب الباب وهي ترتجف من الخوف والخجل بينما بدأ مراد يخلع ملابسه وقبل أن ينته التفت إليها وقال:

ـ سهير تعالي تعالي إلى هنا لماذا جلست عند الباب؟ هل أنت خائفة مني؟

لم تجبه لكن مراد حين انتهي من خلع ملابسه تقدم منها وأمسك بيدها وقادها إلى السرير ثم قال لها:

ـ هيا اخلقي ملابسك.

فلم تنبس ببنت شفه، كان الخوف لا يزال مسيطراً عليها فترتجف كورقة في مهب الريح، وعندما رآها لا تلبي طلبه بدأ هو نفسه ينزع عنها ثيابها وحين تعذر عليه خلع فستانها الأبيض، قال لها بعصبية، هيا ساعديني على خلع فستانك..

حركت يديها وهي تنظر إليه مذعورة وما أن انتهي من خلع ملابسها حتى اقترب منها محاولاً ضمها إلى صدره فوجدها ترتجف.

قال لها: لماذا ترتجفي؟ هل تشعرين بالبرد؟

فأطرقت رأسها ولم تجب لأنها كانت في عالم آخر.. كانت تفكر بمصيرها، بما سيفعل بها، لقد شعرت في تلك اللحظة بكره شديد له وتمنت أن تنشق الأرض وتبتلعه، وتمنت لو أن يداً امتدت إليها وانتشلتها من بين يديه، فكرت أن تصرخ أو أن تهرب، ولكن من سيسمع صراخها، وإلى أين ستهرب؟، بقيت جامدة كتمثال وهي جالسة على حافة السرير، لم تستطع أن تنظر إليه ولا حتى أن تتكلم.

أما هو فلم يحس بها ولم يشفق لحالها، لم يفكر كيف سيتعامل مع هذه الطفلة. كل ما يفكر فيه هو اشباع شهوته من جسدها، لهذا لم يحاول تبديد الخوف من نفسها، بل كل ما فعله هو أن انقض عليها كانقضاض الوحش على فريسته وبدأ باغتصابها، أما هي فقد حاولت التخلص منه، حاولت المقاومة بيدين مرتجفتين وصوت مضطرب.

تقول له: ابتعد عني.. أتركني..

ولكنه لم يسمع كلامها وظل يعاركها، حتى ضعفت وانهارت، فلم تستطع الصمود أمام هذا الوحش المفترس واستسلمت له بعد أن أغمي عليها ولم تعد تشعر بشيء، وحين أفاقت من إغمائها عرفت أن كل شيء قد انتهى، شعرت في تلك اللحظة بكره شديد لمراد ولم تستطع النظر إليه، لقد ولد الكره في قلبها منذ تلك الليلة، منذ تلك الليلة تغيرت حياتها لأنه لم يحس بها، ولم يحسن التصرف معها، فقد كانت طفلة صغيرة لا تعرف شيء عن العلاقة بين الرجل والمرأة، ولا تعرف حتى أي شيء عن الأمور العاطفية، ولم يتصور عقلها الصغير أن هناك أموراً كهذه تحدث بين الرجل والمرأة وحين فاجأها مراد بهذه الأمور كرهته، وبدأت تخاف من وجوده معها في غرفة واحدة.

في اليوم التالي حضر المدعوون لتقديم التهاني للعروسين، فرحت سهير لوجود الضيوف واعتبرتها فرصة لتبتعد عن مراد ولو لفترة قصيرة، لكن فرحتها لم تدم، فما لبث أن انصرف المدعوون وبقيت ثانية مع مراد ليدعوها إلى غرفة النوم، لقد أحست بضيق في صدرها لكن صوت مراد وقع عليها كالصاعقة، فتبعته دون أن تتفوه بكلمة.

مضت خمس شهور على زواج سهير ومراد وكانت تعيش معه في جحيم وكرهها له يزداد يوماً بعد يوم إلى أن جاء حملها المبكر ليزيدها تعاسة وشقاءً لكنها لم تحاول التخلص من هذا الجنين الذي سيكون عبئاً عليها بل رضخت لواقعها رغم المشاجرات التي بدأت تحدث بينهما منذ الشهور الأولى من الزواج.

وعندما قامت بزيارة بيت أهلها طلبت من أمها أن تطلقها منه، لكن الأم رفضت طلبها، ولم تترك لها مجالاً لتنفيذ هذا الطلب، فكرت هي أكثر من مرة أن تهرب من البيت إلا أنها كانت تتراجع عن قرارها بمجرد أن تفكر بوليدها القادم.

وقبل ولادتها بشهر تشاجرت مع مراد مشاجرة قوية ضربها خلالها بشدة حتى تدفق الدم من فمها وأنفها، وما كادت المشاجرة تنتهي حتى قرع الباب فأسرع مراد إلى فتحه فإذا بوالدة سهير أمامه وجهاً لوجه، فقال لها بصوت مرتجف أهلاً وسهلاً، تفضلي، تفضلي، أهلاً بك.. ولكن لم هذا الارتباك. ماذا في الأمر يا مراد؟ لا شيء.. لا شيء..

فقالت له: كيف هذا وأنت على غير طبيعتك، هل تشاجرتما؟

وأسرعت إلى الداخل فوجدت سهير ملقاة على الكرسي والدم ينزف منها بغزارة فأخذت تصرخ وتولول بشدة وتقول: ما بك يا ابنتي؟، ماذا يا سهير؟ فأجابت سهير بصوت مخنوق: لا شيء لا شيء يا أمي اطمئني، ثم أغمي عليها فقالت أمها، كيف لا شيء وأنت على هذه الحالة، سهير.. سهير.. ابنتي.. وبدأت تصرخ بشدة ومراد لا يزال واقفاً محتاراً في أمره لا يدري ماذا يفعل فقالت له: ماذا فعلت بها يا مجرم؟ ماذا فعلت بها يا سفاح؟ لقد قتلتها.. إنها لا تنطق.. إذهب وأحضر الإسعاف فوراً..

قال لها ـ حسناً حسناً.. سافعل..

أحضر سيارة أجرة وما هي إلا دقائق حتى نقلها إلى المستشفى ثم أدخلت إلى غرفة الإنعاش وبقيت الأم مع مراد في الخارج ينتظران وبعد نصف ساعة خرج الدكتور من غرفة الإنعاش فأسرعت أم سهير إليه قائلة: طمئني يا دكتور كيف حالها الآن؟

قال: إطمئني إنها بخير ولا داعي للقلق..

قالت: هل لي أن أرها: أريد أن أراها..

قال: ستريها ولكن بعد ساعة حتى ترتاح قليلاً..

بعد ساعة هذا كثير، قل الصراحة يا دكتور ما بها؟

قال: ألم أقل لك أنها بخير، صدقيني هي بخير، ولكن تحتاج لبعض الراحة، قضت المدة على مضض وهي ترتجف خوفاً وتفرك يدها وفجأ خرجت المرضة من غرفة سهير فتوجهت إليها مسرعة وسألتها:

ـ هل لي أن أدخل لأطمئن على ابنتي؟

قالت المرضة: نعم تفضلي.

دخلت الأم إلى ابنتها مسرعة والدموع تنهال من عينيها بغزارة.

ـ هل أنت بخير يا ابنتي؟ ما أصابك؟ أخبريني أنا أمك،

أجابتها سهير بإعياء وبصوت ضعيف، لاشيء يا أمي قالت الأم:

ـ لا يا سهير، قولي لي الحقيقة يا ابنتي فأنا أمك..

قالت سهير: لقد ضربني مراد ضرباً شديداً.

قالت الأم: لماذا؟ لماذا فعل بك كل هذا؟ إنه وغد وحقير.

قالت: لا أعرف ولكنه عندما عاد من عمله كان منزعجاً وغاضباً، فقال لي أحضري لي الغداء إني جائع جداً، وكان الغداء غير جاهز بعد فانهال علي بالضرب والشتائم حتى جئت أنت ورأيتني على تلك الصورة، إني لم أعد أحتمل يا أمي أرجوك انتشليني من هذا العذاب.

قالت الأم: اصبري يا ابنتي، ستلدين بعد شهر وأنت مجبرة على العيش معه لأن الطفل القادم سيكون الرابط بينكما ولا يمكن تجاهله فيكف ستتركينه؟

- ولكن

فقالت الأم: عليك بالصبر لعل الله يوفق بينكما وتعودان إلى حياة هادئة كسائر الأزواج..

- قالت سهير: إنني لا أشكو لك حتى تغدقي علي النصائح، ألا تجدين لي حلاً لهذه المعضلة؟

فأجابتها الأم برقة وحنان وهي تداعب شعرها:

- لا تكوني شديدة الحساسية فكل الرجال هكذا، فالرجال ليس أباً ولا أماً ثم أن أباك لا يزال يشتمني ويضربني حتى الآن.

قالت سهير: ولكني لم أفعل ما يجعله يضربني كل هذا الضرب إنه لئيم حقود.

قالت الأم: يجب أن تلاطفيه في الحديث فالرجل يجب أن يسمع من زوجته كلاماً رقيقاً لطيفاً.

فردت عليها بعصبية: إنني لا أحبه يا أمي، إني أكرهه كرهاً شديداً، إنني لم أعد أحتمل شهوته إنه كالثور الهائج، لا يطاق لا يطاق، أرجوك يا أمي أتوسل إليك أن تنقذيني.

قالت الأم: بماذا تفكرين يا مجنونة؟ لعلك تفكرين بالطلاق.. لماذا؟ تعودين ثانية إلى المرارة والحرمان والنكد؟

فأجابتها بسخرية: وهل حياتي الآن أحسن حالاً من حياتكم؟ إنها تزداد جحيماً يوماً بعد يوم.

قالت لها بلطف: اعقلي، ماذا أصابك، إني أريدك أن تبعدي هذه الأفكار عن رأسك الصغير، إن الطلاق بالنسبة لك ضياع لمستقبلك.

فصمتت سهير لتدع لدموعها الكلام..

كانت سهير لا تزال صغيرة وساذجة بعض الشيء، لا تفهم الحياة بمعناها الحقيقي لأن تجاربها بالحياة قليلة لذلك كانت ترضخ لطلبات مراد وتنفذ كلام أمها، فلم تعد تشكو لها إلا القليل لأنها وجدت أن لا فائدة من ذلك.

بعد شهر من خروجها من المستشفى أنجبت طفلاً جميلاً كان شديد الشبه بأمه التي كانت آية في الجمال. فرحت كثيراً بطفلها الصغير الذي ملأ عليها الدنيا بهجة وسروراً. مضت سنين قليلة على زواجها وأنجبت خلالها طفلاً ثانياً فكان خطأ فادحاً بإنجابها طفلين، فكيف ستعيش هي وطفلاها في هذا الجو الكئيب المشحون بالتوتر والمليء بالمشاجرات إضافة إلى ذلك سوف تجبر على الرضوخ والاستمرار بالعيش مع مراد فقد كانت في الماضي ترضخ لأوامر أمها وحين تحررت من تلك السيطرة وغدت تستطيع الرفض لطلب أمها أصبح لديها أطفال، وهم كل شيء بالنسبة لها في هذه الدنيا، ولا تستطيع فراقهم ولو للحظات وكان مراد يتمادى في تعذيبها والإساءة لها بسبب وبدون سبب، ووصل بها الأمر إلى أن يتهمها بسرقة سوارها التي أخفاها حين سافرت إلى أهلها في القرية، لم تفكر سيهر بوماً بأن يصل الأمر به إلى هذا الحد من السفالة فيقدم على إخفاء سوارها واتهامها بها، لقد سافرت وتركت السوار في الحقيبة، وعندما سألتها أمها عما إذا كان مراد قد باع السوار نفت بشدة قائلة: لا يا أماه، مراد لم يبعه وإنما أنا نسيتها في الحقيبة وبعد أن عادت إلى بيتها لم يخطر في بالها أن تفقد السوار فأجابته بدون مبالاة أنها في الحقيبة، فنظر إليها نظرة تنذر بالشر وقال أنك كاذبة، قولي لي لمن أعطيت السوار؟

بهتت سهير من هذه الطريقة التي خاطبها بها وجمدت للحظات، مستغربة اتهامه هذا ولكنها أجابته قائلة: أنا لست كاذبة، قلت لك أنها في الحقيبة، ثم ما الداعي إلى الكذب.

قال لها بحدة، أنك أعطيتها إلى أحد وتريدين التمويه..

فأجابته بعصبية: من يكون هذا الشخص يا ترى؟

قال لها مراد: أهلك مثلاً..

فنظرت إليه نظرة احتقار وقالت له بغضب: أن أهلي ليسوا بحاجة إلى مالك كي أعطي لهم سواراً، ولم أفعل هذا من قبل حتى أفعله اليوم.

أجابها بوقاحة: إذا لم تعطيها إلى أهلك أرني السوار هيا أرني، أجابته بعد أن نفذ صبرها: قلت لك أنها في الحقيبة.

قال لها: وأنا أقول لك أنت كاذبة فهي ليست في الحقيبة.

نهضت دون أن تجيبه وسارت إلى حيث الحقيبة وتناولتها في عصبية من فوق الخزانة وجعلت تفتش فيها وحين انتهت من تفتيشها ولم تجد بها شيء صعقت ووقفت جامدة في مكانها جاحظة العينين من شدة دهشتها وظلت هكذا دقائق، وكأن صاعقة سقطت فوق رأسها غير أنها ما لبثت أن ضبطت أعصابها وتمالكت نفسها وجمعت أفكارها وجعلت تقول في نفسها لماذا يسأل عنها بهذه الطريقة؟ وكيف علم أنها ليست في الحقيبة؟ وأكد عدم وجودها، فكل هذا يدل على أنه هو الذي أخفاها ولكن ماذا يريد من وراء كل هذا؟ لست أدري ! وإنما الشيء المؤكد هو أنه لا أحد غيره أخفى السوار، ولا أحد يعلم أنها في الحقيبة سواه، فقد رآني حين وضعتها في الحقيبة ثم لم يقتحم بيتنا لص كي أقول ربما سرقت مع باقي الأغراض، وهنا استدارت نحوه ورمقته بنظرة حقد ممزوجة بالغضب والاحتقار، وقالت له، وكانت تتمنى لو استطاعت صفعه - بل لو استطاعت غرس أظافرها في عنقه لتمزقه إرباً إربا..

- مراد ما هذه اللعبة الجديدة التي تلعبها معي؟ هل انتهت جميع ألاعيبك ولم يبق لديك سوى الافتراءات؟

أجابها بغضب ماذا تعنين أيتها اللعينة؟

قالت له: أعني أنك أنت الذي أخفيتها، هذا ما توصلت إليه.. أما الشيء الذي لم أصل إليه هو ماذا تريد من وراء كل هذا.

فانفجر غاضباً ومزمجراً وانهال عليها ضرباً وشتماً وأنهى شتائمه قائلاً:

أتجرئين على اتهامي أيتها المرأة الساقطة المنحطة؟ أنك أعطيتها إلى من سلمته نفسك وتقولين أنا الذي أخذتها.. هيا أحضريها حالاً وإلا قطعتك إرباً إربا..

كان مراد يلفظ هذه الكلمات وكأنها هي فعلاً التي أخفتها.

فقالت له: من أين لي أن آتي بها وأنت الذي أخذتها؟

قال لها: هل عدت إلى هذا الكلام؟ ثم عاد يضربها وظل ينهال عليها ضرباً وهي منزوية بجانب الجدار لا تأتي بحركة حتى تعبت يداه، كان يضربها بقسوة ويتلفظ بعبارات لا تصدر إلا من المتشردين وأبناء الشوارع وكانت هذه الألفاظ تؤلمها أكثر من ضرب السوط الذي جلدها به..

وبعد يومين أظهر السوار وعندما سألته أين وجدها قال لها بكل وقاحة أنه هو الذي أخفاها أثناء غيابها، إنه لم يخجل منها ولم يخجل حتى من نفسه ومن الكلمات التي أمطرها بها..

فقالت له: لماذا إذاً اتهمتني بها طالما هي معك..؟

قال لها: لأنني كنت مغتاظاً منك فأخذتها ذريعة كي اشفي غليلي منك.

قالت له: إذاً أنت أخفيتها قصداً لكي تفتعل معي مشاجرة حين تكون مغتاظاً مني؟

قال لها: أجل..

لم تفاجأ بهذه الإجابة لأنها تعلم منذ البداية أنه هو الذي أخذ السوار متعمداً كي يبدأ معها المشاجرة عندما تهرب من سريره، وهي التي اعتادت على ذلك، فلم تقل له شيئاً سوى أن رمقته بنظرة ملؤها الحقد والاشمئزاز.

ـ مضت تحدث نفسها قائلة: أيها الحقير أيها الوغد لو كان عندك كرامة لما كنت قد أقمت على مثل هذا الفعل إنك أحقر إنسان رأيته في حياتي، وهكذا مضت ثلاث سنوات على حياتهم الزوجية دون أي تغيير ولم يطرأ شيء جديد ولكن كان لها مع القدر موعد جديد حيث عاد يلعب لعبته معها، وقلب حياتها رأساً على عقب.

ذات يوم جاء صاحب الغرفة وطلب من مراد إخلاءها معللاً أنه بحاجة إليها فبدأ مراد يبحث عن منزل ولم يطل به الأمر حتى وجد شقة في حي شعبي مؤلفة من

ثلاث غرف وصالون وأجرها بسيط حيث يتناسب مع وضعهم المادي وخلال يومين أخلوا الغرفة وسكنوا الشقة الجديدة ورتبوا أثاث بيتهم البسيط فيها.

أمضت يومين في هذا المنزل الجديد وهي مرتاحة، شعرت فيه بشيء من السعادة فهو منزل جميل ولا ينقصه سوى أثاث أنيق.

* * *

الفصل الثاني

بعد ثلاثة أيام من إقامتها في المنزل الجديد أتت الجارات وأقمن لها زيارة للتعارف فاستقبلتهن بترحاب وبهجة وأمضت معهن وقتاً جميلاً وممتعاً وكان من بين تلك الجارات طالبة في الصف الثالث الإعدادي، تقطن في الطابق العلوي فوق منزل سهير، فقامت صداقة بينهما بسرعة، ويعود ذلك إلى تقاربهما في السن، كان اسمها منى، وكانت جميلة جذابة هادئة، وراحت منى تتردد على بيت سهير بين حين وآخر.

وفي أحد الأيام بينما كانت منى جالسة مع سهير وكانتا مسترسلتين في الحديث سألت سهير قائلة إني لا أراك تخرجين من المنزل إلا نادراً ويكون خروجك من أجل قضاء حاجة للمنزل ألا تشعرين بضيق من مكوثك في البيت بهذا الشكل؟

أجابتها: كيف لا أشعر بالضيق.. ولكن ماذا أفعل؟

قالت لها: أليس لك صديقات؟ أخرجي إليهن.. وامض معهن بعض الوقت..

أجابتها سهير: الحقيقة يا منى أنا لا أعرف أحداً وليس لي أية صديقة فأنا كل وقتي أقضيه ما بين رعاية عمر وشريف وأعمال المنزل.

قالت لها: ولكن بإمكانك إقامة صداقات مع أي امرأة ترتاحين لها، فالحياة على هذا النمط مملة جداً..

فأجابتها: آه يا أختاه لو كان الأمر بيدي لكنت فعلت ذلك ولكن هناك زوجي لا يترك لي مجالاً لمثل هذه الأمور فهو يتحسس من اختلاطي بأية امرأة ويمنعني من الخروج من البيت..

أجابتها: ولكن لماذا..؟

قالت: لأنه يخاف أن تؤثر علي أية امرأة عندما أرى حياتها أفضل من حياتي، وأتفتح على الحياة عندما أعرف كيف يعيش الناس وكيف يعامل الأزواج زوجاتهم وبعد ذلك أتمرد عليه، لذا يمنعني من الاختلاط.

قالت لها منى: الله يكون في عونك، فزوجك هذا لا يحتمل.

أجابتها: ماذا أفعل فأنا أحتمله من أجل أطفالي.

قالت منى: ولكن هناك وسيلة أخرى تساعدك على قتل وقتك وهي المطالعة فهي مفيدة ومسلية. هل تحبين أن أجلب لك بعض الكتب، فأنا لدي مجموعة كتب لا بأس بها.

فتجهم وجه سهير وبان عليها الضيق ولم تجب.

فقالت منى: ما بك؟ لماذا تغير لونك ولم تجيبي؟ هل قلت شيئاً يسبب لك الضيق؟

أجابتها بمرارة لا يا أختاه إنك لم تقولي ما يزعجني ولكن أنا لدي ما يزعجني.

قالت منى: كيف لا أفهم؟

قالت: أنا لا أعرف القراءة والكتابة، لقد أخرجني أهلي من المدرسة وأنا في الصف الثالث، لم يدعوني حتى أكمل المرحلة الابتدائية، رأيت تعاسة أكثر من تعاستي؟.

احتارت منى بماذا تجيب خاصة وهي التي هاجت أشجانها نظرت إليها نظرة اعتذار وقالت لها: إني شديدة الأسف يا عزيزتي فأنا لم أقصد جرح مشاعرك، حيث أني لم أكن على علم بهذا الأمر صحيح نحن أصبحنا صديقتان ولكن لم نتطرق إلى مثل هذا الموضوع من قبل.

أجابتها سهير: لا عليك يا منى، فأنا قد اعتدت على ذلك.

قالت منى: ولكن بإمكانك تغيير وضعك هذا واصلاح ما أفسده أهلك.

أجابتها: لم أفهم ما تعنين.

قالت: أعني بإمكانك أن تعوضي ما فاتك من علم.

أجابتها: كيف؟

قالت منى: تعلمي الآن القراءة والكتابة.

أجابتها باستغراب: أتعلم الآن؟ كيف ذلك؟ هل أستطيع التعلم وأنا في هذا السن؟

قالت منى: وما الغرابة في ذلك؟

أجابتها سهير: أتقولين ما وجه الغرابة في ذلك؟ الغرابة أنـي امرأة تجـاوزت السادسة عشر من عمري ومتزوجـة وأيضـاً لـدي طفلـين فكيـف لـي أن أتعلـم حفـظ الأحرف وأستوعب الدروس؟

قالت منى؟ إني لا أرى غرابة في ذلك هناك أنـاس كـثيرون تعلمـوا وهـم أكـبر منك سناً فأنت ما تزالين طفلة فإن الفتيات اللواتي في مثل سنك لم يتزوجن بعد، أنا مثلاً عمري مثل عمرك وما زلت أدرس ولم أتزوج بعد.

أجابتها سهير: هذا صحيح ولكن أنت تعلمت وأنت صغيرة.

قالت منى: إذا لم تسمح لك الظروف وأنت صغيرة فهـذا لا يمنـع أن تتعلمـي الآن.

أجابتها سهير: حسناً ولكن من الذي سيعلمني؟

أجبتها بسرعة واندفاع: أنا مستعدة لتعليمك إذا أردت ذلك.

قالت: لها: وهل تظـنين أنـي لا أحـب أن أتعلـم؟ فأنـا أمنـيتي الوحيـدة في الحياة هي التعلم ولكن لا أصدق أني سأتعلم يوماً.

قالت لها: ولم لا تصدقين؟ فأنت ذكية ولديك إرادة قوية لا ينقصك شيء..

أجابتها سهير بخجل: أشكرك يا منى على هذا الإطراء.

وبعد يومين جلبت منى الكتـب وبـدأت بتعلـيم سـهير وكانـت سـهير تحفـظ الدروس بسرعة فائقة ومضت تتقدم في دروسها تقدماً ملحوظاً حتى جعلت منى تـثني عليها وتزداد اهتماماً بها.

تكفلت منى بجلب الكتب لها وكانـت تختـار لهـا قصصـاً جميلـة ومضـت في المطالعة فقرأت مجموعـة كتـب كـبيرة ثـم بـدأت تجـوب المكتبـات وتختـار الكتـب المتنوعة وأخذت تثقف نفسها بنفسها وفي هذه الفترة كان للقدر معها دور آخر حيـث رمـى في طريقهـا ذاك الوافـد الـذي يقطـن في الشـقة المجـاورة لشـقتها مـع زوجتـه وطفلتيه.

لقد التقيا لأول مرة أمام باب الشقة حيث كانت سهير عائدة مـن السـوق وهـو خارج من بيته، كان لقاءً عابراً حيث تابعت سهير صعودها السلم الذي لم يكن يبـق

منه سوى درجتين ففتحت باب شقتها ودخلت أما هو فقد تسمر في مكانه من شدة إعجابه بها فقد سحره جمالها الذي يدخل القلب بسرعة وفتن بسحرها وجاذبيتها التي تسحر القلوب من أول نظرة، ظل عدة دقائق متسمراً في مكانه بعد دخولها إلى شقتها وراح يحدث نفسه قائلاً: ما أروعها إن لها جمالاً يخلب الألباب، ولها عيون تخرق القلب كالسهم، ثم تابع طريقه وعندما عاد إلى بيته سأل زوجته قائلاً:

ـ فاديا: من تكون تلك المرأة الشقراء التي تدخل الشقة المجاورة؟

أجابته زوجته باهتمام قائلة: ألم تعلم أن الشقة قد أجرت وهذه هي المستأجرة الجديدة.

قال الزوج: نعم لقد علمت ذلك ولكن لم أر هذه الجارة إلا اليوم.

قالت الزوجة: إنك لم تراها لأنها لا تخرج إلا نادراً.

قال: وهل هي فتاة أم متزوجة؟

أجابته الزوجة مندفعة وكأنها تنقل إليه خبراً مهماً: إنها متزوجة ولها طفلان، فقد زرتها عدة مرات وهي أيضاً زارتني عندما كنت خارج البيت، إنك لا تعلم يا كمال كم هي امرأة طيبة القلب ولطيفة المعشر، ولا تسأل عن رقتها وبساطتها إنها متواضعة إلى أبعد حد، بينما كانت الزوجة تصف سهير لزوجها، كان الزوج شارد الفكر مع ذلك اللقاء العابر، ثم سألها من خلال شروده ماذا يعمل زوجها؟

قالت: إنه موظف بإحدى دوائر الدولة.

قال: ما اسمها:

أجابته: اسمها سهير عند هذا الحد توقف الحديث بين الزوجين أو بالأحرى توقف على هذا اللقاء العابر بين سهير وذلك الشاب ما يقارب ثلاثة أسابيع، كان كمال يتمنى أن يلتقي بها لقاء يتيح له فرصة الكلام معها، فهو رآها خلال الأسابيع الثلاثة الماضية مرتين ذلك من على بعد، ولم تطل أمنيته هذه حتى أصبحت حقيقية، لقد كان يصعد السلم مسرعاً عندما هبطت سهير من أعلى الدرج فاصطدم بها دون قصد فوقف مرتبكاً وقال لها:

إني شديد الأسف يا سيدتي على ما فعلت دون قصد مني.

رسمت على شفتيها ابتسامة جمعت فيها كل سحر العالم وقالت له: لا عليك يا سيدي لم يحدث شيء.

قال: إني أكرر أسفي يا سيدتي وأرجو أن لا أكون قد سببت لك إزعاجاً.

أجابته: والابتسامة الخجولة مرتسمة على ثغرها لا حاجة للأسف يا سيد.

أجابها بسرعة: أنا كمال رستم، وأقيم في الشقة المجاورة لشقتك، أظن أنك تعرفت على زوجتي فاديا، فهي قد كلمتني عنك كثيراً.

فقالت له سهير بلطف: وقد أخفت ابتسامتها بعض الشيء تشرفنا يا سيد كمال.

ثم استأذنت منه وتابعت سيرها بينما بقي هو واقفاً مكانه للحظات وهو يحدث نفسه قائلاً: يا إلهي ما أعذب صوتها وما ألطف كلماتها، وما أروع ابتسامتها، تلك التي تمس شغاف القلب، أما عيونها يا الهي، كم هما ساحرتان، ثم تابع طريقه، وبعد هذا اللقاء فكر كمال بطريقة تجعله على مقربة منها، فلم يجد سوى أن يقوم هو وزوجته بزيارة لها والتعرف على زوجها واقامة صداقة معه، وبذلك يضمن رؤيتها كلما أراد، ولم تمض عدة أيام حتى اصطحب زوجته وذهب لزيارة جاره العزيز، فاستقبله الجار بالترحاب وبعد يومين رد مراد له الزيارة مصطحباً سهير معه وبعدها تكررت الزيارات بينهم ولم يمض وقت قصير حتى أصبحوا أصدقاء أيضاً ربطت صداقة بين سهير وفاديا.

مضت خمسة أشهر على تلك الصداقة وما زالت سهير وفاديا تتبادلان الزيارات لأن الاثنتين قد أحبتا بعضهما كثيراً، وكانت سهير من خلال ترددها هذا تجتمع بكمال ويتحدثان في أمور كثيرة عن الحياة وعن المجتمعات وعن الحياة الزوجية، كان يدور بينهما مناقشات ومن خلال ذلك الاحتكاك عرف كمال عن سهير كل شيء، خلافها مع مراد والمشاحنات التي كانت تحدث بينهما، لقد أحبها، نعم أحبها من صميم قلبه، لقد أحب كل شيء فيها.

مضى يفكر فيها ليل نهار، ولكنه لم يتجرأ على الاعتراف لها بهذا الحب الذي يتعمق يوماً بعد يوم. أما سهير، فبعد أن كانت معجبة به، تحول هذا الإعجاب إلى حب وكانت تخفي حبها نظراً لوضعها فهي امرأة متزوجة ولها طفلان

ومنذ أن شعرت نحو كمال بالحب بدأت تخشى الجلوس معه وتقلل من التردد على بيته خوفاً من تعلقها به أكثر وخوفاً من حب يرفضه عقلها لأنه جاء متأخراً، فهي لن تعطي لقلبها مجالاً للتمادي بحب ليس من حقها ولا تريد لنفسها الضعف، فهي لا يمكن أن تسلك هذا الطريق الذي تجهل نهايته، ولا تدري إلى أين سيقودها ولن تكون زوجة خائنة حتى ولو مزقت قلبها بيدها.

هكذا كانت تحدث نفسها دائماً، فقد كانت تعيش في صراع قاتل، صراع قلبها الذي عرف الحب لأول مرة مع عقلها الذي يرفض الانسياق خلف العواطف.

ولكنها ما لبثت أن ضعفت أمام اعتراف كمال لها بحبه وإلحاحه عليها بأن تقبل حبه، حدث ذلك يوماً من أيام الربيع الجميلة، حيث ذهبت سهير في ذلك الصباح إلى فاديا لتناول فنجان قهوة معها، وعندما طرقت الباب فتح كمال الباب.

فابتسمت وهي تقول: صباح الخير.

أجابها: أهلاً سهير: تفضلي بالدخول.

سألته وهي ما زالت واقفة أمام الباب أين فاديا؟

أجابها متلعثماً بعض الشيء: انها هنا تفضلي.

دخلت دون أن يساورها أي شك.

أغلق كمال الباب خلفها وسار معها إلى الصالون وهو يرحب بها ثم دعاها للجلوس، فجلست على مقعد وجلس هو على مقعد أمامها، وراح كل منهما يحدق في الأرض، فخيم الصمت على المكان وكان كل منهما يفكر بشيء.

سهير كانت تفكر بتأخير فاديا، وبهذه الطريقة التي استقبلت بها، فهذه أول مرة تتأخر عليها فاديا، فقد بدأت الوساوس تتلاعب في رأسها.

وكمال كان يفكر بطريقة يبدأ بها الحديث معها، ولكن سهير قطعت عليه سلسلة أفكاره عندما سألته قائلة: كمال أين فاديا؟ إني لا أسمع لها صوتاً، فهذا ليس من عادتها فهي لم تتأخر عن استقبالي يوماً، لم هذا التأخير؟

أجابها من خلال شروده، إنها آتية بعد لحظات: ثم عاد إلى تفكيره وحديثه مع نفسه حيث كان يقول كيف سأبدأ معها الحديث؟ لقد كنت دائماً أنتظر مثل هذه الفرصة لكي أفصح لها عن كل ما في قلبي وعندما أتت تراني مرتبكاً، ثم يعود

ويقول ولكن ماذا سيكون ردها، هل سترفض حبي؟ وتحكم على قلبي بالعذاب؟ أم سترحب به وتسعد هذا القلب؟ ولكن أيقظه صوت سهير عندما قالت:

كمال لقد تأخرت فاديا، إذا كانت مشغولة إلى هذا الحد فسوف أذهب ثم أعود في وقت آخر وهمت بالنهوض لكن كمال أوقفها وهو يقول لها بصوت مضطرب.

سهير: أرجو أن تنتظري قليلاً هناك موضوع أريد مصارحتك به.

قالت له: فاديا أين هي؟

قال لها بخجل: الحقيقة أن فاديا ليست هنا، لقد سافرت إلى أهلها صباح هذا اليوم، فوجئت سهير بهذا الخبر واضطربت قليلاً، ثم سألته قائلة بقليل من الحدة: ولم أخفيت عني هذا الأمر، وأنا قد سألتك أكثر من مرة، ثم لماذا أدخلتني إلى بيتك طالما فاديا ليست هنا؟

قال لها: إني آسف على هذا التصرف يا سهير، وأرجو المعذرة، فأنا أعلم أني قد أخطأت، ولكن عذري هو أن هناك أمر مهم يجب أن أقوله لك.

قالت له: أي موضوع هذا الذي يجعلك تتصرف معي هكذا؟

قال لها: إني أكرر اعتذاري، وأرجو أن لا تفهميني خطأ، فأنا لم أقصد الإساءة لك.

قالت له: ماذا تقصد إذاً.

أجابها: قلت لك أن هناك موضوعاً يخصنا نحن الاثنين أريد أن أحدثك به وأرجو أن تسمعيني إلى النهاية.

قالت له: ولكني أراك تقريباً كل يوم فلماذا لم تقل لي شيئاً لماذا اخترت هذا الوقت بالذات؟

قال لها: لأن هذا الموضوع يحتاج إلى أن نكون وحدنا وهذا لم يحدث من قبل، فاضطربت سهير وبدأ قلبها يخفق من شدة الاضطراب، لأنها فهمت ماذا يقصد، فهو يريد أن يحدثها في موضوع طالما خشيت الخوض فيه، ولكنها تمالكت نفسها وتجاهلت قصده، وقالت له: حسناً.. قل ما تريد قله بسرعة وإيجاز لأني على عجلة من أمري.. صمت قليلاً، ثم قال لها: سهير إنني قد ترددت كثيراً قبل

أن أفاتحك بهذا الأمر، ولكني كنت أخشى رد الفعل عندك أن يكون سلبياً لذا أخفيت مشاعري طيلة هذا الوقت وعاهدت نفسي ألا أفاتحك بهذا الموضوع حتى أتأكد من مشاعرك نحوي، ولكني لم أعد أحتمل اخفاء هذا الحب الذي ألهب فؤادي، ثم تابع قائلاً سهير: لقد أعجبت بك منذ أول يوم رأيتك فيه وما لبث هذا الإعجاب أن تحول إلى حب جارف ملتهب، ملك علي مشاعري وجعلني أسيراً له، حتى بت لا أستطيع الصمود أمام تياره، وطالما عذبني هذا الحب، وخفت مصارحتك به خوفاً من رفضك له وتحطيم قلبي، ترددت كثيراً من أجل وضعنا أيضاً، وهو أنك متزوجة وأم وأنا كذلك، قاومت هذه المشاعر بكل ما أستطيع، تعذبت حتى ضاق العذاب من عذابي، كنت أجلس في منتصف الليل أصلي وأطلب من الله سبحانه أن ينسيني حبك، ويبعد طيفك الجميل عن خيالي ولكن دون جدوى فكان وجهك الفاتن لا يبرح خيالي وبسمتك العذبة الساحرة جاثمة أمام ناظري، كنت كلما دعوت ربي بأن ينسيني حبك أجده وقد ازداد تملكاً في قلبي وازددت تعلقاً في هواك أكثر من الماضي.

كانت سهير تستمع إليه وهي شاردة الفكر ينتابها مزيج من المشاعر، فقد اختلطت عليها السعادة بالحزن والفرحة بالاضطراب فهي لحظة تراها مندهشة مما تسمع ولحظة تراها لا تصدق، وهي تحدق به دون كلمة ولكنه اقترب منها ونظر إلى عيونها نظرة تفيض بالحب وقال لها: سهير إنني أحبك.. أحبك فارحميني، وأجيبيني بكلمة تريح قلبي قولي لي كلمة تريحني، لم هذا الصمت؟ سهير هل قبلت حبي؟ هل سترحبين لهذا الحب.. قولي نعم ولا تذكري الحواجز التي بيننا، فأنا أعرفها ولا حاجة لإعادة ذكرها..

ولكن سهير ظلت صامتة توزع نظراتها بيته وبين الأرض، فهي مضطربة ولا تدري بماذا تجيبه رغم حبها له، فهي تجد نفسها متحيرة بماذا تجيب أتعترف له هي أيضاً بحبها. أم تصده وتنهي الأمر؟.

ولكن أين تذهب بقلبها الذي يكاد يقفز من صدرها، وهي تسمع كلماته هذه فهو يعترف لها بحبه وهي لم تحلم يوماً بأن تسمع منه هذه الكلمات، رغم أنها

كانت تشعر بنظرات الإعجاب بها، لكنها لم تكن تتوقع أن يكون حبه لها بهذا القدر..

حاولت أن تقول له لا، أن ترفض ولكن غلب رفضها شعور الأنثى التي تفرح لسماعها كلمات الحب مهما كانت الظروف قاسية، فأخفت كلمة الرفض ونظرت إليه بعيون حزينة ورسمت على ثغرها ابتسامة حملت مرارة الحياة وقالت له:

ماذا تتوقع أن أجيبك؟ أقول لك إني أحبك؟ أأقول لك إني أرحب بهذا الحب؟ وما الفائدة يا كمال إذا كنت أحبك؟ وقد جاء هذا الحب متأخراً، لقد فات الأوان.

قال لا يا سهير لم يفت الأوان فالحب لا يعرف وقتاً مناسباً كي يأتي فالحب ليس له زمان ولا مكان، إنه كالمرض يأتي دون سابق انذار.

أجابته بمرارة والدموع تملأ عينيها: كمال نحن ليس من حقنا أن نحب.

أجابها قائلاً: سهير لا تعذبيني أكثر من ذلك.. نظرت إليه نظرة ضعف ممزوجة بالحب وقالت له، كمال أتظن أنك وحدك الذي تتعذب؟ أتظن أنك وحدك الذي يعاني إخفاء هذا الحب؟لا يا كمال لست أنت وحدك الذي سهر الليالي، أنا أيضاً تعذبت ومررت بما مررت به لأني أحبك كما تحبني ولن أقول لك كم قاومت هذا الحب وكم حاولت إبعاد تفكيري عنك، لا لن أقول لأنني مهما قلت لن أستطيع أن أصف لك وضعي، كنت أعيش في صراع قاتل ممزوجاً بالتمزق والضياع.

أجابها: وأنا أيضاً يا سهير كنت أعيش في نفس الصراع والتمزق ولكم قاومت عواطفي ولكنني لم أعد أستطيع الاستمرار والمقاومة.

أجابته قائلة: كمال حبنا هذا مستحيل لأن المجتمع والقانون والشرع يرفض هذا الحب، كيف.. كيف ينظر الناس إلينا وماذا سيقولون.. سينظرون إلينا نظرات احتقار ويعتبروننا خائنين، إنهم لا يرحمون يا كمال، لنبتعد عن بعضنا الآن وهذا أفضل لي ولك.

أجابها: ليقل الناس ما يحلوا لهم فنحن لسنا فاسقين ولا من هواة الرذيلة، نحن نحب بعضنا حباً طاهراً، لا يعرف الرذيلة فلو كان هذا ما نسعى إليه فعندنا ما يكفي، ثم أنا لدي زوجة وأنت لديك زوج ولا حاجة بنا إلى ذلك ولكن لا.. ليس هذا

ما نسعى إليه، إننا نحب فقط، ومن حقنا أن نحب والحب ليس محرماً إذا كان من أجل الحب فقط.

قالت له: كيف يا كمال، الناس لا يعرفون ذلك، ولا يفرقون بين هذا وذاك ولا يقتنعون بهذا الكلام، خاصة إذا كانت التي تحب امرأة متزوجة، فهم لا يرحمونها لأنهم يعتبرون الزوجة ليست ملك نفسها، أما الزوج فمن حقه أن يمتلك جسد الزوجة ويحاسبها عليه، قال، ولكن ليس من حقه أن يمتلك قلبها ويحاسبها على خفقاته، ولا يستطيع حبس روحها لأن القلب يخفق لمن يحب والروح تهيم وراء توأمها.

قالت له: وبعد ماذا تريدني أن أفعل لك يا كمال فقد اختلط علي الأمر ولم أعد أدري ماذا أفعل.

قال لها: افعلي ما يمليه عليك قلبك يا سهير، فيكفي أني أعرفك طاهرة عفيفة، ثم همس لها قائلاً: سهير هل حقاً تحبينني؟

أجابته: كمال ألم تر الحب في عيني؟ ألم تسمع الحب في نبرات صوتي؟ طبعاً أحبك.. ولو لم أكن أحبك لما رأيتني انتظرت لحظة، إني أحبك، أحب سماع صوتك، أحب أن لا أفارقك لحظة.

نظر في عينيها نظرة تفيض حباً صادقاً وقال لها: سهير إني أحبك لروحك، أحبك لطهارة عواطفك وعفة نفسك، أحب أن أنظر إلى هاتين العينين الساحرتين وأتمتع بجمال وجهك: أحب أن أغرق في بحر عينيك الصافيتين اللتين أجد فيهما الأمان، أحب فيك الرقة والشاعرية، لم أفكر قط في جسدك، لم أنظر إليك كمتعة جسدية إطلاقاً. فأنت أطهر وأسمى من هذا، لم أفكر يوماً أن أدنس حبك الطاهر وروحك النقية، فكل ما أتمناه وأصبو إليه هو أن أراك قريبة مني لأني لا أحتمل بعدك وأن تحبينني كما أحبك، فهمست سهير قائلة: وهل يخيل إليك أنك تحبني أكثر مما أحبك؟ لا يا كمال..

ثم قالت بشيء من المرارة: ولكن الناس يا كمال؟ قال لا يهم ما يفهمه الناس. المهم ما نفهمه نحن، فأنت تعيشين مع زوج لا تحبينه وتتعذبين معه، هل أحد من هذا المجتمع حاول مساعدتك؟ هل فكر أحد أن ينقذكم من مخالبه؟ حتى أقرب

الناس إليك؟ وهم أهلك لم يفعلوا شيئاً من أجلك.. إذاً ليس من حقهم التدخل في قلبك وينبغي أن لا تسمحي لهم بذلك.

فتنهدت تنهيدة حملت كل العذاب الذي في قلبها وقالت له: إنك محق يا كمال.. يجب أولاً أن يحاسب الناس أنفسهم قبل أن يحاسبوا الآخرين. فلم يُجب، ولم تزد عن ذلك، وخيم الصمت عليهما.

كان كل منهما يفكر بالكلمات التي قيلت.

ثم نهضت فجأة وقالت له: إني ذاهبة فقد تأخرت عن الأولاد، فأسرع بالنهوض وهو يقول لها: لم هذه العجلة؟ فلم يمض على مجيئك ساعة. أجابته: يجب أن أنصرف لأنني متعبة وأشعر بحاجة لأن أخلو بنفسي فأمسك يدها بلطف وطبع عليها قبلة ناعمة وهو يقول:

ـ حسناً.. كما ترغبين، ولكن يجب أن أراك غداً، نظرت إليه نظرة تحمل مزيجاً من المعاني وقالت:

ـ لست أدري إذا كنت سأراك أم لا..

أجابها وكأنه يتوسل سهير: يجب أن أراك.. أرجوك.. حاولي المجيء إلي ثم ثبت نظراته في عيونها وغرقا في نظرة طويلة حالمة حملت سهير إلى عالم آخر ثم امتدت يده تعانق أناملها، ما لبث أن رفع تلك اليد الناعمة مرة أخرى وطبع عليها عدة قبلات ولكن سهير أدركت نفسها فسحبت يدها بلطف وابتسمت له ابتسامتها الفاتنة وقالت له وداعاً: وهي تبتعد عنه.

فقال لها: بل إلى اللقاء، غداً يا حبيبتي. ثم سار خلفها إلى باب المنزل وعندما أصبحت في بيتها استلقت فوق السرير وأخذت تبكي بكاء مراً وكأنها اقترفت ذنباً لا يغفر وتريد غسله بدموعها.

ومضت تحدث نفسها قائلة: رباه ماذا أفعل فأنا تائهة لا أدري كيف أتصرف فأنا أحترق بين نارين، ماذا أفعل بهذا الحب الذي رميتني به؟ وأين أهرب من صرخات قلبي وثورته؟

وظلت هكذا طيلة ذلك اليوم. أما كمال فقد استلقى فوق سريره بعد خروجها وبدأ يستعيد ذلك اللقاء وما حمله من كلمات ونظرات جعلت قلبه يزداد التهاباً

وجعل يحلم بلقاء جديد..فهو يحبها بجنون ولا يحتمل البعد عنها وينتظر الغد بفارغ الصبر ويعد الدقائق واللحظات. لقد أخذ إجازة من عمله هذا الصباح بعد أن ذهبت زوجته إلى أهلها كي يجتمع بسهير، وفي اليوم الثاني استيقظت سهير باكراً ونهضت من سريرها لتقوم بأعمال المنزل. بعد أن انتهت منها جلست أمام المرآة وبدأت تضع المكياج على وجهها ثم ارتدت أجمل ثيابها ولا تدري لماذا فعلت هذا رغم أنها صممت على عدم الذهاب إليه. بعد أن انتهت من زينتها شعرت بشيء يدفعها للذهاب إلى كمال، ثم تعود وتقول: لا لن أذهب. لقد ترددت طويلاً.. ولكن في النهاية ذهبت.. ولم تر نفسها إلا وهي أمام بابه. وعندما طرقت الباب فتح لها وهو يرحب بها بحرارة وحين أصبحا في الصالون ظلا برهة واقفين مسترسلين في نظرة طويلة حالمة. ثم أمسك بيديها ورفعهما إلى فمه وطبع عليهما عدة قبلات، ثم عاد ينظر في عينيها وهو يقول لها: سهير إني أحبك.. بل أعبدك.. أطرقت رأسها إلى الأرض خجلة، فأمسك بذقنها ورفع وجهها إلى أعلى وقال لها: ما أجمل هاتين العنين، وهذه الابتسامة، إني لم أر قط جمالاً مكتملاً كجمالك.

أجابته: كمال ألا تلاحظ أنك تبالغ فيما تقول؟

فقال لها: أبالغ كيف ذلك؟ فأنا لم أقل نصف الحقيقة، لأني لو أردت وصفك كما أنت يجب أن أكون شاعراً ويلزمني كلام كثير.

فقاطعته قائلة: مهلاً.. مهلاً..؟ لقد انقلبت إلى شاعر.

أجابها قائلاً: ماذا أفعل يا حبيبتي؟ فحبك قد ذهب بعقلي، فأنا عندما أنظر في عينيك أشعر بأنني في عالم آخر، أشعر بحلاوة الحياة وجمال الطبيعة، فأنت حياتي، وروحي، والنور الذي يضيء أمامي الطريق، يا معبودتي الصغيرة إني أحبك أحبك ثم مد يده إلى وجهها يداعب الخدين القرمزيتين واليد الأخرى انسابت إلى خصلات شعرها، أما سهير فقد رفعت يدها أيضاً ووضعتها فوق يده.

وقالت له: كمال إني أحبك حباً فوق الوصف إني أشعر الآن وكأني ولدت من جديد.. لقد كانت حياتي قبل أن أراك تافهة ليس لها معنى ولا طعم، فالحب يا كمال أجمل ما في الحياة.

فقاطعها قائلاً بحرج: سهير.. تعالي نجلس لقد نسيت أن أدعوك للجلوس فتقدمت من أحد المقاعد وهي تضحك ثم جلس بجانبها وعادا لعبارات الحب وظلا ساعتين أمضياها على هذا النحو، بعد ذلك نهضت سهير وهمت بالخروج فاستوقفها كمال، قائلاً إلى أين؟ أجابته إلى بيتي.

قال لها: اجلسي قليلاً..

قالت له: يكفي هذا لقد مضى الوقت دون أن نشعر به.

قال: كما تريدين يا حبيبتي ثم شبك يده بيدها وسار بجانبها إلى باب الخروج وهناك وقفا خلف الباب قليلاً والتصق بها وطوق خصرها بين يديه وأطال النظر إليها وهو يقول:

- سهير سوف أشتاق إليك كثيراً سأمضي ما تبقى من هذا اليوم على مضض وعذاب، لأن بعدك عني ساعة أشعر وكأنها دهر.

أجابته: وأنا أيضاً يا حبيبي بت أعد الدقائق كي أراك..

فدنا منها وطبع على خدها قبلة خاطفة، وهو يقول: إني أحبك.. أحبك يا سهيرتي، فنظرت إليه نظرة عتاب وهي تضع يدها مكان القبلة وكأنها تخاف أن يراها أحد، فهي لم تكن متوقعة منه هذا ولم تكن مستعدة لها، لقد شعرت بأنها ارتكبت جريمة لأنها لم تتعود على هذا من قبل، فهذه أول قبلة في حياتها غير قبلات زوجها. أما كمال عندما رأى العذاب قد ظهر على ملامحها قال لها: سهير هل ضايقتك قبلتي كل هذا؟

أجابته بعتاب: كمال.. لم فعلت ذلك؟

قال لها: سهير.. لماذا تلومينني يا حبيبتي وكأني ارتكبت جريمة.

قالت له: بل هي خطيئة يا كمال.

قال لها: القبلة ليست خطيئة، فالقبلة رسالة بين قلبين يرسلها المحب إلى حبيبته كي يعبر من خلالها عن مدى حبه وشوقه.

أجابته قائلة: إن المرء عندما يخطئ يبدأ بأشياء صغيرة ثم يتلوها بأشياء أكبر، حتى يصل إلى درجة الانحدار، وأنا لا أرض بذلك يا كمال، لا أريد أن أصل إلى هذا المستوى لا.. لا.. لا يجوز أن أفعل شيئاً يسيء إلى كرامتي، قال لها: ومن

قال لك أني سأفعل ما يسيء إلى كرامتك؟ فأنا حريص مثلك يا حبيبتي على كرامتك وعلى القيم والأخلاق التي تتحلين بها، ولكن الله سبحانه لا يحرم علينا الحب، الحب الصادق، إنما الشيء المحرم هو أن ترتمي بين أحضان زوج لا تحبينه، وهو لا يحبك ولا تربط بينكما أية مشاعر عاطفية فليس أي زوج يحل له جسد زوجته يتمتع به كما يريد.. لأن الزواج ليس عقد قران واثنان شاهدان عليه فقط، فتصبح بعده الزوجة حلالاً له، لا يا حبيبتي، فالزواج هو رباط روحي وتفاهم واتفاق متبادل بين الطرفين.. قبل كل شيء.. الزواج حب ومشاعر ومن ثم يأتي دور العقد والشهود. أما إذا كان الزواج غير ذلك، إذاً كان مجرد عقد بيع وشراء دون موافقة أحد الطرفين، فهو زواج باطل وغير ومشروع، ومحرم عليه اغتصاب جسدها، ويصبح جريمة يجب المعاقبة عليها، هذا حرام يا سهير، هذه الجريمة التي ترتكب كل يوم بذريعة الزواج، سهير قولي لي يا حبيبتي.. أليست هذه هي الجريمة أو الخطيئة، كما أسميتها منذ قليل؟ لا تلومي نفسك يا حبيبتي من أجل شيء هو حقك فلزمت سهير الصمت ولم تجبه وحاولت الخروج ولكنه لم يدعها تخرج قائلاً: سهير.. لن أدعك تخرجين وأنت تشعرين بالضيق..

أجابته: لا أنا لست متضايقة فقط أردت أن أنبهك إلى أشياء أنا لا أرغبها تماماً.

قالت له: إذن دعني أخرج فأنا قد تأخرت كثيراً.

قال لها: لا لن أدعك تخرجين قبل أن أرى بسمتك العذبة، كي أطمئن إلى أنك لست متضايقة، نظرت إليه وهي تبتسم بفتنة ودلال، وقالت له: هل صدقت أني لست غاضبة؟ قال لها هكذا أريدك أن تكوني مبتسمة دائماً فلا أحب أن تختفي هذه الابتسامة الساحرة من ثغرك الجميل، أريدك أن تكوني دائماً سعيدة فرحة.

قالت له: أنا فعلاً أكون سعيدة عندما تكون أنت بقربي، ثم ودعته وانصرفت بعد هذا اللقاء ظلا يلتقيان كل يوم في شقة كمال ويتهامسان بأعذب وأرق كلمات الحب طيلة أسبوع، بعده عادت فاديا من زيارة أهلها ليمنع وجودها خلوتهما،

ولكنهما كانا يسترقان النظرات وكلمات الحب من وقت لآخر، حيث تكون فاديا مشغولة في المطبخ أو مع أطفالها.

لم تشعر فاديا بهذه العلاقة رغم كثرة تردد سهير عليها، أما من حيثالعلم فقد سارت به سهير شوطاً بعيداً حيث أن حبها لكمال زادها اهتماماً به، فهي تريد أن تكون على قدر كبير من العلم والمعرفة كي تكون جديرة بحب كمال وهذا ما حدث معها، لقد تفتح عقلها ونضج تفكيرها، واكتملت شخصيتها حيث غدت إنسانة أخرى، لقد تحولت من ضعيفة الشخصية إلى إنسانة ذكرية قوية الشخصية، تعرف ماذا تريد، واسعة العلم والمعرفة، لبقة، تفرض احترامها على الجميع، فيلسوفة في حديثها، لها أسلوب ممتع، ولساناً طليق فهي إذا تحدثت تجذب سامعها، وتحوز على إعجابه، وتقديره.

ومضت بالمطالعة حتى غدت الكتب كل شيء في حياتها كل هذا التغيير كان سببه العلم والحب معاً.

مضت الأيام تلتها السنون، أنجبت سهير خلالها طفلتين أسمتهما ريم وسمر، وأصبح عدد أطفالها أربعة، وراحت تفكر بالتوقف عن الانجاب..

واستطاعت إقناع مراد بضرورة ذلك، وجاء اقتناع مراد ليس من أجل سهير وإنما من اجله هو، فهو لا يحب الأطفال. وليس في استطاعته الانفاق على أطفاله الأربعة حتى تنجب له أكثر وفوق هذا وذاك فهو عصبي لا يحتمل تصرفات الأطفال المزعجة، أما من حيث المشاكل فقد ازدادت في السنوات الأخيرة بسبب التغيير الذي طرأ على حياة سهير حيث أن مراد لم يرض عن تعلم سهير ولا يريد لها ما وصلت إليه، فهو يريدها أن تبق كما كانت لا تفهم من الحياة شيئاً، فقد ضايقه حالها الجديد، وازدادت بينهما المسافة اتساعاً ومن الصعب أن يلتقيا.

أما كمال فقد كان عكس مراد لقد ازداد إعجابه بها وبذكائها الخارق، وكان يشجعها على المضي في هذا الطريق.

وكانت سهير تفرح كثيراً بإطراء كمال وتشجيعه لها. ومضت الشهور والسنون وهي مستمرة بعلاقتها مع كمال فهما يريان بعضهما كل يوم ويبثان حبهما نظرات ملتهبة، وهمسات لا تكاد تسمع، وكانت دائماً فاديا ثالثهم فحتى النظرات تلك

كانا لا يستطيعان فعله أن يسترقا النظرات ولمسات اليد، حين تكون فاديا في المطبخ تعد الشاي، وكانا سعيدين بذلك ولو أنهما كانا يتعذبان من هذا الحصار الذي يحيط بهما فهما يشعران في بعض الأحيان أنهما بحاجة لساعة يختليان بها مع بعضهما فكلاهما لديه كلام كثير يريد أن يقوله للآخر.

كانت سهير تتمنى لو تستطيع أن تضع رأسها فوق صدر كمال وتغفو على أنغام قلبه، وكانت تتخيل وهي مرتمية بين ذراعيه، يداعب خلات شعرها بيد ويتحسس وجهها باليد الأخرى.

وتستعيد تلك القبلة اليتيمة التي تلقتها من شفتيه وكأنها همسة جميلة، وكانت تقول لنفسها لماذا لا أقول له أني ضع حداً لهذا الوضع الذي نحن فيه، سوف أقول له أن يجد مكاناً نلتقي فيه فليس من المعقول أن نظل هكذا نسترق النظرات ثم تعود وتقول لا لن أقول له ذلك، ماذا سيقول عني، فبالتأكيد سوف يقول إني امرأة سيئة ولكن كمال انتشلها من هذه الفكرة وهذا التردد عندما كانت في زيارة لهم وحين خرجت فاديا من الغرفة استغل الفرصة وقال لها: سهير إني لم أعد أحتمل هذا الوضع فنحن لا نرى بعضنا إلا في نظرات بعيدة، حتى هذه النظرات لا أجرؤ على إظهارها.

قالت: وأنا أيضاً يا كمال ولكن ليس باليد حيلة، فأنا ما عساي أن أفعل؟ فإنك تعلم أنني لا أستطيع إدخالك بيتي، ولا يوجد مكان آخر نجتمع فيه.

أجابها برقة وحنان، أنا لا ألومك يا حبيبتي وإنما اللوم على هذا القدر الذي يلعب بنا، فأنا أراك كل يوم ولا أستطيع الاقتراب منك حتى اسمك لا أستطيع لفظه دون لقب، إني أتعذب يا سهير أتعذب.

قالت له: وأنا أيضاً يا كمال أتعذب، فأنا في أحيان كثيرة تكاد تخرج من فمي كلمة حبيبي ولكني أخنقها في اللحظة الأخيرة، ولكن ماذا تفعل فهذا قدرنا ولا نستطيع الهروب منه.

أجابها وكأنه وجد شيئاً بعد طول بحث: اسمعي يا سهير هناك طريقة نستطيع بواسطتها الالتقاء.

قالت بلهفة: ما هي؟

قال: أن أرسل فاديا إلى بيت أهلها لمدة أسبوع، ثم آخذ أنا إجازة من عملي ونمضي هذا الأسبوع مع بعض يا حبيبتي.

قالت بفرح: إنها فكرة جيدة وسوف يكون هذا الأسبوع من أجمل أيام عمري، هنا توقف الحديث بينهما حيث دخلت فاديا الغرفة، بعد يومين سافرت فاديا إلى أهلها وكانت سهير تعلم بميعاد سفرها مسبقاً فما كان منها إلا أن وثبت إلى خزانتها واختارت فستاناً جميلاً ووضعت المكياج على وجهها،وتركت شعرها مسترسلاً على كتفيها، وصففت الغرة وجعلتها مفروشة على جبينها حتى عانقت الحاجبين واختارت الروج المناسب لبشرتها البيضاء وسكبت العطر ثم نظرت إلى نفسها في المرآة حتى تطمئن على أناقتها، وبعد أن انتهت من اللمسات الأخيرة عادت إلى المرآة وألقت آخر نظرة على نفسها فوجدتها في قمة الأناقة والجمال حينئذ خرجت إلى كمال حيث كان في انتظارها. وحين طرقت الباب فتح بسرعة، كأنه كان يقف خلفه، استقبلها والبسمة العريضة تملأ وجهه فدخلت وبسمتها الساحرة تسبقها وقالت له طاب صباحك أيها الحبيب.

أجابها ومازالت بسمته على شفتيه: صباح الورد والياسمين أيتها الحبيبة، كيف حالك اليوم؟ قالت إني بأحسن حال طالما أنت بجانبي.

أجابها وأنا أيضاً يا حبيبتي، فأنا لم أصدق أن الليل قد مضى وأتى الصباح كي أراك، ثم نظر إليها وكأنه تنبه لشيء لم يره من قبل وقال: يا إلهي.. كم أنت رائعة وأرفقها بصفرة موسيقية.

قالت له: ما الشيء الذي تغير بي؟

قال لها: لم يتغير بك شيء وإنما أراك الآن مفرطة في الأناقة مما زادك جمالاً إنك أجمل امرأة رأيتها في حياتي، وتفوقين نساء العالم أناقة رغم بساطة ملابسك، فأنت تبدين وكأنك تلبسين حلة من ذهب، لست أدري ما سر هذا المظهر الباهر، هل هو كامن في جمالك، أم سلامة ذوقك في اختيار الأزياء؟.

فاحمر وجهها خجلاً فطأطأت رأسها إلى الأرض ثم قالت بشيء من الخجل: فستاني هو الذي جعلني جميلة هكذا؟

قال: لا.. بل جمالك هو الذي جعل فستانك جميلاً ثم لـف خصرها بذراعـه وسار بها إلى الصالون.. وهناك جلسا على الأريكة، ووضع يديها في راحة يديه ورفع تلك اليدين الناعمتين إلى شفتيه وطبع عليها عدة قبلات أقرب من تنشق الـورد منهـا إلى القبل، وهو يقول سهير إني أحبك بل أعبدك، لكم أتمنى أيتها الحبيبة أن أبقـى العمر كله بقربك، فرفعت لـه عيـنين يفـيض بهـا الحـب، وقالـت لـه، كمـال أيهـا الحبيب ما أسعدني بحبك ولكم أنـا محظوظـة لأنـك أنـت حبيبي ومـا أجمـل هـذه الساعات التي أمضيها معك.. فأنا عمري لا يحتسب علي سوى هذه الساعات الـتي أكون فيها معـك فصـوتك يحمـل إلـي الأمـان وكلماتـك الرقيقـة تحمـل إلـي الـدفء والحنان وتجعلني كتلة من الحـب، كمـال إنـي أحبـك.. أحبـك.. وقـد ملـك حبـك قلبي، وأسر روحي فأنا لم أتصـور حيـاتي مـن غـيرك لأنـك أصبحت دنيـاي الـتي أحياها، والهواء الذي أستنشقه، فهل يستطيع المـرء أن يعـيش دون هـواء؟. وأنـا لم أعد أستطيع الحياة من غيرك، كانت تتكلم بصوت هامس وأنفاسها متلاحقة وكأنهـا تقبله بكلماتها فأحس بأنفاسها تكاد تحرقه وكلماتها تنعش روحه وتـدب في أوصـاله الحياة وتزيد الحب في قلبه لهيباً فطوقهـا بـين ذراعيـه وطبـق شـفتيه علـى شـفتيها ومضى في قبلة طويلة.

فوجئت سهير بهذه القبلة واحتارت كيف تتصرف، هل تبعده عنها أم تدعـه يقبلها؟ وتعوض حرمان سنين طويلة فهـي لم تكـن مسـتعدة لهـذه القبلـة فقـررت أن ترفض فهي لا تريد أن تمس حبها الطاهر، فحاولت أن تدفعه عنها وهـي تقـول لـه كمال: ماذا تفعل؟ كمال.. مـاذا تفعـل؟ كمـال.. أرجـوك دعنـا هكـذا دون قبـل، لا تدنس حبنا يا كمال.. ولكنها ما لبثـت أن استسـلمت لـه فعوضـت مـن خـلال هـذه القبلة حرمان السنين، ثم دفعته عنها برفق وهي تقول له كمال أرجـو أن لا تعـود إلى مثل هذا التصرف، وحاولت أن تظل محتفظة بطعم القبلة، هـذه القبلـة الـتي كانـت الأولى في حياتها، لقد شعرت بانتعاش غريـب يسـري في جميـع جسـمها، لم تشـعر بنفسها إلا على نظرات كمال وهي تخترق قلبها ثم جعل يطـوف بنظراتـه علـى كـل وجهها، أمضيا ساعة دون أن يشعر بمرورها، فهما لا يريان مـن الأشـياء إلا نظـرات

عيونهما، ولا يحسان إلا بنبضات قلبيهما التي تعلن تمردها على الزمن الذي يمر بسرعة حين يكونان مجتمعين وسخطهما على القدر الذي ينظر إليهما بسخرية.

تنبهت سهير إلى تأخرها رغم شعورها الذي يلح عليها بأن تتجاهل الزمن وقبل أن تنبه كمال إلى ذلك سألها هو قائلاً سهير كيف حالك هذه الأيام مع مراد؟

أجابته بحسرة أنها سيئة جداً فقد أصبح الفرق بيننا كبيراً والبعد بيننا ازداد اتساعاً فأنا لم أعد تلك الطفلة الصغيرة الساذجة البسيطة التي لا تدرك معنى الحياة، لقد كبرت وقد نضجت عقلياً وجسدياً وبت أفهم الحياة كما هي وهذا طبعاً لا يرضي مراد، فهو يريدني أن أبقى كما كنت حين تزوجني ويذكرني دائماً بأنني قروية وأنه ليس من حقي أن أتطلع إلى أعلى من ذلك، ليس من حقي العلم وليس من حقي أن أطمح إلى مركز محترم في المجتمع ويعتبر ما وصلت إليه هو شيء يعيب وتجاوز لحدودي، فأنا قروية جاهلة، يجب أن أبقى هكذا بهذه العقلية يعاملني كمال، فتخيل أنت عذابي معه، هذا بغض النظر عن السبب الأساسي وهو انعدام الحب والألفة بيننا.

قال لها: وما هوالشيء المعيب الذي أنت فعلتيه سوى أنك أصبحت إنسانة مثقفة واعية، يا إلهي كم هو متخلف وسيء الطباع إنه فعلاً لا يحتمل.

قالت له: وماذا أنتظر من إنسان كمراد فهو لا يعرف من الحياة سوى الطعام والنوم، لا يفكر بشيء، ألا ترى كيف غدا كالفيل؟فهو لا يختلط مع الناس ولا يطالع كتباً حتى آلة تسجيل لا يستمع إليها وإذا دخل البيت ووجدني أستمع إليها يصرخ في وجهي ويشتمني ثم يسرع إلى إيقافها.

قال كمال: تباً له.. من غبي ووقح، كيف يجرؤ على شتمك وهو لا يصلح أن يكون لك خادماً، ألا يشكر ربه على منحه إياك زوجة، فأناس كثيرون يحسدونه عليك وأنا أول الحاسدين، ألا يشكر ربه على أنك راضية به؟ كأن هذا الرجل لا ينظر إلى نفسه في المرآة ولا يرى ضخامة جسمه ورأسه المصلوع الذي لم يبق منه سوى الزوالف ومؤخرة الرأس وقد غزاه الشيب.

قالت له: فعلاً يا كمال.. إني أشعر بالقرف حين أنظر إليه.. أما حين يقترب مني أتمالك نفسي فترة عن التقيؤ.

قال لها: وكأنه تذكر شيئاً ـ ألا حقاً؟ كم هو يكبرك؟

قالت له: إنه يكبرني باثنتي عشر عاماً.

قال، وكأنه يحدث نفسه: أليس هذا ظلماً؟

فتنهدت بعمق ونهضت من مكانها واقتربت من النافذة ونظرت إلى الأنف البعيد وكأنها تتوسل إلى قوى هائلة مجهولة ـ لا أحد يدرك مداها، إنه قدري يا كمال.. وحظي السيء.. لست أدري لماذا أنا دون كل البشر؟ لهذا العذاب.

اقترب منها وربت على كتفها بحنان وقال لها: هوني عليك يا حبيبتي لا بد أن يأتي يوم ننتهي فيه من هذا العذاب.. فربنا لا يحب الظلم.

فاغتصبت ابتسامة وحاولت أن لا تحمل كل الحزن الذي في قلبها واستدارت نحوه وقالت له: لا أظن ذلك يا كمال لأني أنا والعذاب توأمان ولا يعيش أحدنا دون الآخر..

قال كمال محاولاً تغيير هذا الموضوع الذي كان هو سبب الخوض فيه وإيقاظ أشجانها، دعينا من هذا كله وتعالي أحكي لي ما تحلمين أن تصلين إليه فإبتسمت وحاولت أن تكون ابتسامتها طبيعية إلا أنها جاءت باهتة لا لون لها ولا حياة فيها وقالت له، لا وقت لذلك يا حبيبي لأني سأذهب فقد أدركنا الوقت.. قال لها: كما تريدين.

فسارت وسار بجانبها حتى وصلا باب الخروج، ووقفا خلفه وتعانقا عناقاً طويلاً، وكلما حاولت الإفلات منه عاد وجذبها إلى صدره بقوة وكأنه يخاف أن تخطفها منه يد خفية ويقول لها: سهير لا تبتعدي عني أيتها الحبيبة، ابقي إلى جواري.

قالت له وهي تطوق عنقه: ليتني أستطيع أن أبقى بقربك العمر كله، ليتني امضي عمري وأنا هكذا واضعة رأسي فوق صدرك، أسمع دقات قلبك.

قال وبنبرات صوته شيء من الشك: تستطيعين لو أردت.

أجابته باستغراب: كيف يا كمال؟ قال وهو مطأطئ رأسه وكأنه خجل مما يقوله: تطلبين الطلاق ثم نتزوج ونظل هكذا إلى الأبد.

ردت وفي عينيها الدهشة والعتاب: لن أستطيع فعل ذلك يا كمال، فأنا مقيدة ولا أستطيع الإفلات من قيدي.

قال بجرأة أكثر: لماذا لا تستطيعين وبماذا أنت مقيدة؟

قالت وكأنها تلومه على تجاهله لوضعها: ألا تعلم كيف أنا مقيدة يا كمال؟. فأنا مقيدة بقيد الأمومة، ولا أستطيع الحياة من غير أولادي، آه لو أنا أستطيع فعل ذلك لفعلته من زمن وتخلصت من هذا الشقاء الذي أنا فيه فأنا أحتمل كل هذا العذاب من أجلهم فهم حياتي التي أعيشها؟.

أجابها بشيء من الأسف: ما هو الحل إذن؟.

قالت بمرارة واستسلام: ليس هناك من حل سوى أن نعيش الواقع ونرضى بقدرنا مهما كان قاسياً.

قال: أنعيش حياتنا في عذاب وحرمان؟. ولوعة ونار تحرق قلوبنا؟.

قالت وهي تنظر إلى الآفاق إلى اللاشيء أن العذاب كتب علينا، بل ولد معنا، ولا نستطيع الهروب منه فهو يطاردنا أينما ذهبنا ويلازمنا كظلنا.

فوافقها كمال بإشارة من راسه وكأنه يستسلم لقضائه، وقد بين فيها الحكم ثم ضمها إلى صدره وكأنه يختبئ خلفها، أو كأنه يخبئها من شيء يطارده واستسلمت له برهة ثم تخلصت منه بلطف وهي تقول: وداعاً حبيبي.

فتحت سهير الباب وهمت بالخروج فقال لها: مع السلامة يا معبودتي الصغيرة، هكذا كان دائماً يناديها: بمعبودتي الصغيرة، وأصبحت داخل بيتها، دخلت غرفتها وجلست أمام المرآة وجعلت تنظر إلى نفسها وأطالت النظر وهي تتمتم بكلمات تائهة، كلمات رثاء لحالها، كانت ترثي هذا الجمال الطاغي الذي يتسلل إلى القلب فيعتلي منه على العرش دون منازع، وكانت تلعن تلك الساعة التي جمعتها بمراد، هذا الإنسان الذي تكرهه وتكره نفسها من أجله، فهي تمقت كل شيء فيه، هي تشتهي زوجاً يناسب سنها وسيماً، مثقفاً، واعياً، يعرف كيف يتعامل معها وأهم من كل ذلك أن تكون تحبه، هذه الأشياء كانت تطوف في خيالها وهي تنظر إلى نفسها في المرآة، وكانت الدموع تترقرق في مقلتيها ثم سقطت منها دمعتان على خديها فتركتهما تتدحرجان حتى استقرتا بين نهديها.

ظلت سهير تلتقي بكمال كل يوم طيلة غياب فاديا، وقبل عودتها بيوم كان لهما هذا اللقاء الذي كان مزيجاً من السعادة والحزن.. كانا ينطقان بكلمات وكأنها رثاء أو كأن ملاكاً من السماء قد هبط عليهما.. وأخبرهما بأنهما لن يلتقيا بعد الآن، وكأن هذا اللقاء سيكون آخر لقاءاتهما في هذا اليوم بالذات شعر كل منهما بانقباض وقلق لم يجدا له سبباً، كانت سهير تتزين بسرعة، تريد الإسراع لرؤية كمال وكان كمال أيضاً ينتظر على قلق وحيرة وكأنه يخاف أن لا تأتي، كانا يشعران بمرور الوقت ثقيلاً، بطيئاً وكأن كل لحظة منه تحولت إلى دهر، وأخير سمع كمال طرق الباب، فأسرع إلى فتحه ملهوفاً وكأنه يشك بقدوم سهير، وحين رآها ابتسم لها وهو يقول: أهلا بمعبودتي الصغيرة، فدخلت وهي تقول: أهلاً بك حبيبي.

وكانت بسمتها الساحرة تطوف فوق ثغرها الجميل، فأمسك بيدها ورفعها إلى فمه وجعل يمسح شفتيه براحة يدها، ثم سارا إلى الصالون وجلسا على الأريكة ثم راحا يتحدثان في أمور الحياة وبث عشقهم ثم قال لها: أن هذه الدنيا محيرة، يعجز الإنسان عن فهمها، فلحظة تجدينها حلوة جميلة، كل شيء فيها يرقص، يبتهج، وتارة أخرى تجدينها قاسية، معذبة، كل شيء فيها مقيت.

وقبل أن يتابع كلامه لاحظ شرودها ونظراتها، قلقة غير مستقرة، فسألها قائلاً: سهير ما بك أيتها الحبيبة؟ لم هذه النظرات التائهة؟ وهذا البريق الحزين داخل عينيك وهذه المسحة من الكآبة التي تغطي ملامح وجهك؟

فالتفتت إليه وقد ترقرقت دمعة داخل عينيها زادتها جمالاً وقالت: أني أفكر بقدَري يا حبيبي، وأيامنا الآتية، وما ستحمله لنا من مفاجآت، أفكر بحبنا الذي لم أجد له حلاً، لأنه حب بلا مستقبل، حب لا يرى النور وربما يختفي وهو لم يزل في المهد.

قال: ما هذا التشاؤم يا حبيبتي؟ ولم هذه الخواطر تراودك الآن؟ أجابته وفي حلقها نفس المرارة: لا أنا لست متشائمة يا كمال وهذه ليست أفكار سوداء تراودني، بل هي حقيقة، وأنا أفكر بها بموضوعية، فأنا عندما أراك اليوم أشعر أنني لن أراك غداً، إني أخاف الغد يا كمال، أخاف الفراق.

تمالك كمال نفسه خوفاً أن يفضحه ضعفه، فهو أيضاً يحس نفس ما تحسه سهير، ولكنه لا يجرؤ حتى على التفكير به.

وقال: سهير، لا تقولي هذا يا حبيبتي فنحن لن نفترق لن نفترق لن نفترق مهما كانت الظروف، من قال لك أننا سنفترق. ثم ما الذي جعلك تفكرين بالفراق؟.

أجابته وما زالت الدمعة تجول في عينيها لتزيدها فتنة وجمالاً:

ـ لأننا فعلاً سنفترق يوماً، أجل يا كمال، سيأتي هذا اليوم عاجلاً أم آجلاً، وترى قلوبنا وهي تحترق في نار ملتهبة، سيأتي هذا اليوم وتضرم النار في قلبينا حتى يصبحا رماداً. هذه هي الحقيقة، هذا هو الواقع يا كمال، إنه مر ومؤلم، ولكن علينا ألا ننساه، ممكن أن ننساه فترة ولكن يجب أن نعود ونتذكره.

قال كمال: والألم يعصر قلبه، إني أدرك ذلك يا سهير، ولكني لا أجرؤ على التفكير به، بل أحاول أن أنساه، أن أنسى كل شيء يبعدنا عن بعض، لأنني لا أستطيع أن أتخيل حياتي من دونك.

قالت له وقد سقطت دمعة من عينيها رغم ما بذلته من جهد كي لا تدعها تسقط: هذا قدرنا يا كمال، ولكنها عادت تعزي نفسها وتعزي كمال قائلة: ولكن حبنا أقوى من الفراق. فالفراق لن ينهي حبنا، وإنما سيظل هذا الحب خالداً خلوداً راسخاً في قلوبنا، وراسخ رسوخ قاسيون، سأبقى أحبك إلى آخر نبضة من نبضات قلبي، فإذا افترقنا بالجسد، ستبقى روحينا روحاً واحدة.

وصمتت لحظة وكأنها تنتظر حدوث شيء، ثم عادت إلى الكلام لتقول: كمال قل لي يا حبيبي إذا ما افترقنا يوماً هل ستبقى وفياً لحبي؟ هل ستبقى تذكرني وتذكر هذه السنين الجميلة التي أمضيناها؟.

أجابها والغصة تخنقه: سهير هل يخيل لك يا حبيبتي أني سوف أنساك يوماً مهما بعدت الأيام بيننا؟ لا يا حبيبتي، كمال لا يستطيع أن ينسى حبك النقي الأسطوري، فحبك سيبقى يسري في دمي، ورسمك الجميل سيبقى ماثلاً أمام ناظري في كل لحظة، وطيفك الغالي سوف يطاردني أينما ذهبت، وهذه الأيام الجميلة ستبقى مطبوعة في ذاكرتي حتى يتوقف هذا الرأس عن التفكير، فشعرت بالرعشة

والضعف وتلاشت بين همساته، فارتمت على صدره، وهي تبكي وكأنها فعلاً ستفارقه للتو..

فطوقها بين ذراعيه وراح يعصرها بقوة، ويمسح شعرها بشفتيه، ثم مد يدين مرتجفتين يتحسس بهما وجهها، ثم ارتفعت أنامله إلى شعرها وجعلت هذه الأنامل المرتعشة تعبث بخصلات شعرها الذهبي المسترسل على كتفيها، فكان تارة يرفع وجهها براحتي يديه وينظر في عينيها الدامعة طويلاً، ثم يطوف بنظرة في وجهها، وطوراً يضع رأسها على صدره ويعبث في شعرها، ثم يعصرها وكأنه يعصر الدنيا من خلالها.

وكانت سهير تفعل نفس الشيء، فقد كانت تطوق عنقه، وتمرغ وجهها في صدره وتتحسس وجهه في راحتي يديها، وكانت الدموع تنهمر من عينيها، فكان هذا اللقاء أقرب للوداع منه إلى اللقاء، فقد أمضيا تلك الساعات بكلمات الحزن والدموع، وكأنهما على مقربة من الفراق، لقد انطلقا بأشجانهما وكأنهما يرثيان نفسيهما أو كأنهما يهيئان قلبيهما لكارثة رهيبة مخيفة للحظة الفراق التي يتخيلانها آتية في وقت قريب، فمجرد التفكير قدْ فعل بهما كل ذلك، فكيف لو حدث هذا فعلاً؟ ماذا سيحل بهما؟ كانت هذه الخواطر تعذبهما وتصيبهما بالهلع، وبعد أن افترقا بساعتين عادت فاديا من السفر وبعودتها حكمت على الحبيبين بعدم اللقاء.

فكيف سيلتقيان ليس لهما سوى هذا البيت؟ الأماكن العامة لا يجرءان على الظهور فيها، رغم ذلك فقد كانا راضيين بما هما عليه، وقانعين بتلك النظرات المسترقة، واللمسات الخاطفة، لكن حتى هذا لم يدم لهما حيث افترقا بعد شهر من آخر لقاء.

حدث ذلك ذات يوم حين عاد كمال من عمله مقطب الحاجبين وعابس الوجه، حزيناً، وعندما رأته فاديا على هذه الحال سألته بخوف قائلة: ما بك يا كمال؟.

قال لها بصوت يكاد يكون همساً لقد تسلمت قرار نقلي إلى مدينة أخرى، وقع هذا الخبر على فاديا كالصاعقة، وشعرت بقلبها يغوص، فهي لا تريد النقل إلى

مكان آخر لأنها أحبت الحي الذي تقيم به وأحبت جميع الجيران، خاصة سهير فهي تتمنى أن لا تفارقها لحظة، لأنها أحبتها من كل أعماقها. لذا كان وقوع الخبر سيئاً عليها.

جلس كمال على الأريكة ووضع رأسه بين يديه، وكأنه يخفي دموعاً لا يريد أن تراها فاديا، وجلست فاديا قربه، وجعلت تندب حظها التعس في هذه اللحظات القاسية، وبينما هما على هذا الحال سمعا طرقات الباب، فنهضت فاديا بتكاسل تجر قدميها جراً وفتحت الباب وإذ بسهير تقف أمامها وبسمتها العذبة تسبقها.

ـ مساء الخير يا فاديا.

ـ أهلاً سهير، تفضلي.

صمتت سهير وهي تدخل خلف فاديا وبدأ التساؤل في عينيها، والحيرة في نفسها، صمتت فاديا ولم تزد على هذه الكلمة بشيء، فلم تحتمل سهير هذا البرود الذي تحسه في استقبال فاديا، وهذا الانزعاج الذي تراه على وجهها، فسألتها قائلة:

ـ فاديا مالي أراك على غير طبيعتك؟ ماذا عندك؟

ـ لا شيء.. لا شيء ...

قالت سهير: بل هناك شيء، فأنت على غير ما يرام يا عزيزتي.

قالت فاديا: وهي تتقدم نحو كمال، فعلاً إني على غير ما يرام.

قالت سهير: تكلمي.. قولي ما بك.. لقد أقلقتني.. ماذا حدث؟

فاديا: ماذا حدث؟ لقد حدث مصيبة يا سهير، أجل إنها مصيبة..

سهير: أية مصيبة هذه؟ تكلمي بسرعة.

ـ لقد نقلنا إلى مدينة أخرى يا سهير..

عندما سمعت سهير هذه الكلمة تجمدت ولم تستطع إلقاء التحية على كمال الذي أصبحت قربه، لقد جحظت عيناها، وارتجف كل عضو في جسمها، وتسمرت مكانها، وقالت، بعد أن صمتت برهة وبعد أن بذلت جهداً كي يخرج صوتها عادياً: ماذا قلت يا فاديا؟

قالت: أجل يا سهير، لقد نقلنا، أليست هذه مصيبة؟ إنني أفكر كيف سأستطيع فراقك بل عقلي قد توقف عن التفكير، ولكن سهير لم تسمع شيئاً مما قالته فاديا، وكأنه مطرقة تطرق في رأسها، كانت ترتجف وكأنها ورقة في مهب الريح، حتى شعرت برجليها لم تعودا تقويان على حملها، شعرت بجسمها يتراخى، ولم تلبث أن هوت على المقعد الذي كان خلفها وهي لا تصدق ما سمعت، لقد بذلت جهداً كبيراً كي تحتفظ باتزانها، وأن لا يخونها لسانها، وتصرخ وتتفوه بكلمات تفضح أمرها، فوضعت يديها على وجهها، كي تخفي دموعها التي تساقطت دون بكاء، وقالت بصوت مخنوق. مستحيل.. مستحيل يا فاديا.. إنك تمزحين ولا شك.. قولي أنك تمزحين..

قالت فاديا: بل أقول الصدق يا أختاه.. فلم تستطع سماع أكثر من ذلك فنهضت مسرعة وركضت وكأن ثعباناً قد لسعها، فقد شعرت بحاجتها للبكاء بصوت مرتفع أحست لو بقيت لحظة ثانية لانهارت وافتضح ما أخفته السنون.

أسرعت بالخروج إلى بيتها، دخلت غرفتها وارتمت فوق سريرها ثم راحت تبكي بصوت مرتفع، وتضرب على حافة السرير بقبضتيها وتئن وتتألم، فكان أنينها يخرج كحشرجة الموت، وتنقلب فوق السرير وكأنها فوق جمرة من النار تحرق جسدها ومن خلال دموعها وعذابها عادت بخيالها إلى السنين الماضية التي أمضتها مع حبيبها كمال، عادت إلى ذلك اليوم الذي تعرفت فيه على حبيب العمر، كيف ارتبك في ذلك اليوم حين اصطدم بها: وكيف تلعثم وهو يعتذر لها وكأنه تلميذ في المرحلة الابتدائية، عندما يخطئ في حل وظيفته، يرتبك أمام معلمه، ومضت تستعرض بخيالها تلك اللقاءات التي أمضت بها أجمل أيام العمر، والكلمات الحلوة التي كان يغدقها عليها، ثم انساقت خلف خيالها إلى تلك الجلسات الطويلة التي كان يمضيانها بوجود فاديا، والناقشات التي كانت تدور بينهما حول موضوع ما، لقد كانت في خيالها جميع اللقاءات التي التقتها بكمال، وكأنه شريط سينمائي يعرض أمامها، وعندما انتهت هذه المشاهد وعادت إلى نفسها، وضعت يديها على وجهها وصرخت لا.. لا.. مستحيل.. مستحيل أن يبعدنا القدر بعد أن جمعنا، مستحيل أن يتركني كمال وحيدة ويذهب، مستحيل أن يتركني للذكريات التي

تنهش روحي، كيف سأعيش في هذا المنزل بعده وأنا قد تعودت أن أراه كل يوم يمر من أمام شقتي؟ كيف أستطيع النظر إلى شقته وهو ليس فيها؟ كيف؟ كل شيء هنا يذكرني به رباه !! لماذا تعذبني كل هذا العذاب؟ رباه لماذا رميته في طريقي؟ وزرعت حُبه في قلبي طالما ستفرق بيننا؟ لماذا؟ هل فعلت ذلك كي تزيد في عذابي؟ ألا يكفي ما بي من هم وشقاء؟، رباه ارحمني من هذا العذاب وانتزع هذا الحب من قلبي، رباه ألهمني الصبر وساعدني على النسيان.

كانت تتكلم وكأنها تهذي من حمى أفقدتها الوعي، ومن حسن حظها كان زوجها غير موجود، وظلت تهذي وتتفوه بكلمات مبهمة كالمحموم.

أما كما عندما كان جالساً وواضعاً رأسه بين يديه، ودخلت سهير، ظل كما هو لم يرفع رأسه ولم ينطق بكلمة وكأنه لم يشعر بما يدور حوله، أو ربما يجرؤ على النظر إليها كي لا ترى دموعه وضعفه، أو ربما خاف لو نظر إليها أن يتلاشى أمام دموعها التي شعر بها دون أن يراها، فيهجم عليها ويضمها إلى صدره، ويمسح هذه الدموع الغالية على قلبه بشفتيه.

انتشلته فاديا من دموعه وعذابه، عندما قالت له، كمال لماذا لم تكلم سهير حين دخلت حتى لم تقل لها كلمة ترحيب، وكأنك غير موجود.

أجابها وهو ما زال يخفي وجهه بين يديه، وبعد أن بذل جهداً كي يخرج صوته طبيعياً، لأني متعب قليلاً، ولم أستطع الكلام.

قالت: إنك لم تر سهير يا كمال، وأنا أقول لها هذا الخبر، لقد نزل هذا الخبر فوق رأسها كالصاعقة، لقد تساقطت دموعها وخرجت كالمجنونة لا تلوي على شيء.

أجابها كمال بصوت مخنوق، هذا لأنها تحبك كثيراً فهي كانت تقضي معظم وقتها معك، لذلك يصعب عليها فراقك.

قالت بحزن: مسكينة سهير، إلى أين ستذهب بعد رحيلنا فهي لا تعرف غيرنا ولا تدخل إلى أي جار في الحي غيرنا.

فتركها ودخل غرفته دون أن يجيب لأنه أحس وكأنه يختنق، أما سهير التي ارتمت فوق السرير، وكأنها محمومة، فقد عاد مراد ووجدها نائمة على السرير في

وضع غير طبيعي، أو على الأصح هكذا خيل له، فاقترب منها وصاح عليها بصوت جاف، سهير هل أنت نائمة؟ اجلسي، فلم تسمع سهير صوته فمد يده وهزها بعنف صارخاً: اجلسي.. ماذا أصابك؟ لا أعود إلى البيت إلا وأجدك نائمة..

فنهضت مذعورة ونظرت إليه بعينين خاليتين من أي بريق، فقال لها: ما بك؟ ولم هذه النظرات؟

أجابته: بصوت مضطرب: ليس بي شيء..

قال: كيف ذلك؟ ألم تري وجهك الشاحب ونظراتك القلقة، تكلمي ما بك ماذا حدث؟

قالت: لم يحدث شيء سوى وكادت أن تنفجر في البكاء، ولكنها تمالكت نفسها وضبطت أعصابها بعض الشيء، وتابعت قائلة، لقد جاء نقل جارنا إلى بلد آخر، وسوف ترحل فاديا بعد أيام، فشعرت ببعض الضيق لفراقها، إنك تعلم كم أنا مولعة بها، ولا أدري ماذا سيحل بي بعدها..

قال مراد: كيف حدث ذلك؟ ومتى؟

أجابته باقتضاب: لست أدري، أرادت أن تنهي الحديث معه بهذا الجواب ولكنه أعاد عليها السؤال قائلاً: ومتى سيرحلون؟.

أجابته لست أدري بالضبط، فأنا لم أسألها، لم تترك له مجال الخوض في الحديث طويلاً، فأعصابها منهارة ولا تحتمل الأخذ والرد، وظلت صامتة، ورأسها بين يديها كي تخفي اضطرابها ودموعها، ولكن أيقظها مراد عندما قال لها: هيا انهضي وأعدي لنا العشاء..

نهضت دون أن تتفوه بكلمة وذهبت إلى المطبخ تعد الطعام وما أن انتهت من اعداده حتى جلسا حول المائدة، أخذ مراد يتناول الطعام وسهير تنظر إليه فسألها لماذا لا تأكلين؟

قالت: لست جائعة، فقد أكلت منذ قليل، كيف لسهير أن تأكل وقلبها ينزف، وبعد العشاء قال مراد: سهير تعالي لنسهر اليوم في بيت كمال..

قالت: انتظر قليلاً ريثما ينام الأولاد، وذهبا إلى بيت كمال بعد أن نام الأولاد فرحب كمال وزوجته بهما ودعوهما للجلوس في الصالون، وبعد أن جلسوا جميعاً

أخذ مراد يتحدث في أمور تافهة، فاديا تشاركه الحديث وتستمع إليه أما كمال وسهير فقد كانا في عالم آخر، لم يسمعا ولم يتحدثا سوى أن يجيبا باقتضاب على بعض الأسئلة التي توجه من قبل فاديا أو مراد، وأمضيا السهرة وهما صامتان تائهان وعيونهما تجول فيهما الدموع ونظراتهما مليئة بالحزن والألم.

وبعد انتهاء السهرة، عادت إلى بيتها لا لتنام، بل لتبدأ سهرة ممتدة حتى الفجر، تراقب جروحها وهي تنزف، وقلبها وهو يحتضر ويلفظ أنفاسه الأخيرة، لكم تألمت تلك الليلة، وكم ذرفت من دموع ولكن تعذبت، كانت تتقلب فوق السرير وكأنها تتقلب فوق نار ملتهبة، ولم يكن حال كمال بأحسن من حالها، بل كان يفوقها عذاباً، لقد انقضى الليل، وبزغت خيوط الفجر، وهما ما يزالا ساهرين ولم يغمض لهما جفن إلا والشمس قد عكست أشعتها الوردية، وفي الساعة الثامنة ذهب كمال إلى عمله وهو يترنح كالسكران وعندما عاد في المساء التقى بها على السلم فقال لها: سهير يجب أن أراك قبل الرحيل، ولا بد أن يكون لنا وداع أخير.

قالت: كيف سنلتقي وأين؟ ففاديا لا تفارق البيت ولو للحظة واحدة.

قال: ولكن هل أرحل دون أن أراك؟ ودون وداع؟ فربما يكون هذا آخر لقاء.

أجابته: إني أتمنى هذا يا كمال ولكن كيف وأين؟

قال: لدي فكرة ولكن لست متأكداً ـ إذا كنت توافقين عليها؟

قالت: ما هي قل؟

قال: لي صديق لديه شقة فارغة لا يشغلها أحد أستطيع أن أحصل منه على مفتاحها ـ ونتقابل هناك.

قالت بعد صمت: أين تقع هذه الشقة؟

قال: ليست بعيدة إنها في قلب المدينة

قالت: حسناً سنلتقي هناك، وأضافت هل أخاف وأنت معي؟

قال: إذن سنلتقي غداً صباحاً، فأنا سأذهب إلى مقر عملي صباحاً حيث أحصل على المهمة ثم ألحق بك إلى موقف الباص، فيجب أن تكوني هناك في تمام العاشرة.

قالت: حسناً سأكون هناك في الموعد المحدد.

وفي اليوم الثاني في تمام العاشرة كانت على موقف الباص تبحث بعينيها عن كمال الذي تأخر عنها خمس دقائق، ولكن قبل أن ينتابها القلق أقبل عليها مسرعاً وهو يركض، فحياها ثم قال لها: هيا اتبعيني، فتقدمت عدة خطوات، حيث أوقف سيارة أجرة، ألقيا نفسيهما فيها وانطلقا إلى حيث المنزل الذي ينتظرهما كي يخفيهما عن عيون الناس.. بعد دقائق عشر كانا في البيت، يجذبها من يدها ويدخل بها إلى الصالون، كان البيت صغيراً وهو مؤلف من غرفتين يفصل بينهما رواق، فرشت هذه الغرف بأثاث بسيط يتناسب وحياة رجل أعزب، كانت احدى الغرف مخصصة للنوم وفيها سرير وبجانبه خزانة قديمة، أما الغرفة الثانية فهي مخصصة للطعام، تحتوي على مائدة حولها عدة كراسي، أما الصالون فهو يحتوي على أريكة واحدة وعدة كراسي جلد تتوسطها مائدة فوقها مزهرية حديثة، منسقة بالورد، وفي احدى الزوايا وضعت آلة تسجيل وبقربها تلفيزيون صغير، أما المطبخ ففيه ثلاجة على رفوفها أنواع عدة من المرطبات وبعض الفواكه، وكأنها معدة لاستقبال العشاق، كان منظر الشقة لا يريح ولكنه أيضاً لا يثير الاشمئزاز.

كانت تلقي نظراتها وهي تجتاز الممر، كانت نظرات ليس لها أي معنى، فهي لم تعجب بشيء ولم تشمئز من شيء فهي لم تر سوى كمال وحزنها والأريكة التي جلست عليها بجانبه، وهما ينظران إلى بعضهما البعض وعيونهما مليئة بالدموع في جو يسوده صمت رهيب والألم يعصر قلبيهما بقسوة، والدقائق تمر بطيئة وكأنها جبال تتحرك، إنهما في حيرة من أمرهما، ماذا يقولان وكيف يبدأن الحديث، كأنهما يجتمعان لأول مرة.

وشعرت سهير بضيق شديد لأنها لم تعد تحتمل هذا الصمت الثقيل، فقالت له بنبرة حزينة وصوت خافت وكأنه همس: كمال كيف سترحل وتتركني وحيدة؟ كيف ستفعل هذا يا كمال؟.. كيف.. كيف.. هل هانت عليك سهير؟ هل هان عليك حبنا.. هل فكرت كيف سنعيش ونحن بعيدين عن بعض؟.. وكيف سأعيش أنا بالذات؟ وأنت قد تركت لي ذكريات في كل مكان؟ كيف سأستطيع النظر إلى بيتك كل يوم؟ وأنت لست فيه كيف أستطيع النظر إلى باب بيتك إلى السلم إلى كل شيء في الحي؟ قل بالله عليك كيف؟ أجابها كمال والغصة تخنقه.. سهير بالله عليك

ارحميني وارحمي نفسك فكلامك هذا يزيد في عذابي، بل ينزل علي كالسوط يلسع جسدي، أتقولين أنك هنت علي؟ كيف تهونين علي وهل تهون الروح على الإنسان، فأنت روحي، تقولين هان علي حبنا - كيف يهون علي حبنا؟ هل يستطيع المرء أن يعيش بلا أمل؟ فحبك هو الأمل الذي أعيش من أجله، أتظنين أني فرح بذلك؟ إني أتعذب يا حبيبتي، وربما يكون عذابي يفوق عذابك، ولكن ماذا أفعل؟ فليس باليد حيلة، والأمر ليس بيدي، فأنا موظف ويجب أن أتبع وظيفتي.

أجابته وكأنها تسلم أمرها إلى الله: الحق معك يا حبيبي، فأنت لا تستطيع عمل أي شيء، إني لا ألومك، وإنما ألوم هذا القدر القاسي الذي يأبى أن يدعني أهنأ طويلاً في هذه الدنيا الغادرة التي ليس لها أمان، واستطردت وكأنها تنذر نفسها وتهيئها لفعل شيء أكبر من طاقتها وأقوى من أن تصمد أمامه كأنها تقول لها استعدي لطعنة سكين يغمد بك إلى الأعماق مخلفاً وراءه جرحاً سيظل ينزف حتى يقضي على آخر قطرة من دمك.

أه كم سأتعذب وكم سأذرف من دموع أيها الحبيب، فإن الفراق قاتل، ولحظة الوداع مميتة..

نظر كمال إليها، وثبت نظراته على وجهها وكأنه يحتضنها وقال: سهير إني أحبك، وسيبقى حبك يسري في شرايين قلبي حتى آخر نبضة من نبضات هذا القلب، وستظل أوتار قلبي تعزف أحلى وأجمل لحن هو اسمك، لا تظنين أن الفراق سيبعد بيننا، لا أيتها الحبيبة، سأظل أذكرك دائماً عند شروق الشمس، وعند غيابها، وهي تحتضن الآفاق بأشعتها الوردية، سأذكر كل همسة حب همسنا بها، وكل نظرة شوق تبادلناها، وكل لحظة سعادة أمضيناها، لن ينساك كمال أيتها الحبيبة، لا لن ينسى حبك، واذكريني كما أذكرك، وتابع بصوت يتهدج: سهير أيتها الملاك لن أنساك ولن أهوى غيرك، مهما طالت سنين بعدنا، بل لن تنظر عيني قط لامرأة سواك، أرخت سهير أهدابها وكأنها ترخيها على حلم جميل لا تريد أن تصحو منه، ثم فتحت عيناها فإذا بالدموع تتساقط منهما، ثم ألقت نظرة عليه فيها مزيج من الحب والحزن وقالت له وكأنها تناجي طيفاً بعيداً عنها، قريباً من روحها، طيفاً حطمته الأقدار التي لا تعرف سوى التحطيم، كمال أيها الحبيب

الذي حبك غزا كل زاوية من قلبي، يـا مـن أحببتـه حـب بوسـع الكـون، كيـف لا أذكرك أيها الحبيب، وكل عمري لا يوجد فيه ما يستحق الذكر، سـوى حبـك، ولا يوجد في حياتي ما يستحق الوقوف أمامـه بـإجلال سـوى حبـك، فكيـف لـي أن لا أذكرك؟ فكل شيء في حيـاتي قبـل أن أحبـك كـان مظلمـاً، أمـا حبـك فهـو الشعاع المضيء في ظلمات حياتي، كيف أنساك؟ سوف أعيش على ذكرى حبـك، ثـم ألقت بنفسها فوق صـدره، وكأنهـا تحتمـي بـه وأجهشـت بالبكـاء، فضـمها بـين ذراعيـه وعصرها بقوة وكأنه يعتصر قطرات قلبه، ثم خفف الضغط قـليلاً وأبعـدها عـن صـدره بلطف ورفع وجهها براحة يديه وقال لها بصـوت متهـدج: سـهير إنـي لا أطيـق أن أرى الـدموع في عيونـك الـنجلاء، لا تبكـي يـا حبيـبتي، واسـتطرد وكأنـه يواسيها بمصيبة ألمت بها: سهير، هذا قدرنا ويجب أن نعيشه وعلينـا أن نقبـل بـه، ونحـن صابرون، هذا ما يفرضه علينا الواقع، هكذا كان يتكلم مـع سـهير وفي الوقـت نفسـه يكاد فؤاده يتمزق وقلبه يعتصر ألماً، كان يحاول بهذا أن يخفف عنها وطأة العذاب.

أجابته بصوت تخنقـه الغصـة: كيـف تطلـب مـني أن لا أبكـي؟ وأنـا أفـارق حبيب القلب، وتوأم الروح، لن أكف عن البكاء حتى تجف الدموع مـن مقلـتي، ثـم عادت وطوقت عنقه وراحت تمرغ وجهها في صدره فاحتضنها بيد وغرس أنامل يـده الأخرى بين خصلات شعرها، وجعل يعبث به وتلاشـت بـين ذراعيـه، هكـذا كـان وداعها مؤثراً، لقد بكيا حتى تقرحت عيونهما، وتكلما حتى خيل لهمـا أنـه لم يعـد هناك كلام، مضى الوقت دون أن يشعرا بمروره، حيث كان حب البقـاء يمتلـك كـل حواسهما ويشل تفكيرهما، فكانت يتمنيان أن يتوقف الزمن عن الجـري، وأن تكـف عقارب الساعة عن التك، هذا التك الناعم الذي تحول في اذنيهمـا إلى مطـارق تحطـم رأسيهما، ولكن الزمن لم يتوقف عن الجري، ولا الساعة كفت عن التك، وبهذا رأيـا نفسيهما مرغمين على الرضوخ للزمن.

نهضت سـهير واسـتعدت للخروج، فحـاول أن يسـتبقيها قلـيلاً ولكنهـا قالـت له: يجب أن أعود قبل عودة مراد.

قال كمال: معك حق، هيا بنا فأمسكها من يدها وسار بهـا إلى بـاب البيـت، وهناك كان لهما وقفة قصيرة، حيث تعانقا والدموع تسيل مـن العيـون، وكانـا كلمـا

أفلتا من بعضهما وابتعدا عادا وتعانقا من جديد، كان عناقاً صامتاً، وكانت العيون هي التي تتكلم بلغتها، والدموع هي التي تعبر عن اللوعة والأسى،وفي آخر مرة بعد أن طوقت عنقه وضعت رأسها فوق صدره وكأنها تحاول طبع دقات قلبه في ذاكرتها كي لا يمحوها مرور الزمن.

ثم أفلتت منه بلطف وتسللت يدها إلى قبضة الباب تريد فتحه، ثم التفتت إليه فوجدته مازال واقفاً في مكانه وهو ينظر إليها ويداه ممدودتان وكأنهما يرجواها أن تعود إليه، كادت أن تضعف وتعود وترتمي بين ذراعيه ولكنها تمالكت نفسها. ففتحت الباب بخفة وخرجت مسرعة وكأنها تهرب من حريق يكاد يلتهمها، أو من أمواج البحر العاتية، تريد أن تبتلعها، كانت تخاف ضعفها أمام نظراته المتوسلة والتي تقول لها ابقي بجانبي لا تتركيني وحيداً ويداه المدودتان التي ترجوها العودة والارتماء بينهما، وأخيراً عزمت على الهروب حتى توارت خلف الباب الذي أغلق خلفها وكمال مسمراً في مكانه، وهبطت السلم بسرعة حتى رأت نفسها في الشارع والدموع تحجب أمامها الرؤية فاضطرت أن تضع النظارة الشمسية على عينيها ثم استأجرت أول سيارة مرت أمامها وانطلقت بها عائدة إلى بيتها الذي تتمنى أن لا تعود إليه، أما كمال الذي ظل مسمراً في مكانه دقائق عدة بعد خروجها وهو يلوح لها بكلتا يديه ويتمتم بكلمات تكاد تكون همساً وكأنه يناجي نفسه وداعاً، يا أعز الناس، وداعاً يا من أحببتها حباً يفوق الخيال، ثم عاد إلى الغرفة بخطوات ثقيلة، حيث كانت سهير جالسة منذ لحظات وارتمى فوق الأريكة، راح يبكي بكاء مراً ولم يدرك خلالها نفسه إلا والساعة تشير إلى السادسة مساءً، فنهض من مكانه يجر قدميه وخرج من البيت الذي ودع فيه حياته عائداً إلى بيته، منهار الأعصاب، محطم النفس، تائه النظرات، وكأنه خرج من القبر للتو، وعندما فتح الباب ودخل، هرعت إليه فاديا تستقبله بشيء من القلق وسألته بلهفة قائلة له: كمال لماذا تأخرت هكذا، وأين كنت، لقد قلقت عليك كثيراً؟

أجابها بصوت مخنوق وحزين: لقد كنت عند أحد أصدقائي.

قالت له: ما بالك تبدو كأنك مريض، أو كأن هناك مصيبة قد وقعت؟

قال لها بصوت مازالت رنة الحزن فيه: لاشيء لا شيء.

قالت: ولكن لماذا وجهك شاحب اللون؟ وصوتك حزين؟

أجابها بصوت أجش، رغم ما بذله من جهد كي يخرج صوتاً طبيعياً: ليس بي شيء..

قالت: كيف ما بك شيء؟ وكل شيء فيك يقول أن هناك ما يضايقك؟

فرد عليها بعصبية وقد فقد اتزانه: قلت لك ما بي شيء وأرجو أن تتركيني وحدي قليلاً، لأني متعب وأريد أن أرتاح.

ثم دخل غرفته وأغلق الباب خلفه وكأنه يصفع هذا القدر الذي سلب منه أعز ما يملك وارتمى فوق السرير ومضى يفكر بسهير، ويستعيد الأيام السعيدة التي أمضاها معها، لقد تشخصت أمامه بكل ما فيها من سحر وجمال، واستعاد كل كلمة همست بها وكل نظرة تبادلاها، وظل هكذا طيلة الليل يستعيد ذكريات الماضي ويبكي الحاضر حتى بزغ الفجر دون أن يغمض له عين.

وفي اليوم التالي حزم أمتعة البيت واستأجر سيارة شحن وحمل هذه الأمتعة وعندما هم بالرحيل، دخل مع فاديا بيت سهير لوداعها، حيث كانت تنتقل بين الغرف وكأنها نحلة تزن في الخلية.

جلسوا عندها قليلاً، وكانت الجلسة حزينة وراحت العيون من خلالها تتبادل النظرات وهما تترقرق بالدموع والصمت الثقيل يخيم على الجميع واحتار كل منهما ماذا يقول كأن كل الكلام لم يعد فيه ما يناسب هذه اللحظات الحزينة.

وأخيراً استطاعت فاديا أن تخترق هذا الصمت الرهيب، وعندما قالت وكأنها تنعي جنازة إنسان غالي عليها، ما أتعسني يا سهير، وما أشقاني لفراقك، كم كنت أتمنى أن أبقى بقربك العمر كله، فرفعت سهير رأسها ونظرت إلى كمال نظرة سريعة وكأنها تقول له أن هذه الكلمات لك، ثم ثبتت عينيها الدامعتين في عيني فاديا وهمست بصوت يمزقه الحسرة، أنا لست بأحسن منك حالاً يا فاديا، بل أفوقك شقاء، وتعاسة، فأنا لم أعرف طعم السعادة إلا عندما سكنت قربكم، لم أعرف ذاتي إلا من خلالكم، لقد مضت علينا هذه السنون وكأنها يوم بل كانت حلماً جميلاً ليتني لم أستيقظ منه.

كان كمال يستمع إلى كلام سهير وهو صامت لا يستطيع الكلام رغم أنه يـدرك أن سهير توجه الكلام إليه.

وأخيراً نهض كمال وفاديا وتأهبا للرحيل واقتربت فاديا مـن سـهير وعانقتهـا وهي تقول: سهير لا تنسني يا أختاه، ولا تتأخري علي بالرسائل.

أجابتها سـهير: بالتأكيـد، سـوف أكتـب لكـم بعـد أن ترسلوا لـي عنـوانكم الجديد، ثم ودعتها فاديا واتجهت نحو الباب، أمـا كمـال وسـهير فراحـا يتبـادلان نظرات الحسرة والحرمان إلى أن تقدم كمال ومد يده ليصافحها ونسيا نفسيهما ونسيا فاديا التي كانت تقف بالباب وهي منهمكة في تقيل أطفال سهير.

وما هي إلا لحظات حتى أدركا نفسيهما فحاولت سهير سـحب يـدها بلطـف ولكن كمال ضغط على يدها برفـق وقـال لهـا: وداعـاً.. يـا (حـ) وكـاد أن يقـول يـا حبيبتي، ولكنه أدرك نفسه وابتلع الكلمة قبل أن تخرج وظل ينظر في عينيها. ولكـن سهير سحبت يدها وهي تقول لـه رافقتـك السـلامة يـا كمـال، ثـم لحقـت فاديـا إلى الباب بينما بقي هو واقفاً في مكانه فخرجت فاديا وهي تلوح بيدها لسهير، وقبـل أن يلحق بها كمال، مسك يدها ثانية وضغط عليها وهو يقول: وداعاً يـا حبيـبتي وداعـاً يا حبي الكبير، وأخيراً لفظ هـذه الكلمـة الـتي كـاد أن يحـرم منهـا، فـردت عليـه بصوت متهدج: رافقتك السلام يا أحب الناس، رافقتك السلامة يا مـن أحببـت. ثـم أفلت يديها وخرج وهو يلوح لها بيده. لحقت به إلى السلم وبقيت واقفـة وهـي تلـوح له بيدها حتى توارى عن ناظرها ثم دخلت بيتهـا بخطـوات ثقيلـة وأغلقـت خلفهـا الباب ووقفت وأسندت ظهرها إليه، وراحت تجول نظرها على الجدران وكأنها ترى هذا المكان لأول مرة، بل لم تره قط أو كأنها تودع نهاية عمرها. شعرت وكـأن الـدنيا قد خلت من الناس، ولم يبـق فيهـا غـير الوحـوش الـتي تقـترب منهـا تريـد تمزيـق جسدها. أحست بأن هذا البيـت قـد تحـول إلى مغـارة مظلمـة تـأوي إليهـا الأفـاعي والزواحف التي تزحف نحوها لتمتص دمها، وغدت كالمحمومة لا تدري ماذا تقول، ولا تعي من أمرها شيئاً تنطق بكلمات غير منسقة.

* * *

الفصل الثالث

في اليوم التالي من رحيل كمال انتابت سهير حمى ألزمتها الفراش طيلة عشرة أيام، تماثلت بعدها للشفاء جسدياً، ولكنها ظلت مريضة الروح حيث مر عليها شهر وهي منطوية على نفسها حزينة لا تخرج من البيت ولا تتكلم إلا إذا كان هناك ضرورة لذلك واختفت البسمة من فوق شفاهها وشحب لونها وذبلت نضارة وجهها، ففراق كمال حولها إلى إنسانة ثانية لا تمت إلى سهير بصلة، فهي لم تعد سهير المرحة المقبلة على الحياة التي تتدفق حيوية ونشاطاً، وإنما أصبحت دائمة الشرود تائهة الفكر، تعيش مع ذكرياتها الجميلة التي أصبحت كل شيء في حياتها.

لاحظ مراد هذا التغير في نفسية سهير، وسألها أكثر من مرة عن سبب ذلك وأحياناً يقلب السؤال إلى مشاجرة ولكنها كانت تقول له: أن تصرفاته هي السبب وأن أعصابها قد انهارت ولم تعد تحتمل ذلك، بعد شهر ونصف جاءتها رسالة من كمال فاستقبلتها بلهفة وشوق وراحت تقبلها وتعانقها وكأنها تعانق كمال، ثم شرعت في قراءتها، كانت الرسالة محملة بكل أنواع الحب ولهيب الشوق ونار الفراق الذي يكوي قلبه..

عندما انتهت سهير من تلاوة الرسالة، كانت قد ذرفت سيلاً من الدموع، فنهضت بعدها وجاءت بورقة وقلم وبدأت تخط له هذه الرسالة:

حبيبي كمال: نور عيني وروح قلبي، يا من ملكت قلبي بحبك وتربعت على عرش هذا القلب، يا من أسرت روحي في هواك وباتت هذه الروح هائمة في سماء حبك، كمال: أكتب إليك هذه السطور التي سقيت كل كلمة منها بدموعي، لقد رحلت أيها الحبيب وتركتني هنا مع الذكريات التي أصبحت دنياي الجديدة، لقد تركت لي في كل زاوية من هذا المكان ذكرى جميلة لا تنسى، فحين أكون جالسة في الصالون، أتخيلك جالساً أمامي وبسمتك الحلوة تطوف على ثغرك وأنت تحدثني، وعندما أخرج من البيت أتخيلك أمامي.

أتتذكر عندما التقينا لأول مرة ورأيت عينيك مغمضتين بالشوق، واللهفة، فكلما أنظر إلى بيتك أراك وأنت تضمني إلى صدرك وأسمع صوتك يناجيني بأعذب وأرق كلمات الحب، إني أراك أيها الحبيب في كل ركن من هذا الحي، أتنشقك مع كل نسمة هواء، أراك في كل وردة وعلى صفحات كل كتاب قرأته وأقرأه عن الحب، وأعيش معك بكل مشاعري مع كل كلمة تغني للحب.

كمال لا تسأل يا حبيبي ما فعله بي رحيلك، لا تسأل عن الدموع التي سكبتها وعن العذاب الذي أتحمله، لقد أصابتني حمى ألزمتني السرير عدة أيام، شفيت بعدها من الآلام الجسدية وبقيت جراح القلب تنزف والروح تائهة، هائمة في عالم الذكريات حيث تعيش على ذكرياتها الجميلة، إني أتخيلك أمامي وأنا أنظر إليك والحب يفيض من عيوني ثم أرتمي على صدرك الحنون، وأطوق عنقك بين يدي، كما كنت أفعل عند لقائنا، ولكن لا البث أن أصحو من حلمي هذا لأجد نفسي أعيش في عذاب لا يحتمل، ففراقك حطمني وأخذ مني الروح، أما شوقي إليك، فلن أستطيع وصفه، لأنه أكبر من أي وصف، فأنا أجلس دائماً على الشرفة أراقب الطيور المسافرة، لأسألها عنك، كمال: إنك تقول في رسالتك أن لا أنساك، كيف هذا يا حبيبي، وهل لي أن أنساك وأنت ساكن في أعماق روحي؟ فإذا انتزعت الروح فماذا يبقى من الجسد، فإني لن أقول لك لا تنساني لأني أعلم أنك لن تستطيع ذلك قط، أقول لك عد إلي، فأنا أنتظرك، مهما طالت السنون.

وأخيراً أرسل لك مع هذه السطور كل الحب الذي في قلبي وكل الشوق الذي في روحي، وألف قبلة لك من حبيبتك سهير.

بعد هذه الرسالة بدءا يتراسلان كل أسبوع وبدأت سهير تعود إلى طبيعتها تدريجياً، ولكن أبداً لم تجد ما يملأ الفراغ الذي خلفه كمال فهو قد ترك فراغاً كبيراً من الصعب أن يمليه أي شيء وكم عانت من الفراغ القاتل.

ولكن سهير ليست من النوع الذي يستسلم بسهولة، ويرضخ لمصائب القدر وإنما هي من النوع الصلب الذي ينهض بعد السقوط وهي أشد وأقوى عزيمة وأكثر تحدياً لتقلبات الحياة، وهذه المرة ككل مرة فقد عادت تفكر بالنهوض من جديد ولو أن في هذه المرة أخذت وقتاً أطول ولكن المهم أنها عادت تفكر بالنهوض من جديد،

ومضت تفكر بنوعية نهوضها فهي تريده هذه المرة أن يكون نهوضاً صلباً قوياً، أقوى من مصائبها، شيء يسد هذا الفراغ، وجعلت تبحث بفكرها ونفسها عن الشيء القوي الذي ستنهض به.

وأخيراً وجدته في العمل، فلا يوجد شيء أقوى من هذا الفراغ سوى العمل، فبالعمل وحده تستطيع مواجهة أشد المصائب وبه تستطيع تحدي القدر، وتلاعبه في حياتها، فلا يوجد متعة ألذ من متعة العمل، وليس للإنسان قيمة ولا معنى دون عمل، فالعمل هو الشيء العظيم في حياة الإنسان، فالإنسان دون عمل ليس له وجود، أياً كان نوع العمل، فكل إنسان له اختصاص في عمله، فهناك العامل، وهناك الطبيب، وهناك الكاتب، والفنان ... الخ.. ولا تقل أهمية أي منهم عن الآخر، فكل منهم يكمل الطرف الآخر.

تريد أن يكون لها قيمة: لها أهمية.

لها ميزة عن الآخرين، فهي لا تريد أن تعيش حياتها على الهامش، بلا معنى، ولكن يعود السؤال ليطرح نفسه وهو كيف وماذا ستعمل؟ وهي لا تحمل أي شهادة تؤهلها لأي عمل ثم هناك الشيء الأهم وهو مراد المتزمت الذي لا يحب عمل المرأة والذي يقف عقبة في طريقها، فهي تريد العمل كي تستقل عنه مادياً والاستقلال المادي هو العنصر الرئيسي.

فهل يسمح مراد بهذا وهو الذي يحاصر سهير من كل النواحي كي يظل مستعبدها، ولكن إذا أرادت الحرية فعليها أن تقاوم وتكافح كي تحصل على ما تريد، فرسمت خطة لإقناع مراد بضرورة العمل وقالت: إذا استطعت أخذ الموافقة منه على العمل أكون قد ربحت الجولة الأولى، ولكن قبل ذلك علي أولاً أن أحصل على تأهل العمل، وبدأت فعلاً بالبحث والسؤال وصارت تختلط بالناس كثيراً ولم تمض مدة وجيزة حتى أصبح لديها مجموعة من الصديقات المثقفات ولهن وظائف في الدولة، راحت تكثر من التردد عليهن فارتاحت كل الارتياح وشعرت بأنها تدخل عالماً جديداً.

عالم كان بالنسبة لها كالحلم تراه، ولا تستطيع لمسه، كان من بين هذي الصديقات واحدة اسمها " هدى ".

هدى عبد العزيز، أقرب الجميع إلى نفسها وأحبهن إلى قلبها، لما تتصف به من طيبة قلب وصدق مشاعر وما تبديه من إخلاص تجاه سهير.

كان عمر هدى يقارب عمر سهير وهي سمراء اللون ذات شعر خرنوبي، جمالها عادي ولكن لها جاذبية قوية، فهي تجذب الناظرين إليها منذ أول لحظة، أما طباعها فهي قريبة جداً من طباع سهير، وهذا ما جعل بينهما صداقة قوية، إضافة إلى ذلك كانت هدى موظفة في احدى المنظمات النسائية، وهي متحررة بمعنى الحرية الصحيحة، تحمل آراء وأفكار معاصرة، وتطرح قضايا المرأة ومعاناتها باستمرار، وفي كل اجتماع حزبي أو اجتماعات ثقافية أخرى.

والتقت هذه الأفكار مع بعضها، أفكار سهير وهدى، ووجدت كل واحدة منهما نصفها الآخر، وكثرت اللقاءات بينهما وتعددت الزيارات المتبادلة وارتاحت سهير كل ألارتياح لصداقة هدى وتعمقت بينهما المودة والصداقة إلى درجة جعلت كل منهما تبوح للأخرى بأدق تفاصيل حياتها، حتى أصبحت كل واحدة منهما تعرف كل شيء عن الأخرى.

كانت سهير هي الأكثر شكوى من وضعها، وكانت هدى هي المستمعة لشكاوي سهير لأن هدى لا يوجد لديها مشاكل عائلية تذكر، حيث أنها تزوجت عن حب وتفاهم وحسن اختيار لزوجها ونفس الشيء بالنسبة له، وكانت حياتها مستقرة، لذا كانت دائماً تستمع إلى شكاوي وتشاركها همومها وتحاول التخفيف عنها ومواساتها.

وكثيراً ما كانتا تجلسان سوية وتمضيان الساعات الطويلة، تتحدثان عن المرأة ومشاكلها مع الرجل ويطول بينهما النقاش وكانت سهير تبدي خوفاً وتذمراً من هدى لوضع المرأة، وأكثر ما كان يضايقها هو المجتمع، المجتمع ككل، حين يضيق الخناق حول عنق المرأة ويكبلها بسلاسل من حديد ويمنعها من التحرك فتلعن هذا المجتمع الظالم المتخلف الذي يعطي الحق والحرية للرجل في كل شيء ويحرم المرأة من أبسط حقوقها، كان هذا يعذب سهير ويحرمها لذة الحياة، وتتخبط في بحر أفكارها وكأنها غريقة في بحر أمواجه عالية، تقذفها موجة وتبتلعها الأخرى، كانت في صراع دائم ترفض الاستسلام ولا تقبل الذل، أحياناً تثور وتغضب وأحياناً أخرى

تعالج الأمور بتأن وحكمة حسب الموقف، شغلها هذا الأمر إلى درجة جعلها تتناسى حزنها على فراق كمال، وأخذ من تفكيرها الكثير فهذا الهدف الذي تسعى إليه هو عزاؤها الوحيد، هو الذي انتشلها من وحدتها وبؤسها، كانت ترردده دائماً أمام هدى، بل طلبت أكثر من مرة مساعدتها ورجتها أن تبحث لها عن عمل وكانت هدى توعدها خيراً قائلة: سوف أتدبر أمرك ولن يطول انتظارك أكثر من هذا.

وسهير تتوق شوقاً لقدوم ذلك اليوم الذي يحمل لها العمل. وجاء يوم كانت سهير جالسة في غرفتها تفكر بحياتها التي تشبه المعركة، بؤسها وشقائها اللذان استنفذا قدراتها، وبينما هي على هذا النحو من التفكير، وإذ بها تسمع طرقات على بابها المتواضع، فنهضت بكسل واتجهت إلى الباب لتفتحه، ولم تكد تفتحه حتى تسمرت مكانها للحظات دون كلام، ولم تلبث أن صرخت كمال.. هذا أنت يا حبيبي، وارتمت بين ذراعيه المدودتين لها منذ أن ودعها آخر وداع، عانقته وهي تقول له: أخيراً جئت يا حبيبي، بعد عذاب وغياب دام أكثر من عام.

أجابها: أجل جئت يا حبيبتي كي استمد من حبك العظيم القوة، جئت أشبع ناظري من رؤية عينيك الساحرتين، جئت أغمر روحي من حنان روحك ورقتها، لقد ذبت شوقاً لسماع صوتك، ثم جذبها إلى صدره وراح يعانقها بجنون، فتارة كان يضمها إلى صدره ويعصرها بقوة، وتارة يبعدها قليلاً ويتحسس وجهها، ومرة يغرس أنامله بين خصلات شعرها ويعبث به، ثم يعود ويجذبها إلى صدره وهو يقول لها: سهير كم حلمت بهذا اللقاء، وكم تشوقت إليه، إن شوقي إليك عظيم يا حبيبتي، ما أصاب كمال من جنون الشوق أصاب سهير..

حيث كانت تعانقه بلهفة وشوق وتحسس وجهه براحة يديها وتمد يديها الرقيقتين في شعره وتضع رأسها على صدره، وتصغي السمع إلى دقات قلبه والدموع تنهمر من عينيها وهذه الدموع ليست دموع حزن هذه المرة، إنما كانت دموع الفرح، كانت دموعها تتساقط وهي تقول له: كمال: أيها الحبيب إني أشعر بنفسي وكأنني في حلم، إنني لا أصدق أنك جئت بعد هذه الغيبة الطويلة، لقد كاد اليأس يتسرب إلى قلبي، قال لها: أجل صدقيني يا حبيبتي ها أنا قد جئت وواقف أمامك.

قالت له: أرجوك أن تعذرني، لقد التهب قلبي شوقاً إليك، طال عناقهما ولم يشعرا بنفسهما واقفين، وأخيراً قالت له: تعال نجلس في الصالون، لقد أطلنا الوقوف وأنت متعب من السفر، قال لها حين أراك لا أشعر بالتعب ثم تبعها إلى الصالون، وهناك جلسا على الأريكة وأخذا ينظران إلى بعضهما البعض، وأطالا النظر.

كان كمال لا يرتوي من النظر إلى عينيها، فكان يمضي وقتاً ليس بقصير، وهو ممسك بذقنها وينظر إلى عينيها ويداعب وجهها الجميل، ثم مد يده بعد أن أطال النظر إلى عينيها، وراح يداعب خصلات شعرها وهو يقول سهير: كم أتمنى أن أبقى العمر بقربك يا حبيبتي، فأنت أجمل شيء في حياتي فعمري كله لا يوجد فيه لحظة سعادة سوى تلك الساعات التي أمضيتها معك، ثم صمت قليلاً وهو يتأمل وجهها ويتتبع كل قطعة منه ثم تابع كلامه الذي تدفق رقة وحنان قائلاً سهير: إن وجهك الجميل وابتسامتك العذبة لم تبرح خيالي لحظة واحدة أيتها الحبيبة، كنت دائماً أسمع صوتك العذب وهو يهمس في أذني كلمات رقيقة كروحك، كنت أراك في كل شيء أمامي، كان طيفك يرافقني أنما ذهبت، كنت أتخيلك وأنت قادمة من بعيد بثوب أبيض جميل تركضين فاتحة ذراعيك وشعرك الذهبي يتطاير على كتفيك وتلك البسمة التي طالما سحرتني ومست شغاف قلبي، تطفو فوق ثغرك الفتان، كنت أتخيلك تقتربين مني وعندما أحاول أن أمسك بك أجد يداي وقد قبضت على الهواء وأجدك قد اختفيت كالسراب.

ابتسمت له تلك البسمة التي تذهب بعقله، وهمست قائلة كمال: لا تسل أيها الحبيب كم عذبتني ببعدك وكم سهرت الليالي الطويلة أناجي طيفك الغالي وأبثك شوقي وانتظاري الطويل للقاءك، شربت منه كأس المرارة فالانتظار ممل قاتل يميت ببطء يا كمال، أجابها بحسرة: هذا قدرنا يا سهير فلا نستطيع الوقوف في وجهه ثم شبك أصابعه بين أصابعها وقال لها وهو يطوف بعينيه كل قطعة فيها إني أحبك.. أحبك يا معبودتي الصغيرة.. ثم طوقها بين ذارعيه وطبع على ثغرها قبلة طويلة ملتهبة، ولكن سهير أبعدته عنها بلطف وجعلت تصلح شعرها المبعثر وسألته قائلة: قل لي يا كمال كيف جئت؟

أجابها مازحاً جئت بسيارة، فضحكت عالياً وقالت: أعلم أنك جئت بسيارة ولكني أقصد ما أسباب هذه الزيارة إلى دمشق؟

قال لها وهل ينبغي أن يوجد أسباب كي آتي إليك؟

قالت: أجل لأني لا أظنك قد جئت من أجلي وإلا كنت قد فعلت هذا منذ زمن..

أجابها برقة وحنان، بل جئت من أجلك يا حبيبتي، هذا في داخلي أما في الظاهر فقد أتيت من أجل عمل..

قالت وما هو هذا العمل؟

قال: هناك أوراق مهمة أريد الحصول عليها ولكني كنت أستطيع الحصول عليها عن طريق البريد ولكن أخذتها حيلة كي آتي إليك لأن شوقي إليك قد ازداد ولم أقدر على الاحتمال أكثر.

أجابته بعتاب رقيق: لو كنت حقاً جئت من أجلي لماذا لم تأت إلي من قبل ولماذا تأخرت كل هذه المدة؟ وتابعت إني أعلم لو لم يكن لديك عمل هنا لما كنت قد أتيت.. أجابها قائلاً: أقسم بعيونك الساحرة أقسم بحبنا أني جئت من أجلك يا روح قلبي..

قالت له: أحقاً ما تقوله يا كمال؟ قال حقاً يا نور عيني.. وبهجة حياتي، وهل كذبت يوماً عليك؟ وتابع قائلاً: سهير قولي لي يا حبيبتي كيف حالك مع مراد هذه الأيام؟

تنهدت بعمق وقالت بصوت حزين: إنها سيئة جداً يا كمال لأن مراد يزداد سوءاً وفظاظة كل يوم أكثر من سابقه، فكلما تقدمت الناس وتطورت الحياة عاد هو إلى الوراء وازداد تزمتاً، فهو مازال متمسكاً بالعادات والتقاليد البالية، التي تقول: الرجل لا يكون رجلاً إلا إذا كان قاسياً متعالياً على المرأة، ربما هذا ما نشأ عليه وما اكتسبه من والده والمحيط الذي عاش فيه، فهو لا يريد الاعتراف بأن المرأة مثله لها حق كإنسان ولها كرامة ومشاعر وإحساس، ففي رأيه المرأة يجب أن لا تحب ولا تكره ولا تقول لا، ولا حتى تتنشق الهواء الصافي الذي تريده، فهو يريد أن يتنشق الهواء بدلاً عنها.

قال كمال: إني أعلم ذلك يا سهير ولكني قلت لنفسي ربما يكون قد تحسن قليلاً وغير من طبعه حيث أن الحياة كلها قد تغيرت ولم يبق شيء كما هو..

أجابت سهير بحزن ممزوج بالسخرية: مراد يتغير إذا تغيرت النملة وأصبحت فيلاً وإذا تغير ماء البحر وأصبح ماء حلواً يتغير مراد..

قال: إلى هذا الدرجة؟

قالت له وأكثر تصور ياكمال أنه يمنعني من القيام بأي هواية أحبها، فهو إن عاد وشاهدني أقرأ في كتاب أو مجلة أخذه من يدي يمزقه ويقذفني بسيل من الشتائم، وإذا نطقت كلمة انهال علي ضرباً، وإذا سمع آلة التسجيل مفتوحة ثار وغضب وافتعل مشاجرة لها أول وليس لها آخر.

فحب السيطرة والتحكم أخذا منه كل شيء حتى سعادته أنه لا يطاق يا كمال لا يطاق، فأنا أحياناً أشعر باني على حافة الجنون.

أجابها بلهجة لا تخلو من العتاب أو اللوم، ولماذا تتحملين كل هذا العذاب؟ أجابت وفي صوتها رنة حزن: أنت تسألني يا كمال لماذا أحتمل هذا العذاب؟ وصمتت قليلاً ثم رفعت له عينيها التي تحمل العتاب والاعتذار والحب، كانت لا تدري ماذا تقول له: أهي تعاتبه أم تعتذر منه أم تغدق عليه كل ما في قلبها من حب، كانت تعتلج كل شيء في نفسها، ثم قالت له: كمال إني أفهمك جيداً وأفهم ماذا تعني في سؤالك هذا، وأحس في هذا العتاب الذي وجهته لي، ولكن أجيبك على سؤالك هذا وأنا شديدة الأسف لأنني لا أستطيع ترك أولادي وتلبيه طلبك وهو الزواج فأنا أحتمل كل ذلك من أجلهم فهم كل شيء في حياتي فأنا أحتمل لهيب النار تكوي جسدي ولا أحتمل فراقهم لحظة، إني أحبهم يا كمال بل إني أموت لبعدهم وتابعت قائلة: ثم ما ذنب هؤلاء الأطفال الأبرياء أن يتشردوا ويعيشوا دون أن تغدق عليهم الحب والحنان ويجبرون على العيش مع هذا الأب، صمتت قليلاً، ثم تنهدت بعمق وقالت: كمال إذا كنت ما زلت أعيش حتى الآن فذلك من أجل هدفين أولهما أن أربي أطفالي خير تربية وأساعدهم على تأمين مستقبل زاهر لهم.. فأنا لدي طوح لأولادي ليس له حدود، أما الهدف الثاني فهو أن أجعل لنفسي مكانه في هذا المجتمع يمكنني من القيام بأعمال تفيد عمل ذو قيمة تسجله صفات

التاريخ اعتدل كمال في جلسته وأمسك بكلتا يديه كتفيها وقال لها وصوته يقطر حناناً: سهير أنت امرأة عظيمة بل أنت امرأة نادرة الوجود، أنت عظيمة بكبريائك، عظيمة بشموخك وأفكارك، بروحك الرقيقة الشفافة، أنت عظيمة بعطائك الدؤوب الذي ليس له حدود، هل ستفعلين شيئاً أعظم مما فعلت. قالت له: متسائلة وماذا فعلت يا كمال؟ فأنا لم أفعل شيئاً بعد. أجابها: كيف هذا سهير: أليس لحياتك قيمة أليس لعذابك أهمية؟ أليس لشبابك وحبك الكبير أليس له قيمة؟ فأنت ضحيت بكل هذا من أجل أن تشتري السعادة لغيرك أليس هذا عمل عظيم؟ لقد ضحيت بأشياء كثيرة ومازلت تضحين حتى كرامتك ضحيت بها ألا تذكرين كم من مرة ضربك وأهانك ونعتك بأقبح الصفات أمام الضيوف حتى في الشارع ضربك، إذا كنت لا تذكرين فأنا لم أنس ذلك، لقد ترددت عليكم ثلاث أعوام ورأيت كل شيء بعيني هاتين.

أجابته بحسرة: أتقول لي إني كنت نسيت كيف أنسى يا كمال وكل كلمة مخلفة جرحاً في قلبي لا تشفيه كل عقاقير الطب، ولا يستطيع معالجته أعظم الأطباء، كيف أنسى يا كمال وكل ضربة محفورة في جسدي لا يمحوها إلا إذا انسلخ الجلد، إني لم أنس ولكني أتناسى مؤقتاً أتناسى إلى أن يأتي اليوم الذي أستطيع فيه محاسبته. حدق كمال في عينيها بعمق وقال لها: سهير أنت امرأة رائعة أنت رمز الأمومة الصادقة، أجابته وفي حلقها مرارة وأنا لم أفعل شيئاً يا كمال سوى واجب الأمومة وواجبي كأم يقتضي أن أفعل ذلك وإلا لا أستحق حمل هذه الكلمة المقدسة وصمتت قليلاً لتفكر بتغيير مجرى الحديث لأنها لا تستطيع سماع مدحها كثيراً ولم تجد أفضل من حديثها عن خططها للمستقبل.

قالت له بعد صمت قصير: كمال سوف أخذ رأيك في أمر أفكر فيه قال وما هو: قالت: إني أفكر في العمل فأنا أشعر بأني لن أجد نفسي إلا في العمل؟

قال لها مشجعاً: أنها فكرة حسنة وتفكيرك سليم ولكن ماذا ستعملين وأنت لا تحملين أية شهادة؟ صحيح أنت مثقفة ولديك إطلاع واسع ومعرفة لا حد لها ولكن كل هذا لا يغني عن الشهادة. قالت له: هذا صحيح ولكن بعد رحيلك تعرفت على عدد من النساء المثقفات وقامت بيني وبين بعضهن صداقة قوية وعلى رأس

الجميع " هدى " هذه الصديقة أفضلها على الجميع ولها محبة خاصة في قلبي وقد عرفت الكثير عني وهي وفية مخلصة لي وتطوعت لمساعدتي.

أجابها كمال: وكيف ستساعدك؟

قالت: لقد نصحتني هدى بأن أعمل دورة على الآلة الكاتبة حتى إذا تسلمت هذه الشهادة وجدت لي عملاً.

قال: هذا عظيم ثم أكد لها هذا الكلام حين قال لها: فعلاً إذا أتقنت الضرب على الآلة الكاتبة وحصلت على شهادة تستطيعين الحصول على عمل ثم سألها قائلاً: متى ستبدأين بالتمرين؟

قالت بعد أيام قليلة حيث تكون هدى قد وجدت لي مكاناً أتدرب فيه استمر بينهما الحديث إلى أن عاد مراد من عمله وكان حديثهما يدور حول العمل والصعوبات التي تعترض المرأة.

حين عاد مراد ووجد كمال رحب به كثيراً وعاتبه على تقصيره في المراسلة والزيارة أيضاً وفي صباح اليوم التالي خرج مراد إلى عمله ومعه كمال حيث قال له: لدي عمل في إحدى الدوائر الحكومية، ولكنه لم يغب أكثر من ساعة وعاد بعدها مسرعاً إلى سهير التي كانت تنتظره بفارغ الصبر، فأمضيا عدة ساعات جلبت إلى قلب المحبين العاشقين السعادة والهناء.

بقي كمال مدة يومين في ضيافة مراد، عرف خلالهما طعم السعادة والهناء، وعوض كل ما فاته من أيام وليالي طويلة، وفي اليوم الثالث وبعد أن ذهب مراد إلى عمله وترك ضيفه نائماً فهو لا يعلم أن كمال سيسافر هذا اليوم، نهض كمال من سريره وأخذ يحزم حقيبته استعداداً للرحيل.

وقبل أن ينتهي من حزم الحقيبة استيقظت سهير ودخلت غرفة كمال فإذا به يرتب حاجته، ألقت عليه تحية الصباح ثم قالت له، كمال هل صممت على الرحيل اليوم؟

أجابتها بصوت حزين: أجل يا سهير يجب أن أرحل فجلست على المقعد ووضعت رأسها بين يديها وبدأت تذرف الدموع دون كلام.

رفع كمال رأسه ونظر إليها فوجدها على هذا الوضع فاقترب منها وهو يقول لها برقة: لا تبكي يا حبيبتي فأنا لا أحب أن أرى هاتين العينين النجلاوين، تفيضان بالدموع ويسكن فيهما الحزن لا تبكي يا حبيبتي فهذا قدرنا.

قالت بصوت فيه حشرجة وما زال رأسها بين يديها: ولماذا يختارنا القدر نحن بالذات؟ لماذا يقسو علينا هذا القدر؟ ألا يريد أن يدعنا وشأننا؟ ألا يريد أن يكف عن مطاردتنا؟ فاغتصب كمال ابتسامة محاولاً إخفاء عذابه وقال لها: سيفعل ذلك يوماً يا حبيبتي، والآن ابتسمي لي ودعيني أمتع ناظري ببسمتك العذبة، إنني أحب آخر ما أرى هي بسمتك الفتانة كي تبقى ماثلة أمام ناظري طيلة مدة فراقنا، كي أستمد منها القوة هيا يا حبيبتي ابتسمي، ابتسمي لحبيبك كمال، كمال الذي لا يحب شيئاً في الدنيا كما يحب هذه الابتسامة، فتمالكت نفسها قليلاً وحاولت إخفاء دموعها واغتصبت ابتسامة حاولت جاهدة أن تكون طبيعية، وكما يحب كمال ولكنها ظهرت هذه الابتسامة صفراء وكأنها تعلن عن اختضار قلبها ولفظ أنفاسها الأخيرة ثم قالت له: أنك تقول لي ذلك يا كمال ولكن قلبك ينزف دماً، فأنا أشعر بك. أجابها وهو يبتسم ابتسامة حزينة: الحب يا حبيبتي فراق وعذاب ودموع ساخنة، ونار تلتهم قلوب العشاق، فأنا حقاً أتألم وقلبي ينزف ولكني سعيد بذلك سعيد لأنني أحبك، وأنت تحبينني، فمجرد الشعور بالحب يا حبيبتي، يكفي أن يجعل المرء أسعد إنسان على وجه الأرض، ويجعله يحلق في الفضاء ويطير دون أجنحة، الحب متعة لا توجد بعدها متعة، وسعادة لا تضاهيها سعادة، فلولا الحب لما استطاع الإنسان أن يعيش وأنا أحبك، أجل يا سهير أحبك، وسعيد بحبك وسيبقى حبك يسعدني إلى آخر لحظة في حياتي.

أجابته بصوت فيه مزيج من الحزن والحب: وأنا أيضاً يا حبيبي أحبك بنفس القوة.

فاقترب منها أكثر وطوقها بين يديه وجذبها إلى صدره بقوة وجعل يمرغ وجهه في شعرها وهي تستمع إلى دقات قلبه وكأنها تستمع إلى أنغام موسيقى، كان وداعاً حزيناً مؤثراً، فقد امتزجت فيه الدموع بالآهات وكان كمال كلما تركها واقترب من الباب ثم عاد إليها من جديد وضمها إلى صدره وأخيراً ضمها إلى صدره بقوة ثم

أبعدها عنه برفق وأسرع هارباً وهو يلوح لها بيده ويقول لها وداعاً.. وداعاً يا أحب الناس وداعاً يا أعز من الروح..

ردت سهير قائلة: رافقتك السلامة.. رافقتك السلامة يا عمري، وتوأم روحي وظلت تلوح له بيدها حتى توارى خلف الباب ثم انهارت وسقطت فوق المقعد وانفجرت في البكاء بصوت عال ولم تكف عنه إلا حين عاد الأولاد من عند أولاد الجيران، بعد رحيل كمال عادت لها الكآبة مرة ثانية وظلت تلازمها ما يقارب الأسبوعين ثم عادت بعدها إلى حالتها الطبيعية شيئاً فشيئاً وحينئذ، تذكرت ثانية موضوع العمل الذي أصبح شغلها الشاغل ذهبت إلى هدى كي تذكرها بوعدها فاستقبلها بالرحاب والقبلات ثم رافقتها إلى غرفتها، وقبل أن تخوض في أي موضوع سألتها سهير عن العمل قائلة: هل وجدت لي مكاناً كي أتعلم في الضرب على الآلة الكاتبة؟، قالت هدى: أنا شديدة الأسف يا سهير على تقصيري هذا وأرجوا أن تقبلي اعتذاري، لأني فعلاً انشغلت في الأسابيع الماضية ولم أجد الوقت لهذا الموضوع، ولكني أعدك وعداً صادقاً هذه المرة ألا أدعك تنتظري أكثر من يومين، أجابتها سهير: لا تأسفي يا عزيزتي فأنا أيضاً لم أكن مستعدة خلال الأسبوعين الماضيين.

أجابتها بسرعة وكأنها ذكرتها بشيء كانت على وشك السؤال عنه:

قالت: لقد ذكرتني يا سهير أين كنت خلال الأسبوعين الماضيين ولم هذا الانقطاع الذي لم أتعوده منك، لقد قلقت عليك كثيراً وسألت ليلى عنك فقالت أنها لم ترك منذ كنا معاً نحن الثلاثة وفكرت أن أزورك ولكن كما قلت لك كنت مشغولة جداً، هيا قولي لي ما سر هذا الانقطاع؟

ابتسمت سهير وتململت بحركة تحاول فيها إخفاء ما في داخلها متصنعة الفرح وقالت: لا شيء يا هدى.. لا شيء..

قالت هدى: ولكن يبدو عليك غير ما تنطقين به رغم محاولتك إخفاء هذا الشيء الذي أجهله.

أجابتها بسرعة: لا.. لا شيء.. ثم تراجعت عن النفي وكأنها أدركت أن هـذا النفي لن يقنع هدى، فقالت، كانت هناك مشـكلة خاصـة وقـد انتهـت، أجـل لقـد انتهت، قالت هدى: وما هي هذه المشكلة هل لي أن أطلع عليها..

أجابتها: لقد انتهت ولا داعي للخوض فيها..

قالت هدى بعتاب رقيـق: هـل تخفـين عـني أسـرارك؟ أتخفـين أسـرار علـى صديقتك هدى؟ فنحن أختان أليس كذلك؟.

أجابتها سهير معتذرة: أجل يا هدى ـ أنـا آسـفة، فأنـا لم أتعـود إخفـاء أي شيء عنك، ولكن الآن الأمر دقيق جداً ولا أستطيع الخوض فيه.

أجابتها هدى كما تحبين يا حبيبتي، فأنا لا أرغمـك علـى شـيء لا ترغبينـه ولكن تذكري أنني صديقة مخلصة لك وأخت حنونة وأن فرحك هـو فرحـي وحزنـك هو حزني وسرك لن يخرج من فمي لأنه سري فظلـت سـهير صـامتة ولم تجـب فقـد كانت تحدث نفسها قائلة سامحيني يا أختاه لأنني لا أستطيع البوح لك بهـذا السـر فهو ليس ككل الأسرار ماذا سأقول لك أأقول لك أني أحب رغم أنني امـرأة متزوجـة ولديها أربع أطفال، وإذا قلت لك ماذا سيكون رأيك فيّ وماذا ستقولين عني؟ بالتأكيد سوف تقولين عني امرأة ساقطة مخطئة، وستكرهينني وتبتعـدين عـني، ولكـن لا يـا هدى أنا لست كذلك أنا امرأة شريفة خلوقة، امرأة تحب وتحب بصـدق، وإخـلاص وتحافظ على شرفها وكرامتها، إني أحب يا هدى فقط وهذا ليس بيـدي أجـل لـيس بيدي فالحب كالمرض عندما يتسلل إلى الجسم دون إنـذار وينتشـر حتـى يغـذي كـل قطعـة مـن الجسم والحـب كـذلك يـا هـدى يتسـلل إلى القلـب ثـم يمتـد إلى جميـع الحواس، ولا يلبث أن يمتلك الروح ويسيطر على المشاعر ويصبح هـو الآمـر النـاهي، يدير الإنسان كما يريد ولا يسمع لنداء العقل، ولا يبـالي بمـا حولـه، الحـب عنـدما يعصف بالقلوب لا يفـرق بـين متزوجـة وفتـاة، ولا ينتظـر الوقـت المناسـب، الحـب عندما يطرق باب القلب يدخل دون إذن من صاحبه، وهنا أيقظتها هدى من سـباتها وشرودها حين قالت لها: هيا يا سهير إلى أين وصلت في خيالك؟ لقد ابتعدت كـثيراً حتى نسيت وجودي فهزت سهير رأسـها منتبهـة لغيـاب حسـها وكأنهـا كانـت في بئر، وكأن هدى قد انتشلتها من أعماق البحر وهي تقـول لهـا: مـاذا قلـت: فأنـا لم

أنتبه أجابتها هدى: كنت أقول أنك سرحت في خيالك بعيداً حتى أنك نسيت وجودي فإلى أين وصلت؟ أجابتها وهي تنتظر إلى البعيد إلى اللاشيء، وصلت إلى اللاشيء، إلى شيء هو موجود لدى جميع البشر، ولكن كل منا يخفيه عن الآخر، أجابتها هدى قائلة: وهذا ليس بجديد على البشر يا عزيزتي وإنما موجود منذ الأزل. ثم سألتها قائلة: ولكنك لم تجيبي إجابة كافية على سؤالي وإنما تكلمت كلمات مبهمة، لم أفهم منها شيئاً فهزت سهير رأسها قليلاً وقالت: هذا أفضل لأنك لو عرفت كل ما يدور في نفس الغير أو عرف كل فرد ما يجول في نفس الآخر لكان العالم قد انته، فصمتت هدى ولم تجب، حيث يئست من أخذ جواب شاف من قم سهير، وبعد قليل استأذنت سهير من هدى وانصرفت عائدة إلى بيتها. وقبل أن تخرج عادت وأكدت على هدى بأن لا تنس موضوع الآلة الكاتبة فوعدتها خيراً.

انقضت أيام قليلة ذهبت سهير بعدها إلى هدى كي ترى ما وصلت إليه، وبعد التحية والسلام والسؤال عن الصحة والأولاد سألت سهير هدى بلهفة: عما حدث، أجابتها هدى: أجل يا سهير وقد سجلت اسمك ودفعت المبلغ المطلوب، فقاطعتها سهير قائلة: ومتى الدوام؟ قالت هدى: يوم السبت القادم.

قالت بفرحة عظيمة: نحن اليوم في منتصف الأسبوع ولم يعد سوى عدة أيام وقبل أن تجيب هدى قالت والفرحة تغمرها شكراً لك يا هدى ألف شكر لقد أتعبتك كثيراً معي فأنا كلما اعترضتني مشكلة جئت إليك تساعديني في حلها.

أجابتها: لا تقولي هذا يا سهير فأنت غالية علي كثيراً وأكون سعيدة حين أقدم لك خدمة، وطالت جسنهم ساعتين عادت بعدها سهير إلى بيتها وهي فرحة وتحلم باليوم الذي سوف تحصل فيه على شهادة الآلة الكاتبة حيث تمكنها هذه الشهادة من الحصول على العمل، وعندما عاد مراد مراد من عمله وثبت سهير إليه لتقول له بطريقة مرحة مبتسمة ابتسامة عريضة: مراد أريد أتعلم الضرب على الآلة الكاتبة، فنظر إليها باستغراب وقال متسائلاً: ماذا قلت؟ أريد أن أتعلم الضرب على الآلة الكاتبة.

فتحولت النظرة في عينيه من الاستغراب والدهشة إلى نظرة غضب وقال لها في حدة وخشونة: ألا تخجلين وأنت تقولين هذا؟

أجابته: لماذا أخجل وهل ما قلته فيه شيء يدعو للخجل؟

أجابها بلهجته القاسية: أجل.

فقاطعته قائلة وأين العيب في هذا؟

قال: العيب هو أن امرأة متزوجة ولها أربع أطفال تفكر بالخروج من بيتها كل يوم وتتبع أشياء سخيفة.

قالت سهير: وهل المرأة حين تتزوج وتنجب يكون هذا نهاية حياتها فيحرم عليها القيام بأي عمل؟ أجابها بعجرفة: أجل وأضاف قائلاً إن المرأة مكانها هو بيتها ويجب أن ينحصر اهتمامها بأولادها وزوجها فقط ولا يحق لها أن تفكر بغير ذلك. أجابته بشيء من الغضب: إن المرأة ليست حياتها مقتصرة على البيت والزوج والأولاد فقط، بل هناك أشياء كثيرة تستطيع المرأة أن تقوم بها إضافة إلى ما ذكرت حيث أن المرأة لم تخلق للبيت والزوج فقط، فالمرأة لها فكر وعقل وقوة وتستطيع العمل مثلها مثل الرجل إن لم نقل أكثر، ثم ليس عيباً على المرأة إذا فكرت بغير بيتها وزوجها كما قلت أنت منذ قليل، إذا كان تفكيرها هذا لا يمس بالشرف والأخلاق بل العيب كل العيب على المرأة أن تعيش بدون تفكير، فإزدادت عينا مراد اتساعاً وهو يحملق بها وهي تنطق بهذه الكلمات، ثم انقلبت دهشته إلى غضب، فصرخ بها قائلاً: إن المرأة التي تفكر بغير زوجها وبيتها تكون مستهترة فاسقة، وساقطة ومنحلة الأخلاق، وأنت واحدة من هذه النساء، وتابع صراخه وهو يقول: إذا لم تنس هذا الأمر وتصمتي سوف أحطم رأسك بهذا الحذاء، حين سمعت سهير منه هذه الكلمات وبهذه اللهجة القاسية لاذت بالصمت حيث عرفت أن الكلام معه لا يفيد، ولكنها كانت تتحرق غيظاً من الداخل، كان هذا أسلوبها معه حين يغضب ويفرض عليها شيئاً كانت تختصر المناقشة وتصمت ولكنها كانت تنفذ ما تريد دون علمه، ومن ثم تقول له فيثور قليلاً ثم يصمت وهذه المرة مثل سابقتها فقد صمتت وهي تتفجر غضباً لأن ما قالته لا يستحق كل هذا الغضب منه، ولكن مراد لم يكتف بهذه السبات وإنما عاد يهددها قائلاً: اسمعي أيتها المرأة أنا تهاونت معك كثيراً وأنت لم تقدري هذا، الآن أقول لك كلمة لا أتراجع عنها وهي أنه لا خروج لك من هذا البيت بعد اليوم لا أريد أن تعيدي هذا الموضوع ولا حتى أريد مجرد التفكير فيه

وإلا قسماً بالله أطلقك وأعيدك إلى أهلك ذليلة محطمة، هل فهمت ما أقول؟ فلم تجبه وإنما راحت تحدث نفسها قائلة: حسناً أيها الشقي، إنك تستغل ضعفي حيث أني لا أستطيع ترك أطفالي ولكن سوف أثبت لك أنه لا يموت لي حق والأيام ستثبت لك ذلك وأنني لست بالمرأة السهلة التي تسكت على هضم حقها والتي تعيش على هامش الحياة وأن تفكيري لن يكون محصوراً في مطبخك والقيام على خدمتك.

فصبراً علي يا مراد وسترى من هي سهير.

أيها الجبان إن سهير ليست كتلك النساء اللواتي يرضخن لمثل هذه التهديدات والأوامر التافهة وسأتكلم رغماً عنك، وهذا من حقي.

* * *

الفصل الرابع

بعد أيام قليلة افتتحت الدورة وواظبت سهير على الدوام فيها حيث كانت تذهب في الساعة التاسعة صباحاً وتعود في الحادية عشر لتقوم بأعمال المنزل وكانت تقفل الباب على أطفالها بعد أن توفر لهم كل ما يحتاجونه.

انتهت الدورة بسرعة ودون أن يشعر مراد بذلك وحصلت على الشهادة وفور استلامها فكرت أن تزور هدى، وتزف لها هذه البشرى، وفي الوقت نفسه تطلب منها أن تجد لها عملاً فوثبت إلى خزانتها وارتدت ثيابها بسرعة وذهبت إلى هدى وطرقت بابها فتحت لها هدى ورحبت بها كثيراً ثم دعتها للدخول، فسألتها: هل هدى موجودة يا خالة؟

أجابتها: أجل إنها في غرفتها يا روح خالة تفضلي.

كانت حماة هدى لطيفة وطيبة القلب وتحب سهير كثيراً، ولم تكد سهير تجتاز المر وتبلغ باب الصالون حتى كانت هدى قد سمعت صوتها، فخرجت من غرفتها تقبل عليها والبسمة تطفو على ثغرها العذب وهي ترحب بها ثم تعانقتا وتبادلتا القبلات، أشارت إليها أن تتبعها إلى غرفتها، وبعد أن أصبحتا داخل الغرفة أغلقت الباب خلفهما وفي بداية الحديث سألتها هدى قائلة: لماذا كل هذا الغيبة يا سهير؟ لقد انقضى أسبوعان دون أن أراك فقد اشتقت إليك كثيراً، أجابتها سهير قائلة: وأنا أيضاً يا هدى فقد كان شوقي إليك عظيماً، ولكن المشاكل هي السبب؟ أجابتها هدى بمرح: وهل المشاكل تأخذك مني أيتها العزيزة؟

ردت سهير بسرعة: طبعاً لا فأنا لا شيء في الدنيا يستطيع أخذي منك وإبعادي عنك أيتها الغالية وأردفت قائلة: ولكن لم تسأليني؟ ما هي هذه المشاغل التي أبعدتني عنك؟

قالت هدى: حقاً.. ما هي هذه المشاغل؟

قالت: إنها يا عزيزتي دورة الآلة الكاتبة لقد انتهت منذ يومين وقد تسلمت الشهادة. قالت هدى فرحة: هذا عظيم يا سهير، كنت متأكدة من ذلك، لكن قولي لي ما هي مشاريعك بعد ذلك؟

أجابتها باندفاع قائلة: إن مشاريعي حالياً هي العمل ومن أجل ذلك جئت إليك، فقاطعتها قائلة: لا تكملي لقد فهمت ماذا تريدين؟ أن أجد لك عملاً أليس كذلك.

أجابتها بقليل من الخجل: نعم.

قالت: حسناً سوف أبحث لك عن عمل.

قالت سهير: أحقاً يا هدى أستطيع الحصول على عمل؟ فأنا كنت خائفة من عدم وجود وظيفة حيث أن الحصول عليها بات من الأمور الصعبة.

أجابتها هدى: هذا صحيح يا سهير ولكن المشكلة ليست في وجود عمل، وإنما المشكلة هي زوجك يا حبيبتي، أنا أعرفه جيداً فهو لن يدعك تعملين.

قالت: هذا صحيح ولكن سأحاول إقناعه بأي طريقة، يجب أن يوافق فهذا حقي ولن أتنازل عنه مهما كلفني.

قالت هدى: أتمنى ذلك يا سهير ولكني أرى الأمور واضحة فأمثال زوجك ليس من السهل اقناعه.

أجابتها وفي صوتها رنة التحدي، وفي نظراتها بريق التصميم سوف أنجح ولن أدعه يقضي على آخر حلم جميل في حياتي.

أجابتها هدى بلهجة صادقة: أتمنى ذلك يا عزيزتي وأنا بدوري سأبحث لك عن عمل منذ الغد.

فشكرتها كثيراً فقالت لها هدى لا داعي للشكر يا سهير فأنا لم أقم سوى بالواجب فأنت أخت لي ويجب علي مساعدتك، فنظرت سهير إليها نظرة امتنان ولكن هدى قطعت هذه النظرة دون أن تقول شيئاً، حيث أرادت نقل سهير من هذا الموضوع إلى موضوع آخر تخلصها من الارتباك والخجل اللذين تشعر بهما، فقالت لها هدى بطريقة مرحة والبسمة تطفو على شفتيها:

سهير هل سنقضي هذا اليوم كله في الشكر والمجاملات؟ دعينا من كل هذا يـا عزيزتي وتعالي نتحدث في أخبار هذا المجتمع القاسي المزيف الذي لا يرحم، قالـت لها متسائلة: على ما يبدو أن لديك أخباراً دسمة، قولي لي ما هي:

قالت هدى: أجل لدي أخبار بـل مأسـاة بطلـها جارنـا والضحية هـي طبعـاً زوجته المسكينة، وجعلت هدى تقص عليهـا حكايـة جارتهـا المسكينة الـتي كانـت ضحية زوجها القذر الذي كذب عليها وخدعها بكلماتـه المعسولة. حتـى نـال منهـا كل ما يريد، فقد اغتصب أنوثتها قبل الزواج كي يملـي عليهـا شـروطه القـذرة وهـي الاستيلاء على مالها الذي جمعته مـن عملـها في الخياطـة وبعـد الـزواج أخـذ الـزوج يتفنن في تعذيبها حتـى أذاقهـا الأمـرين في حياتهـا وفي النهايـة أحـب فتـاة أخـرى وطلقها وكان ضحية رعونتـه طفـلان بريئـان لا ذنـب لهمـا سـوى أن والـدهما رجـل مستهتر حقير لا يقدر المسؤولية، رجل ليس له أخلاق ولا شرف.

وبعد أن سمعت سـهير هـذه القصـة تـأثرت تـأثراً كـبيراً إلى درجـة تسـاقطت دموعها ثم استأذنت بالانصراف عائدة إلى بيتها تفكر بطريقة تحاول بها إقنـاع مـراد في الوقت المناسب لذلك فارتأت أن تجد العمل أولاً ومن ثم تفاتحه في الأمـر، حيـث تقنعه وتضعه أمام الأمر الواقع.

مضى أسبوع على سهير وهي تعيش بقلق واضطراب تنتظر خبراً من هـدى ولم تعد تستطيع الانتظار أكثر فطارت إليها مسرعة تسألها عن الخـبر وحـين بلغـت دار هدى تعانقتا ورحبت بها هدى كثيراً ثم سألتها بلهفة عما إذا كانت قد وجـدت لهـا عملاً فأجابت هدى بما كانت تتمناه.

قالت بسرعة أين سأعمل؟

قالت هدى: في احدى مراكز المنظمات النسائية، وهـذا يكـون أفضـل لوضـعك ويناسب عقل زوجك.

قالت هذا شيء عظيم فأنا من طبعي لا أحـب الاخـتلاط بالرجـال، ثـم قالـت لها: ها الآن وجدت عملاً ولكن هل أقنعت زوجك؟

فاختفت الفرحة من فوق وجهها ثم قالت لها: الحقيقـة يـا هـدى لم أفاتحـه بعد، حيث رأيت من الأفضل أن أجد عملاً ومن ثم أفاتحه.

قالت هدى: حسناً لقد أحرزت الفوز الأول ولم يبق عليك سوى الضربة الأخيرة فأريني مهارتك.

قالت سوف أفعل يا هدى ولن يطول ردي عليك وتابعتا جلستهما حيث مضى وقت ليس بالقصير ثم عادت سهير إلى بيتها مسرورة تنتظر عودة مراد بفارغ الصبر، وعندما عاد مراد راحت تلاطفه وتبدأ معه مقدمات ثم قالت له بصوت خافت ومضطرب: مراد هناك موضوع أريد محادثتك فيه، ولكن أرجو أن تناقشني بدون انفعال وعصبية مبتعداً عن الغضب.

أجابها من غير مبالاة قولي ما تريدين.

جمعت قوتها ولملمت أفكارها المضطربة وقالت بتلعثم: لقد عرض علي عمل وأريد أن أعمل فما رأيك؟

فنظر إليها نظرة استغراب ودهشة ثم قال لها ساخراً: وماذا عرض عليك أن تكوني وزيرة؟ أم مراسلة صحيفة؟

فابتلعت هذه الإهانة وأجابته: لم لا أكون كذلك؟ هل ينقصني شيء؟ فأجابها بنفس السخرية لا.. فقط ينقصك الشهادات..

قالت له متحدية: سوف ترى يوماً يا مراد سأكون أفضل من أصحاب الشهادات..

قال لها بعصبية: لن تكوني أكثر من جارية في هذا البيت.

قالت والغيظ يمزقها: لن أسبق الزمن ونبدأ المشاجرة منذ الآن فأنا أطرح عليك موضوع العمل.

قال لها هل جننت؟

أجابته بصوت هادئ ولكن فيه مرارة: وهل كان العمل يوماً جنوناً؟

ظهر الغضب على وجهه وقال بخشونة: بل هو قلة أدب، ثم أنا أريد أن أعلم لماذا أنت تريدين الوظيفة؟ كي تخرجي من البيت كل يوم وتتصرفين على هواك؟ وتجلسين مع الرجال؟ ثم أضاف قائلاً: أتريدين الناس تتكلم عني وتقول زوجة مراد موظفة؟

فقاطعته بحدة قائلة: أنا لا أريد الخروج من البيت كي أجالس الرجال كما تقول، أو من أجل أن أعرض جمالي إلى ناظر الرجال كما تتوهم بل سأخرج من البيت للعمل فقط، ذلك العمل الذي سوف يجعلني أعتمد على نفسي ولا أحتاج إلى نقودك التي أحصل عليها بشق الأنفس والمشاجرة أو التذلل، ثم لماذا يقول الناس زوجة مراد موظفة؟ ليقولوا ما شاؤوا وهل العمل عيب؟ فكل النساء تعمل أليس لهؤلاء النسوة العاملات أزواج وأطفال وأهل أيضاً؟.

أجابها بوقاحة: أن كل امرأة موظفة تخرج من بيتها تكون امرأة غير شريفة وغير خلوقة، ثم إن المرأة خلقت للبيت والمطبخ.

فغضبت من هذه الإهانة التي وجهها إلى كل امرأة مكافحة تعمل بشرف وأمانة، فالتفت إليه وقالت له: أن المراة العاملة هي أشرف امرأة على وجه الأرض وأفضل من النساء اللواتي ليس لهن عمل سوى التلهي بسرد الأحاديث ومراقبة الناس.

أجابها بصوت حاد: اصمتي أيتها اللعينة لقد طال لسانك، وبدأت تردين علي، ولكني أعرف من جعلك كذلك، صديقاتك اللواتي يحرضنك على طلب الوظيفة، ولكن الحق علي أنا الذي سمحت لك بالخروج من البيت وأعطيتك حرية لست جديرة بها.

فنظرت إليه نظرة ساخرة ممزوجة بالاحتقار وقالت: أنك لم تسمح لي بالخروج يوماً ولكني كنت أخرج رغماً عنك وقد تعلمت الضرب على الآلة الكاتبة وبحثت عن وظيفة وقد وجدتها فأية حرية هذه التي تتكلم عنها؟ وهل أنت تعرف ما هي الحرية؟ إنك لم تعطني إياها قط.

فحملق بها واتسعت حدقتا عينيه حتى كادتا تقفزان إلى مؤخرة رأسه، أخذ الشر يتطاير منهما ونفش جسمه وكأنه وحش قد وجد أمامه فريسة، ثم تقدم منها وقبض على ذراعها بقوة وصرخ بها قائلاً: هكذا إذن أيتها العاهرة، فقد خرجت رغماً عني وفعلت ما رفضت أنا وتريدين أيضاً أن تعملي أليس كذلك؟ عظيم الكلام الذي سمعته، حسناً سوف أعرف كيف أعاملك من الآن فصاعداً أيتها الساقطة، ثم رماها من يده فسقطت على الأرض وتابع كلامه قائلاً: منذ الآن فصاعداً لن تخرجي

من هذا البيت ولن تدخل عليك صديقة، ولن تذهبي إلى صديقة حتى الجارات لن تدخلي عليهن.

كانت الكلمات تتدفق من فمه بسرعة ولم يتح لها مجالاً لتدافع عن نفسها كما لم تستطع النطق حيث كان الحقد والدهشة والغيظ تمتزج في صدرها ثم انطلقت في صرخة صامتة تكاد تمزق صدرها فقد سمعت ما صعقها وحجب الرؤيا أمامها، وقد كانت هذه الكلمات تنزل فوق رأسها كالصاعقة وتسري في جسمها كسم أفعى يكاد يقتلها، ولكنها ما لبثت أن جمعت أفكارها التي بعثرتها كلماته واستعادت شجاعتها التي هزمتها نظراته، فثبتت نظراتها فيه وقالت بصوت جهوري: مراد أنا لست طفلة صغيرة وساذجة حتى لا أعرف ما هو حقي فانتظر من صديقاتي حتى يعلموني، لست بحاجة إلى من يعلمني فأنا بإمكاني توزيع علم على مجتمع بكامله، ثم أنا لست بسجينة كي تمنعني من الخروج فانا إنسانة قبل أي شيء ويحق لي الدخول والخروج مثلي مثلك، سأتردد على صديقاتي ولن يستطيع أحد أن يمنعني فازدادت عيناه اتساعاً وزمجر وهاج وماج وهجم عليها مرة أخرى وأمسكها بكلتا يديه ورفعها إلى الأعلى وضغط على كتفيها بقوة وقال: هي كلمة واحدة إما صديقاتك والوظيفة وإما طلاقك، ثم رماها على الأرض وانهال عليها ضرباً وشتماً.

فاحتارت سهير بماذا تجيبه، فالخوف والغضب أخذ منها كل شيء حتى شجاعتها قد تلاشت أمام كلمة الطلاق، فالطلاق يعني لها ترك أولادها والابتعاد عنهم، يعني لها الموت البطيء، ولكن مراد لم يتركها فقد ظل يضربها وهو يردد نفس الكلمة وهي ـ إما الوظيفة وصديقاتك وإما طلاقك ـ

أخذت منها هذه الكلمات كل أفكارها وهي تقع على رأسها كالمطرقة توقف تفكيرها، صرخت فيه قائلة، بل الوظيفة وصديقاتي أجل، أفضل لي منك فهما خير منك، ثم لماذا تتحامل على صديقاتي؟ هل أساؤوا إليك حتى تجعلهن محمل غضبك وثورتك؟.

من خلال دموعها وآلامها: مراد لو قطعتني إرباً إرباً لن أتنازل عن حقي هذا.

فقال إذاً إنك مصممة على موقفك هذا؟

قالت له: أجل.

قال حسناً سوف أرسل في طلب أهلك حالاً لأنقل إليهم هذا الكلام.

قالت له بصوت حاد وبلهجة قاسية فيها تحدي وكره: أرسل لهم، وقل لهم ما شئت فأنا لم يعد يهمني أحد ولمأعد أخاف أحد، فأكثر من الذي أنا فيه لن يحدث، ماذا عساهم أن يفعلوا بي أكثر من هذا؟ يقتلونني؟ ليتهم يفعلون، فالموت أرحم لي من هذه الحياة القذرة التي أعيشها، كانت سهير تعلم جيداً أن أهلها لا يختلفون بشيء عن زوجها بل ربما يفوقونه تخلفاً وتزمتاً، ولكنها كانت في لحظة لا تسمح بالتفكير بل لم يعد فيها عقل تفكر به فهي في لحظة اللاوعي واللامبالاة، فما كان مراد إلا أن تركها ودخل الغرفة وخط رسالة مستعجلة إلى أهلها يطلب منهم الحضور على جناح السرعة.

لم تمض عدة أيام حتى جاء أخوها وأمها متسائلين عما حدث فقال لهما: اسألا سهير:

أجابته الأم: إنني أسألك أنت عما حدث.

أجابها بعصبية أن ابنتك المحروسة كانت تخرج من البيت كل يوم دون علمي وأصبح لها صديقات عدة، وتعلمت الضرب على الآلة الكاتبة رغم أنني منعتها من فعل ذلك، ولكنها تحدتني ونفذت رأيها وأخيراً جاءت الآن تطلب مني الموافقة على الوظيفة التي وجدتها، تخيلا أنها تريد أن تتوظف، تريد أن تلحق بنا العار، لقد ضربتها ولكن لم ينفع معها الضرب، هددتها بالكلام فلم يخيفها التهديد، ولم تبال به، تصرفها هذا لا أستطيع السكوت عليه، ولا أقبل بما تفعله ابنتكم، فلم يعد أمامي سوى أن أرسل لكم لكي تضعوا حداً لتصرفها هذا.

فالتفتت أمها إليها وقالت لها أحقاً ما يقوله مراد يا سهير؟

أجابتها بلهجة فيها تحد وكره واشمئزاز، أجل يا أماه فكل ما قاله صحيح.

صرخ الأخ قائلاً: الويل لك أيتها اللعينة، أتريدين إذلالنا في القرية؟ أتريدين أن يتكلم الناس علينا ويقولون ابنة ابراهيم توظفت وتجالس الرجال.

أجابته قائلة: أنا لم أقدم على فعل شيء يسيء إلى سمعتكم أو يحط من كرامتكم فالعمل ليس عيباً، بل هو أشرف شيء في الحياة.

قالت الأم العمل وجد للرجل وليس للمرأة، فالمرأة مكانها البيت وعملها المطبخ وخدمة زوجها وأطفالها.

أجابتها قائلة: كان هذا قديماً وليس الآن، فلا يوجد الآن فرق بين الرجل والمرأة.

قال مراد ساخراً أرأيتم بأم عينيكم وسمعتم بآذانكم، فأنتم لن تسمعوا منها سوى إلقاء الخطابات.

قالت سهير: أنا لم ألق خطابات، وإنما أقول الشيء الذي يجب أن تفهموه ويفهمه الجميع، وهو أن المرأة لها حقوق مثلها مثل الرجل، سواء في العمل أو الرأي، وأنها لم تخلق فقط لمتعة الزوج وأعمال المطبخ.

قال لها الأخ بحدة: هذا ليس عندنا، فنحن أناس محافظون على عاداتنا وتقاليدنا التي لا تسمح للمرأة بالعمل.

قالت: لماذا إذن تسمحون للمرأة بالعمل في الحقول والمزارع ومع الرجال أيضاً، هل عاداتكم المحترمة هذه تسمح بذلك، أم أن حب السيطرة وأنفسكم المعتادة على السيطرة والاستعباد تتلذذ بتعذيب المراة وشقائها أو ربما تدعوها تعمل من أجل راحتكم بل من أجل أن تروتها تعمل مثل الحمار وأنتم في يدكم السوط تجلدوها، لماذا إذن عملها في الحقل مسموح وعملها في الوظيفة معيب وغير مسموح؟

وتابعت قائلة ثم هناك عائلات محافظة أكثر منكم ومع ذلك فنساؤهم تعمل، هل لأنهم يفهمون حقيقة المحافظة؟ فالمحافظة لا تعني سجن المرأة في المنزل وإنما تعني الحفاظ على الأخلاق والمبادئ، الحفاظ على الشرف والسيرة الطيبة، قاطعها أخوها قائلاً: اخرسي وكفي عن فلسفتك هذه فهي كلمة واحدة لا بديل عنها إما أن تقبلي بشروط زوجك وتطيعي أوامره، أو تتركي أولادك وتذهبي معنا إلى القرية وهناك لا يوجد صديقات ولا يوجد عمل، وإنما يوجد سجن يعلمك الثقافة جيداً.

نظرات إليه نظرة حقد وكراهية وراحت تنقل نظراتها الحاقدة بين أمها وزوجها وأخيها وهي صامتة وبعد برهة.

قالت لهم بصوت مخنوق متقطع: يا لكم من أناس ظالمين لا ترحمون بل جلادين لا ترتوون من امتصاص الدماء.

نهض أخوها من مكانه وصفعها على وجهها صفعة قاسية، ولكنها لم تشعر بالألم بل ظلت مبتسمة ونظراتها الساخرة المتحدية ترمقهم بحدة.

فنهضت الأم وأبعدته عنها وهي تقول له: لا تغضب يا بني خذها معنا إلى القرية وأنهي الأمر، فهي لن تكف عن حماقتها هذه، وسوف تذهب معنا، فالتفتت سهير إليهم قائلة: لا لن أذهب معكم وأترك أولادي.

أجابها مراد إذا كنت تريدين حقاً البقاء مع أولادك فلا بد أن تنفذي جميع رغباتي وتطيعي أوامري.

ابتعلت سهير هذه الإهانة وضغطت على أعصابها، وقالت بصوت تخنقه العبارة: سأفعل ذلك، لفظت هذه الكلمة وكأنها تلفظ آخر أنفاسها.

كانت تشعر بصدرها يتمزق غيظاً، وروحها تكاد تحترق من القهر، لقد قهرت ولكن ما عساها أن تفعل؟ فأخوها يحاول إرغامها على ترك أولادها والعودة معه إلى القرية، هذه القرية التي أحرقت طفولتها وانتزعت منها سنين عمرها والآن تريد أن تنزع منها أطفالها الذين ضحت بكل شيء من أجلهم، وتحملت أشد أنواع العذاب منذ سنين طويلة،وتأخذ أجمل أحلامها، ولكن لا لن تدعها تسلبها كل ما جنت، لن تسمح لها بذلك.

التفتت إليهم وراحت تنقل نظراتها بينهم، نظرات فيها شر وحقد ووعيد وكانت تحدث نفسها وهي على هذه الحالة قائلة: لا لن أدع هذه الحشرات السامة تنتزع مني أطفالي وتحطم حياتي أكثر مما هي محطمة سوف أريكم أيها القذرون أقسم أنني سأنتقم منكم جميعاً، صبراً علي أيها الوحوش.

تنبهت أمها لهذه النظرات وقالت لها: سهير لماذا تنظرين إلينا هكذا؟ ماذا يدور في رأسك؟

فهمست: لا شيء.. لا شيء.. وبعد أن وافقت سهير على جميع طلبات مراد عادت الأم والأخ إلى القرية وبقيت سهير معتكفة في منزلها لا تخرج إلى أي مكان ولا تفعل شيئاً سوى تنفيذ أوامر مراد وكأنها آلة متحركة لا روح فيها ولا عقل، لقد استسلمت وكأنه قد حكم عليها بالإعدام.

استسلمت إلى جلادها، كانت تتحرك وتنفذ الأوامر دون إحساس أو تفكير، وحين تحاول التفكير كانت تعيش في صراع قاس، صراع بين الشر الذي زرعه في نفسها تصرف مراد، وبين الخير الذي فطرت عليه وتغذت روحها منه، وكان يرافق ذلك حزن عميق وكآبة تكاد تقتلع بريق عينيها الجميلتين، التي كان شعاعها يجذب الناظر إليها والتي توحي له بأن العالم كله بما فيه من فتنة وجمال في داخلهما قد ذهب هذا الشعاع واحتلت مكانه دمعتان تترقرقان فلا هما تسقطان ولا هما قادرتان على الجفاف لأنهما مثقلتان بالأحزان.

مضى أسبوع وهي على هذه الحالة لا هي تعيش بين الأحياء ولا هي تعيش بين الأموات حتى جاءت هدى لزيارتها فوثبت إليها تعانقها والدموع تملأ عينيها، والغصة تخنق عبراتها فدهشت هدى حين رأتها على هذا الحال، فسألتها مستغربة: سهير ما بك يا عزيزتي؟، ماذا ألم بك؟ ما لي أراك شاحبة اللون ذابلة الوجه؟ ثم لماذا هذه الدموع؟.

حالوت سهير الإجابة فخانها لسانها، وتجمدت الكلمات على شفتيها فلاذت بالصمت ولم تجب مما جعل الخوف والهلع يدبان في قلب هدى، فأمسكتها بكلتا يديها وجذبتها قليلاً برفق وقالت لها: سهير ما بك يا حبيبتي؟ قولي لي ماذا حدث فقد أقلقت خاطري، لماذا هذه الدموع يا حبيبتي؟ ولماذا عيناك فاقدة برقيها، ومثقلة بالحزن.

أجابتها بصوت متهدج: وهل كان للفرح في حياتي مكان يا هدى؟ إن حياتي كلها حزن وعذاب ولكني دائماً أخفي هذا الحزن وأضع مكانه الفرح.

قالت: لها أني أعلم ذلك يا سهير مهما حاولت إخفاء حزنك إلا أنه تبقى آثاره واضحة على وجهك ولكن قولي لي ما بك ولماذا انقطعت مدة أسبوع عن زيارتي؟

فحكت لها كل ما جرى لها، كانت الدموع ترافق كلماتها فاحتضنتها هدى إلى صدرها وطبعت قبلة على جبينها وجعلت تربت على كتفيها بحنان وهي تقول لها هوني عليك يا أختاه فالأمر لا يستحق كل هذا العذاب الذي أنت فيه، افعلي ما

يرضيه واصبري من أجل أطفالك وارفقي بشبابك، كانت هدى تقول لها هذا وقلبها يعتصر ألماً ويذوب إشفاقاً عليها.

فهي تعلم جيداً بأن ما تعاني منه سهير يفوق قدرة الإنسان على الاحتمال ولكن ما عساها أن تقول لها غير ذلك؟ ولكن سهير نظرت إليها نظرة شكوى، وكأنها تتوسل إليها بهذه النظرة بأن تحميها من عذاب الدنيا وغدر الزمان وقالت لها: أني تائهة يا هدى، أشعر وكأنني أتخبط في أعماق البحر، أشعر وكأن أمواجاً عاتية تكاد تبتلعني، إنني بدأت أخاف أفكاري التي أشعر بأنها ستقودني إلى عالم سحيق.

نظرت إليها هدى نظرة خوف وتعجب مما سمعت، فهذه أول مرة تسمع فيها سهير تتكلم بمثل هذه اللهجة.

قالت لها والخوف يستبد لها: سهير ما هذه اللهجة التي أسمعها منك؟ وما هذه العبارات الغامضة التي تنطقين بها؟ ثم تابعت قائلة: سهير كنت قوية دائماً ولا تهزك أية عاصفة تمرين بها بل صخرة من القوة والصمود ولم أعهد منك الضعف والاستسلام.

همست بصوت واهن: هذا كان قديماً يا هدى فقوة المطارق أفقدتني اتزاني ولم أعد أدري ماذا أفعل ولم أعد أعرف الصح من الخطأ فأرشديني أنت يا هدى إلى الطريق الصحيح.

كانت تتكلم بلهجة مؤثرة مما جعل الدموع تنهمر من عينيها، وشعرت بقلبها يتمزق ألماً على صديقتها.

أجابتها هدى قائلة: لا أدري ماذا أقول لك يا أختاه، لا أجد عبارة يمكن أن تساوي أو تصف مأساتك، فليس لدي ما أقوله سوى أن وضعك يلزمه صبر وكفاح طويلين.

أجابتها سهير من خلال دموعها: وهل يوجد صبر أكثر من صبري يا هدى؟ فأنا صبرت حتى عجز الصبر عن صبري.

أجابتها هدى لا تيأسي يا عزيزتي فلا ضيق إلا وكان بعده فرج، فحاولي مرة أخره واعمدي إلى تغيير أسلوبك معه لعله يجدي نفعاً، فالحرية يا عزيزتي طريقها

شاق، ويلزمها كفاح طويل وتضحية كبيرة، فأنت والحالة هذه كالإنسان الذي يحاول إخراج الماء من الصخرة، ثم هل كنت تتوقعين من زوج جاهل متخلف مثل مراد أن يعطيك حريتك بهذه السهولة؟ فمراد وأمثاله يلزمهم محاربة على جميع المستويات وإلى سنين طويلة حتى نستطيع التخلص من جهلهم.

قالت سهير: معك حق يا هدى فعل المرأة أن تكافح ولا تستسلم منذ الجولة الأولى.

قاطعتها هدى قائلة: هناك شيء آخر يجب أن تعلميه وهو أن حريتك لن تناليها دفعة واحدة وإنما على مراحل ومع مرور الأيام.

هزت سهير رأسها موافقة على كلام هدى، وبعد قليل انصرفت عائدة إلى بيتها حاملة معها هم وعذاب سهير.

أما سهير بعد هذه الزيارة فقد جلست تستعيد كلمات هدى المشجعة فأحست بأن القوة عادت إليها وأصبحت أكثر تصميماً على الاستمرار مهما طالت السنون، فالحرية أثمن شيء في الحياة بل هي تعادل الروح فلا حياة للإنسان دون حرية، وسهير تعشق الحرية وتكره الظلم والعبودية.

أما مراد فقد كان الظلم والتسلط يتمثلان به إلى درجة أنه كان يريد الاحتفاظ بها بالقوة، كانت سهير بالنسبة له دمية جميلة يتمتع بجمالها، يحركها كما يشاء، ولكن سهير لم تكن كذلك يوماً فقد كانت عقل يفكر وذكاء يخطط إلى جانب جمالها، وطموح ليس له حدود وهذا ما باعد بينهما أكثر.

مضت أيام عادت بعدها سهير تفاتح مراد بأمر الوظيفة، ولكنها لم تنل منه سوى ما نالت من قبل بل أكثر عنفاً مما جعلها تصرف النظر عن هذا الموضوع وتستعيض عنه بالهروب من البيت إلى صديقاتها حيث تنسى همومها ومشاكلها، ارتاحت كل الاتياح بعد هذه الهروب المؤقت الذي يجعلها تنسى أو تتناسى، وقد عودت نفسها على قبول هذه المتعة المؤقتة، وأرغمتها على ذلك، كانت تخرج دون علم مراد ورغم تحذيره لها بعدم الخروج خاصة إلى صديقاتها ولكنها رفضت تحذيره وخرجت ونظمت حياتها على هذا النحو، حيث كانت تقوم بأعمال المنزل في الليل وتهيء كل شيء حتى لا يبقى لديها عمل في الصباح فتقفل على أولادها الباب

وتخرج ثم تعود بعد ساعات لتجد الأولاد يلعبون ويلتهون بالألعاب التي وضعتها لهم، فيستقبلونها فرحين فتضمهم إلى صدرها، وتنهال عليهم تقبيلاً وقد اعتادت على هذا الوضع وكانت تشعر بالراحة التامة عندما ترافق هدى إلى زيارة صديقتها ليلى، وليلى هذه كانت خفيفة الظل مرحة، تجيد النكتة وتقليد اللهجات، حيث كانت تقلد كل لهجة من لهجات الأرياف والمحافظات، وكانت تبدع بتقليد اللهجة العراقية والحورانية، وكانت هدى وسهير تضحكان كثيراً وهما تستمعان إليها، وكانت سهير لا تضحك من أعماقها إلا إذا كانت ليلى موجودة ولكن حتى هذه الضحكة العابرة يخل عليها المجتمع بها، وأراد انتزاعها منها، حيث بدأوا يتحدثون عليها إلى أين تذهب وأخرى تقول أن زوجها لم يعد يعجبها فهي تبحث عن غيره، وتلك تقول أنها تتزين وتخرج كي تغري الرجال، أي مجتمع هذا، وأي قساوة؟ أنه لا يرحم فهو يحرمها من أبسط حقوقها رغم أنها لم تعد تطلب منه شيئاً سوى الهروب قليلاً من هذا الجحيم الذي تعيشه، فقد آلتها هذه الأقاويل، وعندما ذهبت إلى هدى لم تستطع إخفاء حزنها رغم ما بذلته من جهد كي تخفي ما يضايقها وظل أثر الحزن ظاهراً على وجهها وفي نبرات صوتها، الشيء الذي جعل هدى تلاحظ حزنها وتحس بآلامها فسألتها فوراً عن سبب هذا الحزن الذي يسكن عينيها فأجابتها سهير بمرارة: لست أدري يا هدى ما هو السبب أهو قدري القاسي أم المجتمع الذي يشبه وحوش الغابة؟

قالت: ماذا حدث يا سهير هل عادت المشاكل بينك وبين مراد من جديد؟ أجابتها: وهل انتهت المشاكل بيننا كي تعود من جديد؟ فأنت تعلمين أن مراد نفسه هو مشكلة المشاكل، قالت، طالما مشكلتك مع مراد مستمرة وشبه يومية فماذا حدث إذن وما هو الجديد الذي سبب لك هذا الحزن المؤلم؟.

إنه ليس بجديد إن قدمه منذ الأزل.

قالت: لست أفهم ماذا تعني، هلا أوضحت؟

همست سهير: أعني هل كانت مشاكلي يوماً سوى المجتمع؟

هذا المجتمع القاسي الذي لا يرحم سبب قهري، وقهر كل امرأة في عاداته وتقاليده البالية.

أجابتها هدى: سهير إنك اليوم تتكلمين بغموض وتقولين كلاماً مبهماً لا أفهمه تقاليد ومجتمع وما دخل كل ذلك بمشكلتك.

أجابتها: بل قولي أية مصيبة تحدث للفرد ولم يكن سببها المجتمع.

قالت هدى: ولكن نحن ألسناَ من هذا المجتمع؟

أجل نحن من هذا المجتمع ونشارك في ظلم الغير، ويأتي ظلمنا للفرد حسب ما نراه نحن، بل حسب ما تتطلبه أنفسنا الشريرة الحاقدة، فإما نحكم عليه بالإعدام أو بالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة.

نظرت هدى إليها نظرة نافذة وقالت لها: سهير نفذ صبري وضقت بفلسفتك هذه فإما أن تتكلمي جيداً وتحكي لي ما حدث أو تصمتين، ألأنت كلما صادفتك مشكلة جئت تحدثيني عنها وتطرحين مشاكل الفرد والمجتمع وتحولين الحديث إلى فلسفة ثم تابعت قائلة: يا امرأة ابحثي في مشكلتك أولاً وأوجدي لها حلاً، ثم فكري في مشاكل المجتمع وأضافت قائلة: هيا حدثيني عن مشكلتك فقط، واحذري الغوص فأنا لا افهم، قالت: حسناً سوف أحدثك عنها..

قاطعتها هدى قائلة: هذا عظيم هات ما عندك.

قالت سهير هل خروج المرأة من المنزل شيء يحط من الأخلاق؟ أجابتها هدى: هذا يعود إلى نوعية المكان الذي تذهب إليه، قالت: أنا مثلاً عندما أخرج من المنزل إلى أين أذهب؟ أجابتها هدى: طبعاً تأتين إلي أو إلى شراء حاجيات المنزل..

قالت سهير: وعندما آتي إليك ماذا نفعل؟ وإلى أين نذهب؟

قالت هدى: وما عسانا أن نفعل سوى أن نجلس هنا إلى جانب عملي ونتحدث أو نذهب إلى إحدى الصديقات ونمضي عندها ساعة من الزمن ثم تعود كل منا إلى بيتها ولكن لماذا هذا السؤال وهل عدت على إلقاء الكلمات الغامضة؟

أجابتها: لا لم أقل كلمات غاضمة بل أتساءل كيف ترمي الناس التهم وينفذوا حكمهم دون التأكد مما إذا كانت هذه التهمة صحيحة أو باطلة.

قالت هدى متهكمة ومن هو المتهم أيتها الفيلسوفة؟

قالت بمرارة: أنا المتهمة يا هدى واية تهمة هذه، إنها افظع تهمة، إنها تعادل كل ما نالني من تهم.

وما هي هذه التهمة؟

قالت سهير إنهم يتهمونني في شرفي.. في شرفي يا هدى.. تخيلي..

قالت هدى من يجرؤ على تناول سيرتك بالسوء؟

قالت: نساء الحي الذي أقطن فيه بدأن يتكلمن عني بالسوء ويشوهن سمعتي وتعلمين لماذا؟

قالت هدى: لماذا؟

قالت سهير: لأنني بدأت أخرج في الفترة الأخيرة من المنزل كثيراً، تخيلي يا هدى أن مجرد خروج المرأة من البيت يثير حولها الأقاويل ويضعها موضع اتهام، فهل يوجد قسوة أكثر من هذا؟ كانت سهير تتكلم بانفعال والدموع تكاد تطفر من عينيها..

أجابتها هدى: مهلاً.. مهلاً.. قولي لي أولاً من هو الذي نقل لك هذا الكلام؟

ابتسمت ابتسامة ساخرة فيها الكثير من المرارة وقالت: ليس المهم من قال لي، إنما المهم أنهم قالوا، ثم هل يخفى خبر في هذه الأيام؟

أجابتها هدى: ربما يكون من قال لك كاذباً..

قالت: لا ليس بكاذب لأن التي نقلت لي الخبر هي إحدى الجارات، إنها تعزني كثيراً، لقد نقلت لي الخبر بطريقة مهذبة جداً.

قالت هدى: وكيف؟

قالت: منذ أيام زارتني تلك الجارة وجلسنا نتحدث في أمور شتى وساقنا الحديث إلى العادات والتقاليد السيئة التي يتمسك بها المجتمع، وعن المرأة والقيود فقلت لها أن وضع المرا' يؤلمني جداً حيث يوجد نسبة كبيرة جداً من النساء مستسلمات لهذه القيود، ولا يبدون اعتراضاً أو تذمراً منها، وكأن الأمر طبيعي ولا يحتاج إلى نقاش أو تغيير أي شيء منه، إن هذا الاستسلام من المرأة يقتلني، يجب على كل امرأة أن تناضل وتكافح كي تصل إلى حقوقها، وعليها أن تطالب دائماً وباستمرار لعلها تحصل عليها يوماً.

فقالت لي الجارة: إن المرأة التي تبحث عن الحرية وتجري خلفها تتعب كثيراً وتهان كرامتها، وهذا يتطلب شجاعة، وهذه الشجاعة لا توجد لدى جميع

النساء، فقلت لها: ومن قال لك هذا الكلام؟ فالنضال ضد الظلم، والجري وراء الحرية هو الكرامة وهو الشرف..

قالت الجارة: وهل تستطيع المرأة أن تنال حقها أو تأخذ حريتها وهي خلف الستار وداخل الأقفال؟

فقلت لها طبعاً لا، يجب أولاً أن تمزق هذا الستار وتحطم تلك الأقفال..

أجابتني الجارة ومن هنا تبدأ معاناة المرأة..

فقلت لها: ربما ولكن هذا شيء طبيعي فالحرية يعارضها كثيرون لأنها تتعارض ومصلحة الرجل الذي لا يريد أن تفلت من يده هذه الجارية..

فقالت لي الجارة: هذا ليس كل شيء، بل هناك أشياء كثيرة تمر بها وعن طريق المرأة أيضاً.

قلت: كيف؟

قالت: سوف يتهمونها بأخلاقها، وينسجون لها ألف قصة وقصة، وها أنت قد نالك منها جزء.

قلت لها: أية قصص هذه التي نالني منها؟

قالت: خروجك من المنزل كثيراً أثار حولك الأقاويل، وبدأوا يتكلمون عنك.

قلت: وماذا يقولون عني؟

قالت: بالطبع لم يقولوا أنك تذهبين إلى الجامع كي تصلي، إنهم يتهمونك بأخلاقك ويشكون في سلوكك..

قلت لها: أنا لايهمني ما يقال لأنني أعرف نفسي جيداً، فأنا لا يهمني ويشغلني سوى قضية واحدة هي معاناة المرأة..

أجابت الجارة: ما تقولينه صحيح ولكن كلام الناس له تأثيره..

فقلت لها: إنهم سوف يغالطون أنفسهم لفترة، ويتكلمون علي ثم يكفون عن ذلك بعد أن تثبت لهم الأيام أنه ليس كل من خرجت من بيتها تكون سيئة، وأنني مثال الشرف والأخلاق الحسنة، إن المرأة السيئة الأخلاق تمارس ما تريد وهي داخل منزلها حتى ولو وضع عليها مئات الأقفال، فالمرأة الخلوقة هي التي تحفظ نفسها والمرأة السيئة لا يستطيع أحد منعها من فعل شيء.

قالت هدى: للأسف أن هذا ليس بغريب على مجتمعنا، بل إنه شيء طبيعي لأن كل فرد يحلل لنفسه ما يحرمه على غيره، كل فرد يستعمل حريته كما يريد وبعيداً عن الأنظار، فهزت سهير رأسها وتنهدت بعمق ثم همست: أجل هذا ما يحدث..

قالت هدى: إذن يجب أن لاتغضبي مرة ثانية إذا سمعت أقاويلاً من هذا النوع. قالت سهير أنا لست غاضبة يا هدى وإنما متألمة على هذا المجتمع ومشفقة على الفرد الذي هو الضحية دائماً.

فابتسمت هدى وقالت محاولة إنهاء المناقشة لأنها أحست بأعصاب سهير المتعبة: دعينا من هذا الموضوع وحدثيني في موضوع آخر..

قالت وهل هناك موضوع أهم من هذا؟

قالت هدى أرجوك أن تنسي هذا الموضوع وعودي إلى مرحك فأنت لا يليق بك الحزن.. يجب أن تنسي هذه الدراما التي عشت معها ساعة كاملة..

وهكذا انتقلتا إلى حديث المرح والضحك وبعد قليل عادت سهير إلى المنزل وهي مرتاحة النفس ولكن رغم هذا الارتياح الذي يبدو عليها وهي بين صديقاتها ورغم الانطلاق والحياة الاجتماعية التي تعيشها كانت في أعماقها غير راضية، لأنه ليس هذا ما كانت تحلم به وتتمناه، فهي لم تفكر يوماً أن تعيش هكذا دون هدف، ولكن ليس باليد حيلة، فكل ما تستطيع فعله هو الدفاع عن آرائها بحوار أو مناقشة، وأحياناً تثور في وجه مراد الذي يمثل الرجل المتعصب بكل معناه، وإذا لزم الأمر تثور في وجه أهلها، ولكن ضمن حدود المرأة الشرقية.

* * *

الفصل الخامس

في هذه الفترة جرت حادثة لسهير، كانت الأولى من نوعها، حدث ذلك في ذات صباح حيث ذهبت على السوق لتبتاع بعض الحاجيات وإذا بها ترى ممدوح يقود سيارته الصغيرة.

ممدوح صديق مراد المقرب، كان طويل القامة، ضخم الجثة، أسمر اللون يفتقد الوسامة والجمال، ولكنه كان لبقاً في حديثه، لطيف المعشر، وكان عمره يقارب الخامسة والأربعين وكان يتردد كثيراً على منزل مراد، ويقدم له خدمات عدة، وكانت سهير تحترمه وتقدره كأب لها، أما ممدوح فقد كان اعجابه بها يتعدى الأخوة والأبوة، حيث كان لا يدع مناسبة تفلت منه إلا وليثني عليها أمام مراد وخاصة عندما يشكو مراد منها أمام ممدوح، فقد كان ممدوح يقول له أن سهير امرأة ليست ككل النساء فهي ذكية مثقفة، خلوقة، طيبة القلب، لطيفة المعشر، والأجمل من هذا كله أدبها وذوقها، ثم هي ست بيت من الدرجة الأولى، فيقول له مراد، لست أدري لماذا أنت دائماً تقف إلى جانبها وتبالغ في الدفاع عنها، فيجيب ممدوح: أنا لم أبالغ بل أقول الحقيقة، فأنت يا مراد إنسان مفتري، أين ستجد امرأة مثلها؟ كف عن هذا الافتراء يا رجل، فأنت محظوظ ولكنك لم تقدر ذلك، فيقول له: بل أنت ضعيف النظر يا ممدوح، وممدوح هذا كان شديد التعاسة مع زوجته وكانت سهير تستمع إليهم وهي صامتة، تنظر إلى الاثنين نظرات ليس لها معنى وابتسامة صفراء مرسومة على شفتيها، فهي لا يبهجها مزاح ممدوح ولا يزعجها شكوى مراد، لأن رأي كليهما لا يعني لها شيئاً، فهي مقتنعة بما تفعل، وراضية عن نفسها لأنها تعرف ماذا تريد وإلى أين تسير رغم تردد ممدوح إلى بيت مراد وصداقته بالأسرة، إلا أن سهير حين رأته صدفة في طريقها وهي ذاهبة إلى السوق أشاحت بوجهها عنه وكأنها لم تره، لقد فعلت ذلك لأنها لا تحب الحديث مع أي رجل في الشارع حتى لو كان قريبها، لقد أشاحت بوجهها وظلت متابعة سيرها ولكنها لم تسر عدة خطوات حتى سمعت صوت ممدوح يناديها: سهير..

سهير فالتفتت إليه وجعلت نفسها وكأنها فوجئت بـه، فتصـنعت الدهشـة وقالـت: من؟ ممدوح؟..

فمد يده وصافحها وهو يقول: كيف حالك؟

أجابته إنني بخير، كيف حالك أنت؟

قال إنني على أحسن حال، ثم سألها عن مـراد والأولاد، فـردت عليـه أنهـم جميعاً بخير..

قال لها: إلى أين أنت ذاهبة؟ هل أوصلك إلى المكان الذي تريدينه؟

قالت له: لا أشكرك لا حاجة على ذلك فأنـا ذاهبـة إلى السـوق كـي أشـتري بعض الحاجيات.

قال لها: حسناً أوصلك إلى السوق.

قالت: لا ليس هناك حاجة إلى السيارة، وحين يئس مـن ركوبهـا معـه، قـال لها: لقد ذكرتيني فقد قال مراد مرة أمامي أنكم تريدون شراء دولاب ملابس.

قالت صحيح ولكن إذا وجدنا دولاباً رخيصاً وجيداً..

قال: يوجد طلبكم هذا لدى صديق لي.

قالت: إذن مر علينا هذا اليوم بعد العصر، حيث يكون رماد قد عاد من عمله كي نذهب ونراه.

قال لها: ولماذا تنتظرين مراد فنحن قريبون مـن منـزل صـديقي، تعـالي معـي كي أريك إياها، قالت له: لا أستطيع لأن مشواري هذا أهم، ونحن لسنا مستعجلون على شراء الدولاب.

قال: ولكن تستطيعي أن تنهي المشوار الأول والثاني معاً فبيت صديقي قريـب جداً كما قلت، ولن يستغرق الذهاب إليه وقتاً طويلاً بل لا يزيد عن نصف ساعة.

حاولت التخلص منه ولكنه ألح عليها وعندما رأت سـهير هـذا الإلحـاح منـه بدأت تشك به فإلحاحه زرع الشك في نفسها وأخذت تتحدث مع نفسها قائلة: لماذا يلح علي هكذا؟ ثم لماذا لا ينتظر عودة مراد ولكنه أيقظها من تفكيرها وهو يقول لها: ها ماذا قلت؟

قالت له: لا أستطيع لأنني يجب أن أعود إلى المنزل سريعاً حيث سيأتي الأولاد من المدرسة والباب مقفل.

قال: ولكننا لن نتأخر كلها نصف ساعة فقط وتعودين، ثم هذه ليست بحجة إلا إذا كنت خائفة.

فأجابته بلهجة الواثقة من نفسها: أنا لست خائفة منك ولا حتى من غيرك، ثم أنك بالنسبة لي أخ كبير بل أب لأنك بعمر والدي.

لم تردع هذه الكلمة نفسه الخبيثة فقال لها: إذن تعالي معي.

أجابته متحدية: حسناً سآتي معك.

قالت هذا وتقدمت نحو السيارة رغم شعورها بعدم الارتياح لتصرفه هذا، إلا أنها ذهبت معه، بل تحدته لأنه قال لها أنت خائفة، فهي لا تحب أن تكون موضع ضعف وخوف ولا تحب هذه النظرة لها من قبل رجل، فهي تحدته، وذهبت معه لتثبت له أنها ليست ضعيفة ولا تعرف الخوف فماذا عساه أن يفعل معها؟ صعدت إلى جانبه وهي تقول: أسرع كي أعود في الحال.

دار محرك سيارته وانطلق بها دون أن يجيبها وكان خلال الطريق يحادثها في أمور عادية وكانت تشعره بأنها طبيعية وغير خائفة ولكنها كانت في قرارة نفسها خائفة وقد ندمت على تهورها وصعودها معه في السيارة، ولم يطل بهما الطريق حتى وصلا، فقال لها هيا بنا لقد وصلنا، نزلت دون تعليق وتبعته فأدخلها في عمارة كبيرة مؤلفة من خمسة أدوار، ولكن الذي يدخل إليها يشعر بأنها خالية من السكان، فهي لم تر أحد ولم تر طفلاً في مدخلها ولم تسمع صوتاً منبعثاً من داخلها، فقد أحست برعشة خفيفة ولكنها تبعته وهي صامتة فهي لم تعد تستطيع التراجع ولا تريد أن يشعر أنها خائفة، وعند الطابق الثالث توقف وأخرج من جيبه مفتاحاً. وعندما رأته يخرج المفتاح من جيبه، حدقت به بعينين امتزج فيهما الخوف والدهشة، فقالت له متسائلة: هل هذا هو المنزل؟ قال: أجل.

قالت: ولكن لماذا أخرجت من جيبك المفتاح؟

قال لها: لقد تذكرت أن صديقي ليس هنا وقد أعطاني المفتاح، فنظرت إلى الباب بسرعة فوجدت لوحة ملصقة على الباب كتب عليها الدكتور أشرف قزاز، وهذا اسم عائلة ممدوح.

فالتفتت إليه بسرعة وقالت له بلهجة جافة: ممدوح أن هذه عيادة وليست منزل سكن، وهذه العيادة هي لأخيك، إذا لم أكن مخطئة.

فأجابها: أجل إنها عيادة أخي ولكن هذا لا يمنع أن يكون فيها خزانة للبيع.

فقالت بحدة: يا لك من وقح ألا تخجل وأنت تقول هذا؟ ألم تقل لي أن الخزانة لأحد أصدقائك؟ أجابها بكل صفاقة:

وماذا يهمك؟ إذا كانت لي أم لأحد أصحابي؟ فأنا سأريك إياها.

فقالت له: تباً لك وإلى تلك الخزانة، فأنا لا أريد أن أراها.

قالت هذا وحاولت العودة، ولكنه كان قد فتح الباب فقبض على كتفيها ودفعها بقوة إلى داخل الشقة، حاولت التخلص من بين قبضتيه فلم تستطع لأنها لم تتوقع منه هذا الهجوم، فقالت له: يا لك من مخادع كاذب، لا تستحق سوى اللعنة ولكنه لم يجيبها وظل يدفع بها حتى أصبحت داخل الشقة، وأغلق دونها الباب.

هنا شعرت بالخطأ، وأدركت أنها وضعت نفسها في مأزق، هي كانت في غنى عنه، فنظرت إلى الباب نظرة يأس وقنوط، فرأته ضخماً وله قفل خفي لا يفتح إلا بمفتاحه الخاص.

أحسست بأن أعصابها قد انهارت، نظرت إلى الأعلى وكأنها تستمد القوة من ربها وتطلب منه العون، ثم قالت: رباه أنقذني من بين يدي هذا الوحش، وانتشلني من هذا المكان وأعطيني القوة، رباه إني عشت عمري كله شريفة نقية فلا تفضحني الآن، فماذا يبقى لي لو استطاع اغتصابي، ثم لعنت نفسها قائلة: ويحي أنا ماذا أتى بي إلى هنا ثم عادت وقالت لنفسها ويحي أنا ماذا حل بي ولماذا هذا الضعف والانهيار فإذا لم أدرك نفسي فقد يقضي علي وأخسر كل شيء بعد هذه المناجاة، شعرت بأعصابها قد هدأت وأفكارها قد تجمعت كأن الله سبحانه وتعالى قد استجاب إلى دعائها وتوسلها فأعطاها قوة هائلة وفكر لا يعرف التشتت والضياع،

فوقفت خلف الباب وقفة ثابتة وسلطت عليه نظرات قاسية وقالت له: ممدوح افتح لي الباب ودعني أخرج يكون هذا أفضل لك، قال لها ببرود وكأنه لم يسمع ما قالت لماذا أنت واقفة خلف الباب هكذا تعالي معي أريك الخزانة.

أجابته بحدة: يا لوقاحتك هل عدت إلى نغمة الخزانة التي اتخذتها حيلة كي تأتي بي إلى هنا؟

أجابها ببرودته المعهود: أنا جئت بك إلى هنا كي أريك الخزانة ويجب أن تدخلي الغرفة وتشاهديها. فصرخت به قائلة: أنا لا أريد أن أرى شيئاً لعنة الله عليك وعلى تلك الخزانة دعني أخرج وإلا صرخت بأعلى صوتي وجمعت عليك الجيران.

رماها بنظرات مكر، وقال بلهجة المنتصر، مهما صرخت لن تجدي من يسمع صراخك حيث هنا لا يوجد في البناية سكان كما أن هذه الشقة منعزلة ولا أحد يسمع ما يدور في داخلها فحدقت به بعينين يتطاير منهما الشرر وقالت له: يا لك من وغد حقير خائن لا تصون الصداقة والعشرة كيف تسمح لنفسك بأن تخون صديقك وهو الذي ائتمنك على بيته؟ كيف تتصرف معي هكذا وأنا التي اعتبرتك أخاً لي. كيف أيها الحشرة السامة؟.

فلم يجبها ممدوح واقترب منها وأمسكها من يدها وقال لها: قلت لك تعالي معي إلى الغرفة ولا تخافي سوف أريك الخزانة.

فقالت له: ويحك أيها الرجل ألا تفهم ما أقول لك؟ أخرجني من هنا ولا أريد أن أرى شيئاً، إنك تعيد علي هذه الكلمات، أتحسب أن أمامك امرأة ساذجة؟ لا تفهم ما يدور في نفسك الخبيثة وما يكفر به عقلك الفاسد، فلم يجبها وهجم عليها كالوحش يريد ادخالها الغرفة بقوة، كما أدخلها الشقة، فصرخت به بدون وعي قائلة: ابتعد عني أيها الوغد ولا تلمسني، ولكنه لم يسمع صراخها وقبض بكلتا يديه على كتفها وجعل يدفع بها بقوة نحو باب الغرفة وهو يقول لها: يجب أن تدخلي الغرفة، ولكن سهير وضعت ظهرها على الباب وثبتت قدميها في الأرض وجعلت تقاوم بكل ما تملك من قوة وهي تقول له: خسئت أيها الوغد أن أدخل معك الغرفة لن أدعك تنال مني شيئاً.

فقال لها: سهير: قلت لا تخافي تعالي معي إلى الغرفة لأن لدي كلام كثير أريد أن أقوله لك.

قالت له: وماذا تريد أن تقوله لي؟ فأنا لا أريد أن أسمع منك شيئاً، دعني أخرج، افتح لي الباب.

قال لها: لن أفتح لك الباب قبل أن تدخلي معي الغرفة وتسمعي ما أقول.

قالت له: وما عساك أن تقول؟ قل هنا كل ما تريد قوله.

كانا يتكلمان وهما في معركة، هو يدفعها بكل قواه وهي تصده بكل ما آتاها الله من قوة ولم يستطع زحزحتها عن مكانها متراً واحداً وكأن الله قد أعطاها قوة أكثر من قوة مصارع وحين عجز عن إدخالها ترك قبضته وابتعد عنها قليلاً، وقال لها، سهير.. سهير: أرجوك أن تكفي عن العناد، وتدخلي معي الغرفة فأنا أريد أن أكلمك فقط، أريد أن أبثك كل ما في قلبي من مشاعر وأحاسيس، فقالت له: تباً لك فأنا لا أريد أن أسمع منك شيئاً، وجعلت تطرق على الباب بقوة وتصرخ النجدة.. النجدة..

فاقترب منها ثانية وأمسك يديها وهو يقول: قلت كفي عن هذا فلن يسمعك أحد، قالت له: لا بأس، ماذا تريد مني ولماذا تفعل بي هكذا؟

قال لها: أريد منك أن تدخلي معي إلى الغرفة كي أتحدث معك قليلاً بل كي أبثك حبي، قالت له متعجبة: تبثني حبك؟ أي حب هذا؟ وأي غرام الذي تتحدث عنه؟ أتظنني فتاة عزباء؟ جئت تحدثني عن الحب والغرام، أو كأنني لست متزوجة، بل ولست زوجة صديقك، ثم لو افترضنا أنك فعلاً تحبني وجئت بي كي تبث لي هذا الحب أليس الأجدر بك أن تتحقق من مشاعري نحوك وهذا الأمر ليس بعسير عليك، ولكنك قذر دنيء اللعنة عليك وعلى حبك هذا، أجابها بتوسل قائلاً: سهير: أرجوك لا تكوني قاسية علي هكذا، فأنا أحبك وقلبي يكاد يذوب إشفاقاً عليك.

قالت له: أرأيت كيف أنك لا تحبني، فأنت تشفق علي من أفعالك، تشفق علي من نفسك الشريرة، ولو كنت تحبني فعلاً لما كنت أقدمت على هذه الفعلة، أنت تشتهي جسدي فقط.

قال لها: سهير، انظري إلى هذا الوجه الجميل، كيف شحب لونه وهذه العيون كيف فقدت بريقها، تعالي، اغسلي وجهك وانظري إلى لونك في المرآة فرأت سهير التأثر في نبرات صوته والعطف في كلماته فحاولت الاستفادة منها فقالت له: ممدوح أرجوك أن تفتح لي الباب وتدعني أخرج فأنا لا أريد أن أرى نفسي، لا أريد.

قال لها: سوف أفتح لك، ولكن أولاً تعالي اغسلي وجهك وانظري إليه في المرآة. قالت له: بعصبية: قبح الله وجهي وجمالي فلا أريد أن أغسل وجهي ولا أراه، لا أريد، لا أريد، أريد فقط أن أخرج من هنا، أكاد أموت، قالت هذا وترقرقت الدموع في عينيها، فازداد تأثره عليها فلم يجب بل تركها وسار في الرواق الطويل ودخل الغرفة، وجلب منها كرسياً ووضعه خلف الباب وقال لها برقة: سهير اجلسي على هذا الكرسي، فجلست دون أن تتفوه بكلمة، ووضعت رأسها بين يديها وجعلت تفكر بهذه العصبية التي هي فيها، أما ممدوح فقد ركع على ركبتيه أمامها ومد يده وأمسك يديها في رفق وقال لها: سهير أرجوك أن ترحميني، أنا أحبك وأتعذب من أجلك، سهير أنظري إلي نظرات عطف وقبل أن يكمل كلامه سحبت يدها من يده دون كلام، فلم يحاول هو أخذ يدها وظل يتابع كلامه قائلاً: سهير أنظري إلي، بل دعيني أنا أنظر إلى وجهك، دعيني أنظر في عيونك، فأخفت سهير وجهها براحة يديها كي لا يرى دموعها التي كادت أن تنساب على خديها وأن لا يشعر بضعفها فهي لا تريد أن يراها ضعيفة ولكن ممدوح شعر بانهيارها ورآها ترتعش كالطير الجريح، فقال لها بلهجة صادقة: سهير لماذا تر تجفين ويداك أصبحتا كقطعة ثلج؟ سهير هدئي من روعك سوف أفتح لك الباب، اهدأي قليلاً وأريحي أعصابك المتوترة، فأنت لا تقدرين على الوقوف.

قالت له بحدة: لا عليك، أنت افتح لي الباب وأنا أرتاح.

قال لها لا يا سهير: أنت متعبة، كيف تخرجين إلى الشارع وأنت ما زلت ترتعشين كورقة في مهب الريح؟ فرفعت يديها عن وجهها وقالت له: أنا بخير، افتح لي الباب. قال لها: سهير أرجوك أن ترحمي نفسك وتعرفين أنني أتألم عليك. قالت له بعتاب: لو كنت حقاً تتألم من أجلي لما كنت فعلت بي هذا لما كنت

أقدمت على هذا التصرف الأحمق وكنت تركتني أخرج ثم حاولت استعطافه قائلة: ممدوح: ارحمني ودعني أخرج فأنت لن تستطيع النيل مني حتى لو أبقيتني هنا دهراً، أسمعت لن تستطيع، ثم تحولت لهجتها إلى تهديد ووعيد وقوة أيضاً، حين قالت له وإذا أخرتني أكثر من هذا فسوف تكون عاقبتك وخيمة ولسوف تندم على ما فعلته بي فأنت لست شخصاً غير معروف من قبل زوجي وإذا علم مراد بما حدث فأنت تعلم ماذا يكون عقابك، حين لمس ممدوح إصرارها وأدرك أنه لا فائدة من كل محاولاته، قال لها حسناً سوف أفتح لك الباب، هل أنت قادرة على السير؟

قالت له بفرحة: أجل فأخرج من جيبه المفتاح وفتحه.

فخرجت بسرعة وكأنها خافت أن يتراجع عن وعده، لقد أصبحت في الشارع وهي لا تصدق أنها قد خرجت من هذا البيت اللعين سالمة دون أن يمس شرفها، وقبل أن تتركه التفتت إليه وقالت له: ممدوح إذا كنت تظن أنني امرأة سهلة المنال تكون مخطئاً وإذا كنت أعاملك بلطف وأرحب بك في بيتي فهذا لأنني اعتبرك أباً أما بعد هذا أحذرك من أن تدخل بيتنا، وتركته قبل أن تسمع منه جواب. في اليوم التالي سقطت طريحة الفراش وظلت تعاني الحمى والآلام طوال أسبوع دون أن يعلم أحد سبب مرضها، وبعد أن تعافت من المرض، جلست تخط رسالة إلى كمال وتشكو له همومها وتحكي له ما جرى لها من ممدوح فهي رغم مرور خمسة أعوام على رحيل كمال لم تنس حبه بل كان مصدر قوتها فإذا أحبت تحب بصدق وعنف، تحب بكل عواطفها النبيلة، بكل مشاعرها الرقيقة بكل ما يحمله قلبها من مشاعر، إنها تحب حتى الموت، وإذا كرهت تكره بكل مشاعرها، لذلك لم تستطع السنين أن تنسيها حب كمال بل كان يعيش في داخلها يعيش في وجدانها في أعماقها كان رفيق خلوتها، حيث تشكو له متاعبها حتى عندما كانت تقاوم ممدوح كان طيفه ماثلاً أمامها وتستمد من هذا الطيف القوة، كانت رسالتها هذه فيها الشكوى وفيها حب متدفق، فقد جاء في أول الرسالة عبارات الحب الذي يغزو أعماقها، بدأت الرسالة قائلة: حبيبي كمال: بهذا اللفظ السماوي أخاطبك وبهذه الكلمة العذبة أبدأ حديثي معك لأبثك حبي وهيامي ولكن كلما أمسكت بالقلم انتابتني رعشة، أدع معها كل شيء وأسبح مع طيفك الغالي الذي يقترب مني ويعانق روحي وينسيني ما

بدأت به، أكتب إليك أيها الحبيب من هنا، من وحدتي القاتلة، وليلي الطويل، أكتب إليك وأنا منزوية في غرفتي، أحترق بنار الفراق الملتهبة، ولهفة الشوق المحرقة تلهب صدري، وأعاني مرارة الحرمان، أبكي فراقنا وأبكي استحالة لقائنا وأعيش على ذكرى كل همسة حب همسنا بها، وكل نظرة شوق نظرنا بها، إن هذه الذكريات تهيج أشجاني وينبض لها فؤادي ويطفر لها الدمع، حبيبي: إنـي لأشعر بعجز عما أريد ثوله لأن الحب إذا ما فاض في القلوب يخرس اللسان وتتلاشى العبارات أمام عظمة الحب فيصبح الصمت هو خير معبر عما في القلوب وأنا أشعر بأن حبي لك أكبر من الكلمات وشوقي إليك أعظم من أي وصف، فالحب الصادق أقوى من الحياة ذاتها بل ما قيمة الحياة بدون حب وما لذة الأيام دون انتظار وشوق يلهب الفؤاد؟ فحياة الإنسان بلا حب كالليل بلا قمر، والوردة بلا شذى، الحياة بلا حب كالمريض الذي لا دواء له، فالحب هو استمرار الحياة وأنا أحبك يا كمال، أحبك بعقلي، وقلبي، أحبك بكل ما تحتويه هذه الكلمة، أحبك حب مراهقة مندفعة بلا تفكير، أحبك بعواطفي الناضجة التي تعرف معنى الحب لذلك لم أنساك أيها الحبيب لحظة، ولم يغب رسمك عن خاطري رغم الحياة القاسية التي أعيشها ورغم مرور السنين الطويلة على فراقنا، فقد مضى على فراقنا خمس سنين لم أراك فيها سوى مرة واحدة فلماذا هذا الانقطاع يا حبيبي؟ إن الانتظار قاس، ولكن حبنا أكبر من الانتظار، وأقوى من الفراق وأخيراً لك مني كل الحب والشوق.

حبيبتك سهير

مضى أسبوع على إرسال الرسالة هذه الرسالة، فلم يصلها جواب وتلاه الأسبوع ألآخر وأيضاً لم تصلها رسالة وهذا ما لم تتوقعه من كمال، حيث كان يراسلها باستمرار وانقطعت رسائل كمال عنها ولم تعد تعلم عنه شيئاً.مضت الأيام مثل سابقها مملة، ثقيلة، كأنها الجبال على قلبها، فتدفع اليوم دفعاً عله يأتي يوم أفضل ولكن من أين للتعيس السعادة؟ فكأن القدر قد أقسم أن لا يدعها تعرف الهناء ولا تذوق طعم السعادة، حيث ساقها إلى طريق لا تحب السير فيه ولا حتى تحب مجرد التفكير فيه، لأنه مناف لطبيعتها، ولكنها سيقت إليه مرغمة، ومراد هو الذي أرغمها على فعل ذلك، حيث منعها منعاً باتاً من زيارة صديقاتها، حدث هذا في

ذات يوم عندما عاد من عمله فلم يجدها في البيت، وحين سأل الأولاد عنها قيل له: إنها خرجت ولا يعرفون إلى أين فجلس ينتظرها وهو يكاد يتمزق من الغيظ، ولم يطل انتظاره حتى عادت سهير ولم تكد تفتح الباب وتضع رجلها داخله حتى رأت حذاء مراد، فتلون وجهها وخفق قلبها، وقالت لنفسها ماذا أتى به الآن فهو لا يأتي في مثل هذه الساعة المبكرة؟.

انقبض صدرها واضطربت، لقد خافت الاصطدام معه في مشاجرة لها أول وليس لها آخر، ولم تكد تغلق الباب حتى خرج من الغرفة، وانتصب أمامها كالقدر المحتوم وملامح الشر بادية على وجهه، فرماها بنظرة قاسية وقال لها بحدة: أين كنت؟ أجابته والخوف يملأ قلبها: كنت عند هدى، قال لها بصوت جاف: ولماذا خرجت دون إذني؟ ألم أقل لك ألا تخرجي إلا إذا أنا أذنت لك؟ أجابته بصوت خافت: ولكن لو طلبت منك هذا لما أذنت لي بذلك.

قال لها بعصبية: تعلمي أنني لا أوافق على ذلك وخرجت، إذن أنت تتحديني، أو أن رأيي ليس له عندك قيمة، تخرجين متى تشائين وتعودين وقت تشائين.

فصمتت ولم تجب، فصرخ بها قائلاً: لماذا تفعلين ذلك؟ أجيبي أيتها المرأة الفاسقة، إنك امرأة منحطة وساقطة، وأردف قائلاً: إن المرأة التي تخرج من بيتها كل يوم ليس عندها شرف ولا أخلاق، ألا تستحي بعد؟

قالت له: والدموع تنساب على خديها أن الإنسان الذي ليس لديه أخلاق ولا شرف هو الذي يتلفظ بمثل هذه الكلمات لأن الإنسان الذي لديه كرامة لا يهين كرامة الآخرين، قال لها أتقصدين أنه ليس عندي كرامة؟

قالت وهي تضغط على أعصابها كي لا تفلت منها وتقول له أكثر من ذلك: إفهمها كما تحب، فهجم عليها وانهال عليها ضرباً وشتماً وكلاماً بذيئاً، وهي صامتة غير قادرة على الكلام ولا حتى الدفاع عن نفسها.

مضى أسبوع على هذه الحادثة تعيش شبه سجينة، لا تخرج ولا أحد يزورها ففاض بها ولم تعد تحتمل هذا الوضع.

فقالت لنفسها: لم يعد أمامي سوى الطلاق ولأول مرة تفكر في الطلاق، وحاولت تنفيذ هذه الفكرة فحين تشاجرا مرة أخرى.

قالت له: مراد أنا لم أعد أحتمل هذه الحياة معك، طلقني ودعني أذهب في حالي.

أجابها وأنا ايضاً مللت الحياة معك، ولم أعد أحتملك، فأنت امرأة لا تطاق ولا يستطيع أي رجل تحملك.

فذهبت إلى أهلها غضبانة وحكت لهم ما جرى، فأرسلوا في طلب مراد كي يفهموا منه حقيقة الأمر ولكن مراد لم يقل لهم ما حدث بل أضاف أشياء لم تحدث واتهمها بأشياء كاذبة حيث كان يشير إلى تصرفاتها بالسوء، وكاد أن يتهمها بشرفها وسألوا عن رأيه في الطلاق فقال مراد: إني موافق، ولكن لن أعطها الأولاد.

فقالت له سهير: هذا لا يحق لك لأن حضانة الأولاد من حقي وأنا لن أتخلى عنهما مهما كلفني الأمر.

أجابتها الأم قائلة: ومن قال لك أنت تريدين الأولاد فالحقيقة ليس في مقدورنا الإنفاق عليهم.

أجابتها: أنا لا أتخلى عن أولادي لأنني لا أستطيع الحياة من دونهم، قالت الأم بلهجة جافة: اختاري أحد الأمرين: إما أولادك وإما الطلاق، فإذا كنت ترغبين في الطلاق فلا تفكري في أولادك فإذا كان مراد قد تخلى لك عنهم فأنا لا أوافق على احتضانهم.

فقالت لها سهير: لماذا يا أماه؟

قالت الأوم: الأمر بسيط وهو أنك لن تبقي مطلقة سوف نزوجك فور طلاقك.

أجابتها: ولكن لا أريد الزواج وإنما أريد أن أبقى مع أولادي فقط وسأعيش حياتي لهم ومن أجلهم.

قالت الأم، ولكن أنا ليس لدي بنات تطلق وتظل عندي، وأضافت لو أنا وافقت على طلبك هذا واحتضاني أطفالك الآن فلن يدوم هذا طويلاً فسوف تنتهي حضانتك لهم ثم يعودن إلى والدهم ويكون قد ضاع تعبك وعمرك أيضاً دون فائدة.

كان أهلها يضغطون عليها كي تعيش مع مراد عن طريق الأولاد وهذا ليس كرها فيها وإنما حفظاً لكرامتهم، لأنهم يعتقدون أن طلاق البنت بعد الزواج يسيء إلى سمعة الأهل وكان مراد أيضاً يرغمها على العيش معه عن طريق الأولاد، لأنه يعلم كم هي تحبهم ومتمسكة بهم، فتمسك هو بهم كي يجبرها على العودة إليه والرضوخ لأوامره فهو لا يريد طلاقها وربح مراد الجولة الأخيرة كما كان يربحها دائماً فقد رضخت لمطالبه وتراجعت عن هذا القرار وعادت معه حزينة مكسورة الخاطر، ممزقة القلب، ولكنها أصبحت أكثر كرها ونفوراً لمراد وأكثر مقتاً ونقمة على أهلها الذين لم يقفوا إلى جانبها ومساعدتها على الخلاص من هذا الوحش الذي مزق جسدها بأنيابه، عادت وهي أكثر سخطاً على هذا القدر الذي رماها بين يدي أناس ليس في قلوبهم رحمة ولا شفقة.

وما لبثت هذه النقمة والسخط أن تحولت إلى أفكار سوداء تراودها، بل فكرة واحدة وهي الانتقام منهم جميعاً.

وبدأت تفكر في طريقة تستطيع الانتقام.

مضت أسابيع قليلة على عودتها وهي دائمة الحزن كثيرة التفكير، وكان تفكيرها محصوراً في دائرة الانتقام، وبالرغم من زيارات هدى وليلى إليها والجهد الذي بذلتاه كي تخففا عنها، إلا أنها ظلت مستسلمة إلى أحزانها، تفكر في طريق الانتقام وظلت هكذا حتى جاء يوم ذهب فيه مراد دون أن يؤمن لهم الخبز، فاضطرت أن ترسل إبنها عمر كي يشتري خبزاً وبعد غياب أكثر من ساعة عاد دون أن يجلب الخبز معه لأنه لم يستطع الحصول على خبز من شدة الزحام، فتضايقت وكادت أن تضرب عمر، ثم ارتدت ثيابها وذهبت إلى الفرن الذي في جوارهم، فلم تجد فيه خبز فتابعت طريقها إلى فرن آخر في حي ثان يبعد قليلاً عن بيتها كان هذا الفرن مبنياً على الطريقة الحديثة فينتج خبزاً يعادل ثلاثة أضعاف الفرن العادي، عندما بلغت هذا الفرن وجدت أمامه طابوراً من البشر، وهم يتزاحمون كل واحد يحاول القفز من فوق كتف الآخر، والباب مغلق وصاحب الفرن جالس في الداخل فوق جام زجاج وهو يقول لهم من خلف الزجاج هدوء يا أخوان، وكل واحد يقف في النظام ينتظر دوره ريثما ينضج الخبز، بينما هو يخاطب هذا الحشد من الناس

وإذ به يرى فاتنة تقف أمام الزجاج بعيداً عن هذا الحشد وشعرها الأشقر مسترسل على كتفيها تتلاعب بخصلاته نسمة هواء ناعمة فكف عن الكلام وجعل يحدق بها ويتأمل مفاتنها فينقل نظراته من قوامها المتناسق إلى جمال وجهها وهو يقول: يا إلهي كم هي فاتنة أنني لم أر مثل هذا الجمال قط، وأطال النظر إليها وهي واقفة تفكر كيف ستحصل على خبز، ومتى سيأتي دورها هذا وهل سيبقى الخبز على أن يصلها الدور؟ فأخذت تفكر في العودة دون خبز وبينما هي مترددة بين العودة والانتظار وإذ بها ترى صاحب الفرن يشير إليها بالدخول، في بادئ الأمر لم تظن أنه يشير إليها فظلت على وقفتها، فعاد وأشار إليها بيده فاستغربت هذا التصرف واحتارت ماذا تفعل فقد أحرجها أمام هذا الحشد من الرجال ولكن لم تدم حيرتها، حيث تقدمت بعد أن أعاد إليها الإشارة، تقدمت وهي خجلة لا تقوى على النظر إلى وجوه الآخرين، شقت طريقها في وسط الزحام إلى أن بلغت الباب فنزل صاحب الفرن وفتح لها فدخلت وأغلق الباب خلفها دون أن يقول لها كلمة وهي أيضاً لم تقل له لماذا فعلت ذلك حيث أن الوقت غير مناسب.

وقفت بجانب الباب الزجاجي وجعلت تسترق النظر إلى هذا الحشد الذي يقف أمام الفرن كالنعاج المتزاحمة على غدير ماء ضيق المساحة، فقالت: مساكين هذه الفئة من الناس كم يعانون حتى يحصلون على قوتهم، أيقظها من شرودها هذا صوت صاحب الفرن، وهو يقول لها: كم تريدين سيدتي فنظرت إليه وكأنها لم تر شكله من قبل، لقد رأته شاباً يقارب العشرين من عمره ، قصير القامة، متوسط الصحة، أسمر اللون، كثيف الشعر، مقصوص على الطريقة الحديثة.

كان حلو الشكل ولكن كان أجمل شيء فيه هو شعره الأسود الذي يبدو أنه مصفف لدى الكوافير.

كانت نظراتها غير مركزة وليس لها معنى، هي لا تبغي من النظر إليه سوى معرفة ملامح الشخص الذي يكلمها بعد، هذه النظرة السريعة إلى ملامحه.

قالت له: 3 كيلو، فوزن لها ما طلبت، وأعطاها إياها، فتناولت منه الخبز وأحنت له رأسها دليل الشكر، واستدارت نحو الباب ببطء وخرجت فتبعها بنظرة دون أن يتفوه بكلمة.

عادت إلى البيت دون أن تعطي الأمر أهمية كبيرة.لقد اعتبرت الأمر مجرد إشفاق عليها واحترام لها كونها امرأة واقفة بين حشد من الرجال ولكن صاحب الفرن كان شعوره غير ذلك، فقد بدأ يفكر بها طيلة يومه، والأيام التي تلتها ورسمها لم يبرح خياله، فكان يتخيل وقفتها أمام الفرن وخصلات شعرها تتهفهف فوق جبهتها، وشفتاها المكتنزتان المنفرجتان عن بعضهما وكأنها تستعد لتتلقى قبلة من فم حبيب، كان يستعيد كل جزء من جسدها الفاتن، ويتساءل هل ستعود لشراء الخبز من عنده؟ وكانت الكلمة الأخيرة ترعبه، فهو يريد أن يراها كل يوم، ولم يطل تساؤله فقد عادت لشراء الخبز لأن أزمة الخبز حين ذاك لم تمكن مراد من شراءه قبل ذهابه إلى العمل، ومن خلال ترددها على الفرن لاحظت بأن هذا الشاب يعاملها معاملة خاصة ويهتم بها اهتماماً مميزاً عن باقي الزبائن، ولكنها تجاهلت اهتمامه هذا وكأنها أرادت أن ترفض تصرفه هذا بتجاهلها له، في غضون هذه الأيام وقعت مشاجرة عنيفة بينها وبين مراد، أسمعها كعادته كلاماً جارحاً، وانتهت هذه المشاجرة بضربها، فأمضت تلك الليلة حزينة متألمة، تبكي وتفكر بكلماته الجارحة، ولكنها لم تلبث أن تحول حزنها إلى ثورة وغضب، وراحت تكلم نفسها قائلة: لماذا دائماً يشتمني ويسمعني كلاماً جارحاً وبذيئاً؟ لا يقال إلا للساقطات، ويمنعني من الخروج، لم هذه المعاملة السيئة هل تزوجني كي يذلني؟ ويفرض سيطرته علي؟ ولكن صبراً علي يا مراد، سوف أريك أيها الحقير ماذا سأفعل، وأضافت قائلة بصوت يحمل من الحقد ما يدمر العالم، وبلهجة عزم وتصميم على فعل شيء قد صدر الحكم فيه: أقسم لسوف أسلم نفسي لأول رجل أصادفه في طريقي كي تعرف كيف تعامل الزوجة الخلوقة، وليعرف جميع الأزواج والأهل أيضاً أن تصرفهم الأرعن وحب السيطرة والضغط على الزوجة أو الفتاة كيف يدفعها إلى الخطيئة، ليعلم كل زوج أن كل زوجة خائنة لم تلد خائنة ولم ترغب بذلك وإنما تتبع هذه الطريقة للانتقام حتى لو كان هذا يعود عليها بالسوء، هذا ما كان يدور في رأسها، في تلك الليلة، وفي الصباح ارتدت ثيابها وخرجت وهي تائهة مضعضعة الفكر لا تدري إلى أين هي ذاهبة، لم تشعر بنفسها إلا وهي داخل الفرن، لقد وقفت أمام واجهة الزجاج وبقيت تنظر إلى صاحب الفرن وهي تحدث نفسها قائلة: لقد أقسمت

على أن أسلم نفسي لأول رجل أقابله فلماذا لا يكون هذا الرجل صاحب الفرن؟ فهو يهتم بي منذ أول يوم أتيت به إلى هنا، فهو لا يحتاج مني سوى ابتسامة تشجيع، ثم أكملت قائلة: أجل، أجل سوف أفعل ذلك، ثم تراجعت وقالت: ولكن كرامتي! هل أنزل إلى هذا الحد وإلى هذا المستوى الرخيص، لكن لم تلبث أن عادت وقالت لكني أقسمت على أن أنتقم وسوف أفعل، فالأمر لا يحتاج مني أكثر من ابتسامة، أجل ابتسامة مني تكفي لأن يركع تحت قدمي، لقد قالت هذا وتقدمت من الشاب الذي كان يسترق النظر إليها وهو يتساءل في وزن الخبز وقبل أن تتكلم، بادرها قائلاً كم تريدين سيدتي؟ فحاولت أن تجيب إجابة قصيرة ولكنها تذكرت انتقامها من مراد فاغتصبت ابتسامة وجاهدت أن تكون عذبة وفاتنة، ثم سلطت عليه نظراتها وعندما تأكدت أن سهام نظراتها، أصابت منه القلب، قالت له برقة وصوت عذب كالموسيقى، أريد ثلاثة كيلو، يا، وقبل أن تكمل أجابها بسرعة، فتحي أنا اسمي فتحي، فلم تجب واكتفت بابتسامة رقيقة، ناعمة، ولكنه عاد وقال لها: عفوك إذا كنت أخطأت حين قلت لك سيدتي، فهل لي أن أعرف إذا كنت سيدة، أم آنسة، فأنا لم أجد في يدك ما يدل على شيء، فإبتسمت ابتسامتها التي رسمتها منذ قليل، وقالت بلطف، ماذا ترى أنت؟ أجابها بصوت هامس فيه خشوع: أنا أرى أنك ما زلت زهرة متفتحة على غصن أخضر لم تمتد لها يد عابث، فخفضت بصرها في الأرض وقالت له بحياء: هذا غزل أم مديح؟ قال لها بجرأة وكأنه استمد الجرأة من ابتساماتها إنها الحقيقة بالإضافة إلى الأولى فضحكت ضحكة خفيفة وقالت له: إنني أشكرك على هذه المجاملة، قال لها: لم تجيبي على سؤالي؟ فهمست قائلة تعني إذا كنت متزوجة وأيضاً لي أربع أطفال، قال مندهشاً، هذا غير معقول، قالت له ولماذا غير معقول، لأنك ما زلت صغيرة، فلم تجب واكتفت بتنهيدة انتشلتها من الأعماق، لقد ترك فتحي وزن الخبز إلى الصانع ووقف يتحدث معها، لم يدع أحداً يدخل إلى الفرن سوى سهير أما باقي الزبائن فهم يقفون في الخارج، ألقت نظرة سريعة إلى الحشد الذي يقف أمام باب الفرن وقالت: أظن أننا أطلنا في الحديث ونسينا الناس الذين يقفون أمام الباب، قال لها مداعباً: إنك تنتظرين دورك وهو لم يأت بعد، فابتسمت ابتسامة خفيفة وخفضت نظرها إلى الأرض، أما فتحي فقد فكر

أن يستفيد من هذا الحديث اللطيف فتقدم أكثر وابتلع ريقه وقال لها وهو يتلعثم: مدام هل تعطيني من وقتك نصف ساعة؟ لأن لدي كلام كثير أريد أن أقوله، فابتسمت بسرها: ماذا يريد أن يقول؟ فقالت له ببرود قل ماذا تريد؟ أجابها أن الكلام الذي سيقوله خاص وأظن هذا المكان غير مناسب.

قالت: لم أفهم ماذا تقصد.

قال: أعني أن أراك في مكان آخر.

شعرت بالضيق لهذا القول، بل وقع على رأسها كالصاعقة وظهر الغضب على وجهها فقد شعرت بطعنة تتوجه إلى كرامتها، أهي تصل إلى مثل هذا المستوى، فليس من السهل عليها أن تتقبل مثل هذه الأمور، فهي لم تتعودها، ولكنها عادت وتذكرت انتقامها فابتلعت هذه الإهانة التي شعرت لها واغتصبت ابتسامة باهتة صفراء وأخفت الغضب والانزعاج وأجابته قائلة: ولماذا تريد مكاناً آخر؟ تكلم هنا.

فهمس قائلاً: قلت لك أريد أن أكلمك كلاماً لا يجوز أن يسمعه أحد، وهنا كما ترين الناس واقفون وعيونهم تحدق بنا وآذانهم تتابع حركات شفاهنا، فقالت له، وما هو المطلوب؟ قال لها: أن نتقابل في مكان آخر، هل توافقين.

قالت له بسرعة أجل، قالت هذا وكأنها تخاف لو تأخرت بالجواب أن تتراجع عن قرارها، لأنها كانت تعيش في صراع بين القبول والرفض، فحبها للانتقام كان يدفعها بقوة إلى الخطيئة وإلى الخيانة وأخلاقها ومبادئها ترفض ذلك.

عندما سمع موافقتها للطلب كاد أن يغمى عليه من شدة الفرح، فهو لم يصدق أنها وافقت فوراً ودون اعتراض، فسألها: أين ترغبين أن نلتقي؟

قالت له دون مبالاة، وكأن الأمر لا يعنيها: لا أدري فأنا عندي كل الأمكنة سواء.

قال لها: هل تصلح كافتيريا أو حديقة للقائنا؟

قالت له: لا.. لا أستطيع.. أخاف أن يراني أحد من معارفنا.

قال لها: اسمعي فأنا لدي شقة في البناء الذي خلف الفرن، خذي مفاتيحها وأدخلي قبلي، ثم ألحق بك، هذه أفضل طريقة كي لا يشك بنا أحد، قال هذا ودفع بمفاتيح الشقة إليها من تحت الميزان.

تناولت المفاتيح وهي تقول له بصوت هامس، في أي دور تقع الشقة؟

قال لها في الدور الأول والباب في منتصف المدخل على يدك اليسرى.

قال هذا وانسحب من مكانه إلى مكان آخر ليلبي طلبات الزبائن. حملت الخبز وخرجت من الفرن خائفة مرتبكة، لقد شعرت بأن جميع الناس تشير إليها وتقول أن هذه المرأة سيئة رغم أن أحداً من هؤلاء لم ينتبه إليها لسبب بسيط وهو أن كل واحد منهم منهمك في الحصول على خبزه قبل سواه، عندما بلغت البيت تلفتت يميناً وشمالاً وكأنها لص يخاف أن يداهمه رجال الأمن. وما أن تأكدت من خلو المكان حتى فتحت الباب بهدوء ودخلت ببطء وكأنها تخاف أصوات قدميها وراحت تجول بنظرها إلى الجدران وما بداخلها من أثاث، كانت الشقة صغيرة مؤلفة من غرفة وصالون، وكان فرشها بسيط جداً عبارة عن سرير يتسع لشخص واحد وربما كان هذا السرير للراحة عندما ينتهي من عمله في الفرن، وفي إحدى زواياه طاولة صغيرة حولها ثلاث كراسي وعليها تلفزيون صغير موضوع في الزاوية التي تواجه السرير.

جلست فوق أحد هذه الكراسي تنتظره، لم يطل انتظارها حتى سمعت طرقات خفيفة على الباب، فارتعبت في أول الأمر، لكنها تذكرت أن فتحي ليس معه مفاتيح لأنه أعطاها مفتاحه، نهضت لتفتح الباب فأطل فتحي والبسمة تشع على وجهه وأغلق الباب خلفه ثم دخل المطبخ ووضع الفاكهة التي جلبها معه وعاد مسرعاً إلى الغرفة التي تجلس فيها وأحضر كرسياً وجلس أمامها وهو يرحب بها، ثم ما لبث أن نظر إليها وضحك ضحكة خفيفة.

سألته سهير قائلة: لماذا تضحك؟

قال لها: الذي يضحكني هو أني حتى الآن لا أعرف اسمك.

قالت بتردد: أنا.. أنا.. اسمي سهير.وصمتت، وصمت هو، لم يدريا ماذا يقولان، وبعد صمت قصير قال لها: لم هذا الصمت؟ قولي لي شيئاً . قالت: وماذا أقول؟

قال: تحدثي عن حياتك. تنهدت بعمق وقالت: أرجو أن لا تسألني عن حياتي.

قال لها لماذا؟ هل فيها ما يسبب لك ألماً.

قالت: أجل، ثم سألته بقليل من الخجل: قل لي هل أنت متزوج؟

قال: كنت متزوجاً وقد طلقتها.

قالت له: ولماذا؟

قال: لأني لم أستطع الحياة معها، فهي تفكيرها يختلف عن تفكيري، فنحن لم نتفاهم قط ولم نلتق في زاوية ما، فرأيت من الأفضل لي ولها الانفصال.

قالت: وهل يوجد أطفال؟

قال: أجل هناك طفلة لها من العمر سنتين. وهي تعيش معي وتقوم على رعايتها أمي، ، حاولت أن تسأله سؤالاً آخر ولكنه أوقفها بلطف قائلاً: ألا ترين أننا تحدثنا في هذا الأمر أكثر مما يجب؟ فهزت رأسها علامة الموافقة وأطرقت إلى الأرض، فتقدم نحوها قليلاً حتى كاد أن يلتصق بها ورفع وجهها براحة يده وجعل يحدق في عينيها ثم قال لها: سهير هل تسمحين لي بأن أقول لك كل ما يجول في نفسي من مشاعر الحب؟

نظرت إليه بدهشة وكأنها تتساءل متى ولد هذا الحب؟!

قال لها: لا تندهشي، لقد فهمت معنى نظراتك، إنك تتساءلين متى وكيف ولد هذا الحب؟ ونحن لم نتحدث معاً على الإطلاق، سوف أجيبك على هذا السؤال وهو أني منذ أول يوم رأيتك فيه أعجبت بك، ولم يلبث هذا الإعجاب أن تحول إلى حب، أجل لقد أحببتك بالرغم من عدم معرفتي لوضعك، كنت أعد الساعات، وكانت تمر علي ثقيلة مملة ولا أرتاح حتى تأتي وأراك، وتابع قائلاً: سهير لا تبخلي علي بنظرة من عينيك الساحرة فسهم عينيك اخترق قلبي، ونفذ إلى الأعماق، كانت تستمع إلى كلماته وهي تشعر بالضيق والخجل سوياً، فهي لا تريد حبيباً لأنه لا يوجد في قلبها مكان للحب، وحاول أن يتابع كلمات الإعجاب فقاطعته قائلة: أرجوك كفى إنك تبالغ بما تقول:

قال لها: لا أنا لم أبالغ إنها الحقيقة.

قالت له برقة: إنك تراني هكذا لأنك تحبني.

أجابها بحماس: لا إن هذا ليس رأيي فقط، وإنما رأي كل إنسان يـراك، ألم تر كيف كانوا ينظرون إليك نظرات إعجاب حين كنت واقفة أمام الفرن؟

فضحكت ضحكة خفيفة خجلة، وقالت: لا.. لم ار لأنـني كنـت منهمكـة في التفكير، كيف سأحصل على الخبز، وأضافت بخجل ثم هل تغـيرك نظـرات النـاس إلي؟

قال لها: إن المرء إذا أحب يشعر بنوع مـن الغـيرة ولا يريـد أن يهـتم حبيبـه بأحد سواه، وأنا كنـت أخـاف أن يحـوز علـى إعجابـك رجـل غـيري ولا أسـتطيع الوصول إلى قلبك، كان فتحي صادقاً في مشاعره منـدفعاً بكلامـه ولكـن سـهير كانـت تستمع إليه ببرود ودون اهتمام، ولم يستطع صدق مشاعره و حـلاوة كلامـه أن تهـز قلبها، وعندما لم يجد فتحي جواباً منها نهض من مكانه واقترب منهـا وطبـع قبلـة ناعمة على خدها وبلطف أحلقها بقبلة ثانية على شفتيها ثم ابتعد عنها وهـب واقفـاً وهو يقول لها يجب أن أذهب الآن كي لا يفتقدوني هناك، وأضاف قـائلاً: وبعـد أن أخرج بربع ساعة أخرجي أنت وأغلقي الباب خلفك، فهـزت رأسـها دون أن تنطـق بكلمة، حتى عندما قبلها لم تتكلم ولم تتحرك وكأنها قطعـة جليـد، وعنـدما تركهـا وخطا نحو الباب ظلت مطرقة في الأرض ولكنه قبل أن يخرج قال لها: هـل سـتأتين غداً؟ أجابته بصوت خافت مضطرب: لست أدري. قال لها: حاولي، بل سـأنتظرك في الساعة العاشرة وأرجو ألا تتأخري. قال هذا وخرج وبعد ربع ساعة حملت الخبـز وخرجت عائدة إلى بيتها وهي حزينة نادمـة علـى مـا فعلـت، وحـين بلغـت البيـت ارتمت فوق السرير تذرف الدموع وتلوم نفسها قائلـة: ويحـي أنـا مـاذا أصـابني هـل جننت؟ كيف أتخلى عن أخلاقي ومبادئ؟ كيـف ألـوث سمعـتي، كيـف أنحـدر إلى هذا المستوى من الانحطاط؟ وظلت هكذا طيلة ذلك اليوم تتخبط كالغريق الذي يتخبط بين أمواج عاتية.

* * *

الفصل السادس

في اليوم التالي استيقظت صباحاً وأنهت أعمال المنزل ثم ارتـدت ثيابهـا وهـي مترددة بين الخروج والبقاء، ولكنها في النهاية حسـمت ترددهـا هـذا حـين قالـت: سوف أذهب إلى فتحي وأثبت أن مـراد لا يسـتطيع حمـايتي كمـا يقـول لـي دائمـاً، فليعلم أنه لا يستطيع ردعي عن فعـل أي شـيء إذا لم يـردعني ضـميري وأخلاقـي، وليس هو وحسـب وإنمـا أي رجـل في العـالم لا يسـتطيع منـع زوجتـه مـن خيانتـه بسجنها أو بالعصا والهيمنة، وإنما يستطيع فعل ذلك بالحب والتفـاهم، قالـت هـذا وفتحـت البـاب وخرجـت بعصـبية، وعنـدما بلغـت الفـرن دفعـت البـاب ودخلـت كالعادة، رحب بها فتحي بصوت هامس وقال لها بصوت مرتفع قليلاً انتظري دورك يا سيدتي، وحين جاء دورها أعطاها ما طلبت ومعه المفتـاح وهمـس قـائلاً: سـألحق بك بعد قليل، فلم تجبه وتناولت الخبز وخرجت دون أن تنظر إليـه وحـين دخلـت الشقة جلست تنتظره وبعد دقائق لحق بها، فجلـس بجانبهـا وجعـل يرحـب بهـا، فكانت تجيبه بكلمات مقتضبة ووجه مكفهر، فحاول أن يبدد هـذا التـوتر الـذي رآه في ملامحها فنهض وجلب طبق فاكهة يحتوي على جميع أنواع الثمار ووضـعه علـى الطاولة الصغيرة ثم جلس أمامها وقال لها برفق: تفضلي يا سهير.

قالت له: لا.. لا يوجد شهية للأكل وخاصة الفاكهة.

فقال: لا.. لا يجب أن تأكلي معي.

تناولت تفاحة وحاولت أن تقشرها، ولكنه كان قد سـبقها في تقشـير تفاحـة، فقطع قطعة صغيرة ومد يده كي يطعمها ولكنهـا رفضـت بلباقـة، أكلـت القليـل مـن الفاكهة وهي خجلة ولاحظ ذلك فقال لها لماذا لم تأكلي؟ هل أنت خجلة؟

قالت: لا لأنا لست خجلة، وإنما لا أستطيع أكل أكثر مما أكلت.

قال لها: إذن سأحضر لك القهوة.

أجابته بسرعة: أنا لا أحب القهوة، وكي تقطع عليه الطريق ردت قائلة: ولا أحب الشاي أيضاً ولا أي مشروب آخر.

قال مندهشاً: ماذا تحبين إذن؟

قالت: أنا لا أهتم بالطعام ولا بكل أنواع الفاكهة.

قال لها: هذا بالنسبة للطعام ولكن ما دخل المشروبات بذلك.

قالت له: إني لا أحب الشاي ولا القهوة.

كان رفضها للشاي والقهوة ليس لأنها لا تحبهما وإنما خوفاً من أن يضع لها مخدراً في الفنجان هكذا خيل إليها.

فلم يشأ الضغط عليها وتركها على راحتها بعد أن انتهيا من تناول الفاكهة نهضا وجلسا في مكان آخر بعيدين عن طاولة الفواكه، وبعد صمت قصير قال لها: تصوري يا سهير كنت أخاف النظر إليك، ولا أجرؤ أن أحدثك، ابتسمت وقالت له: هل أنا مخيفة إلى هذه الدرجة؟

قال لها: بل جمالك هو الذي يخيف.

قالت له: وهل الجمال كان يوماً مصدراً للخوف.

قال إذا كان جمالاً طاغياً فاتناً، مرفقاً الشخصية، يجعل من يرغب النظر إليه يحسب له ألف حساب، ويجعل صاحبته نجمة محلقة بين السحاب، فهل تطول يد إنسان النجمة المتربعة على عرش سمائها وأنت كذلك؟

فاحمرت وجنتيها وأصبحت كالوردة الحمراء خجلاً، وخفضت بصرها إلى الأرض، بينما تابع فتحي كلامه قائلاً: وهناك شيء آخر، أسلوبك الجاد في المعاملة، صحيح تبدين رقيقة ولكنك في نفس الوقت صارمة وهذا ما يجعل الرجل يخافك، ويحترمك، لهذا كنت أشعر أن مجرد التفكير بك حلماً.

تنهدت وقالت: وهل تغيرت نظرتك لي الآن بعد أن رأيتني سهلة المنال، قال لها: لا بل على العكس، فأنا لم أرك متهاونة ولكن أتساءل ما هو السر الذي جعلك تلبين طلبي بهذه السهولة، وهذه السرعة. أجل هناك سر لا أدري ما هو؟ فما تفعلينه يتناقض مع شخصيتك، فصمتت ولم تجب واكتفت بتنهيدة عميقة كادت أن تمزق صدرها، وحين لم تجبه على تساؤله، عاد إلى مغازلتها وأمطرها بأجمل العبارات وهي تقول في نفسها: يتساءل عن سبب قبول، ربما يظن أنني فتنت به ولا يدري أني قبلت لذلك من أجل الانتقام ولولا ذلك لما حظي مني بنظرة وظل يقترب

منها حتى التصق بها واحتضنها بيده وجعل يداعب شعرها في اليد الأخرى، ثم ما لبث أن ضمها إلى صدره بقوة وانهال عليها تقبيلاً وهي جافة، لا تبدي أي حركة، وكأنها تمثال رخامي باردة كقطعة جليد، ولكنه لم يعبأ ببرودها هذا ورماها فوق السرير وراح يحاول أن يجردها من ثيابها وعندما شعرت بيده تحاول تجريدها من ثيابها أحست بخوف ورهبة وشعرت بالخطر، فتحول صمتها إلى صراخ واستسلامها إلى ثورة فجعلت تصرخ به ابتعد عني.. ابتعد عني وتدفعه عنها بقوة، وتحاول منعه من تجريدها ثيابها، ولكنه تحول إلى وحش لا يسمع صراخها، ولا يرحم توسلها، ولكنها لم تضعف ولم تستسلم، وظلت تقاوم بكل ما أوتيت من قوة، ربما ازدادت قوتها عن ذي قبل لشعورها بالخطر. ولكن فتحي لم يستجب ولم يتزحزح عنها قيد شعرة، مما جعلها تغرس أظافرها في عنقه قليلاً ثم ترفع رجلها بخفة إلى صدره وتدفعه بقوة، وإذا به يرتمي على الأرض وتنهض هي بسرعة عن ذلك السرير اللعين، وتقف خلف الباب ملصقة ظهرها به، وبعد أن التقطت أنفاسها رمقته بنظرة حادة وقالت له بعتاب ولوم وهو ما زال مرمياً على الأرض، لماذا فعلت ذلك يا فتحي لقد جعلتني أندم على معرفتي بك. قال لها بشيء من الخجل، ماذا فعلت؟

قالت له: ألا تدري ماذا فعلت؟ لقد نسيت نفسك، بل تحولت إلى وحش جارح، قال لها وهو مطرق في الأرض سهير يجب أن أكلمك بصراحة دون خداع فأنا لا أريد أن أظهر أمامك بالملاك الطاهر وأخفي في داخلي عكس ذلك واستطرد قائلاً: أنا رجل أعيش بلا زوجة فلا أستطيع أن أجلس معك دون أن أمسك نفس، لا أستطيع أن أجلس معك وأتأملك فقط، فهذا غير ممكن.

قالت له: لماذا؟

قال: لأن أي رجل في العالم لا يستطيع أن يجالس امرأة عادية دون أن يقترب منها، فما بالك بامرأة ولا ككل النساء، امرأة جمالها يسحر العيون، ويخلب الألباب، هذا شيء غير معقول يا سهير، أجل غير معقول، ثم أنت لك زوج تستطيعين اللجوء إليه وقت الحاجة، إنما أنا ماذا أفعل؟ فليس لدي زوجة ألجأ إليها عند حاجتي.

رمقته بنظرة احتقار وقالت له:

ـ يا إلهي كم أنت تحبني ! ! أهذا هو مفهوم الحب عندك؟ ولكن هكذا الرجال كل الرجال أنانيون لا تحبون غير أنفسكم، ولا تعرفون معنى الحب، فالحب عندكم مجرد كلمة تتلفظون بها وتجعلون منها ستاراً تخفون وراءها شهواتكم، وتجعلون منها جسراً للعبور عليه إلى جسد المرأة التي خدعها كلامكم المعسول، وأنت بالذات لم تحبني وإنما سحرك جمالي واشتهيت جسدي.

لفظت هذه الكلمات الأخيرة بحدة واحتقار.

قاطعها قائلاً: لا يا سهير لا تقولي هذا فأنت فهمت كلامي خطأ، قالت له ساخرة: ماذا أقول إذن وأي خطأ هذا الذي فهمته؟

قال لها: سهير أرجوك أنك تظلميني.

قالت له بجفاء وسخط: إذا كان هناك ظلام في هذه الدنيا فهذا يتمثل فيكم أنتم، إنكم أنتم معشر الرجال الظلم ذاته.

أخفض رأسه إلى الأرض وجعل يبحث عن كلمة يقولها، ولكن قبل أن يجيب فتحت الباب وهمت بالخروج فاستوقفها قائلاً: سهير إلى أين أنت ذاهبة؟ إننا لم ننه حديثنا بعد.

أجابته بجفاء: لم يعد بيننا حديث وقد انتهى كل شيء، لأنني أتيت لغاية في نفسي وقد فشلت ولم أستطع تحقيقها.

قال لها مستغرباً: أي غاية هذه التي تتحدثين عنها؟

قالت له: الانتقام، وأقول لك هذا كي لا تفكر بي بعد الآن، قالت هذا وخرجت بسرعة دون أن تدع له مجالاً للفهم، تركته يتخبط بين أفكاره دون أن يفهم معنى الانتقام هذا.

عادت سهير إلى بيتها وهي تفكر طيلة الطريق، لماذا تصرفت هكذا، وتقول لنفسها ألم أذهب أنا لفتحي كي أنتقم؟ ماذا دهاني؟ لماذا تراجعت في اللحظة الأخيرة؟ تباً لهذه النفس التي لا ترضى الذل، ثم لماذا غضبت من فتحي وقسيت عليه هكذا، هل كان بيننا حب؟ وعندما بلغت البيت كانت قد أرهقت أعصابها، وتعبت نفسها، فانطرحت فوق السرير جسداً بلا روح.

وفي اليوم التالي: انتظر فتحي سهيراً ولكنها لم تأت.

وقد طال انتظاره يوماً بعد يوم وأسبوعاً بعد أسبوع ولكن بدون جدوى مما جعله يتعذب ويتألم فشلت حركته ولم يعد يستطيع العمل كما كان، وتغيرت طباعه ولم يعد كما كان في الماضي، فقد أصبح منطوياً شارد الفكر، عصبي المزاج، لا يحب الكلام مع أحد، كان يتمنى لو أنه يعرف مكانها، محل إقامتها، ولكنه لم يعرف عنها شيئاً لا من أين أتت ولا إلى أين ذهبت.

أما سهير فقد نسيت إنساناً إسمه فتحي، ولم يعد يذكرها فيه سوى تلك الهفوة التي أقدم عليها والتي أصبحت سوطاً يلسعها بقوة.

مرت الأيام والشهور عادية لا جديد فيها، رتيبة مملة، إلى أن جاء يوم ذهبت فيه تحضر ندورة ثقافية، وفي طريقها عرجت على حانوت اعتادت أن تبتاع منه كل ما يلزمها من سلع، وبينما هي تطلب منه ما يلزمها وإذ بفتحي يدخل هذا الحانون ويطلب علبة سجائر فنظرت إليه نظرة سريعة وأسرعت بالهروب.

نادى عليها الرجل العجوز قائلا: سيدتي.. سيدتي.. لماذا لم تأخذي الأشياء التي هي لك؟ ردت عليه وهي مسرعة: لحظة.. دعهم عندك ريثما أعود وتابعت طريقها، أما فتحي فحين شاهدها تسمر في مكانه من شدة الدهشة، وأخذ يحدق بها دون كلام ولما انطلقت مسرعة لحقها حتى قطعت مسافة قصيرة، وهنا أفاق من دهشته وأسرع إلى سيارته دون أن يأخذ علبة السجائر فنادى عليه الرجل العجوز صاحب الحانوت لم يرد عليه استغرب الرجل العجوز هذا التصرف وراح يحدث نفسه.

انطلق فتحي خلفها وحين أصبح على مقربة منها خفف السرعة وراح يناديها، سهير.. سهير.. توقفي لحظة، سهير.. اسمعي كلمة واحدة، ولكنها ظلت تعدو بخطوات واسعة دون أن تجيبه أو تلتفت إليه، وعندما رأت أنها لن تستطيع الإفلات منه، لجأت إلى الخديعة حين جعلته يتقدمها محاولاً سد الطريق أمامها فانعطفت بسرعة البرق نحو زقاق ضيق لا يتسع لدخول السيارة، ثم دخلت إلى منزل في منتصف الزقاق وأغلقت الباب خلفها وكان هذا المنزل لأحد معارفها القدامى، وحين رأتها صاحبة المنزل رحبت بها، لكن لم يخف على سهير دهشة هذه السيدة من دخولها بهذه الطريقة.

لذا رسمت على وجهها ابتسامة وقالت لها بطريقة مرحة، لقد قمت بمشوار متعب وكنت قريبة من هنا فجئت أرتاح عندك قليلاً ولو أنني أعلم أنك ستعاتبيني على قلة زياراتي لك، لكني أرجو منك المعذرة يا عزيزتي على هذا التقصير، وأرجو المعذرة أيضاً لأنني دخلت دون أن أطرق الباب لأنني وجدته مفتوحاً.

أجابتها المرأة بود ومحبة أهلاً بك في أي وقت يا سهير.

ودون إذن، ولكن هذا لا يمنعني من معاتبتك على هذه الغيبة الطويلة.

ردت عليها سهير: والله معك حق يا عزيزتي، ولكن أنت تعلمين مشاغل المنزل، ورعاية الأولاد كم تأخذ من وقت المرأة، فالواحدة منا لا تكاد تجد لحظة فراغ.

وافقتها السيدة على كلامها شاكية هي أيضاً من قلة الفراغ.

لم تلاحظ السيدة قلق سهير، حيث كانت تتكلم وهي تفكر إذا كان فتحي قد ذهب أم بقي ينتظرها؟ وهذا ما فعله فتحي، حين رآها قد اختفت فجأة في ذلك الزقاق الضيق ولم يعلم إلى أي منزل دخلت، ظل ينتظرها قرابة الساعة دون أن تخرج، عندئذ أدار محرك السيارة وانطلق مسرعاً وهو يكاد يتمزق من الغيظ والحنق.

مكثت سهير في ضيافة صديقتها ساعة ونصف من الزمن ثم خرجت دون أن ترى أحداً، فعادت إلى بيتها دون أن تحضر الندوة، فراحت تتخيل وجه فتحي الشاحب ولحيته الطويلة، ويرن في أذنها صوته المتوسل، ولكن ما لبثت أن نسيت كل ما يتعلق به، أما فتحي فقد عاد إلى صاحب الحانوت وسأله عنها فلم يفده الرجل بشيء، حيث قال له: إنني لا أعلم أي شيء عنها ولا أعرف أين تقطن؟

حقاً كان الرجل صادقاً فيما يقول:

وهكذا مضت سهير في حياتها هذه تحاول إقناع نفسها وإرغامها على ذلك.

لقد خرجت من هذه التجربة وكأنها كبرت عشر سنوات دفعة واحدة.

* * *

الفصل السابع

مضت الأيام كسابقتها حتى جاء اليوم الذي زرع الأمل في نفسها، حدث ذلك في صباح إحدى الأيام عندما جاءت ليلى لزيارتها، وبعد حديث قصير عن أمور الحياة، قالت ليلى: لدي خبر سار أريد أن أقوله لك.

أجابتها سهير بلهفة المحب: ها.. ما هو الخير يا ليلى؟

قالت (بشيء من الخجل): لقد تحدد موعد زفافي.

قالت: متى؟

قالت: يوم الخميس القادم وأتيت لأدعوك إلى الفرح.

أجابتها بفرحة: ألف مبروك يا ليلى، وأخيراً تحدد موعد الزفاف بعد صبر عامين على الخطبة.

أجابتها ليلى: حتى حان الوقت.

قالت: أجل أجل.. يا ليلى.

وصمتت لحظة، ثم سألتها فيما إذا بعثت بطاقات الدعوة لكل من هدى وباقي الصديقات.

أجابتها ليل: وهل هذا يفوتني يا سهير؟

لقد دعوت كل الصديقات وجميعهن سيحضرن وإياك أن تتخلفين، فإذا فعلت ذلك أخاصمك ولن أقول لي صديقة.

قالت سهير: طبعاً يا ليلى، سوف أحضر ولن أتخلف ولو أن مراد لا يسمح لي بالذهاب إلى أي فرح ولكني سأبذل قصار جهدي حتى أحضر الفرح لأنك غالية علي كثيراً.

شكرتها ليلى بحرارة ثم أضافت قائلة:

ـ على فكرة يجب أن تمري عليّ صباحاً وترافقيني إلى الكوافير.

قالت لها: وهل هذا ضروري؟

أجابتها باستغراب: وهل هذا سؤال يا سهير؟ طبعاً ضروري، وسأشرح لك أسباب ضرورته.

أولاً: لأنك صديقتي وعلى العروس أن تصطحب معها جميع صديقاتها.

ثانياً: كي تصففي شعرك.

ثالثاً: كي تكوني مع الشلة حيث تطيب الجلسة عند الكوافير ونتمتع بالوقت.

سألتها سهير مازحة: وهل ستدفعين عن الجميع ثمن تصفيف شعرهن؟

قالت ليلى: أجل ألا تعرفين العادة؟ أم نسيت؟

قالت سهير: لا، لم أنس ذلك ولكن فكرت أن أوفر عليك ثمن تصفيف شعري، وها أنت لا تقبلين بها، وأضافت بخفة ظل، أنت حرة، سوف أدعك تتسولين.

أجابتها ليلى بنفس طريقتها المرحة، لا، كوني مطمئنة لا تستطيعين يا صديقتي العزيزة لأني لن أدفع من جيبي وإنما من جيب العريس وأطلقت ضحكة عالية.

أجابتها سهير: إذاً من أجل ذلك تكرمت علي ودعوتني معك لأصفف شعري أيتها الماكرة الداهية وانفجرنا معاً بضحكة عالية.

ثم قالت سهير: سوف يكون يوماً ممتعاً جميلاً.

أجابتها مؤيدة لكلامها: بل سيكون أكثر من رائع، حيث سنذهب إلى صديقة لي عندها صالون وهي في منتهى الظرافة وخفة الظل، وبعد قليل انصرفت ليلى تاركة سهير تنتظر قدوم ذلك اليوم مضى ما بقي من الأسبوع وجاء يوم الخميس، وكانت سهير قد هيأت كل شيء، استعداداً لهذا اليوم.

خرجت من بيتها باكراً وحين بلغت بيت ليلى، كانت الساعة تشير إلى التاسعة صباحاً، وجدت هدى وقد وصلت للتو، فاستقبلتها بالقبلات والترحاب، وبعد قليل حضرت باقي الصديقات واستقلوا سيارة أجرة وانطلقوا بها إلى صالون الحلاقة، وحين بلغوا البيت، تقدمت ليلى وقرعت الجرس وبعد لحظات فتح الباب وأطلت منه صاحبة الصالون بطولها المتوسط وجسمها المتناسق وبشرتها الحنطاوية

ووجهها المستدير الذي يتناسب مع حجم جسمها، وعيناها الصغيرتان وقد وضعت فوقهما نظارة طبية ثم التفتت نحو اليمين فوقع نظرها على ليلى وعندها شهقت شهقة فرح وقالت:

من ليلى؟ أهلاً بك أيتها العزيزة، وتعانقتا ثم تركتها وتقدمت نحو سهير وصافحت كل منهما كما صافحت باقي الصديقات مرحبة بهن، ثم اندفعن جمعيهن إلى الداخل حيث تولت ليلى تقديم صديقاتها لصاحبة الصالون وحين جاء دور تقديم صاحبة الصالون، قالت ليلى لصديقاتها:

ـ إنها صديقتي القديمة لينا، فهي ناجحة جداً في مجال عملها رحبت لينا بهن مرة ثانية، وأضافت قائلة: يسرني أن أتعرف، :. ى أجمل سيدات في دمشق، فشكرتها سهير، ثم جلسن جميعاً حيث أشارت إليهن لينا وخلال هذه الجلسة الطويلة تناولت أحاديث متنوعة إلى جانب إلقاء النكت والضحك، ومن أهم الأحاديث التي دارت خلال هذه الجلسة هو حديث مع صانعة ورد وسيراميك، كانت تصفف شعرها عند لينا، فقد تحدثت لهن عن صناعة الورد والسيراميك وكيفية التفنن في صنعه، وكانت سهير أكثر الجميع متعة وأشدهن شوقاً لمعرفة كل شيء يتعلق بهذه الصناعة التي تتطلب ذوقاً وتفنناً، وما أن انتهين من تصفيف شعرهن حتى عادت كل واحدة إلى بيتها تستعد للسهرة، وفي تمام الساعة الثامنة مساءً دخلت سهير بيت العروس، وهي في كامل أناقتها المعهودة.

هذه الأناقة المفرطة التي كانت تتحلى بها وجمال الصارخ، فتحولت الأنظار نحوها وهي داخلة إلى البيت تتبختر في مشيتها، وكأنها أميرة من أميرات ألف ليلة وليلة.

وأخذت المدعوات تتساءلن من تكون هذه الحسناء الفاتنة، وتقدمت لاستقبالها كل من هدى التي كانت قد وصلت قبلها وأخوات ليلى، وأمها، وأجلستها في الصدارة وإلى جانب العروس.

بينما جلست هدى من الجانب الآخر، وعندها ابتدأت الحفلة.

فكانت سهير نجمة الحفلة برقتها ولطفها، وخفة ظلها، وغنائها أيضاً حيث طلبت منها هدى أن تغني وحين غنت نالت إعجاب الجميع وأخذن يطلبن منها

المزيد ولكنها اعتذرت برقة وانسحبت بلباقة وكلنهن لم يدعنها تفلت منهن حتى رقصها، وقد أبدعت بالرقص، كما أبدعت بالغناء، لقد فتنت الجميع بشخصيتها التي تجمع بين الرزانة والمرح وخفة الظل، حيث كانت توزع ابتسامتها على الجميع.

كانت فعلاً امراة مختلفة بكل شيء وهذا ما جعل الجميع ينجذب إليها فما كان من هدى إلا أن تقول لها: سهير خفي عن الناس قليلاً واتركي لي نصيباً مما تحظين به، فقد عطلت علي ولم يعد لي مكان أو وجود، كفي عن هذا وإلا ذهبت إلى المدفأة وجلبت منها قليلاً من الشحار وطليت بها وجهك وجلبت إبرة لأحيك بها فمك، فضحكت ضحكة خفيفة وقالت: ولكن ما ذنب وجهي؟

أجابتها هدى بطريقة مرحة: كان الجميع يتوددون إليك، بينما أنا لم يعرني أحد اهتمامه، قالت سهير وهي ما زالت تضحك: وما يضايقك في هذا؟ فهن نساء وليسو رجالاً، أجابتها هدى بطريقتها المرحة التي تثير الضحك، وهل أنا مجنونة كي أصطحبك إلى مكان فيه رجال؟

فانفجرتا معاً في ضحكة عالية قليلاً، وجعلتا تنظران إلى ليلى نظرات ذات مغزى تفهمانها بأن فاتها حديث مضحك.

وفي نهاية الحفلة ودعت سهير ليلى وتمنت لها حياة سعيدة ثم عادت إلى بيتها، وبعد أيام من زواج ليلى، وبينما كانت سهير جالسة لوحدها خطر على بالها حديث تلك المرأة التي صادفتها عند لينا، (الكوافيرا) صانعة الورد والسيراميك، حيث بدأت تراجع كل كلمة دارت بينهما، لقد أيقظت تلك المراة رغبة كانت قد دفنت في أعماقها وهي رغبة العمل، لقد حثتها على ذلك، ووصفت لها فائدة العمل ومتعته فازدادت بذلك حباً وأبدت رغبة ملحة بأن تتعلم صناعة الورد التي كانت تحبها منذ زمن فرحبت بها المرأة قائلة: أنا على استعداد لتعليمك، متى شئت وظلت هذه الفكرة تداعب خيالها حتى جاء اليوم الذي صممت فيه على الذهاب إلى تلك المرأة التي كانت قد زودتها بعنوانها، وطلبت منها أن تعلمها وتفي بوعدها، رحبت بها المرأة ونفذت ما وعدتها به، ولم يمض شهر حتى تعلمت سهير صناعة الورد وأتقنت المهنة جيداً وتلتها بتعليم الخياطة، فقد أصبح لديها مهنتان ولكن بقي

عليها إقناع مراد بمزاولة هذه المهن. وظلت مدة قصيرة مترددة بين أن تفاتحه وبين أن تظل صامتة، وأخيراً قررت مواجهته والدفاع عن حقها، فهي لن تطلب منه سوى حقها، فمن حقها أن تعمل، شاء أم أبى، فانتظرت مراد حتى عاد من عمله وقالت له: مراد إنني أشعر بفراغ كبير أعيشه.

أجابها بجفاء: وماذا أصنع لك كي أبعد عنك هذا الفراغ الذي تدعينه؟

قالت له: أتظن أنني أدعيه يا مراد؟

قال لها: طبعاً، إنك تدعين، فهل يوجد امرأة لديها أربعة أطفال ويظل عندها لحظة فراغ؟

قالت له: أجل أجل هناك الكثير من النساء اللواتي يكاد يقتلهن الفراغ الآن الأولاد وأعمال المنزل لا يأخذ من وقتهن إلا القليل. ثم يمضين اليوم كله في ملل وضجر، سببه الفراغ.

قال لها: هذه سخافة وهراء.

قالت له بتوسل: مراد أرجوك أن تفعل شيئاً من أجلي أرجوك كفاك تعذبني، ارحمني.

رد عليها بعجرفة: ويحك أيتها المرأة، وهل أنا أعذبك؟ وما هو هذا العذاب الذي تتحدثين عنه؟

أجابته بيأس أنك لن تفهمني حتى ولا بعد عشرات السنين.

قال لها: كفاك سخافة يا امرأة وقولي لي ماذا تريدين بالضبط.

فابتلعت ريقها وترددت قليلاً ثم قالت: بصراحة أريد أن أعمل، فانفجرت عيناه وقال لها بدهشة: ماذا قلت؟

قالت له مصممة على إفهامه: لا تذهب في خيالك بعيداً، لا أريد العمل في وظيفة وإنما أريد أن أعمل هنا فغير لهجته قائلاً: وماذا ستعملين هنا؟

قالت: أية مهنة تصلح للبيت؟

قال لها: ماذا تريدين أن تقولي؟

أجابته: أريد أن أعمل مثلاً خياطة، أو صانعة ورود، نظر إليها باستغراب وقال، ولكن حتى تستطيعي العمل في تلك المهن يجب أن تكوني متقنة لها.

قالت له: وأنا فعلاً متقنة هذه المهنة.

قال لها بلهجة قاسية: ماذا قلت؟

أجابته: قلت ما سمعت.

قال لها: ومتى تعلمت هذه المهن؟ وأين؟

ردت عليه: لقد تعلمت منذ فترة قصيرة.

قال لها وعيناه تكاد تخرجان من محجريهما: وأين تعلمت؟

قالت: تعلمت عند صديقة لي.

تقدم نحوها وقبض على ذراعها بقوة، وقال لها بحدة كيف تعلمت دون إذني.

قالت له: وهي تحاول الإفلات من قبضته، لأني أعلم أني لو طلبت منك فلن تدعني أخرج من البيت كي أتعلم.

قال لها: طالما تعلمين ذلك فلماذا فعلت؟

قالت بشيء من الجرأة: لأنني أريد أن أعمل كي أتخلص من هذا الفراغ القاتل، هذا الفراغ الذي جلب إلى نفسي الملل وشيء آخر، أريد العمل كي أحصل على نقود من تعبي، وأتخلص من التذلل لك، كلما احتجت إلى القليل من المال.

حين سمع مراد بالنقود لانت لهجته قليلاً وقال لها: وأية مهنة تريدين مزاولتها؟ قالت: الاثنتان معاً.

قال: ولماذا لا تعملي في مجال الخياطة فقط؟

قالت له: لأنني لا أحب الخياطة.

قال لها: لقد حيرت أمري، كيف لا تحبين الخياطة وتريدين مزاولتها؟ لقد جعلتني في حيرة من أمري.

قالت سهير موضحة: أريد مزاولة الخياطة لأنها أسرع لجلب المال، ومسحوبها جيد جداً، أما الورد فهو هوايتي، وهي أيضاً تجلب المال الكثير، ولكن يلزمها وقت طويل، ثم لا يضرني شيئاً لو قمت بعملين معاً، طالما لا تتضارب كل واحدة مع الأخرى، وفي النهاية يعود علي بالربح الوفير، اقتنع مراد بفكرة سهير،

حيث قال في نفسه: لتعمل طالما عملها هذا لا يتطلب خروجها من البيت، ثم أتخلص من مصاريفها، وأيضاً أكسب أنا من ورائها.

باشرت سهير عملها منذ اليوم التالي في خياطة فساتين الجارات ثم أحضرت كل ما يحتاجه الورد والسيراميك وباشرت بصنعها أيضاً، ولم تمض شهور حتى اشتهرت في المجالين معاً، وأصبح لديها زبائن من كل الحي، فكان هذا العمل نقطة تحول جديدة في حياتها حيث احتكت مع كل شرائح النساء، وتعلمت الكثير، واكتسبت خبرة ومعرفة جلبت السعادة إلى نفسها.

فقد بدأت تشعر بمتعة حقيقية في العمل، وأقلعت عن الفكرة التي اختارتها للانتقام من مراد، واستمرت في أعمالها وارتاحت كل الارتياح لهذا العمل الذي شغل وقتها وأكسبها المال في نفس الوقت، وجعلها على مقربة من الناس والاحتكاك بهم وهي هواية من هواياتهم المفضلة، مضت السنون على عملها حتى قدم عام /1973/ حيث نشبت الحرب مع إسرائيل، فكانت لسهير مواقف شجاعة وعطاء بدون حد حيث تركت أولادها عند الجيران والتحقت بالدفاع المدني وعملت ليل نهار في تمريض جرحى الحرب، واستقبال المصابين منهم، كانت لا ترى أولادها سوى مرة واحدة في اليوم، ساعدها على ذلك غياب زوجها طيلة فترة الحرب، حيث سيق إلى الجيش ولم يؤذن له بالنزول إلى بيته طيلة فترة الحرب، حتى سقط جريحاً في أواخر أيام الحرب.

كانت فترة استدعاء مراد إلى الجيش فرصة لسهير كي تشارك في المعركة لأن مراد لو كان موجوداً لما تركها تلتحق بالدفاع المدني، ومن ناحية أخرى ارتاحت منه قليلاً، فكانت تقوم بعملها بإخلاص ونزاهة وكان لسلوكها الحسن وأخلاقها العالية تأثير طيب في نفوس زملائها، وزميلاتها، حتى الأطباء كانوا يحترمونها ويقدرونها، فالجميع أحبوها حتى الجرحى الذين كانت تشرف على تمريضهم يحبونها ولا يرضون عنها بديلاً، فقد استحوذت على قلوب الجميع بمعاملتها الصادقة ولطفها حيث كانت مرتاحة كل الاتياح في عملها وتشعر بالسعادة لأنها استطاعت أن تمد يد العون إلى أبناء وطنها في ذلك الظرف الصعب وتقدم شيئاً ذا قيمة.

كانت تتمنى لو ظلت هكذا، ولكن فاجأها مراد بالعودة من الاحتياط لينتزع منها هذه السعادة والمتعة الوجدانية، حيث كانت في فترة راحة مع أطفالها وإذ بالباب يطرق، قامت إلى فتحه، وإذ بها ترى أمامها زميل زوجها، ألقى عليها التحية، ثم قال لها بتهذيب، أرجو المعذرة يا سيدتي إذا كنت قد سببت لك إزعاجاً، ردت عليه بكل لطف: ليس هناك أي إزعاج، تفضل ماذا تريد؟ قال لها بتردد، الحقيقة لدي مهمة عاجلة أريد أن أنهيها، وهذا ما يؤسفني حيث سأسبب لك ألاماً: قالت له: ماذا قل لي بسرعة، لقد شغلت بالي.

قال لها: لا تقلقي يا سيدتي، الأمر بسيط، أرجو أن تكون أعصابك هادئة كي أستطيع الكلام.

ردت عليه قائلة وقد سيطر عليها الخوف والقلق: سيدي أرجوك أن تتكلم بسرعة، فقد أقلقتني فعلاً، ما الأمر، فرسم الرجل ابتسامة باهتة على شفتيه وقال لها بصوت فيه رنة حزن: أرجو المعذرة لأني سوف أخبرك أمراً مزعجاً. فحملقت به وكأنها تستعجله الخبر، وتنذره بنفاذ صبرها، فاستطرد الرجل قائلاً: جئت أخبرك بأن زوجك قد سقط جريحاً أثناء المعركة وهو الآن في مشفى المزة يعالج، حيث أجريت له عملية جراحية دقيقة في ساقه وهو ما زال يرقد هناك.

فسألته سهير بلهفة عما إذا كانت حياته في خطر أم لا؟

أجابتها الرجل بأن حالته قد تحسنت وأن الخطر قد زال تماماً، لقد سألت الرجل بلهفة: لا من أجل الاطمئنان عليه وإنما من أجل أن تطمئن على أمنية في نفسها وهي أن يقول لها أن مخطر، بل كانت تتمنى لو كان قد أتاها بخبر وفاته بدلاً من هذا الخبر، لكان أجمل خبر سمعته في حياتها، فراحت تحدث نفسها قائلة:

ـ ماذا يهم لو كان قد مات؟ فقد سبقه الألوف من الشباب، ماذا يجري لو كان هو واحداً من بينهم؟ كم زوج سعيد مع زوجته قد مات وبكتهم تلك الزوجات المحبات، وسوف تبكيهم، وكم تمزقت قلوب أمهات حزناً وأسفاً على فقدان أولادهم، فلماذا لم يكن مراد واحداً من بين هؤلاء؟ لماذا؟ ألأني لن أحزن عليه؟ ألأنه

لا توجد أم تفجع به، أو تبكيه، حقاً لا يموت سوى الأزواج الطيبيين الذين ستظل زوجاتهم تبكيهم العمر كله.

في هذه اللحظة أيقظها الرجل من شرودها وقطع صمتها حيث كان يحترم صمتها الذي ظنه ناتجاً عن حزن، فقال لها مواسياً لا تحزني يا سيدتي، فهو في خير والحمد لله، فرسمت على ثغرها ابتسامة ساخرة وكانها تسخر من القدر ولم تجبه بينما تابع الرجل كلامه قائلاً:

ـ أرجو أن ترافقيني لنقوم بزيارة إلى زوجك.

قالت له: لا تزعج نفسك يا سيدي، فأنا بإمكاني الذهاب لوحدي.

قال الرجل: هذا لا يجوز يا سيدتي، فمراد صديقي ويجب علي إيصالك إليه، علاوة على ذلك فأنا مكلف من قبل إدارة المشفى بذلك.

فقالت: حسناً انتظرني لحظة كي أبدل ثيابي.

وبعد قليل كانا في طريقهم إلى المشفى وهناك في الغرفة رقم /5/ حيث كان مراد يرقد فوق سرير ناصع البياض، حدقت سهير قليلاً في الباب ثم طرقت عليه طرقة خفيفة ودخلت بخطوات بطيئة، ثم أغلقت الباب بهدوء، وبدأت عيونها تطوف في أرجاء الغرفة برهة، فوجدت مراد نائماً والسيروم معلق بيده، فأخذت تحدق به بنظرات فيها مزيج من الإشفاق والكره، وكانت تشعر بالإشفاق أكثر من الكره، حيث تغلبت عليها العواطف الإنسانية فقد أشفقت عليه كإنسان مصاب، ضعيف ملقى فوق السرير، كالأموات فجعلت تقول: مسكين إنه بالتأكيد يتألم، ثم تقدمت نحوه ببطء ووضعت كرسياً قرب سريره وجلست تحدق به، ثم مدت يدا ولمست وجهه برفق ونادته بصوت منخفض رقيق: مراد.. مراد.. فتح عيناه ببطء، فرسمت على ثغرها ابتسامة فيها الشفقة، وقالت له بلهجتها الرقيقة: الحمد لله على سلامتك، رد عليها بصوت عميق: آه سلمت لي يا سهير، كيف حالك؟ وكيف الأولاد فقد اشتقت لكم كثيراً، وخفت أن أموت دون أن أراكم، فبحثت عن كلمة تقولها له فلم تجد، ولسانها عاجز عن نطق كلمة لا تصدر من قلبها، فظلت صامتة تحدق به، بينما هو تابع كلامه قائلاً: سهير إنك لم تبارحي خيالي لحظة، فقد

كنت دائماً أرى وجهك الجميل ماثلاً أمامي وابتسمتك الحلوة تطوف فوق ثغرك، كنت أسمع صوتك يهمس في أذني فأزداد شوقاً ولهفة إلى رؤيتك.

لدى سماعها هذه الكلمات، تحولت حيرتها إلى دهشة واستغراب فهذه أول مرة تسمع منه هذا الكلام وهذه العبارات العاطفية، فقد مضى على زواجها منه سنين طويلة دون أن تسمع منه هذه اللهجة فاحتارت بماذا تجيبه، عندما عجزت عن وجود كلمة تقولها: قالت له مختصرة الحديث: أنا والأولاد بخير، المهم أنت، ثم لاذت بالصمت، فهي لم تستطع أن تزيد على ذلك كما لم تتعود الكذب بعواطفها، ولم تستطع حتى أن تقول له: إنني اشتقت إليك، فرغم بساطتها لم تستطع النطق بها، حتى كلماته العاطفية لم تستطع سماعها، ولم تحس بحرارتها، ولم تشعر بطعمها، فالكلمة إذا لم تكن صادرة عن قلب محب، لا تخترق لب محبوب، وسهير ومراد بعيدين كل البعد عن الحب، لذا لم تشعر بها ولجأت إلى تغيير مجرى الحديث حيث قالت له: قل لي يا مراد كيف تصوبت؟ وكم من الوقت مضى عليك وأنت هنا؟

أجابها بنفس الصوت الضعيف الواهي المتعب: تصوبت وأنا أقوم بعملية ضد دبابات العدو ونقلت إلى هنا منذ أسبوع، وأجريت لي عملية في ساقي.

قالت له: وهل كانت الإصابة في ساقك فقط، أم هناك جروح أخرى؟ أجابها وقد أرفقها بأنه ألم: طبعاً هناك جروح عديدة في جميع أنحاء الجسم ولكنها جروح خفيفة وقد شارفت على الشفاء بعد علاجها، وكي تظهر له اهتمامها به سألته قائلة، ولماذا لم يرسلوا لي الخبر أثناء العملية؟

قال: لأنني نقلت مع المئات من الجرحى، وكان مغمياً علي وكنت في حالة خطر وهم لا يعرفون عنوان بيتي، ولا من أنا، ثم أنه في مثل هذه الأحوال أول شيء يفعلونه هو مد الجريح بالإسعافات الأولية، ومن ثم إجراء العمليات إذا كان الجريح محتاجاً لذلك، وليس من المعقول أن يتركوا الجريح ينزف وفي الوقت نفسه يبحثون عن ذويه.

قالت له: هذا صحيح، ولكنه قاطعها وكأنه لم يسمع كلامها وقال: لقد كان مغمياً علي قبل العملية، وأثناء العملية، أما بعد العلمية فقد كنت لا أصحو حتى

أعود وأغرق في غيبوبة من جديد بفعل المخدر، ولم أصح جيداً وتخف الآلام قليلاً إلا منذ أمس، وفور صحوتي سألت عنك وطلبت منهم أن يخبروك، ولكن كان عندي أحد زملائي فتطوع هو بأن يقوم بهذه المهمة لأنه يعرف البيت، ثم سألها وكأنه تذكر شيئاً: حقاً نسيت أن أسألك أهو زميلي الذي أتى بك إلى هنا أم أنك أتيت لوحدك؟ قالت له: بل هو الذي أتى بي وقد صمم على مرافقتي إلى هنا.

فسألها: لماذا لم يدخل إذن؟

قالت له: لقد اعتذر عن الدخول وقال لديه عمل وسيأتي في وقت آخر للاطمئنان عليك، ولم تكد تكمل جملتها حتى سمعت طرقة خفيفة على باب الغرفة فالتفتت إلى الوراء وإذا بالدكتور ومعه ممرضة يدخلان.

نهضت من مكانها ووقفت وهي تتمتم بكلمات الترحيب، وتنسحب من مكانها فاسحة المجال للدكتور كي يكشف عن جرح مراد، وأثناء انشغال الدكتور انتهزت هذه الفرصة للتحدث مع الممرضة وكان حديثهما فيه الكثير من المودة والاحترام المتبادل، وبعد انتهاء الدكتور من الكشف، سألته عن حالة مراد، فأجابها: أنه بخير، وحالته في تحسن مستمر، فسألته فيما إذا كانت جلسته في المشفى طويلة؟ فأجابها الدكتور قائلاً: لن تطول أكثر من أسبوع أو أسبوعين.

شكرته سهير، ورافقته إلى باب الحجرة، بينما بقيت الممرضة مع مراد تناوله الدواء، ولدى بلوغ الدكتور باب الحجرة، التفت إلى سهير وقال لها: سأخبرك شيئاً لا أحب أن يعلم به مراد الآن، وهو أن فخذ زوجك لن تعود كما كانت في السابق لأن إصابته كانت بالغة، ولولا لطف من الله سبحانه لكانت ساقه قد قطعت، فشحب وجه سهير، وقالت له بصوت مضطرب، ماذا تعني يا دكتور؟ فتابع كلامه قائلاً: لا تخافي يا مدام، فالأمر ليس كما تصوره عقلك، فقد أحسست بما يدور في رأسك من أفكار ومخاوف، فأنت خفت أن يعجز مراد عن السير ويقعد في البيت عاجزاً عن العمل، أو الخروج، لا.. لا تخافي ليس الأمر إلى هذه الدرجة كل ما أردت قوله هو أن عدة رصاصات اخترقت فخذ زوجك وخلفت وراءها تهشم وقعر كبير، عدا عن قطع بعض الشرايين وهذا حتماً قد سبب له ضعف في ساقه وبالتالي أدى إلى تشويه في مشيته.

حين سمعت كلام الدكتور، خف اضطرابها قليلاً ولكنها ظلت متسمرة في مكانها وبقيت الكلمات مجمدة على شفتيها، ولم تضف كلمة، بينما الدكتور قد تركها وانصرف ظلت برهة واقفة خلف الباب بعد خروجه، لم تلبث بعدها أن تقدمت نحو مراد راسمة على ثغرها ابتسامة باهتة، ليس لها معنى وقالت له: مراد أنا ذاهبة إلى البيت، هل تريد مني شيئاً؟

قال لها: لا.. لا أطلب شيئاً سوى ألا تتأخري علي في الغد.

نظرت إليه بسرعة وكأنها تحاول الاعتراض على طلبه، ولكنها ظلت صامتة دون أن تفعل له شيئاً وسارت بخطوات نحو الباب، ثم التفتت بعدها إلى المرضة التي مازالت موجودة بجانبه، ونظرت إليها نظرة مودة وقالت لها:

ـ أشكرك جزيل الشكر أيتها الآنسة على عنايتك بجميع المرضى، وخرجت قبل أن تسمع الرد من المرضة، وهي في طريقها إلى البيت، أخذت تفكر كيف ستوفق بين الوقوف إلى جانب زوجها وبين عملها في المشفى، الذي يتطلب كل وقتها ثم ماذا ستقول لمراد؟ وهو لو علم ذلك لكان أقام الدنيا فوق رأسها، فقررت أن تترك عملها في المشفى، وفور وصولها إلى البيت اتصلت مع المشفى الذي تعمل فيه، وأخبرتهم بأنها لن تأتي هذا اليوم، وأنها سوف تتصل بهم غداً لتخبرهم عن السبب الذي يحول دون استمرارها في العمل، وفي اليوم التالي، ذهبت إلى المشفى وتوجهت فوراً إلى مدير المشفى طالبة منه إعفائها من العمل، وحين سألها المدير عن السبب، شرحت له الموضوع وأضافت قائلة أن زوجي الآن جريح حرب ويحتاج إلى عناية ورعاية مني وهذا أيضاً جزء من عملي يا دكتور، أجابها المدير هذا صحيح يا ابنتي ولكن يمكنك العناية بزوجك إلى جانب عملك، قالت له: كنت أتمنى ذلك ولكن وقتي لم يعد يساعدني، ولن يسمح لي هو بالخروج من البيت، وكم كنت أود لو بقيت العمر كله هنا لأقدم المساعدة إلى كل جريح أو مريض وهذا أقل ما يمكن تقديمه، بل هذا واجب على كل امرأة عربية، فالحرب حربنا جميعاً، لا فرق بين امرأة ورجل، فحين يهجم العدو ويقصف لا يفرق بين رجل وامرأة إنه يقصف قصفاً عشوائياً ويدمر كل ما يأتي في طريقه، لذلك يجب علينا الوقوف في خندق واحد والمرأة التي لا تستطيع المشاركة على الجبهة أمام العدو، يمكنها المحاربة في الجبهة

الداخلية وهناك مجالات كثير تستطيع المشاركة فيها، وأنا لم أقدم سوى الواجب بل أشعر أني لم أقدم لهذا الوطن الحبيب ما يجب أن أقدمه، فأنا أحلم بأن أحمل السلاح وأرابط هناك على الجبهة، أحلم بأن أواجه العدو وأحرقه بالنار التي تلتهم قلب كل أم فقدت ولدها وكل طفل فقد والده، أن أغرقه بالدماء التي سالت من جسم الشهداء، كانت سهير تتكلم بحماس ومرارة وعيونها تكاد تدمع فنظر إليها المدير نظرات إعجاب وتقدير ممزوجة بحب أبوي، وقال لها:

- إني أحيي وأقدر فيك هذه الروح الوطنية الصادقة، وهذه الأخلاق السامية التي تتحلين بها، إنك امرأة عظيمة، اذهبي اذهبي يا ابنتي فدورك الآن هناك مع زوجك الجريح الذي هو كما قلت جزءاً من عملك ودورك هناك لا يقل أهمية عن دورك هنا، فأتمنى لك السعادة وإلى زوجك الشفاء العاجل، وصمت قليلاً ثم قال بعدها، سوف تخلفي وراءك فراغاً كبيراً في مجال العمل، لن يستطيع أحد سده أما في نفوسنا فسوف يكون لغيابك وحشة كبيرة، فالجميع هنا يحبك ويقدرك وسوف يفتقدونك، فخفضت بصرها إلى الأرض خجلاً، وهي تهمس قائلة: أني أشكر لكم مشاعركم النبيلة يا سيدي، وأتمنى أن أكون قد قدمت شيئاً يستحق رضى الله ورضى الجميع، فقد أعطيتموني من العطف والحنان وأوليتموني من اهتمام أكثر مما أستحق.

ابتسم المدير ابتسامة خفيفة ودودة وقال لها برفق.

إننا لم نعاملك إلا بما تستحقين فأنت عملت بجد وإخلاص، فكنت تقومين بأعمال تحتاج إليها ثلاث ممرضات، علاوة على ذلك تركك بيتك وأولادك، وتطوعك بالعمل مجاناً، فأنت مثال المرأة العربية، مثال المرأة المثقفة الواعية، فتخضبت وجنتاها بالإحمرار من شدة خجلها، وتمتمت بكلمات الشكر وهبت واقفة معلنة انصرافها.

نهض المدير واقفاً ومد لها يده مودعاً فمدت يدها وهي تقول له وداعاً يا سيدي فأجابها الرجل بصوت مخنوق رافقتك السلامة يا ابنتي.

كان تأثر الرجل لغيابها واضحاً واعتبر فقدان ممرضة مثل سهير خسارة كبيرة للمستشفى، ويخاف عليها وكأنها ابنة له، فكان يعتز بأخلاقها وتهذيبها ويعاملها

معاملة خاصة، تمتاز عن باقي زميلاتها، وهذا ما سبب غيرة إحدى الزميلات من ذوي النفوس المريضة.

خرجت سهير من غرفة المدير تعبر الرواق الطويل وهي تقوم بزيارة بعض المرضى وفي طريقها شاهدت عدداً من الأطباء والممرضات الذين تعمل معهم فبادروها بالترحيب وإلقاء تحية الصباح.

قال لها أحدهم: هل أنت ذاهبة يا سهير؟ ولماذا غبت يوم أمس؟ لقد سأل عنك الجميع، وقبل أن تجيب سألتها واحدة: بل أين كنت الآن؟ ولماذا لم تريدين ثياب العمل؟

أجابتها بلهجة حزينة: كنت عند المدير.

فسألتها أخرى من الزميلات برقة وبلهجتها المرحة، ولماذا استدعاك المدير؟ هل فعلت شيئاً يغضبه هذا الصباح كي يعاقبك؟ فإذا كان العقاب شديداً سوف أتنازل وأتقدم بشفاعة للمدير كي يعفو عنك، ما رأيك بهذا التواضع؟ فأنا كما تعلمين لي قيمة وطلبي يدخلك السجن بإذن الله.

فانفجر الجميع بالضجم، وبعد أن هدأوا قالت سهير: الحقيقة إني قابلت المدير كي أطلب منه أن يعفيني من العمل، فصاح الجميع بصوت واحد: ولماذا طلبت ذلك؟ فشرحت لهم ظروفها التي تحول دون متابعة عملها، فتأثر الجميع لهذا الخبر، ثم رافقوها إلى غرفة الاستراحة والتف حولها جميع زميلاتها وزملائها، بما فيهم بعض الأطباء ليودعوها، ولكنها استأذنت منهم قائلة انتظروني قليلاً ريثما أمر على مرضاي وأقدم لهم آخر خدمة وأودعهم، ثم أعود سريعاً.

ما إن انتهت من إشرافها على المرضى، ووداعها لهم، حتى عادت إلى زميلاتها اللواتي كن ينتظرنها وأقمن حولها شبه مناحة وعبرن عن أسفهن لفراقها وقد اغرورقت عيونهن بالدموع، ثم خرجت سهير والدموع تملأ مقلتيها والألم يعتصر قلبها، ولم تكد تصل إلى باب المشفى الخارجي حتى شعرت بدوار في رأسها وأحست بالأرض تميد تحت قدميها، وراحت تتأرجح في مشيتها وكأنها سكرانة فقدت اتزانها وأخذت تبذل قصار جهدها لتحفظ اتزانها ريثما تمر بها تكسي ومن حسن حظها لم تطل وقفتها حتى مرت سيارة فأوقفتها ورمت نفسها في داخلها

وقالت للسائق بصوت واهن خذني إلى مشفى المزة، فانطلق بها إلى هناك، فكان طيلة الطريق تذرف الدموع ولم تشعر بنفسها إلا والسائق يقول: لقد وصلنا المشفى يا سيدي فدفعت له الأجرة، وترجلت من السيارة إلى الشارع تمشي مرتخية، ثم دخلت المشفى وصعدت إلى الدور الثالث وسارت في رواق طويل واجتازت غرف عدة، وقع نظرها على أطباء وممرضات فكانت لا تشعر بهذه الحركات التي تحدث حولها حتى بلغت غرفة مراد وقفت قليلاً أمام الباب، حيث جففت دموعها التي لم تستطع حبسها طيلة الطريق، ورسمت على شفتيها ابتسامة باهتة لا لون لها، متصنعة المرح، ثم طرقت الباب طرقة خفيفة ودخلت بهدوء ورمت التحية على مراد الذي كان مرمياً فوق السرير وعيناه تحدقان بسقف الغرفة، عندما سمع صوتها التفت إليها مبتسماً وقال لها:

ـ أهلاً يا سهير، إنك مبكرة بالمجيء هذا اليوم؟

فقالت له: إذا كان مجيئي قد ضايقك فبإمكاني أن أعود من حيث أتيت.

قال لها: لا يا سهير، ما قصدت هذا وإنما قصدت أنك أتيت على غير العادة، فأنت لم تأت إلي إلا بعد الظهر.

أجابته: لقد وجدت نفسي خالية من الأعمال هذا اليوم، أتيت إليك باكراً كي أعود وأهيئ الغداء للأولاد في وقتها.

قال لها: حسناً، هاتي الكرسي، وتعالي اجلسي هنا بقربي ففعلت ما طلب دون أن تبدي اعتراضاً وظلت معه ما يقارب الساعة، ثم عادت بعدها إلى بيتها.

قضى مراد قرابة شهر في المستشفى، كانت سهير خلالها تزوره كل يوم وحين تماثل للشفاء قرر الأطباء خروجه من المشفى واعطائه نقاهة مدتها ثلاثة أشهر يرتاح خلالها في البيت، كانت سهير ممرضة خلال هذه المدة واعتنت به حتى شفي تماماً وعاد إلى قطعته على الجبهة، فوجد تسريحه قد صدر لظروف اصابته التي سببت له ضعفاً في ساقه، كي يبتعد عن أجواء الحرب وطلب من مدير عمله أن ينقله إلى أي محافظة في سورية فوافق المدير على طلبه لأنه ممن شاركوا في الحرب.

فقد نقله المدير إلى مدينة حلب حيث يوجد هناك شاغر وحين علمت سهير بأمر النقل، حزنت لأنها ستفارق صديقاتها وأهلها الذين انتقلوا إلى دمشق في الفترة

الأخيرة وأصبحوا قريبين منها، وفكرت كيف تعيش في هذه المدينة التي لا تعرف فيها أحداً، ولا يوجد لها فيها أقارب، ولا حتى تعرف التجول فيها وفي الوقت نفسه فرحت لأنها ستبعد عن الأماكن التي تذكرها دائماً بتلك الهفوات التي حاولت في يوم من الأيام أن ترمي نفسها بين ذراعي فتحي، ظنت أنها إذا ابتعدت عن هذه الأماكن سوف تنسى ولكن كيف للإنسان أن يهرب من هذا الضمير الذي يلازمه كظله؟ ولم تستطع النسيان حتى بعد أن رحلت إلى مدينة أخرى وعندما يشتد بها تأنيب الضمير تحاول التخفيف عن نفسها قائلة: لماذا أعذب نفسي هكذا؟ لقد تراجعت من أول الطريق ولم أسمح له أن يتعدى القبلة المغتصبة.

* * *

الفصل الثامن

جاء نقلهم إلى محافظة أخرى ليكون نقطة تحول جديدة في حياتها العملية والثقافية، لما تحتويه من طموح وتطلع إلى مستقبل باهر عظيم، دخلت تلك المدينة واختارت حياً شعبياً، كما تقتضي ظروفها المادية، وهناك ابتدأت حياة جديدة مع مجتمع جديد، يختلف كل الاختلاف عن مجتمع دمشق الذي يتسم بالوضوح، بعد أن استقرت سهير أعلنت عن نفسها أمام الجيران كخياطة وصانعة الورد، مرت عليها الشهور الأولى ثقيلة مملة لأنها تعيش شبه ،نعزلة ليس لديها صديقة ولا أقارب ولا تجرؤ على الاختلاط مع الجيران لأنها لا تعرف شيئاً عن هذا المجتمع ولا عن طباعه، فهي تخشى الاختلاط به.

ففضلت العزلة ولكن بعد انقضاء عام على اقامتها هناك وكثرت الزبائن عليها كخياطة وصانعة ورد، ارتاحت نفسياً نوعاً ما وأصبح لديها معارف كثيرة، كما استطاع الجيران رغم تجنبها اياهم أن يجلبوها نحوهم ويخرجوها من عزلتها قليلاً ولكنها رغم هذا ما زالت تشعر بالفراغ الذي تركته صديقاتها.

وخاصة هدى التي كانت كل شيء في حياتها لأنها جعلت منها مستودع أسرارها ومستمعة لمناقشاتها التي لا تنتهي.

أما الآن فإنها لا تجد من تودع أسرارها عنده، ولا من يفهم مناقشاتها، فهي رغم كثرة معارفها إلا أنها لم تجد من بينهن من يفهمها أو من ترتاح إليها، كما لم تعثر على الصديقة التي تحمل مواصفات الصديقة الحقيقية، لكن لم تطل هذه الوحدة أكثر من عام، حيث قذف القدر في طريقها صديقة كما تحب، وتشتهي، حدث هذا في ذات يوم حيث جاءت لعندها سيدة كي تخيط لها ثوباً، كانت هذه السيدة طويلة القامة، ملفوفة الجسم، شقراء اللون جميلة الوجه، خفيفة الظل، مرحة الطباع، اجتماعية إلى حد كبير، كانت ترى طيبة قلبها وصدق معاملتها منذ أول حديث يدور معها وكالعادة استقبلتها سهير بوجه بشوش وكلمات لطيفة، ثم دار بينهما حديث عابر ولكن ما لبث أن تحول إلى حديث شخصي دون تفكير

اندفعت كل منهما في سرد قصة حياتها للأخرى، وكأنهما تعرفان بعضهما منذ زمن، لم تدري كل منهما لماذا اندفعت نحو الأخرى، ربما يعود هذا الاندماج السريع إلى اكتشاف كل واحدة منها طباع الأخرى، أو ربما رأت كل واحدة نفسها بشخص الأخرى، فكانت الطباع متقاربة والإحساس واحد والتفكير مشترك.

لذلك ارتاحت كل منهما للأخرى ومن خلال حديثها الشخصي، سألتها سهير عما إذا كان لديها أولاد؟ فأجابتها بصوت حزين أنها لم تنجب سوى طفل واحد وقد مات وهو حديث الولادة، وأنها ترددت على أطباء كثر إلا أنها لم ترزق بولد أخر فسألتها عن رأي زوجها في هذا الموضوع فقالت لها: أن زوجها لا يحب الأطفال ولم يؤثر هذا الأمر على علاقتهما الزوجية فهو يحبها أكثر من نفسه ويفضل سعادته معها على الأطفال. وبعد أن انتهوا من حديثهم الطويل، قالت سهير بطريقة مازحة: رغم طول حديثنا لم أعرف حتى الآن ما اسمك؟ فابتسمت المرأة ابتسامة ودية وقالت: أنا اسمي ناهد أمين، أنا أسفه على عدم تقديم نفسي حيث أخذنا الحديث ولم ننتبه. أجابتها سهير: لا داعي للأسف، لأن الحديث فعلاً قد أخذنا دون أن نشعر ولدى انصراف ناهد وقبل أن تخرج من الباب التفتت إلى سهير وقالت لها: مدام سهير: أرجو أن تشرفيني بزيارة وتعتبريني صديقة لك، هذا إذا كنت قد رأيت أنني أستحق صداقتك، أجابتها بتهذيب ورقة أن هذا لشرف كبير لي يا مدام ناهد، أن تكوني صديقة لي لأنك إنسانة لطيفة وطيبة، ويبدو الصدق والإخلاص ظاهرين على محياك وتسعدني صداقتك، عظيم السعادة.

ثم وجهت لها دعوى لتكرر زيارتها، وبعد خروج ناهد أخذت سهير تحدث نفسها قائلة: إنها امرأة مثقفة واعية ولطيفة، وأجمل شيء فيها خفة ظلها، ومرحها الدائم ليتها تزورني دائماً.

ثم توجهت إلى سريرها فرمت بنفسها عليه وما لبثت أن تحول تفكيرها باتجاه آخر، اتجاه حياتها المعذبة الشقية، تنهدت بعمق وكأنها أرادت إخراج كل ما يؤلمها من خلال تلك الزفرة، ثم جعلت تحدث نفسها قائلة: ها هي الأيام تمر والسنون تمضي وأنا على ما أنا عليه من الفراغ الذي تركه كمال، رغم كل ما بذلته من جهد كي أنسى عواطفي فلم أستطع أن أعيش في فراغ عاطفي كبير، وهذا ما

يزيد من شقائي بل ما يجعلني أشقى امرأة على وجه الأرض، فأنا أحس من أعماقي بأني أحترق وأشعر بحاجتي إلى يد حنونة تلمسني وصدر دفئ مليء بالحب يضمني فأنا امرأة والمرأة بحاجة إلى فيض من الحب والحنان، رباه لماذا كل هذا العذاب؟ رباه، ماذا فعلت كي تشقيني كل هذا الشقاء؟ ارحمني يا رب وأنقذني من هذا الشقاء والضياع والتمزق الذي أعانيه، فأنت أعلم بحالي.

آه ليتني لم أخلق لهذا الوجود، وأجهشت بالبكاء وكانت تحدث نفسها بهذه الكلمات وكأنها في أعماق البحر، تستنجد بغطاس ماهر ينتشلها من هذا الضيق، أو كأنها تسخط وتثور على هذا القدر الذي لم ينصفها، كان شعورها مزيجاً من طلب الرحمة والتوسل، والرضوخ لمشيئة الله الجبارة، القاهرة وبين الرفض والثورة، ضد ما اختاره الله من ظلم وعذاب، كانت تؤمن بمشيئة الله وحكمته على البشر، ولكنها كانت تثور وترفض هذه المشيئة عندما يفيض بها، وفي اليوم التالي استيقظت من نومها كئيبة متضايقة تشعر وكأن يداً تكاد تخنقها، فراحت تنتقل من غرفة إلى أخرى ثم فتحت المكتبة وأخرجت منها كتاباً وجلست تتصفحه، فلم تفهم ما تقرأ فرمته من يدها وعادت تجوب الغرفة إلى أن ملت واتجهت إلى السرير تحاول النوم من جديد ولكنها لم تستطع فأسرعت إلى الخزانة وأخرجت ثيابها، وأخذت ترتديها وهي تحدث نفسها قائلة: سوف أخرج من هذا البيت الذي يكاد يخنقني وخلال لحظات كانت قد انتهت من ارتداء ثيابها وخرجت مسرعة لا تلوي على شيء، ولم تعلم إلى أين هي ذاهبة، ولكنها وجدت نفسها في الشارع العام، أوقفت سيارة وانطلقت بها وحين سألها السائق إلى أين تريدين الذهاب يا سيدتي؟ احتارت بماذا تجيبه وأخيراً حسمت حيرتها وقالت له: إلى العزيزية وهناك أخذت تطوف المحلات دون هدف أو رغبة بشراء شيء ولكنها رأت محلاً جديداً قد لفت انتباهها بديكوره الضخم، ومعروضاته الرائعة فوقفت تحدق بهذه المعروضات ولم تر نفسها إلا وهي داخل المحل، تجوب تلك الأقسام المتعددة التي تضم عدداً من البائعين والبائعات، ولم تتوقف إلا أمام قسم الماكياج الذي تديره فتاة سمراء قصيرة القامة واسعة العينين ذات شعر أسود مسترسل على كتفيها، وكأنه حبائل ظلام، كانت فتاة ليست بالقبيحة ولا هي بالجميلة ورغم ذلك تراها تلفت الانتباه إليها

بابتسامتها التي لا تفارق ثغرها، ووجهها البشوش ومظهرها الأنيق، فهي شديدة الاعتناء بمظهرها أما طباعها فهي متحررة، جزئية. وقفت سهير أمام قسم الماكياج، وطلبت من الفتاة السمراء علبة ماكياج وسألتها عن السعر، ثم سألت عن أنواع معينة من المستحضرات فلبت الفتاة جميع طلباتها وبعد أن انتهت من تلبية طلباتها سألتها: يبدو لي يا سيدتي أنك لست من هنا أليس كذلك؟

أجابتها بدهشة وكيف علمت ذلك؟

قالت الفتاة والابتسامة العريضة مازالت تطوف على ثغرها: لهجتك وأسلوبك اللطيف بالمعاملة يدلان على أنك من دمشق.

ابتسمت لها وقالت بود: أجل أنا من دمشق ثم أضافت قائلة ولكن هل المرأة الدمشقية لها أسلوب خاص يا آنسة؟

أجابتها الفتاة أجل: إنها تمتاز باللطف والرقة، وأنا أحب المرأة الدمشقية أما المرأة هنا ففيها شيء من الخشونة والفظاظة، وأضافت قائلة: وهل أنت هنا مقيمة أم زائرة؟

أجابتها سهير: أنا مقيمة هنا.

قالت الفتاة: وهل أعجبتك مدينتنا؟

أجابتها بلباقة: إنها مدينة جميلة وسكانها أناس طيبون.

سألتها الفتاة: هل أنت موظفة؟

قالت: لا أنا لست موظفة ولكنني أعمل.

قالت الفتاة: وما هو عملك؟

أجابتها: أنا أعمل خياطة وصانعة ورد والرسم على الزجاج.

سألتها الفتاة: ولمن تبيعين الورد؟

أجابتها سهير بلهجة الخبيرة: أتعامل مع محلات الورد، فأعطيهم كل ما أنتجه من ورد، وأشارك في جميع المعارض التي تقام، وقد حصلت على عدة جوائز تقديرية وكان جناحي دائماً يحوز على الدرجة الأولى.

فأجابتها الفتاة بإعجاب: هذا عظيم ولكن طالما لك كل هذا النجاح في هذا المجال لماذا إذن تمارسين مهنة الخياطة وخاصة هذه المهنة؟ أي الخياطة؟ متعبة جداً.

أجابتها: كنت أمارس الخياطة من أجل المال وإملاء الفراغ الذي كنت أعيشه، ولكن الآن وبعد أن حققت نجاحاً باهراً في مجال الورد، وأصبح لدي معارف كثيرون واشتركت في أغلب المعارض التي تقيمها الروابط ومعارض الزهور، فقد فكرت أن أتخلى عن الخياطة وأتفرغ لصناعة الورد، ورسم السيراميك والزجاج.

وفعلاً نفذت ما فكرت فيه فقد رفضت استلام أي فستان يأتي وبدأت اصفي الفساتين التي عندي.

قالت لها الفتاة مازحة: يا لسوء حظي، فقد أقلعت عن الخياطة أول ما تعرفت عليك كي لا أخيط عندك فستاناً.

قالت لها: أهلاً بك في أي وقت تريدين فيه خياطة فستان، فأنا حتى لو أقلعت عن العمل في مهنة الخياطة، لن أرد طلب أية صديقة فشكرتها الفتاة وطلبت منها أن تكرر زيارتها للمحل.

فقالت لها: سأفعل إن شاء الله، ولكن أتمنى أن تزوريني أنت أيضاً يا آنسة.

فأسرعت الفتاة قائلة: سوسن، أنا اسمي سوسن زهران، وأنت ما اسمك؟

أجابتها: أنا اسمي سهير إبراهيم، ثم زودتها بعنوان البيت وانصرفت عائدة إلى البيت، منذ ذلك اليوم أصبحت سوسن وسهير صديقتين.

فسهير ما من مرة ذهبت إلى السوق إلا ومرت على سوسن، وكانت سوسن بدورها تحصل على إذن ساعة أو ساعتين كي ترافق سهير جولتها على المحلات التجارية، أما سوسن فقد أصبحت من الزبائن المداومين لسهير، رغم إقلاعها عن الخياطة بشكل قطعي، وكانت سهير تسعدها كثيراً رؤية سوسن.

حدث كل ذلك خلال فترة قصيرة من التعارف بينهما ولكن لم تدم هذه الصداقة فترة طويلة، حيث أن طباع سوسن تختلف عن طباع سهير، وسلوك كل منهما يتعارض مع سلوك الأخرى، فسوسن فتاة مستهترة في حياتها لعوبة لا تقدر عاقبة تصرفتها، متهورة، تمارس حريتها بما يسيء إليها وإلى الحرية، مما سبب

لها مشاكل كثيرة وجعلها تفقد حبيبها، وهذا التناقض في الطباع والتصرفات بين سوسن وسهير كان سبب فتور في العلاقة، ومن ثم الانقطاع، حيث رفضت سهير هذه الحياة التي تعيشها سوسن، وكثيراً ما نصحتها بالإقلاع عنها وسلوك الطريق السوي، ولكنها لم تعبأ بكلام سهير ولم تأخذ بنصائحها مما جعل سهير تقطع عنها نهائياً خاصة وقد وجدت صديقة كما كانت تحلم وتحب، وهذه الصديقة هي ناهد تلك الشقراء التي جاءت يوماً إلى سهير كي تخيط لها فستاناً، فحدث بينهما اندماج وتفاهم حيث وجدت كل منهما نفسها بالأخرى، حدث ذلك في ذات يوم حين كانت سهير تهم بالخروج قاصدة سوسن، التي طلبت بأن تأخذ رأيها في موضوع قد حدث معها، وكان هذا في أواخر العلاقة بينهما، وإذ الباب يطرق فأسرعت إلى فتحه فوجدت ناهد تقف أمامها والبسمة الزاهية تطل فوق ثغرها، فابتسمت لها سهير ابتسامة ود وفرح، ثم صافحتها بحرارة وأدخلتها وهي ترحب بها، وبعد أن قادتها إلى الصالون، قالت لها معاتبة: لماذا تأخرت في زيارتك لي يا مداد ناهد؟ أجابتها بطريقتها المرحة المحبة: أولاً أرجو أن ترفعي الكلفة بيننا وتكفي عن نطق اللقب قبل اسمي وتناديني ناهد فقط، هذا إذا كنت ترغبين أن نكون صديقتان لأنه ليس من المعقول أن نصبح صديقتين ونحن نضع الكلفة بيننا، وثانياً: تأخرت في زيارتي لك حيث كنت أنتظر منك زيارة، وعندما طال انتظاري أسرعت أنا لهذه الزيارة.

ابتسمت سهير بعذوبة وقالت لها: ألم تقولي لي منذ قليل، إذا كنا نرغب بأن نكون صديقتين يجب علينا أن نرفع الكلفة بيننا؟

أجابتها والابتسامة لم تفارق شفتيها: أن جوابك هذا فيه الكثير من الذكاء فقد اعتذرت دون أن تختلقي عذراً.

قالت سهير برقة: هل أعتبر هذا مديحاً؟

قالت: بل هو إعجاب لا متناهي بشخصيتك.

قالت بتهذيب: إني أشكرك على هذا الاطراء يا ناهد.

قاطعتها قائلة: ولكن هذا لا يعفيك من الجواب على سؤالي.

قالت وكأنها لم تدرك قصدها: جواب عن ماذا؟

قالت ناهد: لا أظنك تجهلين عن ماذا؟ طبعاً عن المانع الذي حال دون زيارتك لي.

ففتشت عن جواب مقنع فلم تجد، وبينما هي تبحث عن الجواب قالت لها ناهد: ها قولي لماذا سكت؟

أجابتها بسرعة: أنا لم أصمت، ولكن في الحقيقة المانع هو أنني لا أعرف بيتك.

قالت لها: هذا ليس عذراً، فأنا قلت لك على ما أذكر أنني أقطن في العمارة المجاورة والمسافة لا تكلفك سوى خطوات قليلة، وكي تتهرب من الجواب الصحيح، وهو أنها لا تحب هي المبادرة بأي زيارة كي لا تشعر أنها تفرض صداقتها.

قالت لها: هذا صحيح ولكن أنا لدي مشاغل أكثر منك، ووقت فراغي قليل، لذلك يجب أن تكون الزيارة منك أنت وليست مني أنا، ثم دعينا الآن من الماضي ولنتحدث في الحاضر.

قالت لها: أنا لن أقوى عليك، فضحكت سهير، ولكن ناهد اختصرت ضحكتها وكأنها تذكرت شيئاً مهماً فقالت لها: حقاً يا سهير، إني أراك متأهبة للخروج أرجو أن لا أكون قد عطلتك عن مشوار مهم.

قالت بسرعة: لا، ليس لدي أي مشوار، ثم رؤيتك عندي أهم من كل شيء.

ثم مضيتا في حديثهما واستغرق الحديث ما يقارب الساعتين تحدثتا خلالها في كل شيء، عن المجتمع والموضة والحب والزواج وعادت ناهد بعدها إلى بيتها بعد أن أخذت عهداً من سهير على أن ترد لها هذه الزيارة.

وفعلاً نفذت سهير وعدها وقامت بزيارة ناهد، ثم تعددت بعدها الزيارات بين الطرفين، ولم تمض فترة قصيرة حتى توطدت بينهما الصداقة وأصبحتا كأختين ولم تعد تنقطع الواحدة عن الأخرى يوماً.

فرحت سهير بصداقة ناهد وأسعدتها كثيراً لأنها وجدت فيها الصديقة التي تستطيع أن تستودعها أسرارها وتشاركها همومها.

* * *

الفصل التاسع

بعد أن خرجت ناهد من بيت سهير، خرجت سهير بعدها بلحظات ذاهبة إلى سوسن التي كانت قد طلبت منها ذلك في مخابرة تلفونية كي تطلعها على موضوع قد حدث لها ولم تدر أن سهير مقتتها، بل مقتت تصرفاتها، واشمأزت من سلوكها المشين، وحين بلغت سهير المحل وجدت سوسن وقد نفذ صبرها، فاستقبلتها بالعتاب، فاعتذرت منها سهير، وشرحت لها السبب الذي أخرها.

قالت لها: طبعاً فقد وجدت صديقة جديدة ونسيت الصديقة القديمة، أجابتها بفتور: ليس الأمر كذلك وإنما أخذنا الحديث دون أن نشعر بمرور الوقت.

قالت سوسن: حسناً دعينا من هذا الأمر، وقولي لي أين وكيف سأحدثك بهذا الموضوع. أجابتها سهير: طبعاً ليس هنا، خذي إذن ساعة من عملك ولنذهب إلى أي كافتيريا قريبة من هنا. همست سوسن بكلمات مبهمة وذهبت إلى صاحب المتجر، فطلبت منه إذن ساعة فلبى طلبها وخرجت مع سهير ودخلتا أقرب كافتيريا حيث جلستا على طاولة متقابلتين وقبل أن تخوضا في أي موضوع طلبتا كأسين من العصير، أسندت سهير يدها فوق الطاولة ووضعت خدها في راحة يدها، وراحت تحدق فيها منتظرة أن تحدثها بالموضوع الذي تتوقع أن يكون عن مغامراتها فهي تعرفها تحب إقامة علاقات مع أي شاب تتوفر فيه الصفات التي تحبها، وهي أن يكون جميلاً وغنياً وله مركز رفيع في المجتمع، ولأنها ترغب في فعل كل شيء يشذ عن القاعدة والمألوف، فهي لا تقيم علاقة حب للهدف الذي تسعى إليه كل فتاة، وهو الزواج وإنما للهو والعبث فتمضي مع الشاب عدة أشهر أو أسابيع أو ربما أيام ثم تتركه ويتركها دون أسف وتبحث عن غيره، والشيء الذي ساعدها على ذلك هو عملها الذي له صلة مباشرة مع الناس، فيومياً كانت تقابل المئات من الجنسين وكانت العلاقة تبدأ عندما يدخل شاب إلى المحل ويتظاهر بشراء شيء من قسمها ويحاول مغازلتها فتمعن النظر فيه إذا كان جميلاً وأنيقاً، ويتضح لها من خلال الحديث الذي يتبادلانه أنه غني وله مركز رفيع فتشجعه على مغازلتها، وتقيم معه

علاقة حب على طريقتها وإذا كان دون ذلك سخرت منه وصدته، أما سعيد الحظ الذي يحوز على إعجابها فكان يدعوها في أول الأمر إلى الكافتيريا وفي المرة الثانية يصطحبها إلى شقة مفروشة يكون قد استأجرها لهذا الغرض، كانت جميع علاقاتها عابرة عدا علاقة واحد كانت تتمنى أن تثمر عن زواج والتي قضت عليها بطيشها وهذا ما دفعها إلى طلب مجيء سهير كي تقص عليها ما جرى وأخذ رأيها في الموضوع، جاء " الكارسون " بالعصير، رشفت كل واحدة منهما عدة رشفات. قالت سهير بعدها لسوسن: ها.. ما الأمر الذي طلبتني من أجله؟ صمتت سوسن قليلاً ثم قالت بعدها: الموضوع كبير ويحتاج إلى شرح طويل، ولست أدري من أين أبدأ الحديث. قالت سهير: من نقطة البداية، فانطلقت تقص عليها حكايتها مع أحمد. هذا الشاب الذي تعرفت عليه في المحل وبنت معه علاقة حب، أحبها هذا الشاب حباً عميقاً، وفكر بالزواج منها، خاصة وقد أوهمته أنها لم تحب رجلاً من قبله، وأنه هو الرجل الوحيد في حياتها وهذا هو الأسلوب الذي تتبعه مع كل شاب، ولكنها رغم هذا الحب الذي كانت تتوهمه إلا أنها لم تتحدث معه بشأن الزواج ولا حتى أتاحت له فرصة التحدث به، فكلما حاول أحمد فتح الموضوع معها غيرت الحديث دون أن تدري، واستمرت علاقتهما شهوراً حتى جاء اليوم الذي مرّ عليها أحمد ودعاها إلى العشاء وطلب منها أن تنتظره، فتواعدا الساعة الخامسة مساء، وحين سألته إلى أين سنذهب قال لها: إلى أي مكان تحبين، وفي الموعد المحدد جاء أحمد يقود سيارته الفخمة . توقف أمام المحل، رأته من خلف الزجاج، فأسرعت إليه، صعدت إلى جانبه وانطلق بها وقد اختار لها مطعماً راقياً جداً، أدخلها إليه فتعشيا على الأضواء الخافتة، وأنغام الموسيقى وما أن انتهيا من تناول العشاء حتى التفت إليها أحمد قائلاً: ألا تحبين الخروج لنقوم بجولة حول المدينة.

أجابته باندفاع: أجل فأنا لا أحب الجلوس طويلاً في مثل هذه الأماكن، فنهضا وغادرا المكان منطلقين إلى خارج المدينة حيث الهدوء والهواء المنعش، وبقيا سائرين مسافة بعيدة عن المدينة، وهناك على جانب الطريق حيث يوجد أشجار وارفة الظلال في غابة كثيفة يتردد عليها أهالي هذه المدينة للتنزه. . . .

الفصل العاشر

مرت الأيام ومضت السنون، وسهير تحرز فيه كل يوم نجاحاً جديداً في مجال عملها، فقد اشتهرت شهرة واسعة وأصبح اسمها ينطق على كل لسان وسيرتها ترن في كل أذن، من كثرة ما قامت به من نشاطات وأعمال، وقد طورت نفسها كثيراً في صناعة السيراميك وتعرفت على أشخاص كثر، كان اسمها يصل إلى كل الآذان عدا أذن مراد ومكانتها تزداد قيمة واحتراماً إلا عند مراد الذي لا يعرف فيها سوى جسد يشبع به غريزته الحيوانية وخادمة تقوم على خدمته.

كان لا يعرف عن حياتها خارج البيت شيئاً، ولم يسمع عن أعمالها شيئاً، وظلت هكذا إلى أن جاء يوم حدثت مشاجرة بينها وبين مراد، أدت إلى طردها من المنزل، وكان سبب المشاجرة هروب سهير من غرفة مراد حيث كانت متعبة جداً ففضلت أن تنام في سريرها وحدها كي تريح جسمها.

وعندما أفاق مراد في الصباح الباكر، أخذ يبحث عن سبب كي يبدأ معها المشاجرة كما كان يفعل دائماً، ولسوء حظها فقد وجد سلك التلفزيون الداخلي قد كسر منه قطعة صغيرة، فهجم عليها، حيث كانت نائمة ورفسها بقدمه وهو يصرخ في وجهها من كسر الأنتيل؟

أفاقت مذعورة لا تعرف ماذا جرى نظرت إلى الساعة وإذا بها تشير إلى الخامسة صباحاً فأجابته بصوت مضطرب: ماذا أصابك حتى استيقظت ثائراً هكذا فصرخ عليها بصوت مرتفع، قلت لك من كسر الأنتيل؟

ردت عليه ببرود لقد كسره شريف يوم أمس، وهو يلعب ولم تكد تكمل إجابتها حتى انهال عليها بالضرب والشتائم ولم يكتف بضربها بيديه، بل ذهب إلى المطبخ وتناول منه صفيحة ونزل بها ضرباً حتى تحطمت الصفيحة، وغدا جسدها بقعاً سوداء، ثم أمسكها من يدها وجرها إلى الباب ودفع بها إلى الخارج وهو يشتمها بصوت مرتفع ويقول لها: أخرجي من بيتي، اذهبي إلى أهلك، فأنا لم أعد أريدك.

وكانت المسكينة تقاوم وتتمسك بالباب لا تريد الخروج من هذا البيت الذي لم تر فيه سوى الشقاء والذل، لم تكن تريد الخروج منه لأنها تاركة فيه قطعة من قلبها وهم أولادها كانت تتلقى الضرب والشتائم وهي صامتة ساكنة لا تبدي مقاومة، لم تستطع النطق إلا بكلمة واحدة، ظلت ترددها بصوت مبحوح حتى أصبحت خارج المنزل، دعني مع أولادي، لا أريد الخروج، لا أريد الخروج.

ولكنه لم يستجب لنداء أمومتها ولم يرحم دموعها، ولم يشفق على هؤلاء الأطفال الذين أفاقوا على الصراخ والشتائم، ولم يشفق عليهم وهم يبكون ويتمسكون بها ويتوسلون إليه على أن يكف عن ضربها، وأن يدعها معهم.

عندما وجدت سهير نفسها خارج البيت وهي في ثياب النوم والشمس لم تبزغ بعد قالت لنفسها، ماذا أفعل وإلى أين أذهب؟ فالوقت مبكراً والناس نيام، وكيف أخرج إلى الشارع وأنا في ثياب النوم؟ أخذت تطرق الباب طرقات خفيفة خوفاً من الجيران من أن يستيقظوا على طرقاتها.

كانت تريد منه أن يعطيها ثوباً تستر به جسمها ولكنه لم يفتح ولم يدع الأولاد يفتحون لها، وحين علمت أنه لا فائدة منه، فكرت في ناهد، قالت لأذهب إلى ناهد قبل أن يملأ الناس الشوارع، نهضت واقفة واستدارت نحو الباب ونظرت إليه والدموع تملأ عينيها، نظرت إليه وكأنها تلقي نظرة أخيرة على جثمان حبيب اختطفته منها يد المنية، هبطت السلم ببطء وهي تجر رجلها جراً وحين بلغت بيت ناهد، ترددت قليلاً قبل أن تطرق الباب ولكنها تذكرت نفسها أنها في ثياب النوم فخافت أن يخرج أحد الجيران، مدت يدها المرتعشة وطرقت الباب طرقات خفيفة خجلة أن الوقت مبكراً والناس نيام، ماذا يقول عنها زوج ناهد، هكذا كانت تحاكي نفسها دقائق، فتح الباب وبرزت منه ناهد بثوب نومها وعيناها النصف نائمة، عندما رأتها ناهد قشعر بدنها وجحظت عيناها.. ما بك وماذا أخرجك بهذا الوقت المبكر عسى أن يكون خيراً يا عزيزتي.. أدخلي بسرعة فأنت بثياب النوم.. أدخلتها وأغلقت الباب وهي تسأل عن السبب وراء خروجها هذا..

نظرة تائهة حزينة وهمست بصوت متهدج أين تريدين أن تكون جارية قد غضب منها سيدها.

قاطعتها ناهد قائلة: جارية؟ أية جارية؟ وأي سيد هذا الذي تتكلمين عنه؟ قولي ما بك.

أجابتها وهي مازالت تنظر إلى الأفق: أن حياة الإنسان كلها ألغاز ومن الصعب حلها هذا إذا لم يكن شبه مستحيل.

اقتربت منها وقد أشفقت لحالها ولمست كتفيها برفق وقالت لها بحنان: سهير أرجوك أن تهدأي قليلاً يا حبيبتي، وتخبريني ما بك، هل تشاجرت مع مراد، فهزت رأسها بالإيجاب.

قالت لها اجلسي واحكي لي ما حدث.

جلست سهير وأخذت تحكي لها كل ما حدث وحين انتهت من كلامها قالت لها: لا يا سهير، لا يا حبيبتي لا تتركي أطفالك وتذهبي إلى أهلك.

أجابتها بصوت يكاد لا يفهم من شدة البكاء أنا لم أرغب يوماً بترك أولادي، وأنت تعلمين ذلك ولكن الأمر ليس في يدي، أجل يا ناهد ليس في يدي، لقد عانيت الكثير من أجل ألا أتراكهم، ولكن ماذا أفعل وقد طردت من البيت رغماً عني؟ أخرجني قسراً.

أجابتها بصوت تخنقه الغصة: حتى لو طردك لا تتركي أولادك فهم في حاجة إليك، وأنت أيضاً بحاجة إليهم، ولن تستطيعي العيش من دونهم، فأنا أعرفك جيداً وأعرف مدى حبك لهم.

أجابتها سهير: بل سأذهب إلى أهلي كفاني هذا العذاب والدموع والذل ولم أعد قادرة على تحمل المزيد.

أجابتها وهل تظنين أن ذهابك إلى أهلك وبعدك عن أولادك سيريحك؟ لا يا مجنونة، بل سيزيد من عذابك وستذرفين بحراً من الدموع، وستتألين حتى لا تعودي تشعرين بطعم الآلام، فلا تكوني مجنونة وتهدمي كل ما بنيته وتضيعي كفاح وتعب سنوات طويلة ذقت خلالها مرارة العلقم.

أجابتها بحسرة وهل أنا التي اخترت هذا يا ناهد؟ أم هو الذي دفعني إليه؟ إنه هو، هو، لقد توسلت إليه ألا يخرجني من البيت، رجوته أن يخفض صوته كي لا يسمع الجيران، ويوقظ الأولاد، ولكنه كان كالثور الهائج، لم يسمع كلامي، وظل

يصرخ ويشتم حتى استيقظ الأولاد على صارخه مذعورين لا يعرفون ما الأمر، وحين رأوه يضربني أخذوا يبكون ويتوسلون إليه أن يكف عن ذلك ولكن بدون جدوى، وعندما تمسكوا بي أبعدهم عني بوحشية ورماني خارج البيت وأغلق الباب خلفي وكأنني قطعة موبوءة يخاف العدوى منها، أرأيت يا ناهد ما فعله، إنه شيء فظيع.. فظيع، وأخفت وجهها بين يديها وجعلت تبكي بصوت مرتفع، وهي تلفظ بعض الكلمات التي تعبر عن ألمها، فضمتها ناهد إلى صدرها وجعلت تجفف دموعها وهي تقول لها سهير: لا تفعلي في نفسك هذا، اهدأي أرجوك ارحمي نفسك.

أجابتها بصوتها المحشرج: وهل يوجد رحمة في هذه الدنيا؟ لا يا ناهد لقد عدمت الرحمة في قلوب البشر، هل كان في قلب مرا. رحمة حين فعل بي هذا؟ لا أظن لقد فعله بمنتهى القسوة ومن شدة قسوته شعرت وكأنه ينتزع قلبي من بين جوانحي شعرت بيديه تمتد لتمزق فؤادي، شعرت في لحظة بأنني فقدت عقلي ولم أعد أقوى على استيعاب ما يحدث، وهنا سمعنا صوت جلال زوج ناهد ينادي من داخل الغرفة، ناهد.. ناهد: أين أنت فقالت لها: إنه جلال لقد رآني تأخرت ولم يعلم لماذا؟ فلم تجبها سهير وإنما رفعت رأسها من فوق صدر ناهد وكأنها تقول لها: اذهبي إلى زوجك، فنظرت ناهد إليها نظرة حنان، ثم التفتت إلى جهة الغرفة ونادت: تعال إلي، أنا هنا في الصالون لدي ضيوف. خرج جلال وهو يفرك عينيه ويقول: من هنا؟ من هم الضيوف؟ أجابته: إنها سهير وحين سمع اسم سهير، انجلت عيونه واستيقظ تفكيره، وكأنه صحا من غفلة، حيث أدهشه وجودها في مثل هذه الساعة فقال مستغرباً سهير: ما الذي أتى بها في مثل هذه الساعة؟ هل يوجد شيء؟. أجابته ناهد: تعال واجلس معنا قليلاً، وأنت تعرف ذلك، وعندما بلغ المكان ألقى تحية الصباح مرفقة بالترحيب بسهير، ولكنه لم يلبث أن رأى الدموع في عينيها فجلس بسرعة إلى جوارها، سألها بلهفة وخوف: سهير ما بك يا أختاه؟ ماذا حدث؟ لماذا هذه الدموع؟ أطرقت سهير رأسها على الأرض ولم تستطع الإجابة. أجابته ناهد عن سؤاله بكلمات مختصرة. فصمت جلال قليلاً ثم قال بعدها سهير: أرجو أن تحكي لي ما حدث إذا لم يكن هناك مانع. أجابته سهير، ليس هناك أي مانع، فأنت أخ كما أن ناهد أخت، وأنا ليس لي هنا سواكم. أجابها جلال: وهذا

ما أشعر به أنا أيضاً يا سهير، هيا قولي لي ما حدث؟ بدأت تحكي له بشيء من الخجل والارتباك، وحين انتهت من حديثها قال لها بحنان: سهير لا تحزني يا أختاه كل شيء وله حل، فأنا لن أدعك تذهبين إلى أهلك أنت ستبقين عندنا هنا في بيتك، ونحن ضيوفك، وحين تشعرين بالضيق سوف أعيدك إلى أولادك. نظرت إليه نظرات امتنان وقالت له: شكراً لك يا جلال، وشكراً لك يا ناهد، فقد غمرتموني بلطفكم وأرجو المعذرة إذا كنت قد أثقلت عليكم وإني لشديدة الأسف على إزعاجي لكم هذا الصباح. فقال لها معاتباً: كيف تقولين هذا يا سهير؟ هل الأخت تزعج أخاها؟ كنت أزعجتنا حقاً لو كنت لم تأت إلينا. أجابته سهير: إني أعلم ذلك ولهذا أول شيء فكرت فيه هو أنتم، فأنا فعلاً حين أكون معكم أشعر وكأني مع أهلي. أجابها جلال: إذا كان حقاً كما تقولين كفي عن الشكر، فهذا يقال للغرباء وليس لنا، ثم نظر إلى ناهد وقال لها: ناهد ألم تسمعي صديقتك، ساعديني وقولي لها شيئاً.

فابتسمت ناهد ابتسامة عريضة وقالت محاولة تبديد جو الحزن: وهل تركتم لي مجالاً كي أتفوه بكلمة؟ ها أنتما تتبادلان عبارات الشكر والثناء وتجاهلتم حتى وجودي فضحكوا الثلاثة لهذه المداعبة اللطيفة بعد أن هدأت موجة الضحك، نظر جلال إلى ناهد قائلاً: ناهد ألا تريدين إطعامنا؟ فقد حان وقت خروجي إلى العمل هيا يا عزيزتي.

أجابته والبسمة المشرقة تنزلق على وجهها: على الرأس والعين، لحظات وتكون المائدة جاهزة، ثم نهضت واتجهت إلى المطبخ ولم تمض دقائق حتى أصبحت المائدة جاهزة، فالتفوا حولها وباشروا بطعام الإفطار، وفي أثناء ذلك لاحظت ناهد كما لاحظ جلال شرود سهير ودموعها التي كانت تجول في مقلتيها فتبادلا النظرات، ثم قالت لها: سهير كفي عن الدموع وحاولي أن تنسي ما حدث، ثم أنت حتى الآن لم تأكلي شيئاً، لماذا يا حبيبتي؟ ثم جعل جلال يحثها على الأكل ويلقي عليها الطرائف والنكات كي يبعد عنها جو الحزن ويدفعها للضحك.

وما أن انتهوا من تناول الفطور حتى ذهب جلال إلى عمله، بعد أن أوصى ناهد بأن تعتني بها وتخفف عنها مأساتها.

فبقيت طوال النهار تشغل سهير بحديث بعيد عن حياتها وهمومها وتمازحها إلى أن عاد جلال من عمله، فدخلوا غرفة الطعام يتناولون الغداء ويتجاذبون أثناءها أطراف الحديث يطلقون الطُرَف ونكت ليخلقوا بذلك جواً مرحاً يساعد سهير على نسيان مأساتها، وفي المساء ذهب جلال إلى مراد وطلب منه أن يأتي معه كي يصالحه مع سهير ويردها إلى بيتها وأولادها، ولكن مراد رفض في بادئ الأمر وبدأ يتكلم عنها كلمات بعيدة عن اللياقة والأدب وختم كلامه قائلاً بأنها عنيدة وغير قادرة على تحمل مسؤولية الزوج والأولاد، فهي مهملة لطلباته، ولكن جلال ألح عليه حتى أقنعه وأتى به، وحين اجتمع الثلاثة وبدأوا الحديث، راح مراد يهاجم سهير من جديد ويلقي عليها التهم، وهي صامتة لا تدافع عن نفسها، ولم تنطق سوى بكلمات قليلة، وذلك حين كان يغالي بالصاق التهم لها، وجرح كرامتها أمام رجل غريب.

صحيح جلال صديق ولكنه يبقى رجل غريب، ومن اللياقة والأدب أن يحافظ على كرامتها أمامه، لم تكن هذه الكلمات إلا لتزيدها حقداً وكراهية ونقمة عليه، فكانت تستمع إلى كلماته وهي تتمزق غيظاً وقهراً وقلبها يكاد ينفجر حقداً وكراهية وكانت ترمقه بنظرات قاسية وكأنها تقول له أن كلماتك هذه لن تزيدني إلا كراهاً واحتقاراً لك، فأنا في قلبي يوجد من الحقد ما يدمر العالم، ومن الكراهية ما يملأ جميع قلوب البشر. أما ناهد وجلال فقد كانا يتألمان على سهير، فهما يعرفان أن كلماته كلها محض افتراء وأنه رجل ظالم لا ضمير له، ولكنهما لا يملكان سوى مجاملته والتقريب بينهما كي لا تتطور الأمور إلى أكثر من ذلك فكل ما يهمهما أن تعود سهير إلى أولادها وبيتها وفعلاً كللت مسعاهما بالنجاح وأعادا سهير إلى بيتها رغم الشروط السخيفة والجارحة التي فرضها عليها مراد في نفس الوقت كان يفرض شروطه وكأنه يشتري جارية فيخبرها إذا كانت تساوي ثمنها أم لا.

ومن بين هذه الشروط ألا تسهر أمام التلفزيون، فهو يشعر أن التلفزيون شريك له فيها، وأن تستيقظ معه باكراً حين يستيقظ هو في الساعة السادسة صباحاً كي تقوم على خدمته، وتكف عن مطالعة الكتب إلى آخر هذه الشروط التي تكشف عن سفالته وضعف شخصيته. وافقت سهير على هذه الشروط مرغمة، متألمة، مقهورة،

وهذا القهر ولد في نفسها الرغبة في الانتقام منه، ولكن ليس بطريقتها القديمة لا.. ليس بهذه الطريقة وإنما بالقتل، أجل القتل سوف تقتله وتتخلص من حقارته، فقد حطمها وجرح كبرياءها وداس على كرامتها ومازال يحاول إذلالها وهي حائرة صامتة تتألم بصمت. ولكن إلى متى ستظل على هذا الوضع؟ إلى متى سيدوم هذا الظلم؟ إلى متى؟ ثم لماذا يحدث لها كل هذا؟ ألأنها تحب أطفالها؟ أهكذا يجب أن تدفع الأم ثمن حبها لأطفالها؟ أيعقل أن تتنازل الأم عن كرامتها وتعيش ذليلة كي تحتفظ بأطفالها؟ وإذا رفضت الذل سلبوا منها، ولكن لا، وألف لا، فهي لن تسمح لأي إنسان أن يسلبها أطفالها، حتى لو كلفها هذا حياتها، فقد صممت على أن تقتله، وبموته تنتهي جميع مشاكلها وتستطيع الاحتفاظ بأطفالها، هكذا كانت تحدث نفسها ولهذه الطريقة بدأت تفكر منذ تلك اللحظة التي اجتمعت بها مع مراد في بيت ناهد وعادت إلى بيتها، وهذه الفكرة تداعب خيالها، بل سيطرت على جميع حواسها سيطرة تامة، وأوقفت تفكيرها في كل شيء، وسخرته لإيجاد طريقة للقتل، ولم يطل بها الأمر حتى اهتدت إلى طريقة تخلصها من الكابوس الذي يجثم على صدرها، ورسمت الخطة بإحكام واستعدت لها بثقة حيث اشترت أدوات الجريمة، مسدس وشماغ بحيث تخفي وجهها وأخفتهما إلى أن يحين الظرف المناسب لتنفيذها وقد اختارت لذلك يوماً من أيام كانون الثاني، كان القمر قد ودع أخر أيامه، وخلف وراءه ظلاماً حالكاً يجلب الوحشة والرعب إلى النفوس، وكانت السماء ملبدة بالغيوم، وهبت عاصفة باردة معلنة هطول المطر، كان ذلك اليوم مناسباً جداً لتنفيذ خطتها، حيث كانت الشوارع خالية من المارة والناس قد آوت إلى منازلهم ليلتفوا حول المدافئ بعد أن أغلقوا الأبواب والنوافذ دونهم، وكان من عادة مراد أن يخرج كل يوم بعد العشاء إلى أصدقائه حيث يلعب معهم الورق وتمتد سهرته إلى ساعة متأخرة من الليل، وكانت سهير قد رتبت أمرها على هذا الأساس، ما أن خرج مراد في ذلك المساء حتى ارتدت جاكيت الجلد فوق البنطال ووضعت فوق رأسها الشماغ وأخفت وجهها ودست المسدس في أحد جيوبها، ثم ألقت نظرة سريعة على الأولاد فوجدتهم غارقين في نوم عميق، فخرجت مسرعة وسارت خلفه بخطوات خفيفة واسعة حتى أدركته وظلت تتبعه إلى أن انعطف في شارع ضيق

وطويل، وكان هذا الشارع مثل أغلب الشوارع التي لم يصلها التيار الكهربائي مظلماً جداً يخيم عليه السكون الذي يزيد الجو رهبة وخوفاً، وكانت سهير تتبعه على ضوء السيجارة التي في يده وظلت تقفز خلفه بخفة من مكان إلى آخر حتى أصبحت على بعد متر منه فسحبت المسدس وصوبته إلى ظهره وكادت أن تضغط على الزناد حيث تراءى لها الجنود وهم يقبضون عليها بعد أن قتله وأن أولادها شردوا وابنها عمر غدا قاطع طريق، وشريف سكير لاعب قمار يلعب على ثيابه، وسمر راقصة تعيش جو الليل، وتبيع جسدها، وريم خادمة في البيوت، تتلقى الإهانات، شاهدت كل هذا في ثواني وكأنها ترى شريطاً سنمائياً. فهزت رأسها وكأنها في حلم مزعج، فأعادت المسدس إلى جيبها وتراجعت إلى الوراء وألقت نظرة سريعة على مراد، فرأته قد ابتعد فعادت مسرعة لا تلوي على شيء وحين بلغت المنزل فتحت الباب بهدوء ودخلت بخطوات بطيئة وأغلقت الباب خلفها ثم خلعت ملابسها وأخفتها وسارت إلى غرفتها واستلقت على السرير واهية القوى، منهارة الأعصاب تتضارب في رأسها الأفكار، فتارة تثور وتغضب من نفسها لأنها أفلتته من يدها، وتارة تهدأ وترى نفسها مرتاحة، كانت تتقلب فوق السرير وكأن ثعباناً لسعها. وكانت تشعر برأسها يكاد ينفجر من كثرة الأفكار فانهارت بعد أن عانت من صراع قاتل، أمسكت برأسها بين يديها وانفجرت باكية، ولم تشعر بنفسها إلا والفجر قارب على الانبلاج، فنامت نوماً متقطعاً وحين حاد مراد وارتمى بجانبها على السرير سمعها تئن أنيناً عميقاً فأيقظها بخشونة وسألها عما بها، فقالت له: لا شيء فقد كنت أرى حلماً مزعجاً، قال لها: إني متعب أريد أن أنام فلا تزعجيني بمثل هذا الأنين، إذهبي إلى الغرفة المجاورة كي لا تزعجيني.

بعد هذه الحادثة قررت أن ترضخ للواقع المرير وتسلم أمرها للقدر يتلاعب بها كما يشاء، وأن تصبر إلى أن يكبر أولادها ووقتها لكل حادث حديث من الآن حتى يأتي ذلك اليوم فعليها أن تعطي هذا الوحش كل ما يريد، تعطيه جسدها وعمرها وتبذل قصار جهدها لترضيه.

ولكن رغم كل هذا لم تحوز على رضاه ولم تجد الراحة والاستقرار الذي تنشده رغبتها الأكيدة والقوية لتجاهل عواطفها وعدم التفكير بها إلا أن هذه العواطف كانت

تلاحقها بين أونة وأخرى، وتضغط على عقلها وأعصابها بإلحاح، كانت في بعض الأحياة تشعر بحاجتها إلى صدر حنون تضع عليه رأسها المثقل بالهموم، وإلى يد عطوفة تراعاها وتدفع عنها قسوة الدنيا ومرارة الأيام، ولكنها كانت تقاوم هذه العاطفة وترفضها وتستعيض عنها بالشرود خلف الماضي البعيد مع كمال وذكرياتها الجميلة معه.

تحدث نفسها قائلة: كمال.. أيها الحبيب الماضي في البعاد، ها قد مضى على فراقنا ستة أعوام دون أن أراك فيها ولم يصلني منك أي خبر، فهل مازلت تجبني كما أحبك يا كمال؟ هل تذكرني كما أذكرك؟ فتترقرق الدموع في عينيها الجميلة، وتشعر برعشة تسري في جميع أوصالها، وكأنها جالسة تحت السماء عارية دون ثياب والثلوج تتساقط فوقها فحياتها باردة متجمدة كقطعة جليد، فالحب هو المعطف الذي يقي من برد الشتاء ويمنع تسرب البرودة، وفي احدى جلساتها المعتادة التي تستمع بها إلى عواطفها كانت جالسة أمام المرأة تضع على وجهها المكياج وصوت أم كلثوم ينبعث من آلة التسجيل بأغنيتها الرائعة " أنت عمري " فشعرت بعواطفها تزداد التهاباً، فأغاني أم كلثوم هي وحدها التي تثير عواطفها وتحولها إلى كتلة من اللهيب، حيث تشعر وكأنها جالسة مع حبيبها، فهي تعيش مع أغاني أم كلثوم، تغذي بها عواطفها العطشى، فكانت أغاني أم كلثوم غداء روحياً لكل عاشق متيم ويلسم لكل قلب محب أضناه الفراق، كانت تستمع إلى الأغنية وهي جالسة أمام المرآة تتأمل جمالها، وتطيل النظر في وجهها وكل جزء من جسدها الغض، فأخذتها النشوة وحلقت بها بعيداً بعيداً إلى حيث يجلس كمال، فاغرورقت عيناها بالدموع، وتوترت أعصابها، وحين وصلت الأغنية إلى المقطع الذي تقول فيه (هات عينيك تسرح في دنيتهم عيني - هات ايديك ترتاح للمستهم ايدي) انهارت وأجهشت بالبكاء ودون وعي منها رفعت قبضتيها وانهالت بها على المرآة ضرباً حتى حطمتها وجرحت يدها ولكنها من فرط ما أصابها من توتر واضطراب لم تشعر بجرحها ولم تكف عن ضرب المرآة إلا حين شعرت بيد تقبض على يدها بقوة ويد أخرى تحتضنها وسمعت صوت يناديها بخوف وقلق: سهير كفي عن الضرب أيتها المجنونة، ماذا أصابك، سهير ما بك يا حبيبتي فعرفت هذا صوت صديقتها

المرآة ضرباً فذعرت وصرخت صرخة خفيفة فقد كان منظرك مخيفاً ثم ركضت مسرعة إليك أمنعك من الضرب، لماذا فعلت ذلك يا سهير؟

قولي ما يعذبك افتحي لي قلبك. فنحن أختان يا سهير، نهضت من مقعدها ببطء واقتربت من المرآة، ثم نظرت إلى نفسها وقالت ناهد: إذا كان عندك مجوهرات جميلة وفرض عليك أن تضعي هذه المجوهرات في علبة وترميها في بئر، أو أن تضعيها في درج وتقفلي عليها، المهم أن لا تتزيني بها، ولا حتى تنظرين إليها، فما الفائدة منها وما قيمة جمالها؟

أجابتها: طبعاً إذا لم أتزين بها ولا أنظر إليها، فلا ضرورة لوجودها. ولم يعد لها معنى: ولا قيمة لجمالها.

قالت: وإذا قطفت الزهرة ووضعت في درج وأغلق عليها ولم يسمح لك باستنشاق عبيرها والتمتع بجمالها فما فائدتها؟ وما فائدة الشذى الذي تتحلى به؟

أجابتها ناهد: أن الزهور خلقت كي نزين بها حدائقنا وشرفات المنازل. ونزين بها زوايا غرفنا، ونتمتع بروعة جمالها وعبيرها الفواح، فتزيدنا نشوة: فإذا لم نفعل ذلك فلا يبقى لجمالها قيمة، ولم يعد حتى لوجودها أهمية، فما قيمة حال الأشياء إذا لم نتمتع بالنظر إليها؟ إن الله سبحانه خلق جمال الطبيعة كي نتمتع به وإلا كانت الجبال والغابات ذات المناظر الخلابة والحدائق العابقة برائحة الزهور مثلها مثل الصحراء القاحلة، ولكن لماذا كل هذه الأسئلة وما علاقتها بما تفعلين الآن؟ إني أسألك مابك؟ لا أسألك فلسفة الأشياء.

استدارت نحوها ببيط وقالت لها بصوتها المتهدج ولهجتها الحزينة: أنا يا ناهد كتلك الزهور التي قطعت من غصنها ووضعت في درج وأغلق عليها وحرمت من قطرات الندى التي تزيدها جمالاً. أنا كتلك المجوهرات التي وضعت في علبة وقذفت بها إلى أعماق البحر، ليس لوجودي قيمة ولا لحياتي معنى، فما فائدة حياتي إذا كنت لا أعيشها كما أحب ولا أحقق ما أريد؟ صمتت لحظة والتقطت فيها أنفاسها. قالت بعدها: بت أخاف يا ناهد من الحياة وكأنها وحش يلاحقني في كل مكان، بت أخاف من المجهول وما سيحمله لي في طياته. بت أخاف الناس

ناهد، فاستندت إلى المقعد وهي تبكي اقتربت منها ناهد أكثر وضمتها إلى صدرها برفق وهي تقول لها برقة: سهير ما بك يا أختاه؟ ماذا حدث؟ تكلمي وقبل أن تجيب، رأت ناهد الدم ينزف بغزارة من يدها فصرخت بصوت مبحوح ودموعها تترقرق في عينيها سهير إن يدك مجروحة وهي تنزف، انظري وبدلاً من أن تنظر سهير إلى يدها نظرت من بين دموعها إلى الأفق البعيد، وقالت بحزن لايوصف: إنني جريحة وأنزف يا ناهد منذ زمن بعيد، ولا يزال هذا الجرح ينزف، ولكنه تماماً مثل الإنسان الذي تصدمه سيارة أو يقع من مكان مرتفع فلا يظهر على جسده خدوش فيقال له: الصدمة خفيفة ولا تستحق الخوف أيام قليلة ويشفى فلا خطر على حياته بينما هو ينزف من الداخل فلا يرى هذا النزف أحد ويظل ينزف حتى الموت.

أجابتها ناهد بغضب: سهير كفي عن الكلام، يدك تنزف بغزارة وأنت تتكلمين في أمور غامضة لا أفهم معناها، تعالي معي كي أضمد جرحك.

أجابتها: لا تخافي يا ناهد فالجرح الخارجي الذي تراه العين لا يؤلم ولكن الجرح الداخلي آلامه تميت، فلم تجبها ناهد وإنما سألتها، هل يوجد عندك ضمادات وكحول؟ أجيبي.

قالت: أجل اذهبي إلى غرفة الجلوس تجدين فيها صيدلية صغيرة معلقة في واجهة الغرفة، هاتي منها ما تحتاجين، فأسرعت ناهد إلى الغرفة وأتت بكل ما يلزمها ثم غسلت الجرح بالكحول، وضمدته، وفي أثناء عملية التضميد سألت ناهد قائلة: قولي لي يا ناهد، كيف دخلت علي دون أن أشعر بك ثم من فتح لك الباب.
قالت: لقد كنت جالسة على الشرفة حين رأيت أولادك قد ذهبوا إلى المدرسة فناديت ريم وسألتها عنك قالت أنك منزوية في غرفتك وتبدين حزينة كالعادة، فأتيت كي أرى ما بك فوجدت الباب مفتوحاً فدخلت بهدوء ولأن باب غرفتك مفتوح أيضاً فقد رأيتك جالسة أمام المرآة تنظرين إلى نفسك سارحة بخيالك مع أغنية أم كلثوم وكأنك في عالم ثان، فوقفت بعيدةأنظر إليك وأنا أعرف أنك لم تريني فلم أحب أن أوقظك من نشوتك بشدو أم كلثوم، ولكن لم ألبث أن رأيتك تنهالين على

بت أكره الناس، وأكره نفسي، إني أعيش في صراع رهيب يا ناهد، صراع يكاد يقتلني، قالت متعجبة مما تسمع أن ما أسمعه لشيء غريب يا سهير.

قالت: وما الغريب في ذلك؟

قالت: الغريب في ذلك هو أن الذي يرى ضعفك وانهيارك الآن لا يصدق أنك أنت سهير القوية الواثقة من نفسها التي لا يهزها أي شيء، فأنت تظهرين أمام الناس هائدة قوية الشخصية متماسكة، قالت ومازلت كذلك أمام الناس أعرف ولكني منهارة ممزقة من الداخل، أعيش في صراع يكاد يؤدي بعقلي.

قالت: هل لي أن أعلم ما نوع الصراع الذي تعيشينه؟ ويعذبك كل هذا العذاب؟

عادت تنظر في المرآة تتأمل جمالها، ثم قالت: إني أعيش في صراع مع عواطفي الثائرة كوني متزوجة لا يحق لها أن تستجيب إلى عواطفها ولا تفكر سوى بزوجها، سواء كانت تحبه أم لا.

قالت ناهد: وأنت بماذا تفكرين؟

أجابتها: إني أفكر بزوج أحبه أحبه بكل عواطفي المتدفقة، أحبه بكل مشاعري الرقيقة، أغدق عليه عواطفي الملتهبة، وأمنحه كل أنوثتي الطاغية، وأعيش في نشوة الحب العارمة، فأنا امرأة والمرأة بحاجة إلى حب وحنان، ومن غير ذلك لا تستطيع الحياة.

أجابتها قائلة: ومراد ألم يحاول إعطاءك الحب والحنان؟

أجابتها باشمئزاز: إنه آخر رجل يستطيع إعطائي الحب والحنان، لأنه لا يعرف عنهما شيئاً، ثم أنك تعلمين جيداً أني لا أحبه، ولا أتقبل منه الحب حتى ولو حاول أن يعطيني إياه، فهو إذا اقترب مني كزوج أشعر بالقرف إلى درجة التقيؤ، أرأيت عذاباً أكثر من هذا العذاب؟ عذاب امرأة ترى النار تلتهم جسدها وهي واقفة تنظر إلى هذا الجسد وهو يصرخ مستنجداً فلا تلبي نداءه وكأنها لذلك تنتقم من نفسها ومن العالم أجمع.

أجابتها: ولكني ما علمته وما لاحظته من سلوكك أنك لا تحبين صنف الرجال، ولا تهتمين بأي رجل كان، فمن أين لك كل هذه العواطف.

صمتت لحظة قبل أن تجيب وكأنها على وشك أن تفشي سراً خطيراً ثم قالت: إن ما تقولينه يا ناهد صحيح. فأنا أكره الرجال من خلال كرهي لمراد، لأنني أرى مراد في شخص كل رجل، ولكن رغم ذلك استطاع كمال أن يجعلني أحبه، بل جعلني أحب الناس والدنيا، إنه رجل يا ناهد ولا كل الرجال، فهو يتحلى بأسمى وأرق الصفات، لقد أحببته يا ناهد، أحببته حباً جماً. حين سمعت ناهد سهير وهي تفشي أمامها بهذا السر لأول مرة. لم تعلق عليه بكلمة خوفاً من جرح مشاعرها. وكي تخفف عنها ولا تشعرها بأنها تفاجأت بما سمعت، نهضت من مكانها واقتربت منها حتى التصقت بها، ثم قالت لها: سهير إني أحس بعذابك يا حبيبتي. وما تعانيه، فأنا قلبي يقطر دماً عليك، ولكن ليس باليد حيلة، فهذا قدرنا يا أختاه ويجب علينا أن نعيشه لأننا لا نستطيع أن نغير منه شيئاً.

أجابتها بثورة: أنستسلم لهذا القدر مهما كان قاسياً؟ ودون مقاومة؟ أنترك مصيرنا بين يديه يتلاعب به كما يشاء؟

أجابتها: وماذا نستطيع فعله إذا كنا لا نملك مصيرنا؟

قالت: أتقولين ماذا نفعل؟ نحدد ماذا نريد. ونسير وراء هدفنا، بعد ذلك لا بد لنا من إدراكه.

قالت ناهد: وإذا كانت الظروف لا تسمح لنا بذلك ماذا نفعل؟

قالت بلهجتها المتهورة: نضع نحن ظروفاً ملائمة.

نظرت إليها بإشفاق وقالت لها: إذن لماذا لم تضعي الظروف المناسبة: وتنهي مشكلتك الخاصة وتخلصي نفسك من هذا العذاب؟ فزفرت زفرة عميقة وقالت: كنت في الماضي مستسلمة للقدر، يصنع بي ما يشاء، مسلمة أمري للأيام ظناً مني أنني سأجد الراحة والهدوء، ولكني اكتشفت عكس ذلك. اكتشفت أن الإنسان لم يسع هو وراء هدفه فلن يبلغ غايته أبداً. إذا لم يحاول حل مشاكله فلن يحلها له القدر، وأنا الآن لن أدع مصيري بين يدي القدر طالما لدي عقل أفكر به، سوف أسعى وراء هدفي، ولا بد لي من إدراكه مهما طال الزمن. قالت لها: هذا صحيح يا سهير ولكن يلزمك وقت طويل وصبر لا ينتهي.

أجابتها، وقد هدأت قليلاً: نعم.. نعم يا ناهد، الإنسان حين يضع نصب عينيه هدفاً ما ويسعى إليه لا بد وأن يناله، ثم وضعت رأسها بين يديها لأنها شعرت بدوار في رأسها، لقد كانت تتكلم بقهر وعصبية وكانت نظراتها التائهة تعبر عن آلامها وعذابها ودموعها الغزيرة التي كانت تنساب على خديها تحجب عنها الرؤية، فلم تر إلا معالم صورة في المرآة التي كانت تجلس أمامها، وبعد صمت قصير اقتربت ناهد منها ومدت يدها بلطف وحنان ولامست وجهها براحتها ثم رفعته برفق إلى أعلى وقالت لها بصوت يقطر حناناً: سهير هل تسمحين لي بسؤال حول أمر صرحت به منذ قليل؟

أجابتها بهدوء: أجل يا ناهد اسألي ما شئت.

قالت: من هو كمال هذا الذي نطقت باسمه قبل قليل؟ وما حكاية الحب تلك التي تحدثت عنها؟ متى حدث ذلك؟

أجابتها: أتريدين أن أحكي لك القصة من أولها:

قالت باندفاع: أجل.. أجل..

قالت حسناً: كمال يا ناهد الحب الوحيد في حياتي، هو الإنسان الذي علمني كيف أعيش، علمني كيف أتعامل مع النَاس، وفتح عيني على الأشياء الجميلة، كمال هو الذي زرع في نفسي الطموح والارتقاء إلى الأعلى، حبه الطاهر النقي علمني أشياء كثيرة، هذا كمال صورته هي وحدها الباقية أمام عيني صافية نقية، أما متى حدث ذلك فقد حدث منذ سنين طويلة، قاطعتها ناهد قائلة: منذ متى؟ بعد الزواج أم قبله؟ قالت: بل بعد الزواج. فعادت ناهد تقاطعها قائلة: بعد الزواج ! كيف ذلك؟ ألم تعلمي أن المرأة حين تكون متزوجة تصبح ملك زوجها؟ فلا يحق لها أن تحب سوى زوجها. نظرت إليها ملياً ثم قالت لها: ناهد هل أنت مقتنعة بما تقولين؟ قالت: حقيقة..لا، أنا لست مقتنعة بما أقول، وإنما ما أريد قوله هو المجتمع التقليدي، رسمت على ثغرها ابتسامة ساخرة وقالت حتى لو كان هذا الزواج مفروضاً على الزوجة فرضاً؟

أجابتها بأسف: حتى لو كان كذلك فاحتدت سهير قليلاً وقالت: هذا غير صحيح. وأنا لا أعترف بهذا، فالحب هبة من عند الله، لقد وهبنا الله الحب كي

نستطيع الاستمرار في الحياة، لأن الإنسان حين يفقد الحب من قلبه تنتهي الحياة، فمن الحب يستمد الإنسان القوة ويواجه أشد المصاعب، وأضافت قائلة: إن الزوج يحق له امتلاك الجسد وليس القلب والروح، فالقلب يحب ما تختاره الروح، فالروح تهيم في عالم الأحلام لتبحث عن توأمها حتى تجده، وعندما يلتقيان يلتصقان ويصبحان روحاً واحدة، وأنا روحي وقلبي ملكي وحدي، أهبهما لمن أشاء، أما جسدي الذي يملكه مراد فأنا أحافظ عليه ولا أسلمه لأحد، ثم كيف يسمح الرجل لنفسه بأن يعشق ويحب ويحرم هذا على المرأة؟ أليست المرأة بشراً مثله؟ أليس لها عواطف ومشاعر تحب؟، إذا كان هذا مرفوضاً فيجب أن يطبق على الطرفين معاً، لماذا للمرأة عيب والرجل يعطي لنفسه الحق دون المرأة؟ وأي شريعة تسمح له بذلك؟ ولكن لا أظن أن هناك شريعة تعطيه هذا الحق، وإنما هو الذي يضع الشريعة التي تناسبه.

نظرت ناهد إليها نظرة عطف وإشفاق وكأنها ترثي لحال كل امرأة وقالت لها: إن ما تقولينه صحيح يا سهير، أجل صحيح ولكن دعينا من هذا الموضوع الآن لنعود إلى موضوع الحب، فأنا أحب الحديث فيه.

أجابتها مازحة: إذن يروقك حديث الحب؟

قالت: أجل.. أجل ثم أردفت قائلة: إذن من أجل الحب فعلت بنفسك ذلك، ومن أجله أيضاً تبدين دائمة الحزن حتى أطلقوا عليك صديقاتك لقب صاحبة أجمل عينين حزينتين.

تنهدت بعمق وقالت: ماذا أفعل يا ناهد؟ الأمر ليس بيدي لقد أحببته رغماً عني، فالحب كالمرض يغزو الجسم فجأة ودون إنذار، فإذا تمكن منه لا يتركه حتى الموت.

أجابتها بصوت يفيض حباً وحناناً: سلامتك يا سهير من كل هذا العذاب، ليتني أستطيع فعل شيء من أجلك.

قالت لها: إني أشكر لك عواطفك النبيلة يا ناهد.

قاطعتها قائلة: سهير لقد كررت عليك هذا السؤال أكثر من مرة ولكنك لم تجيبي عليه، قالت: أي سؤال يا ناهد؟

قالت: سؤالي عن هذا الحب، ومتى حدث؟ ولما افترقتما طالما تحبان بعضكما كل هذا الحب.

رسمت على ثغرها ابتسامة حزينة وقالت لها: حسناً سأخبرك بكل شيء، ثم راحت تقص عليها حكاية حبها.

ظهر التأثر على وجه ناهد ثم قالت لها: سهير ألم يشعر مراد بهذا الحب الذي دام خمسة أعوام؟ قالت لا لم يشعر به.

قالت ناهد: سهير ألم تفكري يوماً لو أن مراد قد علم بالأمر ماذا سيفعل؟ أو ماذا سيحل بك؟

نظرت إلى البعيد المجهول.. إلى اللاشيء.. ثم قالت ببرود: بلى فكرت، وقد خرجت بهذه النتيجة: وهي أن مراد لو علم بحبي هذا سيضربني ضرباً مبرحاً، ثم يجمع الجيران ويقول لهم ما حدث، بعد ذلك سيقبض على يدي ويأخذني إلى أهلي ويقول لهم أن ابنتكم ساقطة عاهرة منحطة، فقد سلمت نفسها إلى كل الرجال.

قالت ناهد: ثم ماذا؟

قالت: ثم أتوقع بل متأكدة من أنني سأنام في اليوم التالي في سكن جديد طوله (165سم) لأن هذا طولي وعرضه نصف متر وارتفاعه متر ونصف لا أعلم على وجد التحديد لأنني لست حفارة قبور، ثم يضعون فوقي شطيحة لا أعلم كم يبلغ وزنها لأني لم أمت قبل ذلك.

فابتسمت ناهد لهذه الداعبة ثم قالت لها: إنك تعلمين كل ذلك وتقدمين على الحب؟

أجابتها بصوت يفيض بالحب: أجل يا ناهد، فقد أقدمت على الحب وأنا أعلم مصيري جيداً، لأن الحب أقوى من الحياة نفسها، ثم الأمر ليس بيدي، لأن الإنسان يا ناهد لا يملك زمام قلبه، والحب لا يأتي بالاختيار، فهو لا يعرف تحديد الزمان ولا المكان ولو كان كذلك لما سمي حباً، فالحب ليس له قوانين ولا شروط، الحب إحساس جميل يتبادل بين الحبيبين، فيغذي الروح ثم صمتت قليلاً وقالت بعدها: آه يا ناهد ما أجمل الحب !! وما أروعه عندما يكون طاهراً صادقاً، حتى

عذابه يغدو لذيذاً وممتعاً، حيث تختلط السعادة بالعذاب حتى عندما تكونين بانتظار عودة الحبيب.

قاطعتها قائلة: سهير قولي لي أيهما انعكس على نفسك وجعلك عصبية إلى درجة تجعلك تفقدين السيطرة على نفسك، هل هو خلافك الدائم مع مراد؟ أم فقدانك للحب بعد أن عشته؟

فكرت قليلاً ثم قالت: لكل منهما تأثيره على نفسي وبطريقة مختلفة عن الآخر.

قالت: كيف؟

أجابتها: إن خلافي مع مراد انعكس على علاقتي مع الأولاد وتصرفاتي في البيت حيث أصبحت عصبية قليلاً سريعة الغضب والانفعال، فأنا أشعر دائماً بأعصابي محطمة، أما افتقادي للحب فهذا قد جعلني كثيرة الصمت والشرود، ثم أضافت قائلة، ولكن هذا لم يجعلني امرأة سيئة كما يتبادر إلى ذهنك، شرسة لا أطاق، لا يا ناهد أنا لست كذلك فأنا لم أقصر يوماً في واجباتي تجاه أولادي، فأنا أغدق عليهم الكثير من الحب والحنان، ولكني أردت أن أحلل لك نتيجة ذلك.

نظرت إليها نظرة ملؤها الحب وقالت لها: أنا لم يتبادر إلى ذهني شيء سيء لأنني أعرفك وأفهمك أكثر مما تفهمين نفسك، فلا حاجة بك لأن توضحي لي الأمور فكيف أظن بك سوء وأقول عنك قاسية وأنا لم أرك يوماً كذلك، فأنت مثال الأم العطوفة الحنونة التي تتدفق حباً وعطاء، فظلت صامتة ولم تجب وكأنها أرادت بصمتها هذا أن تنهي الحديث لأنها لم تعد قادرة على الكلام. احترمت ناهد صمتها ولم تزد بالأسئلة وبعد صمت قصير قالت ناهد: أنا آسفة جداً يا سهير لأنني أرهقتك بأسئلتي وأنت متعبة ومرهقة الأعصاب، هيا انهضي واذهبي إلى سريرك يا حبيبتي كي ترتاحي قليلاً، أجابتها بصوت عميق وكأنه أتٍ من بئر عميق، فعلاً أنا مرهقة يا ناهد وبحاجة إلى الراحة، ساعدتها على النهوض وسارت بها إلى السرير حيث ألقتها عليه برفق ثم سألتها عن يدها إذا كانت تؤلمها، فأجابتها: أنها تؤلمني قليلاً. قدمت منها وطبعت على جبينها قبلة ناعمة ثم انصرفت.

بعد خروجها نامت سهير نوماً عميقاً وعندما استيقظت وجدت نفسها قد ارتاحت قليلاً وحين عاد مراد من عمله وشاهد الضماد على يدها سألها عن سبب الجرح الذي في يدها وعن سبب تحطيم المرآة، فقالت له: إنها جرحت حين كانت تقوم بتنظيف الغرفة، وقد تعثرت بأحد المقاعد فاصطدمت بالمرآة فأدى إلى تحطمها وجرح يدها.

مرت الأيام والشهور على حياتها هذه دون جديد، كانت تغرق نفسها بالعمل، ولا تدع لحظة فراغ تدخل حياتها، فهي تشغل الأربعة والعشرين ساعة كي تنسى همومها، وفعلاً فقد ساعدها العمل على ابعاد الهموم عنها، حتى جاء يوم قذف القدر في طريقها زائراً جديداً لم يلبث أن أصبح مقيماً في أعماقها متربعاً على عرش قلبها الذي أضناه الانتظار، وغدا علامة مميزة في حياتها وبصمة لا تمحوها السنون.

* * *

الفصل الحادي عشر

كانت لمراد أخت متزوجة تقطن في حي شعبي، هذه الأخت لها صبيان وبنت، وكان سامر الولد الأكبر بين أخوته، حين كان مراد مقيماً في دمشق كان سامر ما يزال صغيراً فلم يزر خاله سوى بضع مرات، وحين حكمت الظروف على مراد بأن يقيم بهذه المدينة كان سامر قد أصبح شاباً ودخل ضابطاً طياراً، وبعد تخرجه من الدورة كان قد مضى على إقامة مراد في هذه المدينة ثلاث سنوات لم يزر خاله إطلاقاً، وبعد التخرج طلبت أمه أن يزور خاله فلبى طلبها وبات يزوره كل يوم، ولكن سهير ضايقتها هذه الزيارات فثارت في وجه مراد قائلة، لماذا ابن أختك يزورنا كثيراً؟ أنا لا أرغب بذلك، فما كان من مراد إلا أن غضب منها وانفجر في وجهها قائلاً: أن سامر ابن أختي وله أن يأتي إلي كل يوم وفي أي وقت يشاء، فهذا بيتي وأنا حر فيه، ثم راح يمطرها بوابل من الشتائم وأردفها بكلمات إلى أن صمتت ولم تعد تفاتحه بهذا الموضوع ولكن لم تمض شهور قليلة حتى ارتاحت لسامر وبدأت زياراته تسعدها، ثم تحول هذا الارتياح إلى صداقة عميقة جعلتها تشكو له متاعبها ومشاكلها مع خاله، أما سامر فقد كان شعوره مغايراً لشعور سهير، فشعور سامر كان شعوراً ممزوجاً بالإعجاب المحب، فقد فتنه جمالها وبهرته ثقافتها وقوة شخصيتها، وكان في أحيان كثيرة يشتهيها، ولكنه كان يخاف التمادي حين يرى صرامتها، كان كثيراً ما يقارن بينها وبين خاله، فيجد الفرق شاسعاً بينما يرثي لحالها ويشعر بأنها ظلمت من خاله، فراح يتقرب منها بأسلوب ناعم لطيف ثم بدأ يغازلها بطريقة غير مباشرة وكانت سهير تعتبر ذلك نوعاً من المجاملة والعطف عليها، فكانت تشكره على لطفه، فلم يكن يخطر في بالها بأن سامر يحبها وهي تكبره بثمانية أعوام، وزوجة خاله، لذلك فوجئت عندما جاءها في أحد الأيام وصرح لها بحبه.

أجابته بشيء من الدهشة والاستغراب سامر هل جننت؟

قال لها: لماذا؟

قالت: لأن ما تطلبه شيء مستحيل وغير ممكن.

قال: وما وجه الاستحالة؟

قالت: وعيناها ما زالتا محملقتان به: ألا تعلم حقاً ما وجه الاستحالة يا سامر؟

أولاً: أنا زوجة خالك، ثانياً أنت أصغر مني بثمانية أعوام، ثالثاً وهذا الأهم من كل ذلك هو أنه لا يوجد لدي استعداد للحب.

قال لها: ولماذا؟

قالت: لأسباب كثيرة منها أني متزوجة وأم لأربع أطفال وأنا لا أحب المغامرات بل أنشد الاستقرار.

قال لها بخجل: أنا أعلم ذلك، ولكن ماذا أفعل بقلبي الذي أحبك واستمات بك، ماذا أفعل بهذا القلب الذي لم يختر غيرك من جميع نساء العالم؟ ماذا أفعل بهذا القلب الذي أصبح أسير حبك؟

قاطعته قائلة: مهلاً.. مهلاً.. ماذا أصابك هل جننت؟

أجابها بصوت يقطر حباً: أجل لقد جننت بحبك؟

نظرت إليه ملياً ثم قالت له: سامر ما هذا الكلام؟ إنك فعلاً مجنون هل يوجد رجل عاقل يحب امرأة متزوجة؟ وتكبره بعدة سنوات.

أجابها باندفاع: إذا كنت تعتبرين فرق السن بيننا مشكلة فأنا لا يهمني هذا، ثم أنت تبدين أصغر مني سناً، فماذا تقولين لو قلت لك أني كنت خائفاً من أن لا تقبلين بي وأنك تفوقني بكل شيء، وليس من أجل فرق السن، بل كنت أنظر إليك وكأنك نجمة في السماء، أنت نجمة متلألئة متربعة على عرش السماء وأنا إنسان ضعيف أقيم في الأرض، فلا أستطيع الوصول إليك هكذا أنت بالنسبة لي، ولكني أجدك الآن عكس ذلك، أجدك وقد جعلت من فرق السن مشكلة ليس لها حل.

قالت له: حسناً لندع فارق السن جانباً ونطرح موضوعاً ثانياً وهو كوني زوجة خالك، ماذا تقول في ذلك؟

قال: لا شيء سوى أنه أيضاً لا يهمني.

قالت: كيف هذا يا سامر؟

أجابتها: وما ذنبي أنا إذا كنت متزوجة وزوجة خالي؟ وما ذنب قلبي إذاً؟ كان عقد تافه جعلك زوجة خالي، ثم ماذا سيخسر خالي إن أنا أحببتك أم لا؟ فهو على أي حال لم يملك منك سوى الجسد، وهذا ما لا أريد، أما القلب والروح فهما ملك لك، بل ملك لي أنا، ولن أمسح لأي إنسان أن ينتزعهما مني.

أجابته قائلة: هكذا وبهذه البساطة؟ إنك تتكلم وكأن الأمر في غاية السهولة.

قال لها: وما وجه الصعوبة فيه؟ إنك تعقدين الأمور دون مبرر..

قالت له: سامر ماذا تقول؟ كيف تقول دون مبرر؟ فأنا لدي مائة مبرر، أنا حتى الآن لم أصدق ما سمعت، فقد فوجئت بك وأنت تصارحني بهذا الأمر حيث لم أفكر قط بأنك تحبني أو ستحبني يوماً أو أنا سأحبك، فكل ما أشعر به نحوك شعور أخ وصديق.

أجابها بصوت رقيق يحمل في نبراته الكثير من الحب: سهير إن الحب كتلة من الأحاسيس والمشاعر ومجموعة أفكار متبادلة بين الطرفين، فإذا توفرت هذه العناصر ثم اقترنت بالاستعداد ولد معها الحب، وأظن نحن متوفرة لدينا هذه الصفات أليس كذلك؟

أجابته: أجل.. أجل ولكن أيضاً يبقى الحب استعداداً نفسياً وله حلوه ومره، فهو معاناة وحرمان وعذاب يضني القلوب، ونار تكوي الروح، وأنا لست على استعداد لأن أحترق به.

أجابها: سهير كان قلبي يحدثني بأنك تبادليني هذا الشعور والآن تأكدت من ذلك، إن شعورك هذا تحوي شعور حب، ولكنك لا تجرؤين على طرحه أمام عقلك الذي يرفض هذا الشعور.

قالت سهير ربما يكون كلامك فيه شيء من الصحة لأن الواقع يفرض علينا هذا، وأنا لا أستطيع الهروب من واقعي، ولا أستطيع تجاوز الدائرة التي رسمت لي، لأنني لا أريد أن أجلب إلى نفسي متاعب أكثر مما أنا فيه.

أراد أن يصل سريعاً إلى ما يريد: قال لها: سهير لا تكوني عنيدة، إني أحبك واشعر أنك أنت أيضاً تبادليني هذا الشعور، فلا تكابري وفكري في الأمر جيداً

ودعي الأمور تسير على طبيعتها، ولا تضعي حاجزاً حديدياً بيننا فالأيام هي وحدها التي تحدد مصيرنا.

صمتت سهير ولم تتفوه بكلمة، وهو أيضاً لم يزد على ذلك شيئاً ثم ودعها تاركاً إياها غارقة في بحر من التفكير والآهات، تستعيد كل كلمة قالها وهي تقول: أيعقل هذا الكلام الذي يتفوه به سامر؟ هل يجوز أن أحب ابن أخت زوجي؟ وهل أستطيع أن أحب غير كمال وهو ما زال يحتل القسم الأكبر من قلبي؟ فلو كنت أريد أن أحب فكنت أحببت غير سامر، ومنذ زمن، فهناك من هم أجمل منه وأغنى منه، وأوسع ثقافة ويتمنون أن أمنحهم قلبي، ولكنني لم أفكر إطلاقاً بالحب بعد كمال، أنا لا أريد أن أجلب لنفسي متاعب أنا بغنى عنها، لا يا سامر، لا لن أفعل هذا.. ابحث أنت عن امرأة غيري، فأنا لا أصلح لمثل هذه الأمور، صحيح أني دائماً أشعر بحاجتي إلى الحب وإلى حبيب يملأ الفراغ العاطفي الذي ناره تكاد تلتهم روحي وشبابي ولكنه مجرد إحساس وشعور ينتابني بين الحين والآخر، ولكن لا أستطيع تنفيذه مهما عانيت من عذاب وآلام، فهو يظل مجرد إحساس.

بعد هذه المناقشة بين سامر وسهير، مضى أسبوع وتلاه أخر وسهير لم ترد له جواباً، وكلما حاول فتح هذا الموضوع تتهرب منه ولكن إلى متى ستظل تهرب من الجواب؟ فمن أين لها أن تهرب من نفسها التي بدأت تطاردها أكثر من سامر؟ فقد حرك مشاعرها التي كبتتها سنين طويلة، وحاولت إخمادها كلما هبت، فقد بدأت تتمرد عليها، هذه العواطف التي لم تتوقف يوماً عن الهيجان، فجاء كلام سامر كالبنزين الذي يصب فوق نارٍ هادئة لتزيدها اشتعالاً، لقد فقدت السيطرة على عواطفها الثائرة، ولم تعد تستطيع اخمادها، فوجدت نفسها تحب سامر، رغم إرادتها وكأن اعترافه لها هذا أيقظ في نفسها شعوراً مكبوتاً، حاولت أن تخفي هذا الحب الذي ولد فجأة، حاولت الهرب منه بأن لا تستجب لنداء قلبها، وتبقى صامدة أمام مطاردته لها، إلا أنها لم تستطع فلا سامر استجاب لطلبها وابتعد ولا هي استطاعت الصمود أكثر من ذلك، لقد تفجرت عواطفها وأصبحت كالبركان، فرضخت لقدرها، وانساقت خلف مصيرها، فمن أين للإنسان أن يهرب من قدره وسامر أصبح قدرها المحتوم ومصيرها المجهول الذي لا تدري نهاية له. استجابت

إلى نداء قلبها وهي تقول يا لهذا القدر القاسي ! ! ألم يجد غير سامر ليرميه في طريقي؟ ألم يجد سامر غيري يحبها؟ ما أتعس هذا الحب.

كان سامر شاباً لطيف المعشر متوسط الثقافة، جميل الشكل، طويل القامة، قوي العضلات كأبطال الرياضة، حسن الوجه، أنيق المظهر، ظل سامر يطارد سهير دون يأس، فهو يعلم أن سهير بحاجة إلى حب ولا بد لها يوماً من أن تضعف وتنهار مقاومتها، وهذا ما حدث حين جاء لزيارة خاله في أحد الأيام، تركه خاله في البيت وذهب إلى أحد أصدقائه، فلم يبق في الغرفة سواهما، حيث كان الأولاد يدرسون في الغرفة المجاورة، حين رأت نفسها وحيدة مع سامر حاولت الهروب من الغرفة متذرعة بالعمل خوفاً من مواجهته، ولكنه أوقفها حين شعر بهروبها قائلاً: سهير إلى أين تذهبين؟

قالت له وهي تشيح بنظرها: إلى المطبخ لدي عمل هناك.

قال سامر: أنت ليس لديك عمل وإنما تتهربين مني.

قالت: أنا أتهرب منك؟ لا هذا ليس صحيحاً.

قال لها بصوت فيه رعشة الحب: أتهربين مني يا سهير؟ أتهربين من سامر الذي أحبك حباً لا يعرفه البشر؟ أتهربين من سامر الذي يحبك ويستميت تحت قدميك؟ فخفضت نظرات عينيها خوفاً من أن تفضحها، وقالت له بتلعثم: أنا.. أنا يا سامر.. لا أنت مخطئ، أنا لم أهرب منك.

قال لها: أرأيت كيف فضحتك عيونك رغم محاولاتك لإخفائها، فهذه العيون الساحرة لم تنجح في اخفاء كذبة تحاولين إخفاءها. ثم أضاف قائلاً: سهير تعالي اجلسي بقربي، فأنا لدي حديث معك.

ارتبكت سهير وبدأ قلبها يخفق كطير حمام مذبوح، فقالت له: ألا يؤجل هذا الحديث إلى وقت آخر؟

قال: لا يا سهير.. لا.. لا يؤجل فقد تأجل كثيراً فتلفتت يميناً وشمالاً ثم جلست بعيداً عنه، وأخفضت بصرها إلى الأرض فبدأ الحديث قائلاً:

سهير ها قد مضى أربعة أشهر على اعترافي لك بحبي وكلما حاولت الحديث معك لأعرف ردك أجدك تتهربين مني، ثم صمت لحظة وقال: سهير ألست في

المستوى اللائق كي أستحق حبك؟ ألا تتوفر فيّ الصفات التي تحبينها في الحبيب؟ أجابته بسرعة: سامر لا تقل هذا، فلس هذا ما أفكر به، سامر.. أنت شاب لطيف وتتمناك كل فتاة.

قال لها: أنا لا أريد أن تتمناني كل فتاة، وإنما أريد أن تحبني وتتمناني امرأة واحدة هي أنت، وكادت توقل له، ومن قال لك أني لا أحبك ولا أتمناك؟ فأنا أحبك، ولا أتمنى شيئاً في الدنيا كما أتمناك، ولكن حبست الكلمة بين شفتيها ولزمت الصمت.

فقال لها: لماذا لم تجيبي على سؤالي؟ هل يوجد في حياتك رجل أفضل مني؟، ارتعشت لدى سماعها هذه الكلمات، وقالت له بغضب: سامر كيف تسمح لنفسك بتوجيه هذا الاتهام لي أرجو أن تراعي مشاعري ولا تخاطبني بهذه الطريقة، فأدرك أنه أخطأ السؤال فقال لها: إني آسف يا سهير، لم أكن أقصد اتهامك، لقد خانني التعبير فهو مجرد سؤال عابر أرجو أن تنسيه، لقد دفعني إلى هذا السؤال خوفي من أن يكون قد سبقني من هو أفضل مني، واحتل قلبك.

قالت: لقد مضت سنون طويلة وأنا أعاني من الفراغ العاطفي، وقابلت رجالاً كثيرين، إلا أنني لم أسلم قلبي لأحد ولم يستطع رجل أن يحرك مشاعري مهما كانت صفاته كاملة ومغرية للمرأة، حتى أتيت أنت فأضرمت النار التي كادت أن تغدو رماداً، نظر إليها والبسمة ترقص على شفتيه والفرحة تغمر كيانه، وقال: سهير ماذا أسمع، إني أكاد لا أصدق، أعيدي ما قلت يا سهير: هل أنا في حلم أم في علم؟ هذا يعني أنك تحبينني؟

أجابته سهير بصوت يفيض رقة وعذوبة: أجل.. أجل.. أحبك، هذا الحب الذي يغمر كياني وهناك شيء آخر يجب أن تعلمه هو أن حبي متعب، وطريقه شاق وصعب، والرجل الذي يحبني سوف يتعب كثيراً وعليه أن يكون صبوراً.

قال لها بخشوع: سهير إني أفتدي هذا الحب بدمي، وأشتري قلبك بروحي وعمري، وطالما قلبك معي وملكي، فأنا أتحدى العالم.

قالت له: لتسلم روحك ويبقى عمرك لي يا سامر.

صمت سامر واكتفى بما سمعه وما ناله من سعادة في هذا اليوم. ثم خرج من عندها فرحاً مسروراً على أمل أن يعود في يوم آخر.

وفي اليوم التالي توجهت لزيارة صديقتها ناهد وهي سعيدة والدنيا لا تكاد تسعها من شدة الفرحة، وكأنها فتاة مراهقة كانت في لقاء مع حبيبها، فاستغربت ناهد هذه الساعدة التي حلت عليها فجأة فسألتها قائلة: سهير، أراك مرحة سعيدة هذا اليوم، فما هذه السعادة التي حلت عليك فجأة؟ هل لي أن أعلم؟.

نظرت إليها بعينين فيهما حب العالم وقالت لها بسعادة: فعلاً أنا سعيدة يا ناهد إلى درجة أنني أشعر وكأني أحلق في الفضاء دون أجنحة، بل أشعر وكأني ولدت من جديد، قالت لها بمرح: هيا أخبريني، فأنا لم أعد قادرة على الصبر، قالت لها: ماذا أقول لك ومن أين أبدأ؟ بل أنا لا أجرؤ أن أقول لك شيء.

قالت لها باستغراب: لماذا يا سهير؟ ألست موضع ثقة حتى تخفي عني أسرارك؟

قالت لا تقولي هذا يا ناهد، فأنت تعلمين أن ثقتي بك ليس لها حدود، ولكن.. فقاطعتها قائلة: ولكن ماذا؟

قالت سهير: أخاف أن تلوُميني، بل أخاف من نظرتك لي بعد ذلك، أخاف أن أخسر صداقتك، وأنا أتمنى أن نبقى العمر كله صديقتان.

قالت لها وقلبها يخفق من شدة الخوف: سهير شغلت بالي، هل الأمر خطير إلى هذه الدرجة؟ وما هو الشيء الذي يجعلك تخافين حتى مني أنا، فأنا أخاف عليك كثيراً من نفسي.

أجابتها بخجل: ليس خوفاً يا ناهد، وإنما خجل منك، لأنه سر يختلف عن باقي الأسرار.

قالت ناهد بعتاب: سهير إنك تعلمين كم أعزك وأحترمك وأن أي شيء يحدث لن يهز صورتك أمام عيني، فمهما حدث من أمور فلن تستطيعي أن تغيري نظرتي لك، وإذا كنت تعتبريني صديقة فعلاً بجيب ألا تخفي عني شيئاً، قالت لها: حسناً، اسمعي جيداً لأقص عليك كل ما جرى لي مع سامر.

صدمت ناهد في أول الأمر، ولكنها ما لبثت أن عادت إلى رشدها وأخفت الدهشة قائلة تكلمي فكلي آذان صاغية، وراحت تحكي لها كل ما جرى بينها وبين سامر، وما أن انتهت من حديثها حتى قالت لها: كيف استطعت أن تخفي عني هذه الأمور طيلة أربعة شهور؟ قالت سهير: كنت مصممة على أن أبعده عن طريقي وأنهي الأمر، قالت ناهد: ولكنك فعلت العكس.

تنهدت بعمق وقالت: نعم لقد فعلت العكس رغماً عني. ولست بحاجة يا ناهد كي أشرح لك ظروفي، قالت ناهد محذرة سهير: إن الأمر ليس بهذه البساطة يا سهير، فما نهاية هذا الحب؟ وما مصيره؟

أجابتها بحزن: لست أدري يا ناهد، لست أدري، فأنا لم أعد أميز بين الصح والخطأ.

قالت ناهد: لا يا سهير، يجب أن تدركي ما أنت قادمة عليه، إنك زوجة خاله، ألا تدركين خطورة هذا؟ إني أعرفك جيداً، فأنت لست من النوع الذي يبني علاقة عابرة بدون هدف، فهل تستطيعين التخلي عن أولادك والزواج منه؟

أجابتها بلهفة: طبعاً لا لو كنت أستطيع ذلك لفعلت ذلك منذ زمن لست أنا التي تفعل هذا.

قالت: إذن ما الفائدة من هذا الحب؟

أجابتها: لست أدري يا ناهد لماذا أحببت، ولكن كل ما أعلمه هو أنني أحبه، واشعر بسعادة لهذا الحب، أشعر بسعادة لأنني محبوبة وأحب، فعلى الأقل أدع نفسي تعيش هذا الشعور الجميل.

قالت ناهد: إنه لن يكتفي بهذا الشعور.

قالت لها: ماذا تعنين يا ناهد؟

قالت ناهد: أنا أعني أشياء كثيرة، ولا أظنك تجهلين ما أعني.

أجابتها: إذا كنت تعنين أنه يريد مني أشياء أخرى، فأنا ليس لدي سوى نظرة حب، وكلمة حلوة، فليختار إما أن يرضى بي هكذا، أو ينسحب ويبحث عن امرأة غيري تعطيه ما يريد.

قالت: أنا واثقة إذا تمسكت بنفسك سوف يفعل هذا، لأن الرجل لا يكتفي من المرأة بنظرة حب، إنه يطلب أكثر من ذلك بكثير، فهو يظل يطلب ويطلب حتى ينال منها كل شيء، فإذا رأى تمسكها انصرف عنها.

قالت سهير: إنك مخطئة يا ناهد، فالرجل لا يحب المرأة السهلة المنال، فإذا نال منها كل ما يريد ساعتها ينصرف عنها، أما إذا رأى عندها أخلاقاً وتمسكاً بشرفها أحبها أكثر، هذا إذا كان فعلاً يحبها، ثم سامر يختلف عن باقي الرجال، وأنا متأكدة أنه لن يطلب مني شيئاً لا أرغبه إنه يحبني فقط.

أجابتها قائلة: سهير أرجو أن لا تغضبي مني ولا تظني أني قد غيرت نظرتي إليك، أو أثرت هذه الحادثة على صداقتنا، فأنا أقول لك هذا بدافع الحب والخوف عليك، وأعتقد أن هذا من حقي عليك كصديقة.

أجابتها: إني أعلم ذلك، أعلم يا ناهد، ولكن لا تخافي علي، فأنا لست فتاة مراهقة عديمة التجارب حتى أسقط في أول حفرة.

أجابتها برقة وحنان: إني أعيد عليك ما قلت، وهو أني أحبك وأخاف عليك، فلا تهدمي كل ما بنيت خلال سنين طويلة، كوني حذرة يا حبيبتي، ولا ترمي بنفسك في نار ملتهبة السعيرُ.

شكرتها سهير وانصرفت عائدة إلى بيتها، وأخذت حذرها، ولكن ليس من حب سامر، فقد انغمست في حبه حتى الثمالة، وأصبح كل شيء في حياتها، وغدت تحبه كل يوم أكثر من اليوم الذي قبله، كان إذا غاب عنها يوماً شعرت كأنه غاب عاماً، فتقلق وتتعذب وتعيش على جمر من النار، وما حل بسهير من حب وشق وعذاب وحنين، حل بسامر، فكان إذا افترق عنها يوم يشعر أن الوقت يمر ببطء وأن الساعة تمر وكأنها دهر.

أما ناهد فقد كانت تتابع أخبار هذا الحب كل يوم من سهير، وكانت سهير لا تخفي عنها أدق التفاصيل، فإن طال غياب سامر عنها هرعت إلى ناهد تشكو لها شوقها له، وعذابها على غيابه، وقلقها عليه، وإن التقيا تهرع أيضاً إلى ناهد كي تبث لها فرحها وسعادتها، وفي ذات يوم جاءت ناهد تزور سهير وبعد أن جلست

قليلاً وتحدثت إليها بشتى الأمور سألتها ناهد قائلة: سهير أخبريني كيف حالك مع سامر؟

أجابتها: علاقتنا حتى الآن جيدة، ولم تختلف في شيء.

سألتها ثانية: وكيف تصرفه معك؟

أجابتها: ألم أقل لك؟ إن سامر ليس ككل الرجال، إنه لم يسء إلى علاقتنا إطلاقاً كما قلت، تصوري يا ناهد، لقد مضى على حبنا ستة أشهر، لم نتجاوز خلالها النظرة أو كلمة حب، ونادراً يلمس يدي، فسامر شاب مهذب، فضلاً عن أنه يحبني ولا يبغي في علاقته معي اللهو.

قالت ناهد: إنني أتمنى هذا، وأرجو أن يكون كما تتخيلنه وأن تمر هذه الأمور كلها على خير، ولا تسبب لك متاعب أكثر مما لديك.

بعد هذا الحوار الطويل استأذنت ناهد بالانصراف، على أن تعود إليها في الغد، وحين زارتها في اليوم التالي كما وعدت، رأتها كئيبة قلقة، فسألتها عن السبب فقالت: إنه سامر يا ناهد، لقد مضت ثلاثة أيام دون أن يأتي وهذا ليس من عادته.

قالت ناهد: ولكن كنت عندك يوم أمس فلم تكوني قلقة، فلماذا القلق اليوم؟

قالت: لأني كنت متوقعة أن يأتي اليوم، فهو لم يعودني أن يغيب أكثر من يومين أو ثلاثة.

قالت ناهد: إن الغائب عذره معه، فربما يأتي في المساء أو غداً.

قالت: لا يا ناهد إن غيابه ليس طبيعياً.

قالت لها اهدأي ولا تكوني مجنونة، فربما يكون في مهمة.

صمتت وتظاهرت بالاقتناع، ولكن في داخل نفسها لم تقتنع وصدق ظنها، فقد مضى أسبوع ولم يأت، وتلاه أسبوع آخر ولكن بدون جدوى، فاشتد قلق سهير لهذا الغياب ولكن عادت تطمئن نفسها قائلة: ربما يأتي في الأسبوع القادم، ولكن خاب ظنها، فقد مضى الأسبوع الثالث ولم يأت أيضاً فإزدادت وساوسها واشتد بها القلق وبعد تفكير طويل قررت أن تذهب بنفسها إليه تسأل عنه وترى ماذا حدث. ولدى

عودة مراد من عمله، طلبت منه أن يسمح لها بزيارة أخته لأنها بشوق شديد لها. قال لها: حسناً.. متى ستذهبين؟ قالت: غداً.

في اليوم التالي: ذهبت إلى أم سامر، ولدى وصولها إلى أول الشارع الذي يقيم فيه سامر وأمه شاهدته وهو يقف إلى جوار أحد أصدقائه، يتحدث إليه، لم يرها ولكن صديقه نبهه إليها حين قال له: سامر أنظر من أتى إليكم، قال: من؟ قال صديقه: زوجة خالك، قال: وهو يستدير نحوها غير معقول، ماذا أتى بها؟ وحين رآها استأذن صديقه، وتقدم لملاقاتها. ولكن كان استقباله لها بارداً.

حين رأت هذا البرود في استقباله أحست أنه أغمد خنجراً في قلبها، ولكنها أخفت غيظها وتجاهلت ما بدر منه، وأخذت تعاتبه برقة على انقطاعه عنها طيلة هذه الأسابيع الثلاثة على غير عادته، وقالت له، كيف سبب لها القلق والحيرة، أجابها ببرود: إنه كان مشغولاً في تلك الأسابيع الماضية، وأنه كان ينوي زيارتها بعد أيام قليلة.

وهنا كان قد وصلا إلى المنزل فتركها وانصرف إلى رفاقه، طالت غيبته أكثر من ساعة، وحين عاد رأته يتجاهلها عمداً، فصعب عليها هذا التصرف منه وأحست أنه أهانها، ومرغ بكرامتها، وطعنها في الصميم واعتبرها كأية امرأة رخيصة، يود التخلص منها، أيتجاهل سهير التي لم تسع خلف رجل في حياتها؟ فقررت أن تعود بعد أن تقول له عدة كلمات.. اقتربت منه وهمست قائلة: سامر لي معك حديث مهم، وبعده سأنصرف حالاً.

قال لها: لماذا هذه السرعة؟ فأنت لم ترتاحي بعد من مشوار الطريق، أجابته أنا لم آت إلى هنا كي أتنزه، وإنما أتيت كي أطمئن عليك، وها أنا قد اطمأننت على سلامتك، فلم يعد لوجودي لزوم.

قال لها: حسناً سأرسل أمي إلى أختي كي تساعدها في إعداد الطعام، لأنها دعتنا جميعاً إلى تناول الغداء، فإذا طلبت منك أن تذهبي معها قولي لها أنك ستنامين.

قالت له: حسناً، وبعد قليل أصبحا وحيدين، فجلس سامر قريباً منها وقال لها: ها قد أصبحنا وحيدين ماذا هناك؟

نظرت إليه نظرة عتاب وقالت له: سامر إذا كان هناك شيء يدور في رأسك فقله إذا كنت لا تريدني فقل لي ذلك، ولا تخشى شيئاً ولا تراوغ، إذا كنت قد مللت حبي قل لي فهذا أهون علي من أن تتجاهلني وتعذبني بهذا الشكل، فتجاهلك هذا يقتلني، إنك لا تدري كم تعذبني طيلة هذه الأسابيع، وأنا لا أدري سبب غيابك هذا، وعندما أتيت أسأل عنك صفعتني باستقبالك هذا وتجاهلك لوجودي، ماذا حدث يا سامر؟ قل.

حاول التمويه، ولكن أسكتته بغضب قائلة: سامر أنا لا أحب المراوغة، واختلاق الأعذار، بل أريد الحقيقة مهما كانت مرة، ثم همست بصوت حزين: أن قلبي صدم كثيراً يا سامر وليست هذه أول صدمة، فقد اعتاد قلبي على الصدمات، وأصبح الحزن رفيقه.

فتكسرت نظرات سامر قبل أن تصل إليها وقال لها: سهير أنا لا أدري ماذا أقول لك، ولكن يجب أن تعلمي قراري الأخير، حين سمعت هذه الكلمة، شعرت بقلبها يكاد يقف، حين أحست بأن سامر يرمي شيئاً ما، ولكنها تماسكت وقالت له: تكلم، قل كل ما تريد.

تابع كلامه قائلاً: سهير لقد فكرت في وضعنا، فرأيت أننا نسير في طريق خطأ ولا يمكننا الاستمرار فيه، وعلينا أن نتراجع قبل فوات الأوان، لذلك أنا ابتعدت عنك، لأن البعد أفضل لي ولك أليس هذا كلامك من أول يوم حبنا؟ فقد كنت دائماً تطلبين مني هذا، كنت دائماً تقولين لي أنك زوجة خالي، وهذا يكفي لأن يكون حاجزاً كبيراً يقف بيننا وأنا الآن أدركت الحقيقة.

نظرت إليه قليلاً وقالت له بحدة: الآن فقط أدركت الحقيقة، لكم أنت نبيه وذكي الآن، وبعد أن سرنا في هذا الطريق مسافة طويلة، وأصبح التراجع عنه أصعب من السير فيه، الآن أدركت هذا يا سامر؟ إنك تعترف أني قلت لك هذا منذ البداية لماذا لم تفكر بهذا من قبل؟ الآن فقط جئت تذكرني بهذا وتقول لي قبل أن يفوت الأوان؟ لا يا سامر.. لقد فات الأوان منذ زمن، ولكنك لم تفكر في كلامي، وإنما تريد التخلص مني.

قال لها: أنت تعلمين أني لا أود التخلص منك، وأني لم أحب ولن أحب غيرك، ولكن، قاطعته بغضب: ولكن ماذا؟

قال لها: ولكن الحواجز التي تقف بيننا هي السبب.

قالت له بحدة: ألم تر هذه الحواجز منذ زمن، ألم أتوسل إليك أن تبعد عني لأن هذا الحب غير متكافئ، ولكنك لم تستجب لطلبي حتى تمكنت مني وعلمت أني بت أحبك، وأنك غدوت كل شيء في حياتي، جئت تقول لي حبنا غير مناسب، الآن فقط اكتشفت ذلك؟ ولكن لا.. لست أنا التي تهان كرامتها، لست أنا من يتلاعب بها، فلن أدع حبك ينال مني، فأنا لم أعطك ما يسيء لي، ولم أندم على ما فعلت، لكنني سأنتزع قلبي بيدي، وأرميه تحت قدمي، إذا كان هذا القلب سيذلني، سأمزقه وأطعمه للوحوش إذا كان سبب إهانتي، فلن أسعى خلفك ولن أتوسل إليك أن تعود لي، أتعلم لماذا لأنني أنا لست أية امرأة، فأنا سهير التي لم تسع يوماً خلف رجل، أنا سهير التي يتمنى كل رجل الارتماء تحت قدميها، أنا لست آسفة عليك يا سامر، وإنما آسفة على قلبي الذي وهبته إلى إنسان مثلك، إنسان كاذب محتال، ولكن لست أنت الغلطان، بل أنا التي وقعت بالغلط حين صدقتك وسلمتك قلبي، ثم أشاحت بوجهها عنه كي لا يرى دموعها التي سقطت رغماً عنها، فنظر إليها نظرة حب صادقة وقد آلمته دموعها وقال لها: سهير أرجوك لا تفهميني خطأ، فأنا أحبك حباً يفوق الخيال، ولكن الظروف يا حبيبتي هي التي ستفرق بيننا.

أجابته بجفاء: لا.. لا حاجة بك لأن تعتذر، فأنا لست نادمة عليك وسأقتلع حبك من قلبي وهنا أتت أم سامر وهي تنادي، سهير.. سامر.. تعالا.. فقد أصبح الطعام جاهزاً.

حين سمعت سهير صوت أم سامر، جففت دموعها واندست تحت الشرشف وأغمضت عيناها وكأنها نائمة، وحين رأتها أم سامر نائمة قالت لها: سهير.. انهضي.. ألا زلت نائمة؟

رفعت رأسها قليلاً واغتصبت ابتسامة صفراء، وقالت لها بصوت كسول: وهل ولدك يدع أحداً ينام؟ إنه يتكلم وكأنه آلة تسجيل، فهو لم يدعني أنام لحظة،

فالتفتت الأم إلى سامر وقالت له: لماذا لم تدع زوجة خالك تنام؟ ألا تكف عن هذه العادة السيئة؟ ثم التفتت إلى سهير وقالت لها: هيا.. هيا انهضي وكفاك كسلاً، فقد أوشك الطعام على أن يبرد.

نهضت سهير وسارت خلف أم سامر دون أن تنبس بكلمة، وأثناء الغداء لم تستطع حتى مضغ الطعام وابتلاع اللقمة من شدة قهرها وحزنها، وقد لاحظ الجميع عدم أكلها، فأخذوا يلحون عليها فتتظاهر بأنها تأكل، وما أن انتهوا من تناول الطعام حتى استأذنتهم وانصرفت.

حاولت أم سامر وأخته كثيراً أن تبقى تلك الليلة عندهم ولكنها صممت على الانصراف فودعها الجميع وخرجت لا تلوي على شيء.

رافقها سامر إلى الشارع العام، فلم تلتفت إليه ولم تحدثه بكلمة، وحين بلغت الشارع أوقفت سيارة أجرة، ورمت نفسها في داخلها وهي تشيح بوجهها عنه، ولم تقل له كلمة وداع.

وفي الطريق كانت تذرف الدموع القانية، ولم تشعر بنفسها إلا حتى قال لها السائق: لقد وصلنا يا سيدتي، فأعطته الأجرة وترجلت من السيارة وصعدت السلالم مسرعة وفتحت الباب بعصبية، دخلت بسرعة إلى غرفة النوم ورمت نفسها فوق السرير وانفجرت بالبكاء بصوت مرتفع، تأوهت وتألمت حتى فقدت الحس بأي شيء، كان عذابها ليس من أجل سامر، وإنما لأنه جعل منها ألعوبة بين يديه، فقد تألمت وعاشت أياماً أقسى من الموت، بل تمنت كثيراً أن تموت وتنتهي من هذا العذاب، بكت كرامتها التي جرحت، بكت حبها الذي ضاع، وقلبها الذي أسلمته إلى إنسان لا يستحقه.

وجاءت هذه الصدمة إليها لتكشف عن موهبة شعرية لم تكن قد شعرت بها من قبل، وخرجت هذه الموهبة لتصبح قصائد رائعة تعبر عن عذابها وآلامها، مضت أيام وليالي طويلة ذاقت خلالها المر ألواناً.

كانت تخفي عذابها عن الجميع حتى عن ناهد، فماذا تقول لها؟ أتقول لها أن سامر غدر بها ورماها كأية امرأة ساقطة؟ أتقول لها صدقت ظنونك حين نصحتني

وأنا لم أسمع كلامك؟ ماذا تقول؟ فهي لم تستطع قول شيء، وكل ما استطاعت فعله هو الكتابة.

وبعد أسبوع جاء سامر إلى بيت خاله كي يصالح سهير، ولكنه كان خائفاً من مواجهتها، فماذا سيقول لها؟ وكيف يبرر تصرفه الأرعن؟ وظل مرتعداً بين أن يعود أو أن يأتي إليها، وحين بلغ البيت قرع الجرس وهو مضطرب النفس، فتح الباب عمر، وأدخله فرحب به خاله، أما سهير حين رأته ارتسم على وجهها الغضب وكادت أن تصرخ به: أخرج، لكنها تمالكت نفسها وضغطت على أعصابها وسلمت عليه بفتور خوفاً من أن يلاحظ عليها أحد، ثم تركته ودخلت غرفتها، فجلس مراد معه قليلاً ثم تركه ودخل غرفته كي ينام، فاضطرت أن تخرج من الغرفة كي تدع مراد ينام، ولكنها لم تجلس معه وإنما دخلت المطبخ.

عندما رأى هذا الغضب على وجهها أخذ قلبه يخفق وجسمه يرتجف من شدة الخوف، وبدأ يفكر ماذا سيقول لها؟ وكيف سيقنعها؟ وظل هكذا حتى عادت من المطبخ.

فاستوقفها حين حاولت أن تعود إلى المطبخ قائلاً: سهير لماذا تختلقين الأعمال كي تخرجي من الغرفة؟

أجابته بجفاء: وماذا تريدني أن أفعل وأين تريدني أن أجلس؟

قال لها: هنا قربي.

أجابته بازدراء: أنا آسفة يا سيدي، فأنا لدي عمل لا أستطيع تأجيله.

قال لها: سهير أرجوك لا تعذبيني أكثر من هذا.

قالت له بسخرية: كيف هذا يا سيادة الطيار؟ وهل تستطيع امرأة أن تعذب رجلاً؟

أجابها بتوسل: سهير كفاك سخرية، اجلسي كي أشرح لك الأمر.

أجابته: ليس بيننا ما يحتاج إلى شرح، ثم أنا لدي عمل يجب أن أنهيه.

قال لها: لا أنت ليس لديك عمل ولكنك تتهربين مني.

أجابته بطريقتها الساخرة: ولماذا أتهرب منك؟ هل فعلت شيئاً يدعوني لأن أهرب منك؟

أجابها بانكسار: سهير أرجوك لا تكوني قاسية إلى هذه الدرجة، سهير أرجوك ارحميني، أشفقي على قلبي الذي لم يذق طعم السعادة منذ فراقنا، سهير إنك لا تعلمين كم تعذبت وكم تألمت، وكم سهرت الليالي الطويلة.

ابتسمت ابتسامة ساخرة وقالت له: ولم كل هذا؟ أيها الممثل البارع، إنك أبرع ممثل رأيته في حياتي، وأضافت: الأجدر بك أن تكون قد دخلت معهد التمثيل لكنت نجحت وبتفوق.

وهمت بالخروج من الغرفة، لكنه عاد وأوقفها قائلاً: سهير أرجوك، أتوسل إليك أن تجلسي وتسمعيني جيداً.. أعطني فرصة للدفاع عن نفسي، أجابته بلهجة حاسمة: سامر.. أرجوك أن تنسى كل ما كان بيننا، وتبتعد عني، وكفى ما نالني من ورائك من عذاب.

أجابها بصوت تحمل نبراته الكثير من الحزن: سهير.. لا تكوني قاسية، أرجوك اجلسي قليلاً واسمعي ما أقول.

صمتت قليلاً ثم قالت له: حسناً.. قل ماذا تريد..

نظر إليها نظرة خجل وانكسار وقال لها: سهير إني أحبك حباً يعجز عن وصفه قلم كاتب، سهير أنا لا أستطيع البعد عنك لحظة، فإذا حاولت البعد عني أكثر من ذلك تكونين قد حكمت علي بالإعدام.

قالت له: إذا كان الأمر كذلك، لماذا إذن فعلت بي هذا؟ ولماذا تجاهلتني حين ذهبت إليك؟ ولماذا بعدت عني طوال هذه المدة؟

قال لها: لأنني كنت أعتقد أني أستطيع البعد عنك، ولكن اكتشفت أني كنت على خطأ، لقد أدركت الآن كم أنا أحبك، وكم هو مستحيل بعدي عنك.

أجابته بجفاء: هكذا إذن تهجرني حين تقرر ذلك وتعود إلي عندما ترغب بالعودة وكأني دمية في يد طفل مستهتر، لا أهمية عندك لمشاعري، لا فرق عندك، أهنت كرامتي وحطمت كبريائي.

قال لها برقة: لا يا سهير فأنا لم أقصد هذا يوماً.

أجابته: ماذا تقصد إذن؟ فعلت كل ذلك بي ولم تقصد، ماذا كنت تفعل إذن لو كنت تقصد؟ ثم غيرت لهجتها وجعلتها جافة أكثر، وقالت له: سامر لقد انتهى

كل شيء بيننا، ولم يعد الكلام يجدي بهذا الموضوع، فأرجو أن تتركني وشأني، ولا تسبب لي ألماً أكثر مما فعلت، فقلبي لم يعد يحتمل. فقاطعها قائلاً: سهير دعيني أكمل كلامي ثم افعلي بي ما شئت.

قالت له: حسناً.. أكمل كلامك.. نظر إليها بخجل وقال لها: أريد أن أطلعك على شيء أظنك تجهلينه، ورغم خطورته سأقوله لك راجياً أن تسامحيني.

وتابع قائلاً: سهير أنا لا أريد أن أقول لك أني غير مخطئ، وأختلق لك الأعذار لا.. لن أقول لك هذا، ولكن سأقول لك السبب الذي جعلني أحاول الهروب منك ومن حبك الذي ملك علي كياني، وتابع، عندما زرتكم أول مرة، سحرني جمالك، وجذبتني رقتك، وبعد أن تعددت زياراتي لكم بدأت أشتهيك، ولكم قاومت هذه الرغبة ولكن كان سحرك أقوى من طاقتي على المقاومة، فسحرك لا يقاوم يا سهير، وحين لمست الخلاف الذي بينك وبين خالي، حاولت أن أستغل هذه الثغرة وجعلت أتقرب منك رغم تأكيدي على أني لن أنال ما أبغيه بسهولة لأنه من الصعب خداعك إلا أني واصلت السعي وعندما استطعت لفت نظرك إلي وجدت نفسي وقد غرقت في حبك حتى الثمالة وعندئذ اكتشفت خطأي حيث بدأت أفكر بالحواجز التي تقف بيننا، فعلاقة الحب غير علاقة التسلية، فالحب علاقة دائمة تربط بين قلبين وتخرج الروحين وتجعلهما روحاً واحدة، بدأت أفكر في حبك الذي قيدني بسلاسل من حديد، وجعلني لا أستطيع الإفلات منه حين بدأت أطاردك، لم أفكر بأنني سأصل إلى هذه الدرجة من الحب، لقد أحببتك دون أن أدري وهذا الحب العظيم الذي يملأ قلبي، فأنت من علمني الحب، أنت من جعلني أعرف ما معنى الحب، وأنت أول حب صادق في حياتي، فمن يريد الحب فليتعلم منك، فأنت الحب بأسمى معانيه، وقد تعلمت منك الكثير، تعلمت كيف يكون الحب.

قاطعته سهير قائلة: ولهذا رميتني وفاءً منك لي؟

قال لها: لا يا سهير.. أنا لم أرمك، فالتي مثلك لا ترمى ولكن عندما وجدت نفسي أحبك كل هذا الحب وأنساق وراء عواطفي مسلوب الإرادة، خفت من نارها المحرقة، فقلت لأنسحب من أول الطريق، ولم أدر أنني سرت فيه مسافة طويلة. وأني تأخرت كثيراً.

قاطعتــه قائلــة: الله الله كـم أنــت بــارع التمثيـل، فقـد أتيـت الآن تكمـل المسرحية، وتنزل الستار على الفصل الأخير أليس كذلك؟

نظر إليها نظرة استغفار وقال لها: لا يا سهير.. لا تظلميني فأنا أحبـك، بـل أعبدك بعد الله، وهذه هي الحقيقة وليس تمثيلاً، فحبك ملـك قلـبي وأسـر فـؤادي. سهير أحبك.. أحبك بجنون، فقد امتزج حبـك مـع دمـي في شـرايين قلـبي، سـهير اغفري لي يا حبيبتي، وارفقي بقلبي.

أجابته والحسرة تمزق قلبها: ماذا سأغفر لك؟ حتى أغفر يا سامر خداعك لي وتسترك وراء الحب حتى تصل إلى جسدي؟ أم تركـك لـي دون سـابق إنـذار؟ سـامر كنت أعاني من طعنة واحدة أما الآن فقد أصبحت طعنتين.

قال لها: سهير، لقد اعترفـت لـك كـي تسـامحيني، لا مـن أجـل أن تـزداد نقمتك علي، فلولا حبي لما كنت اعترفت بهذا، أجابته بليونة، وماذا يضمن لي أنك صادق، ولم تكن تخدعني كما فعلت من قبل؟.

قال لها: قلبي يا سهير وصراحتي هما الضمان، فلو كنت أخدعك كما تظنين لما كنت اعترفت لك بشيء لا تعلمينه.

أجابته بشيء من الجفاء: مهما يكن من الأمر فأنا لست مستعدة للعودة لأنـني أنا أيضاً فكرت في الأمر فوجدت أن فراقنا الآن أفضل لي ولك لأننا لم نخلق لبعض، فاقترب منها وأمسك براحتي يديها وأخذ يقبلهما ويبكي وهو يقول لها: سـهير إنـي أحبك حباً جما، أحبك حباً عاصفاً قوياً يحطم كل ما يصـادف في طريقـه، سـهير لا تحطمي قلبي يا حبيبتي، فالحب من أجل صفاته التسامح والغفران، سـهير الحيـاة من غيرك ليست بحياة، فأنت الهواء الذي يهبني الحياة، وأنت الشمس التي تبـدد ظلمات الليل، وأنت النور الـذي يضـيء أمـامي الطريـق، فـلا تجعلـي نـوري ظلامـاً وأيامي عذاباً، سهير أتوسل إليك أن تتراجعي عن قـرارك هـذا، وإذا كنـت تريـدين عقابي فافعلي بي ما شئت عدا بعدك عني، اختاري أيـة طريقـة للعقـاب، أحتملـها وأرضى بها مهما كانت قاسية إلا بعدك عني، فهذا الشيء الوحيد الذي لا أحتمله.

كان سامر صادقاً بما يقول، كانت دموعه صادرة من إحساس صـادق ومشـاعر جياشه، فقد بكي كثيراً وقال كلاماً كثيراً، يفضي حباً صادقاً، وكانت سهير تسـتمع

إليه وقلبها يعتصر ألماً لأنها هي أيضاً كانت تحبه كل هذا الحب الذي يصفه، وربما أكثر بكثير، ولكن ماذا تفعل بكرامتها المجروحة التي تأبى التسامح والغفران.

كانت تشعر بأنها تذوب وهي تسمع كلامه، فهي أيضاً بكت وتألمت، وأخيراً استسلمت ولم تستطع الرفض أمام هذا الحب المتدفق، لقد صفحت عنه وسامحته على هفوته تلك واستسلمت لعواطفها المتدفقة وبعد أن هدأت أعصابها قليلاً نظر إليها نظرة حب وقال لها: سهير لقد عرفت الآن كم أنا أحبك، وأنني لا أستطيع العيش من غيرك، وأن قلبي لم يعد فيه مكاناً كي يحب غيرك، لهذا قررت أن أتزوجك.

أجابته بدهشة واستغراب: ماذا قلت يا سامر؟

قال: كما سمعت قررت الزواج منك.

قالت: كيف هذا ألا تعلم أني متزوجة وأم أطفال؟ أم نسيت؟

: أعلم ذلك.

: تعلم وتقول ني هذا؟ أنت جننت حقاً..

أجابها بصوت يقطر حباً: أنا فعلاً جننت بحبك، ومع ذلك أنا أعني ما أقول، فحين أقول أني أريد الزواج منك، فمعنى هذا يجب أن تطلبي الطلاق من خالي كي نتزوج.

أجابته وفي صوتها رنة حزن: لا أستطيع ذلك.

: لماذا؟

: أتسألني لماذا يا سامر؟ وأنت أدرى الناس بي، ألا تعلم أن أولادي هم كل شيء في حياتي؟ ولا أستطيع الحياة بعيدة عنهم، ولو كنت أستطيع لفعلت ذلك منذ زمن.

: أنا أيضاً لا أستطيع البعد عنك، فما العمل إذن.

صمتت سهير ولم تجب. وبعد صمت قصير، قالت له: سامر هل حقاً أنت صادق فيما تقول؟

أجابها بسرعة واندفاع: أجل.. أجل يا حبيبتي، وهل لديك شك بكلامي؟.

: وهل فعلاً تستطيع التضحية من أجل هذا الحب.

: بل أنا أضحي بحياتي من أجل حبنا.

قالت له: اسمع يا سامر، أنا أيضاً أحبك بجنون، وأتمنى أن أغدو زوجة لك، بل أفتدي هذه الأخيرة بروحي، ولكن كي يتحقق حلمنا هذا يجب أن تصبر قليلاً فأنا لا أستطيع الزواج بك الآن. لأن أولادي ما زالوا صغاراً، فيجب أن تنتظر حتى يكبروا قليلاً كي أطمئن عليهم، فإذا كنت تستطيع ذلك أنا لك، وإذا لم تستطع ابحث عن امرأة غيري تفيدك أكثر.

: وهل أستطيع أن أحب غيرك يا سهير، سوف أنتظرك العمر كله.

: سلم عمرك يا حبيبي.

ثم قالت بمرح: ولكن احذر النظر إلى غيري، فأنا أغار كثيراً.

أجابها مداعباً: والله لا أستطيع أن أعدك بهذا، فربما وجدت فتاة جميلة فلا أستطيع المقاومة.

ـ وهل ستجد من هي أجمل مني؟

ـ أجل.

ـ أو تقول أجل؟ إنك لن تجد من هي أجمل مني.

ـ بل وجدت وانتهى الأمر.

قالت له بلهفة: ومن هي؟ قل

قال لها ببرود: هل يهمك معرفتها؟

ـ أجل، نظر إليها نظرة حب وقال لها: إنها امرأة بارعة الجمال ساحرة العينين، مرهفة الحس، رقيقة المشاعر، خفيفة الظل، لطيفة المعشر، ولكنها حين تغضب لا تلين، هل عرفت من هي؟

فضحكت ضحكة خجلة دون أن تجيب.

قال لها: سأقول لك من هي، إنها حبيبة قلبي وملكة قلبي سوسو.

فابتسمت ابتسامة عريضة من جديد وقالت له: لقد أوقعت قلبي فقد حسبتك حقاً وجدت غيري، بينما أخذ يدها وجعل يقبلها قبلات ناعمة وهو يعاهدها على الزواج بها مهما طال الزمن.

* * *

الفصل الثاني عشر

بقي سامر على عهده لها، ينتظر الظروف المناسبة، يتردد عليها كل يوم، وأثناء هذه الفترة قامت سهير بزيارة صديقة لها صحفية وكان من طباعها أن تفتش في حقيبة سهير كلما التقت بها، وحين زارتها سهير بعد طول غياب استقبلتها بحرارة وراحت تسألها عن سبب هذه الغيبة الطويلة. قالت سهير: أن مشاكل الحياة كثيرة ووقت الفراغ لديها قليل وخلال الحديث تناولت الصديقة حقيبة سهير التي كانت موضوعة فوق الطاولة وأخذت تفتشها وترمي نظرة على كل قطعة فيها، وتعيدها إلى مكانها، وقد عثرت على دفتر صغير بين هذه الحاجات، فبدأت تتصفحه دون اهتمام لكنها لم تلبث أن ركزت نظرها على صفحات هذا الدفتر، حيث لفت نظرها كلمة مكتوبة في أعلى الصفحة تقول قدري، فتابعت القراءة تحت هذا العنوان، وحين وجدتها سهير قد كفت عن الكلام وانصب اهتمامها في الدفتر قالت لها وهي تبتسم، ألم تغيري هذه العادة السيئة؟ أجابتها الصديقة: أية عادة تقصدين؟

: وهل يوجد عادة أخرى غير تفتيشك في حقيبتي؟

قالت لها الصديقة وهي تتابع القراءة: ماذا أفعل بهذا الطبع الذي لا أستطيع التخلي عنه، ثم ظلت تتابع القراءة، وحين انتهت سألت سهير قائلة: سهير من أين لك هذه القصيدة الشعرية.

: هل أعجبتك؟

: إنها رائعة يا سهير، فقد استطاع الشاعر أن يعبر عن الصراع بين الإنسان والقدر وعن الحالة النفسية التي يمر بها خلال هذا الصراع، فكل كلمة فيها تعبر عن معاناة كان يعيشها الشاعر.

وأردفت قائلة: ولكن لم تقولي لي من كاتب هذه القصيدة.

أجابتها: أن كاتبها ليس شاعراً.

قالت: إذا لم يكن شاعراً، ماذا يكون إذن بائع فجل؟

قالت: لا ولكنه جارية في منزل رجل شرقي.
قالت: سهير تكلمي بجد ودون مزاح.
: ومن قال لك أني أمزح؟
قالت الصديقة باستغراب: ماذا تعني فأنا لم أفهم شيئاً مما قلته.
قالت سهير: أعني يا صديقتي أني غسالة وخادمة اشتراني زوجي لمطبخه.
: أتعني أنك أنت التي كتبت هذه القصيدة؟
: أجل أنا.
قالت الصديقة بفرح: حقاً يا سهير ما تقولين؟
: أجل وهل هذا كثير علي؟
: لا.. ليس بكثير عليك يا سهير، ولكن أسلوبك الجميل وروعة الكلمات التي لا تصدر إلا عن شاعر موهوب هي التي جعلتني أستغرب، خاصة أن المعاناة واضحة في التعبير والمفردات فيها موسيقى حزينة.

أجابتها سهير والحسرة تمزق صدرها: أن هذه المعاناة هي التي دفعتني للكتابة وليس كوني شاعرة.

: ولكن الشاعر لم يولد شاعراً، وإنما تكون لديه موهبة دفينة في أعماقه، فإذا جاء ظرف ما كشفتُ الموهبة ودفعت به إلى الإبداع، وأقوى هذه الأشياء للإبداع هي المعاناة والقهر، وأنت موهوبة وكشفت عن هذه الموهبة، فلا تكفي يا سهير عن الكتابة.

نظرت سهير إليها وابتسامة عذبة تطفو على وجهها وقالت: عظيم، عظيم، ها أنت قد جعلت مني شاعرة دون أن أدري بنفسي.

: أتسخرين من كلامي يا سهير؟ سوف أذكرك يوماً به، لأنني واثقة من أنك لن تستطيعي الكف عن الكتابة بعد الآن، ثم أردفت قائلة: ما رأيك لو أخذت هذه القصيدة ونشرتها لك في إحدى المجلات؟

: لا يا عزيزتي، إنها ليست للنشر، فهي مني ولي وسأحتفظ بها لنفسي، لأني لست شاعرة كما قلت لك.

: بل أنت كذلك يا سهير، ولكنك تسخفين بنفسك.

اكتفت سهير بابتسامة جميلة ولم تجب، ثم استأذنت منها وانصرفت وعرجت في طريقها إلى أحد المكاتب لشراء بعض الكتب، وحين أصبحت داخل المكتبة راحت تنتقي منها ما يعجبها وتتصفح الآخر، وبينما هي هكذا وإذا برجل يدخل، فلم تلتفت إليه ولم تعره اهتمامها، ولكنها حين سمعته يطلب من صاحب المكتبة كتاباً استدارت إلى الوراء كي تفسح له الطريق لأنها كانت تفصل بينه وبين صاحب المكتبة، ولم تكد تستدير حتى شهقت من شدة الدهشة وتسمرت مكانها وهي تحدق به بعينين واسعتين تكاد تخرج من محجريهما أما هو فقد كان اندهاشه شديداً حيث جمد في مكانه وهمس بصوت مرتعش: سهير !!

قالت: كمال !! ومرت لحظة صمت ثقيلة تبادلنا فيها نظرات متسائلة. وأخيراً تقدم كمال منها ماداً يده لمصافحتها، فمدت يدها وصافحته بحرارة، ولكنها سحبت يدها بسرعة وقالت، ماذا جاء بك إلى هنا يا كمال؟ أجابها بصوت عميق: إني أتساءل أيضاً نفس السؤال.

قالت: أنا أتيت إلى هنا لأن مراداً قد نقل عمله إلى هنا.

فسألها: منذ متى؟

قالت: بعد الحرب مباشرة، حيث أصيب في الحرب اصابة بالغة ونقل على أثرها إلى هنا، ولكن لم تقل لي ماذا أتى بك أنت؟

: وأنا أيضاً عينت هنا في الكلية مدرساً وقبل أن تتابع سهير سؤالها قال لها وهو يرسم ابتسامة ودية، سهير هل سنبقى هنا نتحدث، تعالي نذهب إلى أي مكان آخر نستطيع الحديث به، فأنا لدي كلام كثير أريد قوله، وأسئلة كثيرة.

أجابته بخجل وارتباك، ولكني لا أستطيع الذهاب معك والظهور في الأماكن العامة.

: لماذا يا سهير؟

قالت له وهي مطرقة رأسها في الأرض: لأنني أخاف أن يراني أحد من معارف زوجي، قال: أولاً لن يرانا أحد حيث لا أحد يعرفنا هنا، ثانياً، افرضي أن أحداً رآنا كما تقولين فما العيب بذلك قولي إنه صديق قديم التقيت به صدفة: تعالي ولا تكوني جبانة، ولكن سهير لم تفكر في كلام الناس أو تخاف أن يراها أحد،

وإنما كانت لا تريد الذهاب معه، ولا ترغب الانفراد به كي لا يدور بينهما أي حديث عن الماضي، فهي نسيت الماضي، وأحبت الحاضر، وتريد أن تعيشه بصدق وإخلاص، فهي تحب سامر ومن طبعها إذا أحبت لا تخون، وهي لا تريد أن تخون حبيبها حتى ولو كان مع كمال.

لذا حاولت الاعتذار بلطف ولباقة ولكن كمال صمم على طلبه، وحين رأته مصمماً قالت له: ما رأيك لو ذهبنا على منزلنا فهناك أضمن لنا؟

: لا يا سهير يجب أن تقولي له أنك التقيت بي صدفة وأني وعدتك بزيارة، قالت له: وما العيب بذلك ليدخل مراد ويراك فأنت ضيف وصديق لا يعني وجودك شيئاً، قال: لا الأفضل أن يكون لديه علم مسبق هيا نذهب إلى أحد المطاعم، ثم أزوركم فيما بعد، كانت سهير تريد أخذه إلى البيت كي لا يبقى مجالاً للحديث حيث يوجد الأولاد، وبعدها رضخت إلى طلبه مرغمة ودخلا إحدى المطاعم الفخمة.

طلبت غداء وقبل أن يأتي الطعام قال لها، سهير حدثيني عن أخبارك، عن هذه السنين الطويلة وكيف أمضيتها.

أخبرته عن كل شيء، عدا حبها لسامر، كيف تقول له هذا وهو يحدثها عن لهفته وشوقه لها، لا تستطيع صدْمه، لا تستطيع أن تقول له أني أحببت غيرك وهو يقول لها أنه لم يحب غيرها يوماً، ولم ينساها لحظة، صمتت لحظة ثم سألته، حدثني أنت ماذا جرى لك؟ ولماذا انقطعت أخبارك عني؟ فحدثها عن المشاكل التي حدثت له والمصاعب التي اعترضته وعن البعثة التي أوفد إليها إلى الخارج. وفي هذه اللحظة حضر الطعام، وراحا يأكلانه وبعد الانتهاء من تناوله لم تدع له مجالاً ليحدثها عن الحب، فنهضت فوراً واستأذنته بالانصراف لأنها تأخرت عن الأولاد، فكاد يتمزق من الغيظ، فقالت له وهي تخطو نحو الباب: سأراك فيما بعد أليس كذلك؟ قال: إن شاء الله.

انصرفت وهي تلوح له بيدها وحين عاد مراد من عمله قالت له: لقد التقيت بجارنا كمال صدفة وقد طلب مني العنوان ليقوم بزيارتنا إنه مشتاق لك كثيراً، ويريد أن يراك..

وبعد أسابيع قليلة جاء كمال لزيارة سهير، فرحبوا بـه، ولكنهـا لم تـدع لـه مجالاً للتحدث عن الحب والذكريات الماضية، وهكـذا خـرج كمـال كمـا دخـل دون فائدة، أما سهير فقد تفرغت للكتابة وحب سامر فقد حدث ما تنبأت بـه الصديقة، حيث استمرت سهير في الكتابة ولم تعد تستطيع الإقلاع عنها.

لقد أصبحت الكتابة حياتها، وكانـت تستلهم قصائدها العاطفيـة مـن حبهـا لسامر، وقصائدها الدرامية من معاناتها وعذابها ولم يمض وقت قصير حتـى أصبح لها ديوان شعر رائع، وبات لديها رغبة قوية للكتابة ولكن ليس لكتابة الشعر فقـط، وإنما لكتابة القصص أيضاً، فلم تعد كتابة الشعر تـروي ظمأهـا، وتعـبر عـن الأشـياء التي تحس بها، فالشعر لا يكفي للتعبير عـن آرائهـا وأفكارهـا والثـورة في داخلـها، فاستعانت بكتابة القصص لتطبع عليها صرخاتها المدوية التي تكاد تمزق صدرها.

شرعت في كتابة رواية طويلة استغرقت عامين، وقع خلالها سوء تفاهم بينهـا وبين سامر، فنتج عنه كتابة ثلاثة قصائد رائعة، كانُ هذا في ذات يوم حين زار مراد أخته كي يطمئن عليها، وبعد عودته صفع سهير بخبر كأنه قنبلة حيـث قـال لهـا: سهير تعالي اسمعي آخر أخبار سامر، سألته سهير مستفسرة ما به.

قال مراد: لا شيء سوى أنه يحـب ابنـة الجـيران وهـي تحبـه وأمه تحـاول تزويجه منها وتأخذ رأيي في هذا الأمر.

عندما سمعت هذا الخـبر، شـعرت بقلبهـا يكـاد يقـف عـن النـبض ورجليهـا أصيبت بالرجفة، حتى كادتا لا تحملانها واصـفر وجههـا حتـى غـدت كـالأموات، ولكنها تمالكت نفسها وأخفت اضطرابها وتظاهرت بالبرود وعدم المبالاة وقالـت لـه: وهي تحاول الجلوس على أقرب مقعد خوفاً من أن تسقط على الأرض: ومن قال لـك ذلك؟

: ألم أقل لك أن أمه أخذت رأيـي في هـذا الخصـوص؟ فأدركـت سـهير نفسها قائلة: وشفتاها تفتر عن ابتسامة باردة كقطعة ثلج ـ حقـاً لقـد قلـت لـي ـ ثـم صمتت ولكن مراد قطع صمتها حين سألها قائلاً ما رأيك؟

قالت وهي تصحو من شرودها: رأيي بماذا؟

بهذا الخبر؟

أجابته بصوت يكاد يكون همساً: وما علاقتي أنا بهـذا الموضوع؟ ثـم ألحقتـه بسؤال قائلة: ولكن قل لي من أين علمت أن سامراً يحب هذه الفتاة؟

: أمه هي التي أخبرتني.

: وهل هو الذي أخبر أمـه بهـذا الحـب؟ وطلـب منهـا أن تسـعى لـه بالزواج بها؟

: لا لم يقل هو هذا، وإنما أمه هي الـتي قالـت، ولكـن حـين فاتحـت سامر بهذا الأمر لم يرفض هذا، ولم يكذب الخبر، أي حبه للفتاة وأردف قائلاً: إنـه يتردد عليهم كما أن الفتاة تتردد على بيت أختي. همست سـهير قائلـة: ومـا رأيـك أنت بهذا الموضوع؟ أجابها وهو فرح: أنا ليس لدي مانع من أن يتزوج هذه الفتاة.

قالت بصوت مخنوق: ولكن ألم تر معي أن سامراً مازال صغيراً علـى الـزواج، ثم خرجت من الغرفة قبل أن تسمع الإجابة لأنها شعرت لـو بقيـت مكانهـا دقيقـة أخرى لانفجرت بالبكـاء وافتضـح أمرهـا، فأسـرعت بـالخروج، ثـم دخلـت الحمـام وأقفلت خلفها الباب وهناك انفجرت بالبكاء ولم تجرؤ على دخول الغرفة خوفـاً مـن أن يحلق مراد بها ويرى دموعها المحرقة، فقـد شـعرت في تلـك اللحظـة أن الحيـاة بكل ما فيها قد انهـارت وانتهـت في ثـوان، شـعرت بأنهـا قـد سـلبت كـل شـيء، حياتها، مستقبلها، الآمال الكـبيرة الـتي كانـت تعـيش مـن أجلـها، السـعادة الـتي تتمنى أن تعيشهـا، شعرت بأن الدنيا قد غـدت أطـلالاً لم يعـد فيهـا سـوى وحـوش ضـارية تكـاد تفترسـها، فقـد بكـت بمـرارة ولوعـة، بكـت أيامهـا، بكـت ماضـيها وحاضرها، بكت المستقبل الجميل الذي كانت تحلم به، ولكنه كـان سـراباً، وحـين خرجت من الحمام وجدت مراد قد دخل غرفته ونـام، فأتـت بورقـة وقلـم وشـرعت بالكتابة، فهي لم تجهد نفسها بالبحث عـن الكلمـات كـثيراً كـي تجـدها، لم تطـل التفكير بترتيب المفردات وإنما كانت تخرج المفردات مرتبة منظمة لأنها كانت تخـرج من قلبها الجريح وفؤادها الدامي، كانت تخرج الكلمات بسرعة وكأنها في سـباق مـع دموعها التي بللت الورق، مضى هذا اليوم عليها وكأنه عام، وفي اليوم التالي جـاءت ناهد لزيارتها فحبست دموعها وأخفت آلامهـا ورحبـت بهـا ترحيبـاً حـاراً محاولـة منها لإخفاء حزنها، وإظهار المرح مكانه ولكن هذاالتمويه لم يخدع ناهد الـتي تحـب

سهير بجنون، وتعرف وتفهم كل حركة من حركاتها وغاصت في معرفتها إلى الأعماق.

لذا جاء سؤال ناهد سريعاً قائلة: سهير: ما بك اليوم يا حبيبتي؟ إني أرى الكآبة تغزو وجهك والحزن يملأ عينيك.

أجابتها بتعلثم: أنا.. أنا.. ليس بي شيء..

قالت ناهد: بل يوجد أشياء وأشياء خطيرة جداً.

همست بصوت عميق وكأنه آتٍ من أعماق البحر: قلت لك ليس بي شيء

ـ كيف لا يوجد شيء والحزن بادٍ على وجهك، والدموع تكاد تطفر من عينيك، حتى صوتك خرج وكأنه حشرجة رغم ما بذلته من جهد كي تبدين طبيعية.

أجابتها بنفس الصوت العميق: بل أنت واهمة يا ناهد، فأنا ليس بي شيء، تعالي معي كي نستمع إلى شريط لأم كلثوم، فأنا أشعر بحاجة كبيرة لسماعها ولساعات طويلة، بل لأيام وشهور.

نظرت إليها نظرة حزن ورثاء وهمست قائلة: حسناً لنستمع ولكن معلوماتي تقول لي أن أغاني أم كلثوم رفيقة أشجانك، وهي أيضاً غذاء روحي لك وبلسماً لجراحك عندما تنزف.

فلم تجبها واكتفت بابتسامة حزينة، وسارت أمام ناهد إلى الصالون ثم اقتربت من آلة التسجيل ووضعت فيها شريط كاسيت لأم كلثوم وكانت أروع ما غنت لعتاب الحبيب، وهي أروح لمين.

جلستا تستمعان بصمت وسهير سارحة بخيالها مع كلمات الأغنية والدموع تكاد تسقط من عينيها، وناهد تنظر إليها وتراقب تعابير وجهها وتقلصاته، وعندما وصلت الأغنية إلى مقطع تقول فيه: (أخبي دمع العين وداري من اللايمين لا يملحوا عينيا ويشمتوا فيّ.) فسقطت دموعها التي كانت مترقرقة في مقلتيها، وناهد تراقبها بصمت، اقتربت منها ووضعت يدها على شعرها واليد الأخرى فوق خدها وقالت لها: سهير أتخفين عني دموعك وآلامك؟ أتخفين ما بك عن ناهد أختك وصديقتك يا سهير؟ ألست محل ثقتك يا أختاه؟

ألا تعلمين أن حزنك هذا يقتلني؟ وآلامك تمزق قلبي؟ لقد راقبتك طيلة الوقت ورأيت كم تجهدين نفسك كي تخفي عني حزنك ولكن تمويهك هذا لم يخدعني لأني أعرفك جيداً فلا تحاولي التمويه أكثر من هذا، هيا قولي لي ما بك يا حبيبتي، كانت ناهد تتكلم بصوت يرتعش من شدة التأثر، فما كان من سهير إلا أن ارتمت على صدر ناهد وكأنها طفلة ترمي برأسها المثقل على صدر أمها، وأجهشت بالبكاء، فاحتضنتها ناهد وبدأ تمسح على شعرها وتجفف لها دموعها بحنان، وبعد أن هدأت قليلاً قالت لها: والآن قولي لي ماذا حدث لك، ولم كل هذا الحزن؟ جلست في مقعدها وراحت تروي لها ما سمعت من مراد.

فسألتها: هل قابلته واعترف لك بهذا؟

أجابتها: لا لم أره بعد، فهو لم يزرنا منذ أسبوع.

: ألا يجوز أن يكون هذا الكلام كذباً وافتراء؟

: جائز، ولكن ما مصلحة مراد بذلك؟ أو أم سامر؟

: أنا لم أقل أن لهما مصلحة ولكن أظن أنهما أخطئا الظن، انتظري حتى يأتي سامر واستوضحي منه الأمر، فإذا كان هذا الكلام صحيحاً لا تحزني عليه، ليذهب إلى الجحيم لأن إنساناً بهذه الأخلاق لا يستحق دمعة من عينيك الجميلة، فأنت لم تتورطي معه بشيء يمس كرامتك أو تخافين عليه وإذا كان هذا الكلام كذباً تكونين قد وفرت على نفسك هذا العذاب.

تظاهرت سهير بالاقتناع وقالت لها: حسناً سوف أفعل ما أشرت به، وبعد أن اطمأنت عليها، عادت إلى منزلها، أما سهير فقد ظلت قلقة حزينة تتضارب الأفكار في رأسها حتى أتى سامر، وحين رأته استقبلته بفتور فسألها عن سبب ذلك، صارحته بما سمعت، قال لها: أن ما سمعت من تردد على منزل هذه العائلة فهو صحيح، ولكن ليس من أجل الفتاة، وإنما من أجل شقيقها، فهو كما تعلمين صديقي منذ زمن، وكونها تتردد علينا من أجلي هذا أيضاً صحيح، أما كوني أحبها أو أرغب بالزواج منها فهذا غير صحيح، ولا يمكن أن يحدث، ثم ألا تعلمي أنني خاطب؟ فسألته بخوف: من؟

قال: أنتِ يا حبيبتي، أني لن أتزوج غيرك، وسأنتظرك حتى آخر العمر يا ملاكي.

قالت: لماذا إذن لم ترفض حين عرضت عليك أمك هذا الموضوع.

أولاً: لأن أخاها صديقي ولا أرغب أن يصل له كلام عن لساني، ثانياً الأمر كله مجرد كلام، وأنا بطريقتي سوف أجعلهم يفهمون أني لا أرغب بالزواج منها، فهل فهمت، ابتسمت له برقة ممزوجة بقليل من الدلال وقالت: فهمت. ولكن بعدما جرعت من العذاب أمره.

أجابها: أتصقدين مثل هذا الكلام يا مجنونة؟ ألم تتأكدي بعد من حبي لك وعدم قدرتي على الحياة بعيداً عنك، قالت: إني أعلم ولكن حبي لك هو الذي جعل هذه الأفكار السوداء تعصف في رأسي.

فنظر إليها نظرة تفيض حباً وغراماً، ثم أمسك براحة يدها وقال لها: سهير أحقاً أنك تغارين عليّ؟ أحقاً تحزنين علي لو ابتعدت عنك؟ أنا لا أصدق هذا ! لا أصدق أن سهير التي تسحر وتفتن القلوب تحبني كل هذا الحب !! ثم أضاف بصوت أكثر رقة قائلاً.. سهير إن الذي يحبك يا معبودتي لا يرضى بغيرك بديلة، فعيونك الساحرة التي تخترق القلب كالسهم تلاحقني أينما ذهبت، وبسمتك العذبة تغمر حياتي بهجة وسعادة، وشفتيك الندية التي لم تخلق إلا للقبل أتخيلها في كل لحظة، وشعرك الذهبي المسترسل فوق كتفيك أشعر به دائماً يداعب وجهي، فكيف أستطيع بعد هذا أن أحب سواك؟

أجابته بصوت يقطر حباً: وأنا أيضاً أحبك يا سامر حباً يفوق الخيال، أحبك حباً يعجز عن وصفه قلم، فقد أصبحت كل شيء في حياتي، لقد أحببتك بكل ما في قلبي من حب، أحبك بعقلي وقلبي، أحبك بصحوي ونومي، أحبك حب المراهقة المندفعة بعواطفها، أحبك حب ناضجة تعرف ما معنى الحب، فأغمض سامر عينيه من شدة النشوة وهمس قائلاً: يا إلهي ما أسعدني من حبيب !! وبعد قليل استيقظ مراد، فجلس سامر معه قليلاً، ثم انصرف وهو سعيد تغمره النشوة.

أما سهير فقد أغمضت عينيها على حلم رائع جميل، زرع في نفسها الأمل بعد اليأس، حلم جعلها ترى المستقبل مشرقاً زاهياً حلم جعلها تستعيد أنوثتها بعد مضي سنين طويلة، نسيت خلالها أنها امرأة تفيض أنوثة.

مضت الأيام والشهور كسابقتها، وهي سعيدة بحبها لسامر، تعيسة بحياتها مع مراد، ولكن لكل شيء نهاية مهما طال به الزمن، وجاءت نهاية حياة سهير مع مراد لتنتهي معها متاعب كثيرة، جاء اليوم الذي واجهت فيه سهير أصعب موقف في حياتها والذي ظلت تخافه ولسنين طويلة، وتتجنب الوصول إليه رغم علمها بأنه لا بد من حدوثه، وكان ذلك عقب مشاجرة كبيرة قامت بينها وبين مراد وانتهى به الأمر مثل كل مرة إلى طرها من المنزل، وكان كل ذلك أمام الأولاد الذين كانوا إلى جانب الأم المسكينة، فقد تجرأوا في هذه المرة أن يقفوا إلى جانبها، لأنهم شعروا بأنهم لم يعودوا صغاراً، فقد أصبح عمر في السادسة عشر وبإمكانه أن يتكلم ويقف إلى جانب أمه، بعد هذه المشاجرة قالت سهير لمراد، أنا لم أعد أحتمل تصرفك هذا، ولم أعد أطيق الحياة معك فقد فاض بي، لقد عشت معك سبعة عشر عاماً على كره ومضض، واحتملت ما تعجز عن حمله الجبال، وهذا ليس من أجلك أنت، بل من أجل أولادي، أما الآن فقد أصبح الأولاد كباراً ولم يعد يربطني بك شيء، قال لها بجفاء: ماذا تعنين؟

قالت: أعني الطلاق، أجل أريد الطلاق وليذهب كل منا في حال سبيله. أجابها بغضب: اذهبي إلى الجحيم، فأنا أيضاً لا أريدك، قالت: سوف أذهب ولكن بعد أن نتفق على بعض الأمور، قال نتفق على ماذا؟ قالت سهير: على احتضان الأولاد، فأنا لن أتركهم لك، قال لها: خذيهم معك، فأنا لا أريدك ولا أريد أولادك، أنا لا أحبهم ولا حتى أشعر نحوهم بشعور الأب لأنهم أولادك، فتنهدت بارتياح وهمست قائلة، حسناً سوف أبحث عن منزل منذ الغد، وفي اليوم التالي ذهبت إلى صديقتها ناهد وقصت عليها كل ما جرى بينها وبين مراد، وفي نهاية الحديث طلبت من ناهد مساعدتها في البحث عن بيت فطيبت ناهد خاطرها بكلمات لطيفة ووعدتها خيراً، وعندما عاد جلال من عمله قصت عليه ناهد خلاف سهير مع زوجها وطلبت منه أن يساعدها بالبحث عن بيت فقال لها: اطمئني يا ناهد سوف

أساعدها إن شاء الله، ولكن أرسلي في طلبها كي أفهم الأمر منها، ففعلت ناهد ما طلب، وعندما جاءت سهير وسألها عن سبب الخلاف ولماذا تطور إلى هذه الدرجة، قصت عليه ما حدث وأوضحت له أموراً كان يجهلها، وأكدت له أن الحياة بينهما أصبحت مستحيلة، ورجته أن يبحث لها عن بيت، فوعدها خيراً ثم سألها عن نوعية البيت، شراء أم أجار، فقالت له: والله لا أعلم يا جلال ماذا أقول لك: فإن قلت لك أرغب بشراء فأنا لا أملك ثمن منزل، وإن قلت لك أريده أجار أخاف معارضة أهلي لأنهم لا يرضون أن أسكن في منزل أجار وحدي، قال لها: ولكن ما الفرق إن كان أجاراً أم شراء، قالت له: من حيث النتيجة هي واحدة أما من حيث المبدأ فهي تختلف، أجابها باستغراب: أوضحي فأنا لم أفهم. قالت: سأشرح لك الأمر، إن أهلي متعصبون ليس للدين وإنما للعادات والتقاليد القديمة البالية التي تقول من العيب والعار أن تستأجر امرأة مطلقة منزلاً وتسكن لوحدها، أما إذا كان لديها منزل ملك فقد غلبوا على أمرهم ولم يستطيعون منعها فتركوها تسكن وحدها مبررين ذلك أن المنزل ملكها، ولكن هذا لا ينطبق على جميع المطلقات سوى اللواتي لديهن أولاداً كبار السن مثل أولادي.

قال جلال: يا لهذه العقولية المريضة. وصمت قليلاً ثم قال: كم معك يا سهير من نقود؟

قالت: ما يوجد معي لا يكفي لشراء بيت وقد وفرتها من عملي دون علم مراد، فكر جلا قليلاً ثم قال: سوف أشتري لك بها بيتاً كما قلت لك، ولو أنه لا يكفي لشراء منزل فنعتبره سلفة، ثم تسددين ما تبقى على أقساط، قالت له بأسف: ولكن من سيرضى بيعي منزلاً بهذا الشكل؟ قال: أنا. قالت: أنت ومن أين لك المنزل؟ قال: لقد اشتريت منزلاً منذ شهر كي أؤجره، فخذيه أنت وادفعي لي ما معك من نقود وما تبقى سدديه على راحتك، ولا تفكري في هذا الأمر، قالت له: جزاك الله كل خير يا جلال، وحماك الله من كل شر، فأنا لا أدري كيف سأرد لك هذا الجميل.

قال لها: لا تقولي هذا يا سهير، فأنت أختي والأخت لها حق على أخيها.

أجابته وهي تكاد تذوب خجلاً: شكراً على هذه العواطف النبيلة، وعلى كرم الأخلاق، لقد غمرتني به، وصمتت قليلاً ثم قالت: ولكن كيف سأسدد لك الأقساط وأنا لا أكاد أحصل على مصاريف البيت والأولاد؟

قال لها: سهير قلت لك لا تفكري في هذا الأمر، فأنا لست بحاجة لنقود، سدديها حين يصبح معك، وأضاف قائلاً: وكي يطمئن أهلك سوف أسجل المنزل باسمك كي لا يبقى لهم مجال للمعارضة.

فشكرته سهير بحرارة وانصرفت عائدة إلى بيتها، وفي اليوم التالي: أخذت مفتاح المنزل وبدأت تشتري له أثاثاً بسيطاً يتناسب ووضعها المالي الضيق، وبعد أن فرشته بدا المنزل أنيقاً رغم بساطته، بعد أن انتهت من فرش البيت، جمعت ملابسها وملابس الأولاد ثم قالت لمراد: أنا ذاهبة مع الأولاد إلى بيتي، أجابتها مراد باستغراب: بيتك؟ أي بيت هذا؟ قالت: بيتي الذي اشتريته، قال: متى وكيف حدث ذلك؟ ثم من أين جئت بالنقود؟ قالت له: من عملي، ولا أظنك نسيت أنني كنت أعمل، قال: لا لم أنس ولكن لم تقولي لي يوماً أن معك نقود، بل كنت دائماً تشتكين من قلة النقود، وعندما أسألك ذلك تقولين أنك صرفتها على ثيابك وحاجات الأولاد.

أجابته بجفاء: ولماذا أقول لك معي نقود، ألا يكفي المصاريف التي كنت أقدمها للبيت؟ ثم كنت أدخر هذه النقود لهذا اليوم الحاسم بيني وبينك، ولأنني واثقة من قدومه، وأن النهاية آتية لا ريب فيها.

في هذه اللحظة شعر مراد بالخطر، وعلم أن زمام الأمور قد أفلتت من يده، ولكن رغم ذلك حاول استعمال القوة كما كان يفعل من قبل، فنظر إليها نظرة حادة وقال لها مهدداً: ومن قال لك أني سأطلقك؟

أجابته بلهجة الواثقة من نفسها: أنا قلت ذلك.

قال: بل أنت مخطئة لأنني لن أطلقك.

التفتت إليه لفت سريعة وقالت له بحدة: بل ستطلقني رغماً عنك، لقد احتملتك كثيراً ورشفت منك ما هو أمر من العلقم، وأنا صابرة حتى عجز الصبر عن صبري عشت سبعة عشر عاماً وأنا صامتة أتلقى الإهانة دون اعتراض، ولكن الآن

سأتكلم وأول كلمة سأنطق بها هي الطلاق، ولا تستطيع قوة على وجه الأرض إرغامي على العيش معك.

قال: وأنا أيضاً لا تستطيع قوة أن ترغمني على طلاقك. قالت: بل هناك قانون يجبرك على ذلك، قال: أيصل بك الأمر أن تلجأي إلى المحاكم، أجابته: إذا أنت أردت ذلك. فاشتد الغضب بمراد وخاصة وهو لم يتعود منا على هذه اللهجة التي تخاطبه بها، فلم يكن منه إلا أن هجم عليها يريد ضربها ولكنها أوقفته بصرخة منها قائلة: قف مكانك واحذر أن تقترب مني، فلن أدعك تضربني بعد الآن، فأنا لم أعد أخافك، وإذا كنت قد سكت عن تصرفاتك الماضية وتحملت ضربك فهذا ليس خوفاً منك، بل خوفاً على أولادي، أما الآن فلا يوجد شيء أخاف عليه فالأولاد قد كبروا ولا تستطيع انتزاعهم مني، فتسمر مراد مكانه جاحظ العينين. متوتر الأعصاب، يكاد الغيظ يمزقه، خاصة والأولاد هم أيضاً قد حذروه من الاقتراب من أمهم، فقال لها بغضب: حسناً لن أضربك ولكن سأرسل إلى أهلك كي يضربوك.

قالت له بحدة: افعل ما شئت، فأنا لم أعد أخاف أهلي أيضاً لأنني لم أعد طفلة يسيطرون عليها.

وفي اليوم التالي أرسل مراد في طلب أهلها، ولم تمض أيام حتى جاءت أمها برفقة أخيها فأخبرهما مراد بما حدث، وحين حاولت الأم الإصلاح بينهما قالت سهير: لن أبقى معه بعد الآن، فأنا لا أحبه ولم أعد أطيق النظر إليه، فقد قررت الانفصال، ولن أتراجع عن قراري هذا حتى لو قطعتموني إرباً.

قال لها أخوها: إذا كنت مصممة على ذلك فسوف تذهبين معنا لتقيمي عندنا، رمته بنظرة ساخرة وقالت له: ماذا قلت؟ أقيم عندكم؟ أتظنني ما زلت طفلة تستطيع السيطرة عليها بتهديدك هذا كما كنت تفعل في الماضي؟ لا أنا لم أعد كذلك فقد كبرت ولن أرضخ لتهديدكم هذا، قالت لها الأم: حتى لو كبرت سوف تظلين تحت أمرنا، رمتها بنفس النظرة الساخرة وقالت لها: لا يا أماه، أنا لم أعد تحت أمرتكم كما كنت، لقد سلبتم مني عمري الذي مضى دون أن أبدي مقاومة، ولكن لن أدعكم الآن تسلبون مني عمري القادم، وإذا كنتم تظنون عكس ذلك فأنتم مخطئون، فأنا الآن لست بحاجة إلى معونة من أحد، لأنني أعمل وأستطيع إعالة أولادي. قال

لها أخوها: المسألة ليست مسألة نقود، بل مسألة كرامة، ردت عليه: وما دخل الكرامة في هذا الموضوع؟

قال الأخ: كيف نتركك تسكنين وحدك وأنت مازلت شابة ومطلقة أيضاً؟ ماذا يقول الناس عنا؟

قالت له: ليقل الناس ما شاؤوا قوله، فأنا لا يهمني قول الناس طالما أنا محافظة على كرامتي، ثم أن الناس لن تعيش آلامي وعذابي.

قال لها الأخ بشيء من الليونة: أنا لا أشك في أخلاقك يا سهير، ولكن الناس كلامهم لا يرحم.

أجابته بأسف: أعلم ذلك، ولكن حين يكون الإنسان مستقيماً سوياً في تصرفاته يفرض احترامه على الجميع.

فلم يقتنع أخوها بكلامها وظلا يتجادلان طيلة اليوم، وحين رأت تمسك أخيها برأيه هددته بالشرطة، معلنة تمردها، فرضخ الأخ لطلبها مرغماً فتنفست الصعداء حامدة الله على خلاصها من هذه الأزمة، ولكنها فوجئت بمراد يخلق لها مشكلة جديدة وهي مشكلة الأولاد، ولكنها ظلت صامدة، قاسية لا تلين، وعندما رأى تصميمها على ترك البيت، قال في نفسه لأتركها تأخذ الأولاد معها ريثما تهدأ أعصابها قليلاً، ثم أعيدها إلي ووقتها لن ترفض ذلك، ولكن سهيراً لم تكن من الأشخاص الذين يقولون كلمة ويتراجعون عنها، فقد أخذت الأولاد معها واستقرت في بيتها هادئة سعيدة مع أولادها، بل سعيدة بحريتها، تاركة مراد وحيداً يتخبط في دوامة من القلق والتمزق النفسي، لقد شعر بالهزيمة لأول مرة في حياته وهزيمة من قبل امرأة، من سهير التي تعود منها الطاعة والرضوخ.

كان يعيش في تمزق وضياع، حيث كانت تختلط النقمة عليها والحزن على فراقها، كان يدخل البيت فيراه وقد أصبح مظلماً بعد رحيلها، تخيم عليه الوحشة، يحس بأن جدران البيت تنعي فراقها، فلم يستطع الجلوس فيه، فيهرب من هذا البيت الموحش إلى أصحابه، بل يهرب من طيف سهير الذي يطارده، ولكنه يعود معه هذا الطيف إلى الغرفة، فيتراءى أمامه وهو يجوب أرجاء الغرفة متألماً حزيناً، وطيفها يلاحقه في كل زاوية من زوايا البيت، كانت تشخص أمامه بكل حركة من

حركاتها، ابتسامتها الحزينة ونظراتها التائهة حتى صوتها كان يسمعه وهو يهمس له، أنت ظالم، ظالم، فيرمي نفسه فوق السرير، يحاول إبعاد طيفها عنه، ويصم أذنيه حتى لا يسمع صوتها وكان آت من أعماق البحر، يحاول النوم فلا يجد إليه سبيلاً. كان عذاب مراد كبيراً، وسعادة سهير أكبر بحريتها، كانت ترى هذا البيت الصغير قصراً، وهي ملكة توجت على عرشه، السعادة ترفرف بأجنحتها فوق سقف هذا البيت الذي يضم بأحضانه أم وأولادها الذين تعبدهم، فراحت الفرحة والسعادة تغمر كل شيء في هذا البيت، والجدران تضحك والأثاث يرقص طرباً ولكن لم تدم هذه السعادة في البيت الجميل، ليس في أثاثه وإنما في سكانه، حدث ذلك بعد شهر من ترك سهير بيت مراد، حيث عاد مراد يطلب منها العودة، وكان يرسل لها أشخاصاً أقرباء من الطرفين، وكانت تعتذر لهم وترفض العودة، ولكن مراد لم يقتنع ولم ييأس فيعيد الكرة تلو الكرة لكن دون نتيجة، فهو لم يسمع منها سوى الرفض مما جعله يغضب ويثور، وقرر محاربتها بشتى الوسائل، فذهب إليها والشر يتطاير من عينيه، وحين بلغ البيت قرع الجرس بعنف وحين فتحت الباب وجدت مراد ينتصب أمامها كالقدر المستعجل، فشحب وجهها حتى غدا كوجه الأموات وارتجفت رجلاها حتى كادت أن تسقط على الأرض، وتعثرت الكلمات فوق لسانها حتى كادت تعجز عن النطق، فظلت صامتة تنظر إليه نظرات خوف ودهشة، أما مراد فلم ينتظر منها كلمة، فوضع رجله داخل الباب وهو يقول لها ألا يوجد كلمة تنطقين بها؟ ألا يوجد كلمة تفضل؟ أم أنك لا تسمحين لي بالدخول؟ وما بالك صامتة هكذا؟ أدركت نفسها، فأخفت اضطرابها وتمالكت نفسها متظاهرة بالقوة، وأجابته بصوت ثابت خالياً من الرعشة، ماذا تريد يا مراد؟ ولماذا أتيت لي؟

قال لها وهو يكاد يغدو داخل البيت: أين الأولاد؟، ماذا تريد منهم؟ قال لها: سوف أخبرك بما أريد بعد أن أدخل.

ـ ولكن لا أسمح لك بالدخول إلى بيتي، وهمت بإغلاق الباب في وجهه، ولكنه سبقها، وركل الباب برجله بقوة وأمسكها من ذراعها ودفعها بقوة حتى كادت أن تسقط على الأرض ثم دخل وهو يصرخ في وجهها ابعدي عن طريقي، خرج الأولاد جميعاً على الضجيج والصراخ، وحين رأوا والدهم لبث كل منهم واقفاً مكانه

مشمئزاً حتى النظر إليه، ولم يرحب به أحد، أما سهير فقد أغلقت الباب الذي تركه مفتوحاً ووقفت خلفه تحدق به، وقلبها من شدة الخوف وعيناها تجمدت فيهما الدمعة.

سأل عمر أمه قائلاً: ماذا هناك يا أماه؟

أجابته والغصة تخنقها: لا أدري يا بني، اسأل والدك، فهو الذي يجيب على هذا السؤال.

نظر عمر إليه ملياً وقال له بجفاء: ماذا تريد؟ ولم كل هذه الضوضاء؟

قال مراد: أريد أن آخذكم معي، حين نطق بهذه الكلمة شعرت سهير بارتخاء في جميع مفاصلها وبدوار في رأسها، فتقدمت نحوه ببطء وقالت له: ماذا قلت؟

أجابها بتحدي: كما سمعت، وقبل أن تنطق بكلمة قال عمر ومن قال لك أننا نرغب بالعودة معك؟

أجابه بغضب: سوف تعودون معي رغماً عنكم.

قال عمر: بأي حق ترغمنا على العودة معك؟

ـ بحق الأبوة، فأنا والدكم، ويحق لي التصرف بكم كما أشاء، أجابته سهير قائلة: كونك أب هذا لايعطيك الحق بأن ترغمهم على شيء لا يرغبون به، فالأب في هذه الأيام اسم يوضع فوق الهوية، حتى لو كان تصرفه ليس بتصرف الأب، فأنت مثل الأب الذي يزرع بذرة الجنين في أحشاء امرأة اشتهى جسدها ثم رماها للأيام تكمل معها اللعبة، وصمتت فأكمل عمر الجواب قائلاً: إذا كان القانون يعطي الحق للأب بأن يتصرف بأولاده كما يشاء، أعتقد يحدث هذا في مرحلة معينة من عمر الطفل وأظن نحن قد تجاوزنا هذه المرحلة، ثم هذه المرحلة الأولى من عمر الطفل التي يحق بها للأب أن يأخذ الأطفال رغماً عنهم، وعن الأم، يجب أن يعاد النظر فيها وإنصاف الولد والأم معاً من براثن أب وزوج مثلك. فاشتد الغضب بمراد وهجم على عمر يريد ضربه ولكنهم جميعاً وقفوا في وجهه صارخين وطلبوا منه أن يخرج لأنهم لا يريدونه، ولكنه لم يخرج وظل يتشاحن معهم وقتاً طويلاً حتى أرغم ريم وسمر على الذهاب معه وترك عمر وشريف اللذين لم يستطع ارغامهما. وحين اعترضت

سهير طريقه تريد منع البنتين من الخروج معه، أمسكها من ذراعها ورماها أرضاً وخرج مسرعاً أما عمر وشريف عندما رأيا والدتهما ملقية أرضاً اقتربا منها محاولين إيقافها وهما يقبلان يديها ووجنتيها، نهضت وجلست فوق المقعد ووضعت رأسها بين يديها، وجعلت تبكي لوعة وألماً، ركع عمر على ركبتيه أمامها وأخذ يقول لها: أماه لا تبكي يا أعظم أم، لا تبكي يا أعز الناس، فسوف تعودان يا أماه سوف تعودان لنا، لأنه لم يأخذهما محبة لهما، وإنما أسلوب من أساليبه كي يرغمك على العودة إليه، أماه إني أعدك بأن أعيدهما حتى لو اضطررت إلى قتله، فلا تبكي ولا تحزني.

أجابته بصوت متحشرج كيف لا أبكي يا بني وأنا لم أبتعد عنكم لحظة، فقد تحملت عذاب سبعة عشر عاماً، وذقت خلالها المر ألواناً وصبرت حتى ضاق الصبر بصبري، كل هذا من أجل أن لا أبتعد عنكم.

قال لها عمر بتوسل: أماه أرجوك أن تكفي عن البكاء، إنني لا أطيق أن أرى الدموع في عينيك، لا أطيق أن أرى الحزن يغزو وجهك الملائكي، ألا يكفيك حزناً يا أماه؟ أم أنه غدا ثوبك المفضل؟ هل راق للحزن أن يبقى ساكناً داخل نفسك العمر كله؟ ألم يحن الوقت لهذا الحزن أن يرحل عنك؟

قالت له: يبدو أنني خلقت وسأموت حزينة يا ولدي، نظر إليها عمر والدموع تنهمر من عينيه وجعل يحدث نفسه قائلاً: رباه إنك لا تحب الظلم، وحذرت عبادك منه، ولكن لم يتبع أحد شرعك، بل البشر بهذه الدنيا يتفننون بأنواع العذاب، رباه سبحانك فقد أمرت عبادك بالعدل والرحمة، ولكنهم لا يفعلون ذلك، إنهم يتبعون طريق الظلم والاستبداد.

في هذه اللحظة أيقظته أمه من سباته حين قالت له: عمر هل أنت تبكي يا بني، أجابها قائلاً: أجل يا أماه أبكي عذابك، وأبكي دموعك التي هي أول قطرة ماء دخلت جوفي، أجل يا أماه، دموعك التي كانت تنساب فوق خدك لتستقر في فمي وأول شيء رأيته هو وجهك الحزين، لقد بكيت من أجلنا كثيراً، ألا يحق لي أن أبكي من أجلك حتى ولو للحظات؟

سحبت تنهيدة عميقة وقالت له: لا تبكي يا حبيبي، فأنا بكيت من أجل أن أزرع البسمة فوق شفاهكم، تعذبت كي أوفر لكم السعادة والهناء.

وصمتت قليلاً ثم التفتت إلى عمر وقالت له: عمر سأرفع عليه دعوى طالبة منه إعادة أختيك.

قال لها: لا يا أماه، انتظري قليلاً، فربما يعيدهما إلينا عندما ييأس من عودتك إليه، ثم هل أنت ضامنة ربح الدعوى؟ فهناك ألف حيلة وحيلة يتبعها الرجل ضد الزوجة، والقانون للأسف دائماً في صف الرجل، لأنه هو الأقوى، هو القانون وهو كل شيء من حقه، أما الزوجة فليس من حقها شيء.

قالت سهير: بل سأقيم الدعوى حتى ولو خسرتها، قال شريف: حسناً يا أماه افعلي ما يحلو لك، ولكن اهدأي الآن، تعالي استريحي على سريرك، وغداً نبحث في الموضوع. هذا ما كان يدور في بيت سهير، أما ما كان من أمر سمر وريم فهما حين بعُدتا عن والدهما دخلتا الغرفة وأغلقتا الباب تبكيان ورفضتا تناول الطعام طيلة ذلك اليوم. وعندما أتى الليل وأسدل ستائره القاتمة طار النعاس من أعينهن، فكانت سهير تتقلب فوق سريرها كالثعبان وهي تتخيل ريم وسمر تبكيان ومراد يضربهما ويصرخ بهما أن يصمتا فتهب من فوق السرير واقفة تروح وتجيء في طول الغرفة وعرضها، ثم تعود وتستلقي فوق السرير تمرغ وجهها به، فتبلل دموعها غطاء السرير ثم ترفع رأسها وتضرب السرير بقبضتيها، في نفس الوقت كانت ريم وسمر تفعلان نفس الشيء. كانتا تتصرفان وكأنهما مختطفتين من قبل عصابة إجرام. لقد أمضنا الليلة على هذا المنوال، ولم تذق إحداهما طعم النوم، وفي الصباح نهض عمر وشريف من سريرهما وتوجها نحو غرفة الأم كي يطمئنا عليها ففتحا الباب بهدوء ونظرا غليها فوجداها مستلقية على ظهرها وعيناه مسمرة في سقف الغرفة فاقتربا منها ليجدا دموعها تبلل الوسادة، جلس عمر على حافة السرير بينما وقف شريف بجانب رأسها، قال لها عمر: أماه كفاك بكاء وحسبك ما بكيت: فإرهاق باد على وجهك، وقبل أن يكمل عمر كلامه قال لها شريف: أماه شحوب وجهك يقول أنك لم تنامي هذه الليلة، والنور من غرفتك لم ينطفئ حتى الصباح. انتشلت تنهيدة عميقة وقالت له: ما تقوله صحيح يا بني، فأنا لم أنم طيلة الليل فاقترب منها

شريف وأمسك يدها وأخذ يقبلها وهو يقول لها: أماه ارحمي نفسك، فقد يطول غيابهما، وإذا بقيت على هذا الحال سوف تتدهور صحتك، قال لها عمر: أماه إن حياتك غالية علينا، بل لا تقدر بثمن فحافظي عليها يا أعز الناس، وقبل أن يتابع عمر كلامه قال لها شريف: أماه أنا لم أرك يوماً ضعيفة ومنهارة كما أراك اليوم، لقد كنت طول عمرك قوية صامدة أمام المصاعب التي تعترضك، فما بالي أراك اليوم غير ذلك ابقي كما كنت يا أماه كي تستطيعين حمايتنا، كما فعلت من قبل، فنحن مازلنا بحاجة لحمايتك.

أجابته بصوتها الحزين، أن ما قلته يا عمر صحيح، لقد كنت قوية لأني كنت أستمد منكم القوة يا حبيبي، لأنكم أنتم الأرض التي أقاتل من أجلها، أنتم السيف الذي أتسلح به، فإذا أخذ السيف مني فبماذا أحارب؟

قال لها عمر: حاربي بالإيمان بحقك يا أماه، فالإيمان بالله وبحقك أقوى من السيف، لأن السيف يوجد أيضاً في يد العدو، ظلت الأم صامتة لا تجب بل تركت الإجابة لدموعها، فمد عمر يده ومسح تلك الدموع الطاهرة وهو يقول لها بتوسل: أماه أرجوك أن تكفي عن البكاء إكراماً لعيني سمر وريم، وانهضي من السرير واغسلي وجهك وتعالي تناولي فطورك فأنت لم تذوقي الطعام منذ صباح أمس، نظرت إليهما نظرة حب وضمتهما إلى صدرها وراحت تقبلهما وهما يطوقان عنقها، ثم تخلص شريف من بين يديها بلطف وقال: أنا ذاهب أعد الفطور ثم خاطب عمر قائلاً وأنت يا عمر قم رتب السرير ريثما تغسل ست الكل وجهها، قال عمر بمرح: أنا تحت أمر عيني ست الكل الجميلة، ونظر إليها وقال لها: هيا يا ست الحبايب، ثم تعاونا على رفعها من السرير وخلال نصف ساعة كان كل شيء جاهزاً وأثناء الطعام كان كل واحد منهما يحاول إطعامها بيده، محاولين تبديد جو الحزن، وكان عمر يلقي كلمات مضحكة، فكانت سهير تبتسم بين الحين والآخر، وبعد الانتهاء من تناول الفطور قال عمر مخاطباً أمه، ما رأيك يا أماه لو ذهبت إلى الخالة ناهد كي تمضي معها قليلاً من الوقت ريثما ننتهي من تنظيف البيت؟

أجابته: كيف أخرج وأدعكما تنظفان البيت؟

قال عمر وما العيب في ذلك.

قالت: هذا ليس عيباً ولكن أنا ليس لي نفس للخروج من البيت، فأنا لدي رغبة للاختلاء بنفسي.

قال شريف: لماذا؟ كي تعودي للبكاء؟ لا يا أماه، يجب أن تخرجي من البيت كي تنسي قليلاً ثم إن الخالة ناهد لم تعلم بهذا الأمر بعد، اذهبي إليها علها تجد لك حلاً.

قال عمر: أجل يا أماه، يجب أن تذهبي إليها، فلن ندعك تختلين بنفسك، وظلا يتحايلان عليها حتى وافقت على الذهاب على ناهد وهناك قصت عليها كل ما حدث، فكانت ناهد لها خير عزاء، أما ريم وسمر فهما لم يجدا من يخفف عنها عذابهما، فظلتا تبكيان وترفضان الكلام مع والدهما طيلة أيام إقامتهما عنده، أما سهير لم تستطع الصبر أكثر من ثلاثة أيام، ذهبت بعدها إلى مراد تطلب من أن يعيد إليها البنتين، ولكنه رفض طلبها، واضعاً عودتها مقابل الأولاد، فقالت له أن نجم الصبح أقرب لك مني.

قال لها: إذن لن تحلمي يوماً بعودة ريم وسمر.

قالت له بجفاء: حسناً ليكن، ولكني سأقيم عليك دعوى أطلب إعادة سمر وريم.

أجابها بتحد: حتى لو ربحت الدعوى لن أعطيك إياهما.

خرجت غاضبة مهددة متوعدة، واتجهت فوراً إلى محامي تستشيره بهذا الخصوص مضيفة طلب الطلاق، فطمأنها المحامي ووعدها بتحقيق ذلك ولكن مراد عندما سمع بإقامة الدعوى أدرك ساعتها أنه خسر سهير إلى الأبد وأن هذه المرة ليست ككل مرة، فهو يعرفها جيداً إذا ما صممت على شيء لا بد أن تحصل عليه، وعلى ضوء ذلك قرر إعادة البنتين إليها لأنه منذ البداية لم يأخذهما من أجل رعايتهما وإنما كي يرغمها على العودة إليه، وقبل أن تمضي الدعوى في طريقها للنهاية، عادت سمر وريم إلى الأم بعد أن حرمت من لذة العيش طيلة شهرين، وكان اللقاء بينهما حاراً مؤثراً للغاية فقد كانت سهير تقبلهما وهي تبكي، وهن يبكين، وبعد عناق طويل التفت عمر إلى أمه وقال لها: ألم أقل لك يا أماه أنه سيعيدهما إلينا حين ييأس من عودتك إليه.

قالت: كنت خائفة يا ولدي من تمسكه بهما انتقاماً مني.

قالت سمر بمرح: دعونا من الماضي ولنعش الحاضر، فقد كان كابوساً وأزيح عن قولبنا، ثم نظرت إلى أمها وقالت لها، إني أراك شاحبة الوجه، نحيفة الجسم يا أماه، تبدين وكأنك مريضة، لم يا حبيبتي؟ هل حقاً أنت مريضة؟

ـ لا يا حبيبتي، أنا لست مريضة، ولكن قلقي عليكما هو سبب شحوبي فقد كان عذابي شديداً خلال هذين الشهرين، فقد كانا أشد علي من عذاب سبعة عشر عاماً التي أمضيتها مع والدك، قال عمر مؤكداً كلام أمه: أجل يا سمر لقد تعذبت أمك كثيراً خلال هذين الشهرين، إننا لم نر ابتسامتها الجميلة طيلة هذه المدة، لم نر إلا دموعها وحزنها، حتى النوم هرب من عينيها.

فدنت سمر منها وقبلتها وهي تقول لها: أليس حرام أن يذبل هذا الوجه الجميل وأن تذرف الدموع هذه العيون، انفجرت شفاه سهير عن ابتسامة وضمتها إلى صدرها وقالت لها هل تعلمتي الغزل؟

قال عمر بطريقته المازحة: لم لا؟ فأنت حبيبتنا جميعاً ونحن لن نجد أروع من جمالك نتغزل به. نظرت إليه نظرة فرح وسعادة وقالت له بطريقتها المرحة: عيب يا ولد، دع غزلك هذا لحبيبة المستقبل، فأنا أصبحت عجوزاً، أجابها شريف: ماذا قلت؟ أنت عجوز؟ أما أنا ماذا أقول عن نفسي فأنت تبدين أصغر مني، انفجر الجميع بالضحك، ثم قالت سهير: إنك أنت أيضاً بدأت تجيد النكات، أم أنها انتقلت إليك العدوى من عمر؟ فهو لا يعرف أن يتكلم بشكل جدي أبداً، كان عمر كما وصفته أمه، لا يعرف الجد أبداً، كان أجمل ما فيه خفة الظل والمزاح.

عادة السعادة ترفرف فوق سماء ذلك البيت الصغير، وعرفت البسمة طريقها إلى شفتي سهير. كانت سعادتهم لا توصف رغم الضيقة المالية التي كانوا يعيشونها، فمسحوب سهير من عملها لا يكاد يكفي سد طلبات البيت الضرورية، ومصروف المدارس، ولكن تأقلم الجميع مع هذا الوضع، وكان الأولاد سعداء بذلك، فهم اكتسبوا من أمهم حب القناعة والتواضع والعفة، فالجميع لا يحسب للمادة حساب، فهي بالنسبة لهم وسيلة للحياة وكانوا عندما يجتمعون حول المائدة لا ينظرون إلى

نوع الطعام بقدر ما ينظرون إلى لحظة السعادة التي يقضونها سوياً دون إزعاج من أحد .

* * *

الفصل الثالث عشر

مضت فترة قصيرة على طلاق سهير من مراد، كانت فيها في غمرة السعادة، وفي غضون هذه الفترة جاء سامر لزيارتها بعد غيبة طويلة، فرحبت به كثيراً، وفرح الأولاد فرحاً عظيماً، وبعد التحية والسلام دخل الأولاد إلى غرفتهم تاركين الضيف العزيز مع الوالدة فهو ليس غريب.

وعندما خلت الغرفة بادرته قائلة: أين كنت غائباً كل هذه المدة يا سامر؟ فقد اشتقت إليك كثيراً ولكن كما يبدو أنك نسيتنا. قال سامر: كيف أنساك يا حبيبتي؟ والله كان شوقي إليك عظيماً، ولكني ابتعدت عنك كل هذه المدة رغماً عني، لأنني خفت أن أثير حولك الشكوك وأعقد المشكلة أكثر مما هي معقدة، ولكني كنت أتتبع أخبارك لحظة بلحظة، وعندما علمت أن الأمور انجلت بينك وبين مراد أتيت مسرعاً.

قالت له: حسناً فعلت يا سامر، فبعدك عن ساحة المعركة كان لصالحي.

قال لها: ولكن كم كنت قلقاً عليك، وكم تمنيت أن أكون قربك في تلك الأيام أقاسمك همومك، ولكن ماذا أفعل؟ ما باليد حيلة.

قالت: آه يا سامر، كم كانت تلك الأيام قاسية مريرة.

قال: الحمد لله الذي أنهى الأمور على خير، وأردف قائلاً ماذا ستفعلين الآن؟

ـ ما هي خطتك للمستقبل؟

أجابته بصوت هادئ: حقيقة أنا لم أفكر بشيء بعد يا سامر، لأن المشاكل التي مررت بها، وفرحتي في استقلالي عن مراد أنساني كل شيء.

قال بقليل من الارتباك: ألم تفكري في وضعنا؟

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني ألم يحن الوقت كي نتزوج ونعيش سعداء كباقي الناس؟

ـ لا يا سامر، لم يحن الوقت، فأنا لا أستطيع الزواج بك الآن.

ـ ما المانع؟

ـ أتقول ما المانع؟ هناك أشياء كثيرة تمنع هذا الزواج.

أجابها بلهجة الاتهام: وما هذه الأشياء؟ ألم تنتهي من مراد؟ ماذا بقي؟

ـ أجل إني انتهيت من مراد ولم يعد بيننا علاقة، ولكن بقي الأولاد، وهذا سبب كاف ليجعلني أحسب له ألف حساب، لأنه إذا علم أني تزوجت أسرع وأخذهم مني، طبعاً القانون يقف إلى جانبه، لأن الأولاد لم يبلغوا السن القانوني بعد، وهناك شيء آخر، هم أهلي، فهم لن يوافقوا على زواجي بك لأنك ابن أخت مراد فقاطعها قائلاً: نتزوج رغماً عنهم، فأنت لست بقاصر كي يفرضوا عليك رأيهم.

ـ لنرفع أهلي جانباً: هناك أولادي فأنا لا أستطيع البعد عنهم وإلا كنت فعلت ذلك منذ زمن.

قال لها: وما العمل إذن؟

ـ لست أدري يا سامر، لست أدري.

ـ ومن يدري إذن؟ فكري يا سهير، وقولي لي ما العمل؟

قالت: هناك حل واحد لا يوجد غيره ولكن لا أظنه يوافقك.

قال: مهما يكن قولي ما هو.

ـ إذا كنت ترغب في الزواج مني يجب عليك أن تنتظر عامين على الأقل ريثما يكبر الأولاد قليلاً وأستطيع الاحتفاظ بهم.

ـ ولكن هذا كثير يا حبيبتي فقد مضى على حبنا ثلاثة أعوام والآن تقولين انتظر عامين أيضاً.

أجابته بصوت حزين: سامر إذا كنت قد مللت الانتظار ولن تستطيع أن تتابع فأنت حر، ولست مقيداً بوعد، فأنا لن أغضب منك وسأظل أحتفظ بحبك، وستبقى متربعاً على عرش قلبي حتى آخر العمر.

ـ كيف تقولين هذا: فأنا لن أتزوج غيرك حتى لو أضعت شبابي في الانتظار، ثم كيف تقولين أني لست مقيداً؟ فأنا أسير حبك وأتمنى أن لا أفلت منه، فلم تجب سهير وظلت صامتة.

فصمت هو أيضاً وراحا يتبادلان النظرات في صمت وما هي إلا لحظات حتى قال لها وكأنه تذكر شيئاً مهماً: سهير كنت قد كتبت مجموعة شعرية، ماذا حل بها؟

قالت سهير: أية مجموعة؟

قال المجموعة الشعرية التي كنت قد شرعت في كتابتها منذ عامين.

أجابته: آه.. التي حدثتك عنها، لقد انتهيت من كتابتها منذ شهور، ولكني نسيتها في غمرت الأحداث التي مررت بها، كان موقفاً صعباً يا سامر، تخيل رغم أني كنت أحلم باليوم الذي أنفصل فيه عن مراد، إلا أنه حين أتت الساعة الحاسمة، خفت وكدت أن أنهار، فخراب البيت والانتقال من حياة إلى حياة ليس بالأمر السهل فمهما كانت الحياة الزوجية تعيسة إلا أن ساعة الطلاق رهيبة وقاسية.

ـ أنا لا ألومك يا سهير، فما تقولينه صحيح إنه موقف صعب، ثم قال لها سهير دعينا من الماضي ولنتكلم عن الحاضر.

قالت له: عن أي شيء تريد التحدث من الحاضر؟

قال: لقد سألتك منذ قليل عن المجموعة الشعرية التي كنت قد كتبتها ماذا ستفعلين بها؟

ـ لا شيء.

قال: كيف هذا؟

ـ وماذا تريدني أن أفعل بها؟

ـ أن تطبعيها.

قالت سهير: أطبعها؟ وهل أنا شاعرة مشهورة كي أطبعها بهذه السهولة؟

ـ وما المانع؟

قالت سهير: أولاً إذا كنت أريد طبعها يجب أن يكون لي معارف يعملون في هذا المجال كي يتوسطوا لي أمام دار النشر والطباعة، ثانياً: أنا لست متأكدة من صلاحيتها، فأنا كتبت لأول مرة ولا أدري إذا كانت جيدة أم لا.

قاطعها سامر قائلاً: ومن أين لك أن تتأكدي من ذلك إذا لم تعرضيها على أحد يفهم في هذا المجال؟

قالت سهير: افترض أنها صالحة فمن الذي سوف يغامر ويطبعها لي؟

قال: لماذا تسمينها مغامرة، قالت لأني لست شاعرة معروفة حتى تتبناني، لذا أنا مترددة.

قال: لماذا التردد؟ لن يضر بنا شيء لو عرضناها على احدى دور النشر.

ـ حسناً إذا كان هذا رأيك، فلنذهب منذ الصباح.

وفي صباح اليوم التالي ذهبت سهير وسامر إلى المركز الثقافي وهناك أشار عليهما معاون المدير بأن ترسلها إلى اتحاد الكتاب العرب، فشكرته سهير وعادت لترسلها إلى الاتحاد وبعد شهور جاءها الرد بالرفض، وعندما طرحت الموضوع على بعض الشعراء الذي تعرفت عليهم قالوا لها بأن نشر ديوان لشاعرة مبتدئة صعب جداً. قالت وما العمل إذاً؟ قالو لها باحثي عن طريقة أخرى.

وعندما علم سامر قال لها: ما الحل؟ قالت: لا يوجد حل سوى السفر إلى بلد عربي مجاور كما نصحني بذلك بعض المعارف.

قال لها: عظيم.

سأذهب؟ هل جننت يا سامر؟

قال: ولماذا؟

لأن أهلي إذا علموا بالأمر حطموا البيت فوق رأسي، هل تحسب أن السفر بالأمر السهل؟

ولماذا يحطمون البيت فوق رأسك؟ هل يوجد بالأمر ما يعيب؟

قالت: لا يوجد ما يعيب، ولكن بالنسبة لأهلي فهو جريمة ألا تعرف أهلي؟

قال أقنعيهم بذلك.

قالت: بماذا أقنعهم؟ هناك أمران، الأمر الأول الكتابة معيبة وممنوعة، والسفر لامرأة وحدها معيب وممنوع.

قال: إلى متى ستظل تحكمنا هذه العقول المريضة؟ وأنت بالذات إلى متى ستبقين صامتة؟ حتى يقضى على مستقبلك؟

ـ وماذا عساي أن أفعل؟

ــ افعلــي أي شــيء، ولكــن لا تقفــي مكتوفــة الأيــدي أم أنــك ســترمين بهــذه المجموعة في سلة المهملات بعد أن أمضيت في كتابتها عامين؟

قالت: لا طبعاً لن أفعل ذلك، سأبحث عن حل يمكنني من طباعتها.

فهمس: حسناً فكري، وعندما تجدين الحل قولي لي.

وصمت الاثنان ولكن سهير مزقت هـذا الصـمت حـين قالـت لـه: سـامر لقـد خطرت لي فكرة أظن أنها مفيدة.

قال: هيا قولي ما هي.

قالت: أن أذهب إلى دمشق وأزور أهلي، ثم أذهب إلى أخي نعـيم وأشـرح لـه الأمر ربما يساعدني، فهو يحبني كثيراً ولا يرفض لـي طلبـاً عـلاوة علـى ذلـك فهـو يختلف كل الاختلاف عن باقي الأسرة، فهو متحضـر ومتفـتح الفكـر، يحـب الأدب والفن.

قال: وهل يستطيع نعيم اعطاءك تصريح بسفرك دون موافقة الأهل؟

قالت: لا طبعاً، ولكن يستطيع مرافقتي واسكات أهلي.

قال: كيف؟

قالت: إن نعيماً يقيم في حي بعيد عن أهلي وأنا بطبيعـة الحـال سـوف أقـيم عنده عدة أيام، يستطيع هو أن يقول لأهلي أنه سيقوم برحلـة إلى مصـايف اللاذقيـة وسيأخذني معه بدلاً من زوجته التي لا تستطيع ترك الأولاد.

قال: وهل أنت متأكدة من مساعدته لك؟

ـ ليس كل الثقة، ولكنها محاولة ليس إلا.

ـ حسناً.. ومتى سيكون السفر؟

ـ الأسبوع القادم إن شاء الله.

ـ هل تريدين أن أرافقك؟

قالت بدهشة: ماذا قلت وبأية صفة سترافقني؟

ـ أرافقك دون علم أخيك.

ـ كيف؟

ـ قال: أسافر لوحدي وهناك نلتقي صدفة.

قالت مرحبة: إنها فعلاً فكرة جيدة.

ويوم السفر جاءت ناهد لوداعها، وأوصتها سهير بالأولاد، ورجتها أن لا تنقطع عنهم لحظة.

قالت لها ناهد: لا تفكري أنت بالأولاد، فهم في قلبي وعيوني.

أجابتها: ليسلم قلبك وعيونك يا أختاه، لست أدري لولاك ماذا كنت سأفعل.

قالت ناهد مازحة: الآن ليس وقت الشكر والمجاملات، هيا سافري ولا تفكري بشيء سوى المهمة التي أنت ذاهبة من أجلها، لا تقلقي فأنا لن أدعهم لحظة، فهم أولادي أيضاً أم نسيت أني ربيتهم؟

قالت لها وهي تكاد تذوب خجلاً: أشكرك يا ناهد على عواطفك الجياشة وأتمنى أن تتيح فرحة أرد لك بعض ما قدمت لي من جميل.

قالت ناهد: لا تقولي هذا يا سهير، فأنت صديقتي الوحيدة، وأخيراً نهضت سهير، فنهض معها الجميع وحمل عمر الحقيبة وتقدم نحو الباب، فاقتربت سهير من ناهد وتبادلتا القبلات ثم قبلت ريم وسمر وشريف ولحقت بـ عمر الذي خرج ليوقف لها تكسي، فسار خلفها الجميع إلى الباب.

سافرت سهير إلى دمشق، وحين بلغت بيت الأهل رحب بها الجميع ومن أشدهم فرحاً الأم، حيث ضمتها بين ذراعيها وقبلتها قبلات حارة لعلها تنسيها أيامها التعيسة مع مراد.

وفي اليوم التالي ذهبت إلى شقيقها نعيم، فحدثته بالأمر، وبعد نقاش طويل دار بينهما بين أخذ ورد ومساعدة الزوجة التي كانت تحب سهير، وافق نعيم على خطتها فأسرعت سهير إلى بيت الجارة التي كانت تعرفها مسبقاً واتصلت بسامر حيث كان ينتظر هذه المكالمة في أحد الفنادق، فأخبرته بموعد السفر.

سألها سامر عن البلد التي قررت أن تسافر إليه فأجابته: مصر. قال لها: ولماذا اخترت مصر. قالت له: لأن أخي له صديق مصري يعمل في الصحافة، وله معارف كثر في هذا المجال، وعندما حدثه أخي بالأمر رحب بالفكرة، وتطوع لخدمة

أخي، بل زاد على ذلك قائلاً: سوف يسافر معنا إلى هناك تسهيلاً لمهمتنا. أجابها سامر: هذا شيء عظيم، ولكن أنا لا أستطيع السفر معكم لأنني عسكري، ولا يسمح لي بمغادرة البلد.

قالت سهير: لا بأس.. سوف أسافر مع أخي وصديقه.

قال لها سامر: ولكن هناك عقبة.

ـ وما هذه العقبة؟

ـ النقود.. من أين لك ما يكفيك من النقود؟

أجابت: سأستدين من أخي، وبعد عودتي أعيدها له.

ودعها سامر وأغلق الهاتف، وبعد يومين سافرت سهير وأخوها إلى مصر وهناك طافت مع صديق أخيها أرجاء مصر، وعرفها على أناس كثيرين يعملون في مجال الأدب والفن، وقد وضع لها إحدى مجموعاتها الأدبية عند صديق له يملك مطبعة خاصة وتكلف له هذا الأخير بطبعها وتوزيعها، وعادت سهير إلى سورية فرحة، وحين بلغت البيت استقبلها الأولاد بالأحضان، ثم تجمعوا حولها، فراحت تحتضن كل واحد على حدة وتقبله بشوق ومحبة، وكانت أكثر الجميع التصاقاً بأمها سمر، حيث كانت دائماً تظهر حبها لأمها أكثر من كل أخوتها وتحافظ على راحتها.

وبعد الانتهاء من السلام والقبلات سألوها عن نتائج زيارتها إلى مصر فحكت لهم كل ما حدث، وبعد أن أفرغت كل ما عندها بدأت هي تسألهم عن ناهد والأيام التي قضوها وهي بعيدة عنهم، فقصوا عليها كل ما فعلوا، وما فعلته ناهد في غيابها، كيف كانت تأتي إليهم كل يوم وتشرف على طعامهم وتنظيف البيت وكيف كانت تأخذهم معها إلى بيتها فقد كانت لهم أم ثانية.

قالت وهي تتنهد بعمق: آه.. يا حبيبتي ناهد، كم أنا بشوق إليك، أجابتها سمر: وهي أيضاً مشتاقة لك يا أماه، فقد كانت لا تنقطع عن ذكر اسمك.

صمتت سهير ولم تجب ثم تركتهم ودخلت غرفتها كي ترتاح من عناء السفر، وقبل أن تغلق الباب خلفها قالت لهم: اسمعوا يا أحبائي، هيؤوا أنفسكم ريثما أرتاح قليلاً بعدها سأصحبكم إلى أي مكان ترغبون الذهاب إليه، وبعد أن أخذت

قسطاً من الراحة، خرجت بهم إلى السينما حسب رغبتهم، وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى ناهد كي تخبرها بعودتها ولم تنس أن تقول للأولاد قبل أن تخرج هيؤوا أنفسكم بعد تنظيف البيت كي نقوم بنزهة خارج المدينة، ففرح الجميع كثيراً وودعوها بالقبلات إلى الباب الخارجي، بينما كانت سهير في طريقها إلى ناهد، كانت ناهد تستعد للخروج، وقبل أن تنتهي من إتمام زينتها طرق الباب فذهبت تفتحه وإذ بسهير واقفة أمامها والبسمة الزاهية تطوف فوق ثغرها فشهقت شهقة كبيرة من شدة الفرح وقالت: سهير؟ أهلاً وسهلاً يا حبيبتي، الحمد لله على سلامتك.

أسرعت سهير إليها وعانقتها بشوق ولهفة وهي تقول لها: ناهد، كم اشتقت إليك يا عزيزتي، فتبادلتا القبل وقبل أن يتجها إلى الصالون سألتها سهير قائلة: يبدو أنك خارجة، قالت لها: فعلاً كنت ذاهبة إلى بيتكم كي أطمئن على الأولاد، وأرى ماذا يفعلون، قالت لها: شكراً لك يا ناهد، فقد تعبت معي كثيراً، قالت: دعينا الآن من الشكر وتعالي احكي لي عن رحلتك.

جلستا معاً وأخذت سهير تحكي لها كل ما جرى معها، وعندما انتهت من الحديث همت بالانصراف، فحاولت ناهد ابقاءها على الغداء، ولكنها اعتذرت قائلة: لا أستطيع البقاء يا ناهد، قد وعدت الأولاد بأن أقوم معهم بنزهة إلى أحد المصايف وسنتناول طعام الغداء هناك.

قالت: ولكني مشتاقة إليك كثيراً بعد كل هذا الغيب، ألا تمضين معي هذا اليوم؟ ثم ألا تريدين أن تري جلال؟ فهو أيضاً في شوق إليك.

قالت: وأنا أيضاً بشوق له، ولكن لا أستطيع الآن البقاء أكثر من هذا، سأراكما في المساء أليس كذلك؟

قالت ناهد: طبعاً.. طبعاً سوف نأتي إليك في المساء فودعتها وانصرفت وهي تقول لها: لا تنسي أن تبلغي سلامي إلى أخي جلال، وأردفت لا تتأخرا فأنا في انتظاركما.

وحين بلغت سهير البيت وجدت الأولاد قد انتهوا من كل شيء، خرجت معهم واستقلت سيارة أجرة وانطلقت بها إلى احدى المصايف، حيث الهواء الطلق،

والمناظر الخلابة، فأمضوا يوماً جميلاً حيث شعر الجميع بسعادة ما بعدها سعادة، وكانت سهير تتصرف وكأنها طفلة تلعب الكرة وتقفز كالفراشة من مكان إلى آخر، وتضحك بسعادة وكأنها لم تضحك منذ سنين، وكان عمر يغرقها بالمقالب والجميع يضحكون، وفي نهاية النهار عادت إلى المنزل وهي في منتهى السعادة، وما هي إلا دقائق حتى زارتها ناهد مع زوجها جلال فأمضوا معاً سهرة لطيفة.

وفي اليوم التالي جاء سامر ليطمئن عليها، فأخبرته بالنزهة التي قامت بها يوم أمس، وكيف شربت عدة مقالب من عمر، ثم نظرت إليه نظرة تفيض حباً وقالت له: كم كنت أتمنى لو كنت معي يا حبيب، لكانت سعادتي أكثر.

قال لها: لا تحزني الأيام قادمة وسنقوم بنزهات أجمل منها، وصمت قليلاً قال بعدها: سهير ألا تفكري في كتابة شيء جديد؟

قالت له: لست أدري يا سامر، فأنا أشعر بالكسل والتراخي: لا تقولي هذا كل شيء إلا الكسل، فلا تدعي الكسل يحد من طموحك ويقضي عليك.

فابتسمت سهير وقالت: صبرك علي، فأنا لست كسولة إلى هذه الدرجة، ثم أعدك أن أكون كما تحب، وفعلاً نفذت سهير ما وعدت به، فقد شرعت بكتابة مجموعة شعرية وعدة مقالات استغرقت في كتابتها شهور أما بخصوص طبع المجموعة لم يأتيها الخبر، راح سامر يتردد عليها باستمرار ويسأل عن أخبار الشعر الجديد، وفي إحدى المرات فاتحها في موضوع الزواج فقالت له: سامر لكم أنا تواقة إلى هذا اليوم الذي أغدو فيه زوجة لك، فأنا أعد الساعة واليوم والشهر كي يأتي اليوم الذي يجمعنا فيه بيت واحد، فأنا أحبك يا سامر، أتعلم ما معنى أني أحبك؟ معناها أنك حياتي وعمري وأني لا أستطيع الحياة من غيرك، أني أحبك حباً لا أعرف مداه، حباً أسطورياً كنت أحسب نفسي أني لست قادرة على الحب، كنت أشعر أني عاجزة عن أن أحب لكنك استطعت ايقاظ مشاعر الحب الدفينة في أعماقي، فاقترب سامر منها وأمسك براحة يدها وجعل ينظر في عينيها ثم قال لها: سهير: أنا مهما حاولت أن أصف لك حبي وسعادتي بك لن أستطيع لأن حبك أكبر من أي كلمة وأعظم من أي وصف، حين أنظر إلى هاتين العينين يا معبودتي الجميلة أرى فيهما روعة الحاضر وحلم المستقبل.

قالت له: سامر سوف أطلب منك طلباً وأرجو أن تقدر طلبي هذا ولا تنزعج.

ـ وهمست بصوت خافت قائلة: إنني أفضل أن تخفف من لقاءتنا قليلاً، أجابها بقلق: لماذا؟ هل هناك شيء جديد؟

قالت له: لا لا تخف لم يحدث شيء، ولكن أخاف أن نلفت نظر الأولاد فيعلمون بحبنا.

قال لها: ليعلموا، بل لتعلم الدنيا بأسرها، فأنا لا أخاف أحداً ولم يعد يهمني شيء، فأنا على استعداد كي أتزوجك حالاً، بل هذه اللحظة، ثم أننا لم نفعل شيئاً يجعلنا نخاف أحداً.

قالت له: هذا صحيح ولكن لا تنس أنني أم وعلي أن أحافظ على مشاعر أولادي وإلا فقدت حبهم واحترامهم لي، وأنا لا أحتمل أن أرى نظرة الشك والريبة في عيونهم.

قال لها: إلى متى ستخفين عنهم الأمر؟ وإلى متى سنظل ننتظر كي نتزوج؟، أجابته: لست أدري يا سامر، إنني خائفة. قال لها: ممن أنت خائفة؟

قالت له: خائفة إذا علموا بالأمر أن يكرهوني، خائفة أن أفقدهم. قال لها: هل هذا يعني أنك لن تخبريهم ولن نتزوج؟

أجابته بسرعة: لا يا حبيبي، ليس هذا ما أقصد، ولكن رأيت أن أنتظر حين يحين موعد زواجنا.

قال لها: ومتى سيحين هذا الموعد إن شاء الله؟

قالت له بلهجة عتاب: سامر لقد سبق وقلت لك قبل الآن أني لا أستطيع الزواج بك قبل أن يصبح أولادي في السن القانوني، كي أضمن بقاءهم معي بعد الزواج.

قال لها: أنا آسف يا حبيبتي، لا تغضبي مني، فأنا أقول هذا من شدة شوقي للقائك، فقد مللت الانتظار، فقد مضى حوالي أربع سنوات على حبنا، وأنا أحلم بيوم الزواج.

قالت له: وما تظن بأن حالي أحسن منك يا سامر، بل أنا أتألم أكثر منك، وأنا أيضاً مللت الانتظار ويكاد يقتلني، ولكن ماذا أفعل؟ فهذا قدرنا ولا نستطيع الهروب منه.

قال لها: حسناً يا حبيبتي ليكن ما تريدين.

ثم انصرف تاركاً سهير تحلم بمستقبل زاهر، وبينما كانت هي تعيش هكذا، كان هناك مراد يعيش معذباً يعاني الوحدة والتمزق لفراق سهير، فقد انقلب حاله منذ أن تركته سهير، بات الحزن رفيقاً ولم يعد يحتمل المكوث في البيت، وإذا صدف ومكث قليلاً كانت صورة سهير لا تبرح خياله، فكان يلوم نفسه ويقول: ليتك تعودين يا سهير كي أعوضك عن كل ما فات، فكر كثيراً بأن يذهب إليها ويستعطفها كي تعود إليه، ولكنه يعود ويتذكر كيف كان رفضها في المرة السابقة قاطعاً، فكيف يذهب إليها؟ وظل يقاوم هذه الرغبة طيلة شهور ويذوق من العذاب أمره، ولكنه في النهاية قرر أن يذهب إليها وتعمد أن يذهب حين يكون الأولاد خارج المنزل، وعندما بلغ البيت تردد قليلاً قبل أن يقرع الجرس ثم ضغط يده عليه ولم يلبث أن فتح الباب وأطلت سهير بقامتها الممشوقة ووجهها الفاتن، فنظر إليها بارتباك وقال لها: هل تسمحين لي بالدخول؟

أما سهير حين فتحت الباب ورأت أمامها مراد بدا عليها الخوف والدهشة وكسا وجهها الاصفرار وارتجفت رجلاها وكادت أن تصرخ ولكنها تمالكت نفسها وتظاهرت بالقوة وقالت له بصوت جاف ونبرة قاسية: ماذا تريد مني بعد؟ وكيف تسمح لنفسك بالدخول إلى بيتي؟ ثم إذا كنت تريد الأولاد فهم ليسوا هنا.

أجابها بهدوء: إني أعلم أنهم ليسوا هنا، لذلك جئت، نظرت إليه نظرة احتقار وقالت له باشمئزاز: ماذا قلت؟ أتعلم أن الأولاد ليسوا هنا وقد جئت..قال لها بنفس الهدوء: لقد جئت أكلمك بأمر هام، فأدارت ظهرها وقالت له: لم يعد بيننا أمور يا مراد، فقد انتهى كل شيء. قال لها: سهير.. أرجوك أن تهدئي قليلاً وتسمعي. قالت: حسناً ماذا تريد؟

قال لها: هل أتكلم وأنا واقف على الباب؟ دعيني أدخل أولاً، فلم تجبه وانسحبت من أمام الباب وسارت نحو الصالون، فدخل وأغلق الباب خلفه، وتبعها إلى حيث وقفت..

لكن حين رأته أغلق الباب دب الخوف في قلبها من جديد، لأنها خشيت أن يقدم على فعل شيء، فهي وحدها في المنزل ولا تستطيع مقاومته لذا قالت له: لماذا أغلقت الباب خلفك، فأنت الآن رجل غريب عني ولا يجوز أن نختلي لوحدنا.

قال: هل أنت خائفة مني؟

نظرت إليه نظرة شموخ وكبرياء وقالت له: أنا لست خائفة منك لأنني أستطيع حماية نفسي عند اللزوم، فإياك والاقتراب مني.

ابتسم ابتسامة ضعف واستسلام وقال: إنـي أعلم ذلك ولهذا أريدك في أمر آخر.

قالت له: ماذا تريد؟ تكلم بسرعة وانصرف.

ابتلع ريقه لأنه شعر بإهانة مرة أخرى وتابع كلامه قائلاً، سهير إني أعترف لك بخطأي، أعترف بظلمي لك، أعترف بأنني كنت مذنباً بحقك، لذا جئت أعتذر لك وأطلب منك السماح، اغفري لي يا سهير وتعالي نبدأ حياة جديدة.

التفتت إليه جاحظة العينيْن مذعورة من شدة الدهشة ثم قالت: ماذا قلت؟ أعود إليك ولكن.

قاطعها قائلاً: سهير أرجوك أبعدي كلمة لكن هذه ولا تجيبي الآن، أرجوك أن تسمعي حتى النهاية، فصمتت وراحت تستمع إليه بدهشة واستغراب، بينما هو يتابع كلامه قائلاً: سُهير إني أعرف أن قلبك طيب وكبير، وقادر على التسامح، وكم من مرة أخطأت في حقك وأنت غفرت لي، اغفري لي هذه المرة وسوف أجتهد بأن أكون الزوج المثالي، وأن أوفر لك السعادة والراحة وأعطيك كل ما تطلبين، سهير خذي كل ما أملك إذا أحببت مقابل أن تعودي وسألبي جميع طلباتك فقط عودي إلي، فحياتي بعدك ليس لها طعم أو قيمة، أنا لم أعرف قيمتك إلا بعد أن فقدتك، ثم اقترب منها ووقف أمامها بإذلال ثم قال: سهير أجيبي بكلمة موافقة، سهير ردي علي وارحمي عذابي، فأنا أتعذب.

نظرت إليه نظرة فيها حقد واحتقار، ثم قالت له باشمئزاز: هل انتهيت من كلامك؟ هل قلت كل ما تريد قوله؟

أجابها بانكسار: أجل فأشاحت بوجهها وقالت له، أخرج من بيتي ولا تحلم يوماً بأن أكون زوجة لك مرة ثانية.

أجابها قائلاً: سهير ماذا جرى لك؟

قالت له بغضب: ألا تعلم ماذا جرى لي؟ حسناً سوف أقول لك: الآن جئت تعرض علي كل هذه العروض المغرية؟ الآن جئت تقدم لي السعادة وقد سلبتها مني سنين طويلة؟ حرمتني منها عندما كنت بحاجة لها، الآن جئت تقدم لي كل ما تملك من مال؟ ونسيت أن تقدمه لي حين كنت بحاجة إلى درهم مال؟ الآن جئت تقدم لي كل ما أطلب ولم تقدم لي حين طلبت رغم بساطة طلباتي؟ رغم أني لم أطلب منك أشياء فوق طاقتك، لم أكن يوماً من النساء المبذرات، ومع ذلك كنت ترفض طلباتي الآن جئت تعتذر لي ولم تفعل ذلك يوم كنت تهينني وتدوس على كرامتي؟ الآن جئت تجفف دموعي، ولم ترحم هذه الدموع حين كانت تذرف بغزارة. بعد كل هذا تقول لي بكل بساطة عودي إلي، بعد كل هذا تقول ماذا جرى لي؟ هل علمت الآن ماذا جرى لي؟ ألا يكفي هذا؟ أم كنت تريد فعل المزيد؟ ألا تعلم ماذا فعلت بي ايضاً، فقد دفعتني إلى السقوط والانحراف، فقد كادت قسوتك أن ترمي بي إلى الهاوية، وتجعلني من النساء الساقطات لولا أن أدركت نفسي وتراجعت في الوقت المناسب وهذا ما جعلني أكرهك أكثر من ذي قبل، أجل بت أكرهك حتى الموت، وهذا ما كان يبعدني عنك، وصمتت قليلاً حتى استردت أنفاسها ثم تابعت قائلة، وكأنها تذكرت شيئاً: مراد أنا لست شاذة كما تقول لي دائماً ولست غبية لا أفهم كيف يجب ان يعيش الأزواج، ولست عديمة المشاعر والأنوثة، كما يتبادر إلى ذهنك، بل هذه الأشياء كلها موجودة لدي ولكن كرهي لك هو الذي جعلني أمامك بصفات غير صفاتي، أصبحت أمامك تمثالاً من رخام لا روح فيه وليس لديه قدرة على الحراك، غدوت قطعة من جليد لا تشعر بالحرارة، أصبحت جسداً محطماً عديم الرغبة بالحياة، عدم حبي لك هو الذي جعلني أتخلى عن كل رغباتي، كنت أحتمل كل هذا العذاب، وكنت أحترق كالشمعة وأذوب

كقطعة جليد وضعت فوق نار هادئة، كنت أكبت مشاعري وأجعل نفسي عديمة المشاعر، كم هذا كان قاسياً على نفسي، ثم تنهدت بعمق وقالت بصوت حزين عميق: كم هو قاسي على المرأة حين تشعر برغبة قاتلة لأن تخرج الحب الذي يفيض في قلبها، ولم تجد أمامها الرجل الذي تحبه لإعطائه أنوثتها، وتغمره بحبها، كم هو مؤلم ومحطم للمرأة حين تعيش مع رجل لا تحبه.

قال لها وقلبه يعتصر ألماً: سهير إني لم أعهد بك كل هذا الحقد.

ابتسمت ابتسامة ساخرة وقالت له: أنا لم أولد وفي قلبي الحقد، ولكن ظلمك هو الذي علمني. الحق لا يسترد بالتسامح والتنازل يا مراد، فإذا أراد المرء أن يسترد كرامته يجب أن لا يغفر قويا لتحمل الصدمات وأنا أصبحت كذلك، لن أنسى ما فعلت بي، ولن أغفر لك أبداً، فأخرج من بيتي حالاً وإنسى أنه كان لك زوجة اسمها سهير.

نظر مراد إليها نظرة كلها يأس وقنوط، ثم خرج بخطوات بطيئة يجر أذيال الخيبة فلم تلتفت له.

وبعد أن أغلق الباب خلفه، نظرت إلى الآفاق البعيدة والحقد يملأ قلبها وقالت، تحدث نفسها: صبراً علي يا مراد وسترى كيف سيكون انتقامي رهيباً.

أما مراد بعد يأسه من عودة سهير إليه، تزوج ظناً منه بأن الزواج سوف يعوضه وينسيه سهير ولكنه كان مخطئاً فلا هو استطاع نسيان سهير ولا الزوجة كانت كما يحب، حيث كان يعتقد بأنه سيتزوج امرأة أفضل من سهير، كما كان يردد هذه الجملة على مسامع سهير، ولكن هذه الزوجة أتت على غير ما يحب ويشتهي، كانت نقيض سهير، فبقدر ما كانت سهير مهذبة هادئة، بقدر ما كانت هذه الزوجة قليلة الأدب طائشة سوقية الألفاظ، وكأن الله سبحانه قد أراد أن ينتقم من مراد بهذه الزوجة السيئة، فكان إذا شتمها بكلمة أجابته بسيل من الشتائم والسباب، وإذا ضايقها بشيء، ملأت البيت صراخاً، أما إذا طلبت منه شيء ولم يأت به فوراً الويل له، هكذا كان يعيش مراد مع الزوجة الثانية، ولكن مراد الذي تعود الطاعة من سهير والصبر والصمت على كل شيء لم يستطع العيش مع هذه المرأة فطلقها وعاد إلى الوحدة يعاني مرارتها، حتى قضت عليه وأقعدته مريضاً.

أما سهير فقد كانت سعيدة بحياتها مع أولادها، تغدق عليهم الحب والحنان، وتمارس أيضاً الكتابة، فبعد أن انتهت من المجموعة الجديدة جاءتها رسالة من مصر حاملة لها البشرى، وكانت هذه الرسالة موزة من عدة سطور تقول:

سيدتي الكريمة: سهير ابراهيم: من بعد التحية والسلام، نرجو حضورك إلى طرفنا فور وصول هذه الرسالة لك وإذا كنت قد كتبت شيئاً جديداً أحضريه معك ولك ألف شكر.

مدير المطبعة: رأفت فهمي

بعد أن انتهت سهير من تلاوة الرسالة هرعت إلى ناهد تزف لها البشرى، وفي اليوم التالي جاء سامر فتلقته بفرح لا يوصف، وأطلعته على الرسالة فأشار عليها أن تسرع بالسفر إلى مصر، فلم تضع الوقت وسافرت.

في اليوم التالي سافرت إلى دمشق، ومن هناك تابعت طريقها مع نعيم إلى مصر وحال وصولها إلى مكتب رأفت فهمي استقبلها هذا الأخير استقبالاً حاراً وأمطرها بكلمات التبجيل والاحترام بلهجة صادقة، وقدم لها التهنئة الحارة على نجاح ديوانها وأضاف قائلاً أتمنى لك مخلصاً أن تتابعي طريقك بنفس هذا النجاح الذي بدأت به.

فأجابته بخجل: شكر لك يا سيدي على مديحك هذا وسأعتبره وساماً أزين به صدري، فابتسم رأفت ابتسامة خفيفة وقال لها بود: أولاً أرجو منك أن تلغي كلمة سيدي هذه وتناديني باسمي: رأفت فقط لأنك بمثابة ابنتي، ثانياً نحن سنتعاون معاً من الآن فصاعداً.

فابتسمت وقالت له أستاذ رأفت: كم بلغ مجموع الأعداد المباعة وكيف كان الإقبال على العمل.

أجابها رأفت بحماس: لقد نفذت الطبعة الأولى بكاملها فاضطررنا إلى إعادة الطبعة مرة أخرى، كان الطلب عليه شديداً من قبل دور التوزيع، تخيلي يا سهير بعد أن كنت ألهث خلفهم كي يشتروها بدأوا هم يلهثون خلفي للحصول على كمية أكبر وبالسعر الذي أريد، وقد طلبت بعض دور النشر التعرف عليك أو عنوانك وبعض الصحفيين أيضاً.

فقالت له بشيء من الفرحة بما نالت من إعجاب وتقدير: بماذا أجبت على الجميع؟

قال: إني لم أجب على أحد لأن هذا ليس من اختصاصي فأرسلت لك كي تردي عليها بنفسك.

فقالت له وكأنها تأسف لتأخرها عن الرد، ولكني تأخرت كثيراً في الرد.

قال: لا بأس المهم أن تردي عليهما.

قالت: وكيف أستطيع الرد على كل هذه الرسائل؟

قال رأفت بإمكانك الرد على جميع هذه الرسائل برسالة واحدة.

قالت له باستغراب: كيف؟

قال: هو أن تظهري على شاشة التلفزيون أو مقابلة صحيفة وأنا سوف أدبر لك هذا الأمر، وأتفق مع مدير التلفزيون وأرتب معه هذه الأمور.

قالت له: إذا كان هذا رايك ليكن ما تريد.

قال لها: حسناً سوف أتصل بك غداً، وأحدد لك الموعد، بعد أن أكون قد انتهيت من كل شيء، وصمت قليلاً قال بعدها: لنفتح الحساب، ونحسب الإيراد الذي ينالك منها ثم أعطاها المبلغ، بعد ذلك ودعته وانصرفت مع نعيم إلى الفندق.

وفي اليوم التالي اتصل بها رأفت وقال لها: مدام سهير لقد اتفقت مع مدير التلفزيون على أن تجري المقابلة بعد يومين فأرجو منك أن تكوني مستعدة في الموعد المحدد وسآتي أنا لأصطحابك إلى مبنى التلفزيون، فشكرت له مساعيه الطيبة.

أمضت هذين اليومين في قلق واضطراب وجعلت تفكر في المقابلة وكيف ستقف أمام الكاميرا وهي لم تتعود على ذلك من قبل، لقد كانت خائفة من الظهور على الشاشة الصغيرة، وظلت هكذا حتى جاء موعد المقابلة فجاء رأفت لمرافقتها فاستقبله نعيم في بهو الفندق حيث كانت سهير قابعة في غرفتها فسأله رأفت عن سهير، فقال له نعيم: إنها تنتظرك، سوف أصعد وأخبرها بحضورك.

قال: تفضل.

فصعد نعيم إلى غرفة سهير، طرق الباب طرقة خفيفة ثم دخل قبل أن يسمع الجواب فوجدها جالسة على مقعد أمام المرآة وهي شاردة الفكر.

قال لها: سهير لقد حضر الأستاذ رأفت وهو ينتظرك في بهو الفندق، فهل أنت جاهزة؟

أجابته: أجل فقد انتهيت منذ قليل.

قال إذن هيا إنه ينتظر.

قالت: عد أنت إليه سألحق بك حالاً..

فتركها وأسرع إلى رأفت وبعد خروجه نهضت من مكانها وهي تلقي على نفسها نظرة أخيرة كي تطمئن على نفسها، حملت حقيبتها وخرجت من الغرفة، وحين أطلت من أعلى السلم الذي كان رأفت يجلس أمامه، لم يستطع إخفاء إعجابه بأناقتها التي تساوت مع جمالها لتصبح فاتنة الفاتنات، نهض واقفاً، تقدم منها يصافحها وهو يقول لها: يا إلهي كم أنت فاتنة، أرجو المعذرة على جرأتي هذه، ولكن عذري هو من يرى هذا الجمال لا يستطيع الصمت دون أن يبدي اعجابه، خفضت رأسها إلى الأرض خجلاً وهي تقول بصوت خافت خجول: شكراً لك يا أستاذ رأفت على هذه المجاملة اللطيفة.

ثم اتجهوا إلى خارج الفندق وصعدوا السيارة وانطلقت بهم تسابق الريح، وحين دخلوا مبنى التلفزيون استقبلوا من قبل العاملين هناك بحفاوة بالغة. فكانت سهير مرتبكة بعض الشيء ورأفت يقدمها إلى كل فرد مع شقيقها، ولم تلبث أن وجدت نفسها أمام الكاميرا وحدها، ورأفت ونعيم يجلسان خلف الكاميرا بعيدين عنها ينظرون إليها.

فأجريت المقابلة معها مذيعة حسناء لطيفة، وذكية، وجعلت تطرح عليها الأسئلة، وكانت الأسئلة متنوعة، كما أعلنت في المقابلة عن رواية جديدة، وكانت تدين بالفضل لرأفت الذي ساعدها على الشهرة والذي شجعها على كتابة القصة إضافة إلى الشعر.

في اليوم التالي أتى رأفت لمقابلة سهير فاستقبله نعيم، سأله عن سهير، أجابه أنها في غرفتها تهيئ نفسها للخروج، سأل رأفت: إلى أين هي ذاهبة؟ قال: إننا سنقوم في جولة إلى الأماكن السياحية، ثم سنتناول طعام الغداء في إحدى المطاعم

ومن ثم سنعرج على بعض المحلات لشراء بعض الحاجيات، وفي هذه اللحظة أطلت سهير من غرفتها، قال نعيم: هاهي سهير قادمة.

قال رأفت مازحاً: ابن الحلال على ذكره يبان، فابتسمت سهير ابتسامة رقيقة وقالت له بلطف: أرجو أن تكون قد ذكرتني بخير. قال رأفت: خير إن شاء الله. قالت سهير: أهلاً بك، تفضل بالجلوس، أجابها رأفت: أهلا بك يا سهير، ثم استطرد قائلاً لقد جئت كي أهنئك على نجاح المقابلة ليلة أمس، فقد كنت رائعة في حديثك، احمرت وجنتا سهير خجلاً وشكرته على هذا الاطراء.

قال لها: هذا ليس رأيي فقط وإنما رأي المشاهدين الذي شاهدوك ليلة أمس، وأعجبوا فيك وفتنوا بجمالك، فقد سمعت هذا الكلام في الشارع وفي البيوت والمحلات، حتى معارفي لم ينقطعوا عن سؤالي عنك. قاطعته سهير بلطف: أستاذ رأفت، هل سنظل نتحدث بهذا الموضوع، أجابها: أأمري ماذا تريدين؟ قالت: لدي عمل يجب أن أقوم به، همس رأفت: معك حق فقد نسيت ما أتيت من أجله، قالت: ما هو: قال لقد أتيت أبحث معك موضوع الرواية والمجموعة التي سأباشر بطبعها بعد أيام، وأيضاً هناك أمر آخر كنت أفكر به منذ أول يوم جئت ولكني فضلت أن أؤجله إلى ما بعد انتهاء جميع أعمالك.

قالت مستوضحة: ما هو؟

قال: جئت أدعوكم إلى نزهة نزور فيها جميع الأماكن السياحية، ثم نتناول الغداء معاً ولكني وجدتكم وقد سبقتموني.

قالت له: لا بأس لا فرق بين أن ندعوك أو تدعونا، المهم أنك جئت في الوقت المناسب، ومجيئك هذا سوف يوفر علينا أسئلة المارة لأننا لا نعرف الأماكن التي نرغب رؤيتها.

قال: حسناً سوف نتحدث في بعض الأمور على مائدة الطعام.

قالت سهير: هيا بنا إذن قبل أن يدركنا الوقت؟

ركبوا سيارة رأفت ثم انطلقت بهم تجوب جميع الأماكن الجميلة، ثم أدخلهم مقصفاً جميلاً يطل على النيل، وطلب لهم أفخر المأكولات وأثناء الغداء تحدثوا في أمور العمل، وبعد أن اتفقوا على كل شيء ووقعت سهير العقد، خرجوا من المقصف

إلى محلات الأزياء، اشترت سهير هدايا لجميع أولادها، وهدية ثمينة لكل من ناهد وجلال، كما اشترت ما أعجب نعيم له ولزوجته وأولاده، ولم تنسى أن تشتري ما رأت من موديلات لسامر، وختمت الشراء بأشياء لها، ولم تنته من الشراء إلا والليل قد أسدل ستاره على المدينة، فعاد الجميع إلى الفندق منهكين من التعب، وعندما وصلوا الفندق ترجل معهم رأفت وساعدهم في نقل الحاجيات إلى الداخل ثم طلب من سهير ونعيم أن يقبلا دعوته إلى سهرة في أحد الكازينوهات التي كانت تقدم في ذلك اليوم برنامجاً فنياً جميلاً، ولكن سهير اعتذرت عن قبول الدعوة لأنها مرهقة من عناء يوم أمضته بالتجول في الأسواق والمتنزهات وأضافت قائلة أنها ستخلد إلى النوم باكراً، لأنها سوف تسافر إلى دمشق في الصباح الباكر لذا فهي لا تستطيع السهر، قبل رأفت الاعتذار وودعها ثم انصرف متمنياً لها ليلة سعيدة، وأحلاماً جميلة، وفي صباح اليوم التالي غادرت مصر عائدة إلى دمشق ثم تابعت طريقها إلى مدينتها وعندما بلغت المنزل قرعت الباب بلطف فأسرعت ريمْ لفتحه، فوجدت أمها واقفة أمامها والبسمة تشع فوق شفتيها فصاحت ريم بفرح، ماما.. ماما.. وارتمت بين أحضانها تقبلها وهي تصرخ: عمر.. سمر.. شريف.. تعالوا، لقد أتت ماما، وخلال لحظة التف الأربعة حولها ووجدت نفسها واقفة في الوسط، والجميع يحيطون بها، هذا يقبلها وذاك يطوقها بين ذراعيه، والآخر يقبلها فقد أقاموا حولها مظاهرة وهي أيضاً كانت لا تترك سمر حتى تستلم عمر، ولا تترك عمر حتى تستلم شريف، كانت تقبلهم بشوق ولهفة، وكأنها لم ترهم منذ سنوات، كانت تشعر بشوق عظيم لرؤيتهم، كانت الدموع تفيض من جميع العيون، وبعد الانتهاء من السلام والقبلات نهضت سهير وأتت بالحقيبة وهي تقول: تعالوا يا أحبائي خذوا هداياكم، تناول كل منهم هديته والبسمة لا تفارق ثغره، ثم جلست على المقعد وسألت سمر قائلة كيف حال ناهد يا سمر؟ الم تأت إليكم أثناء غيابي؟

قالت سمر: بلى يا أماه فقد كانت تأتي إلينا كل يوم، ثم كان زوجها لطيفاً جداً معنا، فهو أيضاً كان يتردد علينا ويأخذنا معه إلى بيته أو يأتي مع خالة ناهد، ويمضي معنا بعض الوقت، فكان يلاعب شريف وعمر في الطاولة، كما كان يجلب لنا الخضار والفواكه كل يوم.

قالت سهير: يا الله.. كم هما صديقان مخلصان، بل هما مثال للصدق والإخلاص، إنني مرهقة الآن لكنت ذهبت إليهما حالاً، قال لها عمر: لا تزعجي نفسك يا أماه، فهما سيأتيان بعد قليل، لأنهما لم يعلما بقدومك بعد.. ولن يناما قبل أن يأتيا ويطمئنان علينا. قالت سهير: أحقاً ؟ . قال عمر: أجل يا أماه..، قالت سهير: إذن سأدخل غرفتي لأرتاح قليلاً، ريثما يأتيان بعد صلاة المغرب، أتت ناهد مع زوجها فرحب بهما الجميع وبعد أن جلسا قالت سمر: ما رأيكم يا خالة ناهد لو أتت أمي الآن. أجابتها ناهد وما الذي سيأتي بها الآن؟ وقد أسدل الليل ستاره القاتم، قالت سمر وهي تتصنع الجد: ولكن أتوقع قدومها الآن، ثم غمزت بعينها إلى ريم بأن توقظ أمها، ولم تكمل سمر كلامها حتى صرخت ناهد صرخة فرح قائلة: سهير.. غير معقول.. متى أتيت؟ قالت: بعد العصر بقليل، ثم تعانقتا.. وراحتا تمطران بعضهما قبلات حارة وبعد أن انتهت من السلام على ناهد، تقدمت من جلال الذي كان واقفاً ينتظر دوره، فمدت يدها تصافحه بحرارة وهي تقول له: كيف حالك يا جلال؟

أجابها: إنني بخير، كيف حالك أنت؟ الحمد لله على سلامتك يا سهير، فقد اشتقت إليك كثيراً، فغيابك ترك في نفوسنا فراغاً كبيراً.

قالت له سهير: وأنا أيضاً يا جلال، فقد اشتقت لكم أكثر ولم تبرحا خاطري لحظة ثم دعتهما للجلوس ثانية، وبعد أن جلسوا، التفتت ناهد إلى سمر وقالت لها: هكذا إذن يا سمر؟ تدخل ونجلس دون أن تقولي لنا أن أمك أتت، يا لك من عفريتة، وتقولين لي أيضاً أنك تتوقعين حضورها الآن..

أجابتها سمر بمرح: لقد أوصيت أخوتي أن يكتموا عنك الخبر، كي أجعلها لك مفاجأة، أليست مفاجأة جميلة؟

قالت: يا لها من مفاجأة رائعة، ثم استدارت نحو سهير وقالت لها: كيف حالك يا عزيزتي؟ فقد اشتقت إليك كثيراً، لقد مضى هذا الأسبوع وكأنه عام، فقد شعرت اثناء غيابك بوحشة قاتلة.

وهنا أجابتها سمر مازحة: الله.. الله.. يا خالة ناهد، ألم نسد نحن غياب أمي؟ أم أنك لا تحبين مجالستنا؟

أجابتها ناهد: إنني لا أقدر عليك فأنت عفريتة، وستظلين هكذا ضحك الجميع، ثم عادت ناهد إلى سهير تسألها عن أخبار سفرها، وماذا فعلت، قصت عليها كل ما فعلت منذ أن غادرت سورية، حتى ساعة عودتها، فرح جلال وفرحت معه ناهد لنجاح سهير فرحاً عظيماً، عندئذ قالت سهير لناهد: تعالي يا ناهد معي كي أريك الأشياء التي جلبتها معي من مصر، ثم أمسكتها من يدها وقادتها إلى غرفتها ثم أفرغت الحقائب مما فيها أمام ناهد، فاستعرضتها قطعة قطعة، وأبدت إعجابها بذوق سهير على اختيار الأزياء المناسبة والألوان الجميلة.

صمتت ناهد قليلاً ثم أخذت تسأل سهير عن كل قطعة وبعد أن انتهتا من استعراض جميع الأشياء التي تخص سهير والأولاد، أخرجت هدية ناهد من الخزانة وقدمتها لها وهي تقول لها:

ـ ناهد افتحي هذه العلبة وانظري ما بداخلها وقولي لي رأيك.

فتحت ناهد العلبة، فوجدت في داخلها فُستاناً وبلوزة وقطعتين رجالي، راحت تتأملهم، قالت سهير: ما رأيك، همست ناهد أنهم روعة، لمن هذه الأشياء؟

قالت سهير: إنه لك، رمقتها ناهد بنظرة شكر وامتنان وقالت: لماذا أتعبت نفسك يا سهير؟ فهذا كثير لقد أخجلتني.

أجابتها وهي تربت على كتفها: وهل أنا غريبة يا ناهد؟ أنسيت أننا أختان، فهمست ناهد: هذا صحيح يا سهير، ولكن هذا لا يعني أن أقبل كل هذه الأشياء، قالت لها: ناهد لقد اشتهيت لك هذه الأشياء وجلبتها على اسمك، فإذا لم تأخذيها سوف أغضب منك وتكون نهاية صداقتنا.

أجابتها ناهد بسرعة.. لا.. لا.. أرجوك لا تغضبي فأنا لا أحتمل غضبك ولا بعدك عني لحظة.

ابتسمت سهير ابتسامة ود وكأنها تشكرها بهذه الابتسامة، ثم قالت لها بصوت هادئ: هكذا أريدك يا صغيرتي، فضحكت ناهد ضحكة عالية وقالت لها:

ـ الله.. جحا أكبر من خاله، فمن الأصغر؟ ثم خرجتا من الغرفة حيث كان الجميع جالسين ينتظرون قدومهما. وبعد قليل انصرفت ناهد وجلال إلى بيتهما.

* * *

الفصل الرابع عشر

بعد ثلاثة أيام علم سامر بعودة سهير من مصر فأسرع يسألها عن الأخبار، فأخبرته كل شيء، ولكن خلال الحديث لاحظت سهير شرود سامر ورأت نظراته التائهة، فسألته قائلة: سامر ما بك؟ إني أراك مشغول الفكر، سارح الخيال أجابها باقتضاب: لا شيء.. لا شيء..

قالت بشيء من الخوف: كيف لا يوجد شيء إذن؟ لماذا هذا الشرود؟ أتحسبني لا أعرفك؟ فانا أفهمك أكثر مما تفهم أنت نفسك.

ظل سامر صامتاً ولم يجب، قالت له بصوت أكثر حناناً وأشد رقة: سامر قل لي يا حبيبي ما بك؟ هل يوجد ما يضايقك؟ وهل لي يد في هذا الضيق؟

سحب سامر تنهيدة عميقة وقال لها: لا يا حبيبتي، أنا لست متضايقاً ولكن هناك أمراً واحداً يشغل فكري ولست أدري متى سيحل؟ نظرت إليه بتساؤل وقالت له: ما هذا الأمر يا سامر الذي يشغلك إلى هذا الحد؟ نظر إليها نظرة رجاء وكأنه يستعطفها وهمس بصوت هادئ: إنه أمر زواجنا.

قالت له باستغراب، وما الجديد فيه يا حبيبي يشغل فكرك؟

قال: ليس الجديد فيه ما يشغل فكري، وإنما القديم.

نظرت إليه نظرة تساؤل فتابع قائلاً: سهير حين أحببتك وطلبت منك الزواج قلت لي يوم ذاك انتظر حتى أطلق زوجي، وبعد أن طلقت قلت لي أيضاً انتظر حتى يكبر الأولاد، وها قد مضى على طلاقك عامين والأولاد قد كبروا ولم يعد زوجك يستطيع سلبك إياهم، وأيضاً ماذا تنتظرين بعد أن حققت الكثير من أحلامك.

قالت له برقة وعذوبة: سامر وهل مللت الانتظار يا حبيبي؟

قال لها: لا.. لم أمل الانتظار.. لو كنت أجد له مبرراً، لقد انتظرت خمسة أعوام دون ملل حين كنت أرى مبرراً لهذا الانتظار، أما الآن فلا أجد حاجة للانتظار.

نظرت إليه نظرة حب وقالت له: معك حق، فلم يعد هناك مبرر لهذا الانتظار.

سألها بفرح: سهير هل يعني هذا أنك موافقة على زواجنا؟ قالت له: أجل يا حبيبي فقد انتظرنا بما فيه الكفاية حتى أن الانتظار قد مل انتظارنا، ثم أضافت قائلة: ولكن أترك لي فرصة كي أفاتح الأولاد بالأمر وأعرف ما هو رأيهم.

قال لها: طبعاً، هذا واجب ولكن أرجو ألا تطيلي الوقت فأنا أنتظر على نار.

قالت له: لا.. لن أطيل الوقت أكثر من أسبوع، أو اثنين على الأكثر، ثم أدركت نفسها قائلة: ولكن بعد أن أقنع الأولاد يلزمني وقت ليس بقصير كي أهيئ نفسي..

قال: تهيئين نفسك بماذا؟

قالت له: أن أهيئ ما أحتاج إليه من ملابس العرس ومنزل يتسع للجميع وفرش جديدة وهذه الأشياء تحتاج إلى وقت ليس بقصير.

أجابها بتذمر: وكم يلزمك من وقت كي تنهي هذه الأمور؟

أجابته وهي مطرقة في الأرض خوفاً من أن يلتقي نظرها به: يلزمني شهر أو ثلاثة وضغطت على شفتها السفلى، فاتسعت حدقتا عيني سامر وحملق بها وقال ملهوفاً: ماذا قلت؟ ثلاث أشهر تستغرق معك كل هذه المدة؟ وقبل أن تجب، تابع كلامه قائلاً بصوت حازم:

سهير اسمعي ما أقوله جيداً، فأنا أمهلك أسبوعين فقط تستطيعين إنهاء جميع أعمالك، وإذا لم تنته سوف نتزوج حتى لو سكنت في غرفة بفندق، حاولت سهير أن تعترض لكنه أوقفها بإشارة من يده، ثم قال لها بطريقته المرحة: لا أريد أن أسمع منك أية كلمة في هذا الموضوع، وإلا فقدت اتزاني وانهلت عليك تقبيلاً.

أجابته بسرعة: لا.. لا.. أرجوك لا تفعل هذا وتفسد صبرنا خمسة أعوام، لم نقدم على هذا الفعل، وصمتت قليلاً ثم التفتت إليه وقالت له: سامر أريد منك طلباً وأرجو أن تنفذه لي.

ـ قولي يا حبيبتي، فأنا تحت أمر عينيك الساحرتين.

أطرقت قليلاً ثم قالت: أريد ألا تخبر أهلك الآن بقصة زواجنا، قال متسائلاً: ولم؟

فهمست سهير قائلة: هل نسيت أن أمك أخت زوجي؟ وتستطيع أن تسبب لنا مشاكل نحن في غنى عنها، الأفضل ألا يعلم أحد حتى ننتهي من كل شيء.

أجابها بصوت المحب وبلهجة المتحدي: أنا لست خائفاً من أمي ولا من خالي، ولا من أي إنسان في الوجود، وليفعلوا ما يحلو لهم.

قالت سهير: سامر أرجوك أن تفهم وتقدر ما أنا فيه، أن مراد رجل شرير، وسيحرض أمك ضدنا، ومن ناحية أخرى سوف يسبب لي مضايقات من طرف الأولاد، ثم أنا حتى الآن لم أفاتح أهلي بهذا الموضوع، وإذا علموا قبل أن أهيئ نفسي سيمنعوني من شراء البيت، ويفسدون علينا كل شيء.

فهمس سامر مستسلماً: حسناً كما ترغبين يا حبيبتي، فأنا ذاهب إلى عملي وسوف أعود بعد يومين كي أعلم ما هو رأي الأولاد وهذا الشيء الوحيد الذي يهمني.

* * *

الفصل الخامس عشر

بعد أن خرج سامر، جلست سهير تفكر وهي قلقة حيرى، لا تدري كيف تفاتح الأولاد بالأمر، فالأمر في غاية الصعوبة، ظلت هكذا حتى عاد الأولاد من مدارسهم، لاحظوا قلقها واضطرابها، فدب الخوف في قلوبهم، حيث خافوا أن يكون قد حدث لها شيء يعكر صفوها، فأسرعوا إلى أمهم قائلين، ما بك يا أماه، ولم هذا الوجوم؟ وهذه النظرات التائهة الحيرى؟

أجابتهم: لا شيء.. لا شيء..

اقتربت سمر منها وقالت لها: كيف هذا يا أماه؟ بل يوجد شيء ما؟ فأنا أرى الحيرة في نظرتك، قولي لنا ما بك فنحن أولادك، وأقرب الناس لك، افضي لنا بهمومك علنا نستطيع مساعدتك، أماه أرجوك أن تشاركينا متاعبك، وتقولي لنا ما يضايقك، فالشيء الذي يسعدك يسعدنا والشيء الذي يحزنك يحزننا، وقبل أن تتابع كلامها تقدم عمر منها وقال لها: أماه قولي لي سبب حزنك وأنا أصنع المستحيل كي أزيل هذا الحزن، قولي لي عن الشيء الذي يسعدك وأنا أقدم عمري قرباناً لتحقيقه، فأنا أفديك بحياتي يا أماه، إني لا أطيق أن أرى الحزن ساكناً في عينيك، فحزنك هذا يقتلني، تساقطت الدموع من عيونها وهي تسمع كلمات عمر، نظرت إليه نظرة تفيض حباً وحناناً ثم طوقته بين ذراعيها وأخذت تقبله، ثم جذبت أخوته إلى صدرها وجعلت توزع عليهم القبلات وهي تقول لهم بل عمري أنا فداكم يا شعلة النور التي تضيء حياتي، وإذا كان يوجب التضحية من أحد فيجب أن أضحي أنا وليس أنتم.

قال لها شريف: ألا يكفيك تضحية يا أماه؟ دعينا نحن هذه المرة ننوب عنك ونرد لك بعض ما قدمته لنا.صمت لحظة قال بعدها: ولكن حتى الآن لم تقولي لنا ما بك؟

قالت: لماذا أنتم خائفين يا أحبائي؟ فأنا ليس بي شيء يستدعي منكم كل هذا القلق.

قالت ريم: كيف هذا يا أماه؟ فوضعك فعلاً يدعو للقلق.

ابتسمت ابتسامة باهتة وقالت لها: لا يا ريم، ليس لهذا الدرجة، فكل ما في الأمر أن هناك موضوعاً يشغل فكري، قليلاً، يخيل لي أنه بسيط لولا أنني أشعر بالحرج.

قالت لها سمر: قولي يا أماه وكفاك تردد وحيرة.

همست سهير قائلة: إني مترددة لأن الموضوع حساس بالنسبة لي.

قال عمر: مهما يكن نوعه أرجو أن تشاركينا به كي نساعدك على حله أم أنك ترينا لسنا جديرين بثقتك.

قالت له: أنا لم أقصد ذلك يا حبيبي، ولكن الموضوع دقيق للغاية وأرجو أن تفهموني جيداً، ولا تنظروا لي نظرة لوم واحتقار، فأنا لا أحتمل هذه النظرة منكم، وصمتت لحظة ثم أردفت قائلة: أتعلمون لماذا أنا محتارة وخائفة، لأنكم أنتم بالنسبة لي القاضي والدفاع، وكلمة منكم تبرأني أو تدينني، ما يهمني هو كلمة براءة منكم بعد ذلك، لا يهمني لو حكم علي العالم بالإعدام، المهم أن أكون في نظركم بريئة.

قال لها شريف: أماه أرجوك أن تتكلمي بصراحة وكفاك ألغازاً.

قالت له: حسناً سأتكلم وبعد أن أطرقت في الأرض قالت لهم بشيء من الخجل والارتباك: اسمعوا ما أقول وفكروا في كلماتي جيداً، ثم أعطوني الجواب صراحة ودون خجل، أو خوف أو مجاملة، لإرضائي، فأنا لا أريد منكم شيئاً من هذا القبيل، أريد الجواب من قلوبكم، من قناعتكم وتابعت قائلة: أن مصيري الآن بين أيديكم، كما كان مصيركم بين يدي من قبل، أنتم الآن تستطيعون تقديم السعادة لي طول عمري، كما تستطيعون انتزاعها مني وتجعلون من حياتي جحيماً.

وصمتت قليلاً ثم قالت: لقد ضحيت بسبعة عشر عاماً من عمري، عشت فيها مع رجل لا أحبه، كنت أحترق بنار ملتهبة السعير، حرمت خلالها من الحب والحنان، كنت أذوب مثل الشمعة كي أضيء أمامكم الطريق. وبعد عامين من طلاقي مازلت أكافح وأعمل وأعيش الحرمان من أجلكم وأجل تأمين مستقبلكم، عشت عمري كله وأنا في حرب مع الحياة وصراع مع الأيام، نسيت نفسي وعشت بكم

ولكم، حرمت نفسي من كل شيء، لغيب عواطفي وقلبي إلا لكم. والآن جاء دوركم كي تقدموا لي شيئاً من السعادة، صمتت لحظة قالت بعدها: ما رأيكم بسامر؟ قال عمر: إنه شاب جيد وخلوق وأنا شخصياً أحبه جداً.

قالت: أريد رأي الجميع فرداً فردا.

فرد الجميع بصوت واحد: إننا معجبون به ونحبه، صمت الجميع، تكلم شريف قائلاً، ولكن ما علاقة سامر بهذا الأمر الذي نسألك عنه؟

صمتت قليلاً وقبل أن تجيب وكأنها قادمة على البوح بسر خطير، ثم قالت بقليل من الخجل: علاقة سامر أنه تقدم لخطبتي ومن أجل ذلك كنت قلقة ومحتارة، ثم قالت بصوت حازم: أنا موافقة ولكن يهمني رأيكم بصراحة، فإذا كنتم غير موافقين فلن أتزوجه.

فخيم الصمت على الجميع للحظات تبادلوا خلالها النظرات وفهم كل واحد ما في نفس الآخر ثم تقدم عمر من أخوته واستأذنهم بنظرة خاطفة، فبادلوه النظرة بالموافقة، ثم تقدم من أمه وقال لها: أماه نحن ندرك كم ضحيت من أجلنا، وكم عانيت وتعبت كي تربينا أفضل تربية، والآن بعد أن انتهت رسالتك كأم يحق لك أن تعيشي حياتك كما تحبين، وتختارين الرجل الذي أحبه قلبك، وتعوضين السنين الماضية، ونكون جاحدين لو تخلينا عنك وناكرين للجميل، أنانيين لو نحن وقفنا في طريق سعادتك، ونحن لسنا كذلك يا أماه فنحن سعادتنا من سعادتك، ومهما فعلنا لا نفيك حقك، هذا شعورنا لو اخترت أي رجل، أما كونك اخترت سامراً فهذا له شعور خاص، فلا نكون مبالغين يا أماه لو قلنا أننا في منتهى السعادة لهذا الاختيار، فسامر شاب طيب وخلوق ونحن نحبه جداً والأهم من كل هذا أنه يحبك.

تخضب وجه سهير بالاحمرار ورمته بنظرة سريعة وكأنها تسأله وهل كنت تعلم بأمر هذا الحب؟ فأدرك عمر ما ترمي نظرات أمه فرد عليها قائلاً: صحيح أنني لم أقف على تفاصيل هذا الحب، ولم أر شيئاً ملموساً، ولكن كنت أرى حبك في عيون سامر، كنت أرى عيونه تفيض حباً عندما ينظر إليك كما كنت أرى هذا الحب في عيونك.

فارتبكت الأم ولم تعرف ماذا تقول له وكيف تجيبه على كلماته، فشعر عمر بارتباكها فقال لها: أماه أن الحب ليس جريمة ولا هو محرم، فالحب من حق كل إنسان ومن حقك أنت أيضاً أن تحبي وتختاري الرجل الذي ستعيشين معه باقي عمرك.

نظرت إليه بحب وقالت له والدمع يبرق في عينيها: لقد كنت دائماً أحس بأن تضحيتي لن تضيع سدى، وأنكم تستحقون هذه التضحية.

وصمتت قليلاً، ثم تقدم كل واحد على حدة يقبلها ويقدم لها التهنئة، فبادلتهم القبلات وهي سعيدة وبعد أن انتهوا من هذا الموضوع قالت لعمر غداً سترافقني لمراجعة المكاتب العقارية، إن لم يكن لديك أعمال؟

قال: أجل يا أماه، ولكن لماذا؟

قالت: سنبتاع منزلاً جديداً.

صاح الجميع: صحيح يا أماه؟

قالت: أجل.

قالت سمر: لماذا يا أماه؟ هل سنغير البيت؟

لأنه لم يعد يتسع لنا بعد زواجك، أجابت سهير: أجل

قالت ريم: ولكننا سوف نبعد عن خالة ناهد.

قالت: لقد فكرت بذلك يا ريم، ولكن ناهد طمأنتني حيث قالت هي أيضاً سوف ترحل عن هذا الحي إلى حي آخر أرقى منه.

صمتت قليلاً ثم قالت: يوجد لدي مفاجأة سوف أخبركم بها.

فصاح الجميع: ما هي يا أماه؟

قالت: سوف نشتري سيارة قريباً بعد أن أبيع هذا البيت، فصاح الجميع من جديد فرحين أحقاً يا أماه.

في اليوم التالي ذهبت سهير وعمر إلى حي راق، دار على جميع المكاتب العقارية، وبعد بحث دام ثلاثة أيام وجدت شقة واسعة جميلة مؤلفة من خمس غرف، لها شرفة واسعة حين رأتها سهير أعجبت بها كثيراً، فأسرعت إلى شرائها رغم أن ثمنها كان باهظاً، ودفعت العربون وعادت إلى المنزل تنتظر سامر كي تزف

له الخبر، لا ليس خبراً واحداً فهما خبران، خبر عثورها على شقة جميلة في حي راق، وخبر موافقة الأولاد على زواجها، ولم يطل انتظارها، حيث أتى في مساء اليوم التالي فزفت له البشرى، فكان سامر سعيداً بموافقة الأولاد أكثر من شراء الشقة.

وبعد أن انتهت من الحديث عن الشقة قالت له: سامر لم يبق سوى فرش الشقة وهذا العمل يحتاج إلى يومين ولكن يجب أن تذهب معي إلى السوق كي نختار الأثاث معاً.

قال: حسناً لنذهب الآن.

قالت: الآن؟

قال: أجل وما المانع؟ فلم تجب بل نهضت في الحال إلى غرفتها لتبدل ثيابها، وعند خروجها قال لها: فرش الشقة ونصف ثمنها سوف يكون عندك غداً، وفي نهاية الأسبوع الذي منحها إياه سامر، انتهت من كل أعمالها، فقد اشترت المنزل وفرشته بأفخر الأثاث وجهزته بجميع أنواع المعدات الكهربائية الحديثة واشترت ملابس الزفاف، وقد ساعدتها ناهد على شرائها، ناهد التي كانت تجوب معها الأسواق ولم يبق سوى ثوب الزفاف الذي سلمته إلى خياطة بارعة، ونقدتها ضعف ما تتقاضاه على الفستان كي تنهيه خلال يومين. وحين جاء سامر وأخبرته سهير قائلة: لقد انتهيت من كل شيء يا حبيبي، ولم يبق أمامنا سوى أن تذهب إلى دمشق لتخطبني من أهلي.

أسرع سامر بالسفر إلى دمشق لمقابلة أهلها، ولكنه عاد في نفس اليوم خائباً، فقد رفضه الأهل، ولم يأت رفض الأهل من حيث المبدأ، وإنما من حيث الاختيار.

فكون سامر ابن أخت مراد فهو مرفوض لأنهم يعتقدون أن هذا الزواج يجلب لهم الأقاويل، ولم يكتفوا بالرفض، وإنما ثاروا وغضبوا غضباً شديداً وحذروه من الاقتراب منها، هذا ما كان من أمر أهل سهير.

أما ما كان من مراد فهو حين علم بأمر هذا الزواج هاج وماج وهدد وتوعد أخته وسامر أن هو تزوج سهير.

أما سامر فصمم على هذا الزواج قائلاً له:

سوف أتزوج سهير ولتفعل ما يحلو لك، فأنا أحب سهير وهي تحبني وسنتزوج مهما كلفنا الأمر، فلن تستطيع أنت ولا أي إنسان على وجه الأرض أن يمنعني من هذا الزواج، فترك مراد سامراً وذهب إلى سهير غاضباً متوعداً وهددها أن هي تزوجت سامر، قال لها: تزوجي أي رجل تريدين ما عدا سامر، فرمته سهير بنظرة حقد وتشفي وقالت له: بأي حق تمنعني من الزواج من سامر؟

قال متلعثماً: بحق أنك كنت زوجتي.

أجابته ساخرة: كنت زوجتك فيما مضى، أما ألان لا يحق لك التدخل في حياتي وفرض شروطك علي ممن أتزوج وممن لا أتزوج، فهو ليس من شأنك، بل هذا من شأني أنا فأنا التي أختار الرجل الذي يناسبني وأنا التي أقرر، ثانياً تهديدك هذا لا يهمني في شيء، ولايخيفني، ثم تغيرت لهجتها وأصبحت أكثر حزماً وأشد قسوة حين قالت: اسمعني جيداً: أنا سأتزوج من سامر رغماً عنك، وعن كل شخص يقف ضد هذا الزواج، ولن أتراجع عن موقفي مهما لاقيت من صعوبات، ولا تستطيع أية قوة أن تفرق بيني وبين سامر، ولا يستطيع سلخي عنه سوى الموت فالموت وحده هو الذي يسلخني عنه بالجسد، أما الروح فستبقى مع روحه الطاهرة.

صمتت لحظة استردت فيها أنفاسها، ثم رمته بنظرة قاسية وقالت له بحدة، أنت كيف تسمح لنفسك بأن تقتحم عقر داري وتهددني وتملي علي شروطك؟ أتحسبني أخاف من تهديدك هذا؟ لو كنت تظن أني أخافك فأنت على خطأ كبير، فهذا كان فيما مضى أم الآن فقلبي لا يعرف الخوف لأن سكن الحب مكانه.

قاطعها قائلاً: لن أدعك تتزوجين من سامر حتى لو اضطررت إلى قتلك وقتله، أجل لن أدعك تتزوجينه وأدع الناس تسخر مني وهي تقول: لقد طلقت مراد وتزوجت سامر وأضاف قائلاً كم كنت غبياً حين وثقت بك وائتمنت سامر على بيتي.

أجابته بجفاء: كونك غبياً فهذا صحيح، أما ثقتك فأنا لم أخنها يوماً، أنا أحببت سامر هذا صحيح لأن قلبي ليس ملكك كما هو جسدي، فقلبي ملكي أنا أهبه لمن يرتاح له، أما جسدي الذي تملكه أنت فقد حافظت عليه طيلة مدة زواجي

منك، ولم أخنك يوماً أما حبي لسامر فهذا ليس خيانة لك لأنني لم أكن أحبك من قبل حتى يكون حبي لغيرك خيانة، فأنت تعلم جيداً أنني لم أحبك يوماً.

قال لها بانكسار: لماذا إذاً عشت معي سبعة عشر عاماً؟

قالت بسخرية: أحقاً لا تعلم لماذا عشت معك هذه السنين؟ إذا كنت حتى اليوم لا تتعلم لماذا فلا حاجة بك الآن لأن تعلم، وحين حاول أن يجيبها أسكتته قائلة: مراد كفى ما سمعته، فلا أريد سماع المزيد، لأنه لا يجدي نفعاً، فقد انتهى كل شيء بيننا فما عليك إلا أن تتركني بحالي وتنصرف.

فنظر إليها نظرة يأس وقنوط وخرج وهو يهدد ويزبد وصفع الباب خلفه بقوة وكأنه يصفع سهير، فارتعشت سهير من دوي الصوت الذي أحدثه صفع الباب ثم جلست على المقعد منهارة الأعصاب ووضعت رأسها بين يديها وراحت تفكر بطريقة تخرجها من هذا المأزق.

وفي نفس الوقت كانت سهير تقف فيه بوجه مراد وأهلها، كان سامر هو أيضاً يقف نفس الموقف في وجه أمه التي كانت تحارب هذا الزواج بشتى الطرق، وحين فشلت قالت له: لتتزوج سهير ولكن سأغضب عليك إلى الأبد، وأطردك إذا أتيت إلي، ولكن سامر ضرب بكلامها عرض الحائط وقال لها: إنني سأتزوج سهير لو خسرت الناس أجمعين، وأنت منهم، أما غضبك فلن ينالني منه شيء لأن الله سبحانه وتعالى يعلم أنني لم أعتد على حق من حقوقك كأم، وأنني ولد بار، فعلت كل ما يجب أن أفعله كابن مطيع، أما زواجي فهذا حق من حقوقي أنا أختار الزوجة المناسبة لي ولا أظن أن الله سبحانه قد أمر بأن ترغموني على الزواج من امرأة لا أحبها، وتحرموني من المرأة التي أحببت، وأضاف: أنا أستطيع أن أعيش من دونك لأن هذا شيء من طبيعة الحياة، فالود يستقل عن أبويه حين يتزوج، ولكن لا أستطيع العيش من دون سهير، فسهير حياتي، وروحي، ونور عيني التي أرى فيها الدنيا، وهي توأم الروح، ولن أستطيع العيش من غيرها ثم تركها.

وخرج دون أن يسمع منها الجواب، لقد وقف جميع الأقارب والمعارف ضد هذا الزواج، ولم يقف في صفهما سوى ناهد، فناهد هي وحدها التي وقفت بجانبهما، فلم تترك سهير لحظة، كانت تقوي من عزيمتها، وتشجعها على

الاستمرار وتحذرها من الضعف والاستسلام، رغم أن زوجها جلال هو أيضاً أخذ موقفاً من سهير، ولكنه تراجع واعتذر من سهير بعد أن اقتنع أن سهير ليست مخطئة ولم ترتكب خطأ أو جريمة بزواجها من سامر، فالشرع لم يحرم زواج المطلقة من أقارب زوجها، فكيف يحرم الإنسان ما يحلله الله؟ وحين اقتنع جلال بهذا تراجع عن موقفه من سهير واعتذر منها عما بدر منه تجاهها ثم انضم إلى صفها.

* * *

الفصل السادس عشر

في غضون الأيام الأخيرة التي كانت مليئة بالأحداث والمشاكل، جاءتها مفاجأة لم تكن تخطر على بالها، ولم تتوقع حدوثها فبينما كانت جالسة وحدها في المنزل بعد ذهاب الأولاد إلى مدارسهم، تستعرض الأحداث الأخيرة التي مرت بها، وكيف تخلى الأقارب والأصدقاء عنها ونبذوها وكأنها وباء يخافون الاقتراب منه، وإذ بالباب يطرق، فهنضت واتجهت نحوه تجر قدميها جراً وحين فتحته تسمرت قدماها على الأرض، وجحظت عيناها وعقدت الدهشة لسانها، وقالت بينها وبين نفسها: ما الذي أتى به الآن؟ وماذا يريد مني؟ هل أنا ينقصني مشاكل؟

قطع عليها تفكيرها حين قال لها: صباح الخير يا سهير، ردت عليه بارتباك: أهلاً كمال.. وصمتت وظلت مسمرة في مكانها تغلبها الدهشة والارتباك.

قال لها: هل تسمحين لي بالدخول؟

أيقظها من دهشتها هذا الطب، شعرت بالحرج فهي لا تستطيع أن تقول له لا، فليس من اللائق أن تقول له لا، وهي لا تعلم ماذا يريد بعد، فأجابته بصوت متردد فاتر، طبعاً.. طبعاً تفضل أرجو المعذرة يا كمال، لأن الدهشة أخذتني وأنستني بأن أدعوك للدخول، تفضل أهلاً بك.

فدخل كمال، وأغلق الباب دونه، وسار خلف سهير التي كانت تسير أمامه متجهة إلى الصالون، وبعد أن جلسا قالت له: أهلاً بك يا كمال، كيف حالك، وكيف فاديا والأولاد جميعاً.

أجابها بفتور: إنهم بخير وقبل أن يسألها عن حالها قالت له: قل يا كمال لماذا غبت عنا ثلاث سنوات؟ أين كنت طوال هذه المدة؟ وما الذي ذكرك بي بعد هذه الغيبة؟

نظر إليها كمال بلوعة وأسى قائلاً: أنا لم أنساك يوماً يا سهير حتى أذكرك اليوم؟ فأنت في قلبي وروحي، ورسمك لم يبارح خاطري لحظة، أما لماذا غبت كل هذه المدة فهذا يعود إلى رحيلي من هنا.

قالت له: رحيلك من هنا؟ إلى أين رحلت؟

قال: رحلت إلى دمشق بعد زيارتي لكم آخر مرة حين كنت مازلت عند مراد، حيث تابعت دراستي لرسالة الدكتوراه ثم عدت إلى هنا منذ أشهر قليلة عينت في جامعتها.

قالت له متصنعة الرغبة برؤيته: عدت منذ أشهر ولم نرك حتى اليوم؟ أعتقد أن هناك سبباً ما جعلك تزورنا.

قال: هناك أكثر من سبب لزيارتي، أولاً: شوقي إليك ولهفتي لرؤيتك، وثانياً: أردت أن أهنئك على نجاح ديوانك الشعري.

قالت له مستفسرة: كيف عرفت؟

قال لها: بالصدفة، فقد كنت أجوب المكتبات على كتاب كان مفقوداً فرأيت الكتاب ملصقاً عليه اسمك، في بادئ الأمر لم أصدق لأنني لم أتوقع يوماً أن تكوني شاعرة، وحين تأكدت مما رأيت اشتريته فوراً، وأسرعت إلى أقرب مكان أستطيع القراءة فيه.

قالت له: كيف وجدته؟

قال كمال: إنه رائع.

قالت له: أشكرك على هذا الإطراء، وإني شديدة الفخر بشهادتك هذه التي أعتبرها وساماً أعتز به، وصمتت قليلاً لتفكر ماذا يريد من وراء هذه الزيارة؟ وبينما هي تفكر بذلك كان هو الآخر يحدق بها ويتساءل عن سبب تغيرها الذي لاحظه منذ أن فتحت له الباب، ولكنه لم يجب على سؤالها، فهو كان يتوقع أن تكون فرحتها برؤيته أكبر مما رأى، كان يتوقع أن تأخذه بين ذراعيها بعد هذه الغيبة الطويلة، ولكنه لم ير منها سوى الدهشة والفتور، والارتباك، كان الاثنان صامتان، كل واحد يفكر بما يضايقه، وأخيراً تكلمت سهير قائلة: ولكن قل لي يا كمال كيف عرفت عنواني؟

قال لها: من عمر، قالت: وأين رأيت عمر؟

ـ ذهبت إليه في المدرسة.

قالت: ومن أين عرفت مدرسته أيضاً؟

قال لها في البداية ذهبت إلى بيتكم القديم لأنني لم أكن أعلم بأنك انفصلت عن مراد فقاطعته قائلة: إذن مراد هو الذي أعطاك عنواني؟

أجابها: لا ليس مراد، لأنني لم أجرؤ على سؤاله عن عنوانك، ولكني سألته عن الأولاد، وعن مدارسهم، فقال لي كل ما أريد دون أن يعلم لماذا أسأل، فذهبت إلى ثانوية عمر، وطلبت مقابلته، وحين رآني رحب بي، ولكنه في نفس الوقت استغرب مجيئي إليه، فشرحت له الأمر وسألته العنوان فزودني به.

قالت له محاولة تغطية فتورها، أهلاً بك يا كمال.

فلم يجبها بل نظر إليها نظرة ثاقبة غاصت إلى أعماقها وجعلت كل جزء منها يرتجف، حملت معها أقصى أنواع العتاب واللوم، والحب المتدفق. ثم قال لها: سهير هل لي أن أحدثك بأمر خاص قليلاً؟

قالت له: طبعاً، قل ما تريد يا كمال، صمت قليلاً ثم التفت إليها وقال: سهير لقد طلبت منك يوماً طلباً، ولكنك رفضتيه، لأنك لم تكوني قادرة على تنفيذه يومذاك، ولكنك اليوم تستطيعين تنفيذه لو أردت، وأنا الآن أعيد عليك هذا الطلب بل هذا رجاء، هل بإمكانك أن تجيبيني؟

ارتبكت سهير وراح قلبها يخفق لأنها فهمت ماذا يريد ولكنها تجاهلت عواطفه، وأجابته بصوت مضطرب: خيراً يا كمال ماذا هناك؟ فازداد كمال تأكداً من تغيرها فحدق بها قليلاً وهو يهز رأسه، كانت نظراته تحمل معان كثيرة ثم قال لها: أني أراك الآن ليس كما كنت في الماضي يا سهير لقد تغير كثيراً.

أطرقت رأسها في الأرض ولم تجب.

قال لها: هل أصبح وجودي يضايقك إلى هذه الدرجة، رسمت على ثغرها ابتسامة عريضة ثم قالت له: إطلاقاً.. إطلاقاً يا كمال، كيف تقول هذا؟ فأنا جداً مسرورة لرؤيتك.

قال: إذا كان الأمر كذلك، لماذا تتجاهلين كلامي؟ لماذا تخفين عينيك وتهربين من نظراتي؟ لماذا تخفي هاتين العينين اللتين كنت أمضي ساعات طويلة وأنا أنظر إليهما؟ لماذا تخفين هذه البسمة التي طالما جذبتني وفتنت عقلي؟

كان كمال يتكلم بصوت يقطر حباً، ويفيض حناناً.

ولكن سهير قاطعته قائلة: لقد كنت تريد مني طلباً، ما هو يا ترى؟ فأنت لم تقوله بعد.

اغتصب ابتسامة حزينة وقال لها: أرأيت يا سهير كيف أنك تهربين من أي حديث يدور حول ماضينا؟ ألم أقل لك أنك تغيرت كثيراً؟ وصمت قليلاً قال بعدها: ولكن رغم ذلك فأنا مصر على طلبي هذا.

قالت له متجاهلة مرة ثانية عواطفه وما يرمي إليه: ما هو هذا الطب؟

قال لها بأسى: نسيت يا سهير، نسيت طلبي الذي كان أمنيتنا نحن الاثنين.

أجابته بتلعثم: إني.. إني لا أفهم ماذا تعني.

قال: حسناً سوف أفهمك ما أعني، أتذكرين يوم طلبتك للزواج؟ أيام كنا جيران، وكان عذرك يومذاك أن أولادك صغار، وهم بحاجة إليك، أما الآن بعد أن طلقت من مراد وأولادك قد كبروا أعتقد لم يبق أمامك أي عذر، هذا إذا كنت مازلت تحبينني.

نظرت إليه بسرعة وكأن عقرباً لسعها فردت عليه مستغربة: ماذا قلت؟

قال لها: إني أطلبك للزواج، ما هو رأيك؟

ارتبكت ولم تعرف ماذا تقول له، فظلت صامتة وراحت تحدث نفسها قائلة: بماذا تجيبه، وكيف ستنقذين نفسك من هذا المأزق؟ أجل ماذا تقولين له؟ أتقولين له الحقيقة وتربحين نفسك؟ لا.. لا لا أستطيع، فإن قلت له سوف أقضي عليه، ولكن ماذا أفعل؟ أأخدعه وأوافق على طلبه وأجعله يعيش في وهم يتعلق بأمل بعيد المنال؟ لا لا.. لا أستطيع أيضاً خداعه، يجب أن أصارحه وأنتهي من هذا العذاب الذي أنا فيه، أجل إنه عذاب ما بعده عذاب، فأنا أكاد أذوب شفقة عليه، يا لهذا القدر الذي يرميني دائماً في مواقف صعبة ولكن ماذا أقول له؟ أأقول له أني أحببت شاباً غيرك؟ وأنا على وشك الزواج؟ أجل سوف أقول له، وليحصل ما يحصل، هذا أفضل من خداعي له، أجل سوف أصارحه بالأمر، وأنهي هذه المعضلة، في هذه اللحظة أيقظها كمال من شرودها حين قال لها سهير: لماذا لا تجيبيني؟ لماذا هذا

الصمت الطويل؟ سهير لماذا هذا الفتور؟ إنه يزعجني، قولي ما رأيك؟ قولي بماذا تفكرين؟

ابتسمت ابتسامة صفراء وقالت له بمرارة: سوف أصارحك ولكن أرجو أن تفهمني، فأنا أعلم أن جوابي سيكون قاسياً ومؤلماً وأن تقبله ليس بالأمر السهل، ولكن يجب أن أقوله ويجب أن تتقبله، لأن ليس لي يد فيه، وإنما يد القدر هي التي وضعته، يجب أن ترضخ للواقع الأليم الذي لا يحمل لنا سوى المرارة.

قال لها: سهير ماذا تعني بكلامك هذا؟ لهجتك تخيفني.صمتت قليلاً ثم قالت: كمال أنا لا أستطيع الزواج منك وصمتت كي ترى تأثير كلامها عليه، ورأت ما كانت تتوقعه فقد امتقع لونه، وجحظت عيناه، وارتجفت شفتاه، وبدأ وكأنه خارج من معركة طاحنة، كانت هذه الكلمة بمثابة قنبلة قذفت في وجهه، كأن خنجراً أغمد في صدره، وبعد مرور دقائق كانت أثقل من الصخور، أقسى من لحظات الاحتضار، لملم أفكاره الضائعة، واستعاد قوته المحطمة،واسترد صوته الذي خنقته الصدمة، وهمس بصوت عميق وكأنه آت من أعماق البحر: هل لي أن أعلم ما هو السبب الذي يمنعك من الزواج بي؟ أجل أريد معرفة السبب الحقيقي يا سهير مهما كان مراً، فأطرقت رأسها وقالت له بخجل وارتباك:

أجل سوف أقول لك، وصمتت لحظة استعادت خلالها شجاعتها ثم قالت له: السبب هو أني مخطوبة، وأني على وشك الزواج.

قال لها: كيف حدث هذا؟ ومن هو العريس؟

قالت له: ليس مهماً من هو العريس، ولكن المهم كيف حدث، وتابعت حديثها أن ما حدث يا كمال بعد أن رحلت أنت وتركتني وحيدة أعاني من الوحدة القاتلة، أبكي لفراقك بدموع محرقة، بعد رحيلك لم يعد من يخفف عني عذابي، خاصة بعد انقطاع رسائلك عني، فقد انطفأ آخر شعاع نور كنت أستمد منه الأمل فقد انتظرت طويلاً لأتلقى رسالة منك، انتظرت لقاءك ولكن طال انتظاري حتى تسرب اليأس إلى نفسي، وفقدت كل أمل من لقائك ورغم ذلك أغلقت على قلبي الباب، ولم أسمح لأي رجل بدخوله، لقد حبست نفسي في عالم خاص، عالم ذكرياتي الماضية، وعشت فيها سنين طويلة، كنت أعيش مع كل كلمة تحدثنا بها،

وكل نظرة تبادلناها، وكثيراً ما كنت أتخيل نفسي بجانبك أسمع نبضات قلبك، ولكن ما ألبث أن أصطدم بالحقيقة المرة التي ليس منها مفر، وهي أننا لن نلتقي أبداً، ولو حدث هذا فسيكون لقاءاً عابراً. بقيت هكذا طويلاً، أعيش الماضي، وأتجاهل الحاضر، وأقنعت نفسي وعودتها على ذلك، إلا أن القدر لم يتركني وشأني، فقد حمل لي الحبيب المجهول الذي كتب حبه على صفحات القدر واستطاع هذا الحبيب الذي أتى من عالم الغيب أن يتسلل إلى أعماقي من خلال تلك الثغرات التي أحدثها غيابك. قاطعها كمال قائلاً: وهل أحببتيه إلى درجة أنك تفضلينه عني؟ أجابته قائلة: كمال لا يمحو الحب القديم سوى حب جديد، أقوى من الجبال، حب أقوى من أمواج البحر حين تهب عليه عاصفة هوجاء، لا يمحو الحب القديم سوى حب جديد حمل معه أمل اللقاء الأبدي، اللقاء الذي ليس بعده فراق، حب جديد يحمل معه الاستقرار والراحة الأبدية، وحب سامر هكذا، حب لم يحمل لي اللقاء والاستقرار فحسب، وإنما حمل معه الحياة التي كنت أحلم بها، حمل معه النصر بعد جهاد طويل، وفتح أمامي أفاقاً واسعة، حب سامر حمل لي المرفأ الذي سترسو عليه سفينتي بعد رحلة طويلة في أعماق البحر رأيت فيها الموت أشكالاً، هذا حب سامر، أما كوني أفضله عليك فهذا يعود إلى أنه ينتظرني منذ خمس سنين كان بإمكانه الزواج من أجمل الفتيات، وصمتت لترى أثر كلامها على وجهه ثم قالت له: كمال إني أعتبرك الآن صديقاً وأخاً، وأتمنى أن تكون أنت أيضاً كذلك، ثم نظرت إليه نظرات اعتذار وقالت له: كمال إني آسفة لما قلته لك، وأرجو ألا تغضب مني، فأنا أتمنى أن تكون لي الصديق الوفي الذي ألجأ إليه يوم الشدة، فالصداقة يا كمال تدوم طويلاً، نظر إليها كمال، والدموع تترقرق في مقلتيه وقال لها: لقد أدميت قلبي بطعنة نجلاء يا سهير، فكلامك هذا يسقط على جسدي كالسوط يجلدني، وأنت تقولين سامر انتظرك خمس أعوام، ألم أبق أنا على حبك عشرة أعوام ألم أمضي هذه السنين الطويلة وأنا مازلت أحبك؟ ألم أعرض عليك الزواج وأنت التي رفضت؟ أجابته بصوت متهدج قائلة: كمال أرجوك أن تكف عن هذا الكلام، أرجوك أن ترحم نفسك وترحمني، كمال الذي حدث ليس لي يد فيه، إنه القدر، هو الذي يتلاعب بمصيرنا، فليس هو ذنبي ولا ذنبك، القدر

هو الذي رماك في طريقي حين كنت لا أستطيع الطلاق من زوجي، وأبعدك في حين كنت بأمس الحاجة إليك، ثم أعادك إلي أيضاً ولكن بعد فوات الأوان، لقد تأخرت كثيراً يا كمال، أجل تأخرت بعودتك، أرأيت كيف أن القدر هو الذي يسير طريقنا؟.

ظل كمال صامتاً، لم يجب وقد وضع رأسه بين يديه، وعندما رفعه، ظهرت دمعتان سقطتا رغماً عنه، ثم نظر إليها من خلال دموعه، هل أنت مصممة على الزواج من سامر حقاً؟

هزت رأسها علامة الموافقة: ابتلع كمال ريقه، وقال بصوت تخنقه الغصة: وهل أنت واثقة من حبه لك؟

أجابته بصوت هامس: نعم كل الثقة.

قال لها بصوت المحب: ولكن مهما أحبك سامر لم ولن يحبك كما أحببتك أنا.

فارتبكت سهير وراح قلبها يضطرب بشدة ويعتصر ألماً عليه وهي تسمع كلماته وترى الدموع تنحدر من مقلتيه، فقالت له: كمال أرجوك أن تشفق على حالك وترحم قلبي، فأنا أتعذب من أجلك، نظر إلى عينيها ورأى الدموع تنساب على خديها فقال لها سهير لا تحزني من أجلي يا حـــ.

وكاد أن يقول يا حبيبتي، ولكنه أدرك نفسه فصمت لحظة ثم قال لها: سهير أني لا أحب أن أرى الدموع في هاتين العينين الساحرتين، لا أحب أن يسكن الحزن قلبك، فكما قلت الذي حدث ليس لك ولا لي يد فيه، ثم ابتلع ريقه بعصوبة وقال لها بصوت هامس: سهير بكل الحب الذي في قلبي، وكل العذاب الذي سوف أتعذبه، وكل الدموع التي أذرفها أتمنى لك السعادة مع الإنسان الذي أحبك قلبك، فهنيئاً له بحبك، نطق بهذه الكلمة الأخيرة وتهدج صوته بالبكاء، فصمت حتى استعاد صوته ثم قال: أتمنى أن يكون يستحق هذا الحب، وإذا كان غير ذلك فالويل له كل الويل يا سهير لو جعل هاتين العينين تذرف دمعة، الويل له لو جعل هذه البسمة الفاتنة تغيب من فوق شفتيك الورديتين.

قالت له: كن مطمئناً يا كمال، أنه يحبني وسيحقق لي السعادة.

نظر إليها كمال نظرة حزينة تائهة، ونهض دون أن يجيبها فأوقفته قائلة: لماذا هذه العجلة يا كمال؟

قال: لأنه لم يبق لوجودي مبرر، كما لم يعد يوجد أي شيء نتحدث به، لذا يجب أن أخرج وإلى الأبد من بيتك ومن حياتك.

قالت له: كمال انتظر.

تسمر كمال في مكانه: بينما نهضت هي من مكانها وتقدمت منه بخطوات بطيئة مترددة، ثم قالت له بصوت مضطرب مهزوز: كمال ألا تريد أن تحضر زفافي؟

أجابها بصوت تخنقه العبرات: ومتى سيكون الزفاف؟

قالت له: يوم الخميس القادم سوف أرسل لك بطاقة دعوة ويجب أن تحضر كي أطمئن إلى أنك لست غاضباً مني.

أجابها بصوته الحزين: وهل أستطيع أن أغضب منك يا سهير؟ فأنت ستظلين الحبيبة لقلبي مهما فعلت بي.

أطرقت سهير رأسها وقعد شعرت بقلبها بتمزق، ولكن ماذا تفعل فكل شيء حدث رغماً عنها ودون إرادتها.

فنظر إليها نظرات يأس وقنوط وخطا بضع خطوات نحو الباب.

فنادته سهير: كمال انتظر فالتفت إليها متسائلاً بنظراته، فقالت له: كمال أرجو أن لا يعلم احد غيرك بموعد الزفاف، همس كمال: لماذا؟ قالت له: إني لا أكتمك القول يا كمال فأهلي وأهل سامر ينصبون لنا العداء، يقفون ضد هذا الزواج، فاضطررت بالاتفاق مع سامر على الزواج دون علم الجميع.

أجابها بصوت متحشرج: كوني مطمئنة يا سهير، لن يعلم به أحد، وأشاح بوجهه وهو يخرج مسرعاً.

في اليوم التالي جاء سامر ليصطحب سهير إلى المحكمة، وبعد تحية الصباح قال لها برقة: هل أنت جاهزة يا حبيبتي؟.

قالت له: أجل.

- إذن هيا بنا قبل أن يدركنا الوقت.

قالت: ولكن ألا نذهب أولاً إلى ناهد لترافقنا وزوجها إلى المحكمة؟

قال: وهل أخبرتها بذلك كما اتفقنا؟

قالت: وهل يفوتني هذا؟

أجابها سامر بلهجته المرحة: لو فاتك ذلك لما استطعت أن تكوني حبيبتي، وأطلقا ضحكة خفيفة، ثم خرجا قاصدين بيت ناهد وحين وصلا رأوها بانتظارهما، فدعتهما فوراً لتناول طعام الإفطار وقالت لهما: لقد تأخرنا بالإفطار كي تشاركانا إفطارنا.

وبعد الانتهاء من الإفطار انطلقوا جميعاً في سيارة جلال إلى المحكمة لعقد القران، وبعد خروجهم من المحكمة قال سامر لسهير أين سنذهب يا حبيبتي؟

قالت له: إلى أي مكان تريد.

قال: ماذا ينقصنا من لوازم الفرح؟

قالت: لم ينقصنا سوى الحلوى والورد.

إذن هيا نعرج على أصحاب المحلات لتنفق معهم على إرسالها يوم الخميس، ثم نذهب إلى أي مكان تحبون، ثم التفت إلى جلال وقال له: ما رأيك يا جلال؟

قال: أنا اليوم لا عمل لي حيث أخذت إجازة لأتفرغ لكم.

قالت ناهد: وأنا أيضاً ليس لدي عمل فأنا تحت تصرفكم.

قالت سهير: هذا عظيم، هيا إذن إلى أحد الأماكن نجلس بين أحضان الطبيعة لنتناول معاً طعام الغداء.

وافق الجميع، لكن سامر أبدى ملاحظة قائلاً أليس من الواجب أن نحتفل مع الأولاد هذا اليوم؟

قالت سهير: وهل يفوتني هذا؟ سوف نحتفل معهم في المساء لأنهم الآن في المدارس.

أجابها: حسناً هيا بنا، فانطلقوا في السارة يسابقون الريح، فأمضوا يوماً جميلاً، عادوا بعد ذلك إلى البيت سعداء، فوجدوا الأولاد بانتظارهم تقدموا جيمعاً من سهير وسامر وقدموا لهما التهنئة وباركوا لهم هذا الزواج، بعدها قالت لهم سهير: اسمعوا يا أحبابي سوف ندعوكم هذا اليوم إلى عشاء فاخر احتفالاً بعقد

قراننا، ما رأيكم بهذا؟ قال عمر: إذا كان لا بد من ذلك فليكن هنا في المنزل. قالت له سهير لماذا يا حبيبي؟ قال عمر: لأن غداً عندي امتحان ويجب أن أذاكر كثيراً كي أضمن النجاح في الثانوية العامة، فالنجاح يا أماه يلزمه دراسة، وافقه الجميع على رأيه، أما سهير لم توافقه بالرأي فقط وإنما تقدمت منه وطبعت على خده قبلة مليئة بالحب الأمومي وهي تقول له: أدعو الله أن يوفقك يا بني ويجعلك من الناجحين ثم تركته واتجهت نحو الهاتف واتصلت بإحدى المطاعم طالبة عشاء فاخراً، أما سامر فقد تبرع بمشوار لشراء الفاكهة والحلوى، وخلال ساعة كان كل شيء جاهزاً. التف الجميع حول المائدة يأكلون ويضحكون ويلقون النكات، وبعد الانتهاء من الطعام، تناولوا الفاكهة والحلوى، بعدها انتقلوا إلى الصالون يمزحون يوضحكون ويرقصون على أنغام الموسيقى، فكان سامر لطيفاً، خفيف الظل، لم يدع شيئاً يحبه الأولاد إلا وفعله، أمضوا تلك السهرة بسعادة وسرور، وفي نهاية السهرة هم سامر بالخروج فقالت له سهير: متى ستعود؟ قال لها: غداً سوف أذهب إلى عملي وأطلب إجازة شهر، وأعود إليك سريعاً. قالت سهير: وهل يمنحوك إجازة شهر؟. قال طبعاً.. يحق لكل ضابط إجازة شهر حين زواجه. همست سهير: حسناً سوف أنتظرك غداً فلا تتأخر علي وتقلق، فكري فابتسم، وقال لها: لا لن أتأخر يا حبيبتي بإذن الله، كوني مطمئنة ثم ودع الجميع وانصرف.

* * *

الفصل السابع عشر

مضى هذان اليومان كسابقهما من الأيام وجاء الخميس هذا اليوم الذي انتظرته سهير سنيناً طويلة، والذي كان بالنسبة لها حلم بعيد المنال طالما بنت له قصوراً شاهقة في خيالها.

في الصباح الباكر من يوم الزفاف، جاء سامر كي يرى ما يلزم حبيبته الغاليةَ من أشياء ولكنها طمأنته بأن كل شيء على ما يرام، وأنه لم ينقصها شيء، سوى الذهاب إلى الكوافير وذلك بعد الظهر حيث ناهد هي التي ستقوم بترتيبات الفرح.

سألها سامر قائلاً: وهل مازلت مصممة على أن يكون الفرح في بيت ناهد؟

أجابته سهير: أجل لأنني أخشى أن قمنا بالفرح هنا أن يأتينا أحد من المعارضين، ويفسد علينا ليلتنا هذه.

قال سامر حسناً ليكن ما تريدين، وقبل أن يتابع كلامه قالت له سهير وكأنها تذكرت شيئاً: لأتصل بناهد وأرى ماذا فعلت؟ تناولت الهاتف، وأدارت الرقم، وبعد لحظات سمعت صوت ناهد ينساب عبر الأسلاك وهي تقول: ألو من..؟

قالت سهير: صباح الخير يا ناهد.

قالت ناهد: سهير. أهلاً.. كيف حالك هذا اليوم؟

أجابتها سهير بصوت يحمل الحب والسعادة: إني بألف خير طالما أنت صديقتي، وسامر حبيبي.

أجابتها ناهد وهي تضحك ضحكة عالية.. الله.. الله. ما هذا الغزل في هذا الصباح؟ على ما يبدو أن سامر بقربك لأنني أتنشق رائحته عبر الهاتف.

قالت وهي تضحك وتغمز بعينها سامر: أجل إنه بقربي وهو يبلغك تحياته.

وقبل أن تسمع الجواب قالت لها: ماذا تفعلين الآن؟

قالت ناهد: إني أقوم ببعض الترتيبات.

قالت سهير هل تحتاجين إلى مساعدة؟

قالت: لا يا حبيبتي فقد أوشكت على الانتهاء.

أجابتها سهير برقة: ألف شكراً لك يا حبيبتي، وإن شاء الله سأرد لك الجميل يوم (تنجبي)لنا عروسة جميلة مثلك.

أجابت ناهد مداعبة: بل أنا لا أرضى بها إذا لم تكن رائعة الجمال مثلك، مثل صديقة أمها سهير، وضحكو ضحكة عالية.

ثم قالت سهير: يجب أن تكوني جاهزة في الساعة الواحدة كي نذهب إلى الكوافير.

قالت: حسناً سوف أكون بانتظارك في هذا الوقت ثم ودعتها وأغلقت السماعة برفق.

قال لها سامر الذي كان يستمع إلى الحديث وهو ينظر إليها ويبتسم، ماذا قالت لك؟ هل انتهت من كل شيء؟

أجابته: أجل !

قال لها: هل ستعودين إلى هنا؟. أم إلى بيت ناهد مباشرة؟

قالت سهير: بل سأعود إلى بيت ناهد لأنه لم يعد لي عمل هنا، فألحق بي إلى هناك.

في الساعة الواحدة عاد الأولاد من مدارسهم، فاصطحبت سهير ريم وسمر معها، وراح شريف وعمر مع سامر حيث رافقهما سامر إلى الكوافير ثم عاد مع الأولاد.

بعد ساعات عادت ناهد وسهير إلى البيت فتناولتا طعام العشاء ثم دخلت سهير غرفة ناهد لوضع المكياج، وارتداء فستان الزفاف.

فقامت ناهد بمساعدتها، وما أن انتهتا حتى جلستا تتجاذبان أطراف الحديث.

في هذه الأثناء جاء سامر فاستقبله جلال الذي كان ينتظر قدومه، فدعاه للجلوس ريثما تنتهي سهير، فطلب منه سامر أن يستعجلها بالحضور، فأسرع جلال يلبي طلبه حين سمعت سهير يستعجلها، قالت له: حسناً دقائق وأكون عندكم.

فعاد جلال يخبر سامر بقدوم العروس، أما الأولاد حين رأوا سامراً يحترق شوقاً لرؤية العروس، التفوا حوله وراحوا يمازحونه، يلقون النكات ويضحكون.

ظلوا هكذا حتى حضر المدعوون واستقبلوهم بالترحاب، انشغل سامر مع الضيوف والأولاد قليلاً ولكنه كان بين لحظة وأخرى يظهر القلق على وجهه وأخيراً مل الانتظار، فانتحى بسمر جانباً وطلب منها أن تستعجل العروس لأن الضيوف قد حضروا.

فقالت له سمر بطريقتها المرحة: هل تستعجلها حقاً من أجل الضيوف فقط يا عماه؟ فنظر إليها نظرة فهم مغزاها، وقال لها الحقيقة يا سمر أني أشعر وكأنني لم أرها منذ شهور، قالت له سمر مازحة، يا لحظك السعيد يا أماه وانصرفت مسرعة، فنظر سامر إليها وابتسم ثم عاد إلى المدعوين، أما سمر حين دخلت على أمها قالت لها: أماه الحقي العم سامر قبل أن يترك المدعوين ويأتي إليك، لقد نفذ صبره. هيا بنا، فنظرت إليها سهير وابتسمت بخجل، فرمتها سمر بنظرة حب وإعجاب.

وقالت لها: إن عمي سامر معه حق، فمن يرى هذا الجمال الخارق لا يستطيع فراقه ولو للحظة واحدة.

قالت لها ناهد: كفي عن هذا يا خبيثة وعودي إليهم فنحن قادمتان.

فابتسمت سمر وقالت لها: حسناً واستدارت نحو الباب فأوقفتها ناهد قائلة: سمر، ضعي أسطوانة في البيك آب ونحن قادمتان، فهرعت سمر إلى البيك أب ووضعت عليه أسطوانة وأدارته وكانت الأغنية تخص أمها " تمختري يا حلوة يا زينة "

ولم يكد صوت الأغنية ينطلق حتى ظهرت سهير بثوبها الأبيض الجميل، وطرحتها البيضاء التي وضعت فوق تسريحة الشعر، فزادته فتنة وجمالاً فتركت سمر البيك أب وأسرعت إلى أمها تتأبط ذراعها أسوة بناهد التي كانت متأبطة ذراعها اليمنى، فتعلقت الأنظار بها وهي تهبط السلم ببطء، وكأنها ملكة توجت على عرشها، فتقدم سامر بخطوات حتى غدا أمام أول درجة من السلم، وراح ينظر إليها وكأنها كوكب يهبط عليه من السماء لتضيء حياته، وتشعل الشموع التي كانت منطفئة حين وصلت إليه، مد إليها يديه، وأمسك براحة يديها، وطبع عليهما قبلة ناعمة، ثم طبع قبلة أخرى فوق جبينها وقال لها: ما أروعك يا سهير وما أجمل

هذا الفتسان الذي وضع فوق جسمك الفتان، إني أتساءل أيهما وقع على القلب عيناك الساحرة، أم بسمتك الفاتنة.

إني لم أر عروساً أجمل منك، فلا يوجد جمال كهذا الجمال الذي يجمع بين عذوبة الروح، وجمال الشكل، اقتربت ناهد منهما وقالت له مازحة: سامر نحن هنا، ما بالك نسيت كل من حولك فالذي يراك يظن أنك أتراها لأول مرة.

همس سامر قائلاً: حقاً إني أراها لأول مرة، فأنا كلما غبت عنها لحظة أشعر وكأني لم أرها منذ سنين، ثم نظر إلى ناهد وقال لها: بالله عليك يا ناهد، هل رأيت عروساً أجمل منها؟ قالت: الحقيقة لم أر، فحين انتهت من زينتها فتنت بها قبلك وكأنني فعلاً أراها لأول مرة.

نظر سامر إلى سهير وقال لها بحب: أرأيت يا حبيبتي كيف أني لا أبالغ بأي كلمة أقولها، وأني لست الوحيد الذي فتن بهذا الجمال فتنحنحت ناهد ثم قالت له: إني أهنئك يا سامر من كل قلبي، وأتمنى لكما حياة سعيدة، ودنت من سهير التي كانت تستمع إليهما وهي تبتسم وقبلتها وانصرفت إلى الضيوف الذي كانوا يتفرجون، ثم تقدمت سمر وريم وقبلتاها وقدمتا التهنئة إلى سامر، ثم جاء عمر وشريف وقبلا سهير، وقدما التهنئة إلى العم الحبيب.

وأخيراً تقدم جلال وقدم لها التهنئة، ثم عاد كل إلى مكانه يستمع ألحان أسطوانة راقصة، وراحت ريم وسمر ترقصان على أنغامها، فدبت النشوة أوصال الجميع وراحوا يغنون ويرقصون ويثرثرون، وانفرد سامر وسهير ليسكبا أرق وأجمل كلمات الحب.

وفي منتصف السهر أحضر عمر آلة التصوير، وراح يلتقط الصور للعروسين بأوضاع مختلفة ومواقف غرامية، وبعد ذلك انصرف المدعوون تاركين العروسين لسعادتهما، وبعد انصرف آخر ضيف التفت سامر إلى سهير قائلا أما نلجأ إلى عشنا؟

قالت ناهد: إذهبا أنتما إلى منزلكما واتركا الأولاد هنا.

قالت سهير: كيف هذا يا ناهد؟ يجب أن يذهبوا معنا.

قالت ناهد: لماذا يا أختاه؟ وقبل أن تسمع الجواب قالت بصوت حازم بل سيبقون هنا هذه الليلة وفي الصباح نأتي لزيارتكم.

قالت سهير: ولكن هذا لا يجوز يا ناهد يكفي ما سببناه لكم من إزعاج.

أجابتها بعتاب: لا تقولي هذا يا سهير، فما فعلته هو واجب تجاه أخت غالية وصديقة مخلصة.

ردت عليها سهير بنظرة شكر، فتابعت ناهد قائلة، لقد هيأت غرفة الأولاد منذ الصباح، فلن يسبب بقاؤهم أي إزعاج.

أجابتها سهير: وهل الأولاد موافقون على ذلك؟

قالت ناهد: إذا كان الأمر يتوقف على رأي الأولاد فلم يعد هناك إشكال، وإذا لم تصدقيني خذي رأيهم.

التفتت سهير نحو الأولاد وطرحت عليهم السؤال. أجابها الجميع بالموافقة، فقالت لهم، ولكن كيف ستذهبون إلى مدارسكم والكتب هناك في المنزل؟

أجابتها سمر وهي تضحك وهل يفوتنا هذا يا أماه، لقد أحضرنا أدواتنا معنا لأننا متفقون مع الخالة ناهد منذ يومين، فضحك الجميع وقالت لهم سهير: هكذا إذن ترتبون أعمالاً دون علمي، حسناً سوف أرد لكم هذا المقلب قريباً إن شاء الله.

قال سامر: وأنا أيضاً سوف أساعدها على ذلك، ثم تأبط ذراع سهير وسار بها نحو الباب وهو يودع الجميع، فلحق بهما الجميع وهم يغنون ويصفقون حتى أصبحوا خارج البيت.

عاد الجميع سوى جلال، الذي تطوع إيصالهما بسيارته وانطلق بهما نحو عش الزوجية، وخلال ربع ساعة كانا يقفان أمام باب الشقة، ففتحها سامر، ثم تأبط ذراع سهير ودخل بها مغلقاً الباب دونهما، وما أن أصبحا داخل الشقة، حتى حملها سامر بين ذراعية وسار بها إلى غرفة النوم وطاف بها أرجاء الغرفة، ثم أنزلها برفق وأمسك براحة يدها، وثبت نظراته بعينيها وكأنه يريد أن يحتويها بعينيه وقال لها:

ـ سهير كم أنا سعيد، وكم هي فرحتي كبيرة، فأنا لا أصدق أننا أصبحنا زوجين لا أصدق أن القدر جمعنا بعد طول انتظار، إني أشعر بأن الفرحة والسعادة أكبر من قدرتي على احتمالها.

أجابته بصوت يفيض حباً، وأنا أيضاً يا حبيبي أحس نفس الشعور، إني أشعر وكأني أعيش في حلم جميل أتمنى ألا أصحو منه، وألقت برأسها الجميل فوق صدره، وطوقت عنقه بيديها الناعمتين، ثم احتضنها بين ذراعيه ودفن وجهه بشعرها، وراح يستنشق رائحتها العطرة وهو يهمس لها بكلمات الحب، وهي تستمع إليه بنشوة عارمة، ثم رفع رأسها عن صدره برفق ولمس وجهها براحة يده، وحدق بعينيها طويلاً وكأنه يروي ظمأه من هاتين العينين ثم همس لها: سهير أحبك.. أحبك.. أحبك حباً لو وزع على العالم لأصبح كله حب، أحب كل شيء فيك، أجابته سهير وهي ما زالت تبادله النظرات: سامر يا حبيب العمر وتوأم الروح، يا منى الخاطر، وبهجة العمر، أنت الأمل الذي أحيا من اجله، أنت من أحببت أيها الحبيب، آه كم انتظرت هذه اللحظة، وكم حلمت بها، وكم ذرفت من دموع حتى وصلت لها، سمر إني أحبك.. أحبك.. أحبك.. فأغمض سامر عينيه من شدة النشوة ثم جذبها إلى صدره وعصرها بقوة وأطبق شفتيه فوق شفتيها وراحا بقبلة طويلة ملتهبة أفقدتهما اتزانهما، وتلاشت بين ذراعيه لدقائق أيقظها سامر حين رفع رأسها بين يديه ونزع الطرحة من فوق رأسها، ثم أمسكها من يدها، وتقدم بها إلى السرير، فجلسا متلاصقين، وراح يداعب شعرها ويتحسس وجهها ويحدق بعينيها طويلاً، وهذا أكثر شيء كان يحبه وانصهرت سهير بين يديه وذابت بنظراته، وسكرت حتى الثمالة، ولم يشعرا بحالهما إلا والفجر قد بزغ وهما على حالهما بثياب الزفاف جالسين فوق السرير، كان لديهما كلام كثير قالوه، وشوق عظيم بثوه شوقاً لا ينتهي. وعند طلوع الشمس خلعا ثيابهما وناما نوماً هادئاً ولم يستيقظا إلا والساعة تدق العاشرة صباحاً، نهض سامر أولاً واستوى على السرير، وراح ينظر إليها وهي نائمة وكأنها حورية من حوريات الفردوس، ثم دنا من وجهها وطبع على خدها عدة قبلات ناعمة ثم هبط إلى شفتيها بقبلة طويلة رقيقة، ثم نهض من السرير وخرج إلى الشرفة وأتى بزهرة حمراء، وراح يداعب أنفها، ففتحت سهير عيناها، ونظرت إليها والبسمة الساحرة على ثغرها. فقال لها: صباح الخير يا حبيبتي.

أجابته والبسمة ما تزال على شفتيها: صباح النور أيها الحبيب، فهمس وهو ما زال يحدق بها: كم أعشق هذه الابتسامة الفاتنة.

أجابته: وكم أنا أعشق فيك هذه الرقة، وهذه الوسامة، وهذه الجاذبية ثم استوت قليلاً وطوقته بذراعيها وقبلته عدة قبلات ناعمة ثم نزعت نفسها من بين ذراعيه، وألقت برأسها على الوسادة.

فقال لها: ألا تريدين النهوض من السرير؟

أجابته: بلى سأنهض كي أعد كوبين من الحليب.

قال لها: بل أنا سأعد الحليب ريثما ترتدين ثيابك، فأجابته بابتسامة فاتنة، ثم قبلها وتوجه نحو المطبخ ليعد كوبين من الحليب.

أما سهير فنهضت وراحت ترتب السرير، ثم دخلت الحمام لتغسل وجهها وعادت إلى الغرفة فأصلحت شعرها وهي جالسة أمام المرآة ثم وضعت المكياج عندها دخل سامر ومعه الحليب، فقال لها: ماذا تفعلين يا حبيبتي. قالت له: إني أضع المكياج. قال لها: والحليب ماذا أفعل به؟ قالت له: ضعه قليلاً فأنا لن أستغرق طويلاً بوضع المكياج، لحظات وأنتهي.

وضع الحليب فوق الطاولة وتقدم نحوها حتى التصق بها فوقف خلف ظهرها ووضع يديه فوق كتفيها وراح ينظر في المرآة وهي تضع المكياج فارتبكت قليلاً وقالت له: هل ستبقى طويلاً هكذا؟ قال لها: وهل لدى ملكة الحسن والجمال مانع؟

ضحكت سهير بدلال وقالت له: إن ملكة الجمال تخاف على أمير قلبها من التعب.

قال لها: لا يا سيدتي، فالأمير لا يتعب من النظر إلى ملكة بل يتعب إذا لم ينظر إليها.

ثم أحنى رأسه وراح يقبلها، فقالت بدلال: سامر دعني أكمل زينتي.قال لها وهو ما يزال يقبلها: أكملي زينتك وهل أنا منعتك من ذلك.

قالت له: كيف أكمل وأنت تطوقني هكذا.

قال لها: هذا شأنك أنت، أما أنا فلا أستطيع النظر إليك دون تقبيلك، أخذ منها المكياج وقتاً طويلاً مما جعل الحليب يبرد، فقال لها: هل أعجبك هذا؟ مازلت تتلكئين حتى برد الحليب.

قالت له: ليبرد لا يهم؟ أعود وأسخنه، أولاً لا داعي لذلك فأنا لم يعد لدي رغبة برشف الحليب، فقد حان موعد الغداء، ويجب أن أدخل المطبخ لأرى ماذا نعد من طعام.

قال لها: لنذهب معاً.

قالت له: وماذا ستفعل أنت بالمطبخ؟

قال لها: أفعل أي شيء، المهم أن أكون بقربك، أم تحسبين أنك ستهربين مني فأنا وراءك أينما كنت.

قالت له: إذن اتبعني إلى المطبخ.

قال لها: انتظري لحظة وأريك كيف أتبعك، تقدم منها سامر، ووضع يده خلف رأسها ويده الأخرى تحت فخذيها ورفعها إلى صدره فطوقته هي بذراعيها وراحا يتبادلان القبلات حتى وصلا إلى المطبخ، أنزلها برفق وراح يكمل ما بدأ به، فأغلقت عيناها مستسلمة لقبلاته الحارة بينما هما متعانقان قرع جرس الباب فحاولت سهير انتزاع نفسها من بين ذراعيه ولكنه ظل متمسكاً بها وهو يقول: لا تجيبي دعيه يقرع حتى المساء، همست سهير: هذا لا يجوز يا حبيبي، أسرع وافتح الباب وانظر من هناك فربما يكونَ الأولاد.

قال لها: أنسيت أن الأولاد هم في المدرسة؟

قالت له: سامر اتركني وأسرع لفتح الباب.

قال لها: هل هذا آخر كلام عندك؟

قالت له: وهل هناك كلام غيره.

قال لها: سوف أفتح وأمري لله.

أسرع إلى الباب وهو يقول: من الطارق؟ وحين فتح الباب وجد أمامه رجلاً يحمل بوكيه ورد، وقبل أن ينطق سامر بكلمة ألقى الرجل التحية، ثم سأله قائلاً: هل هذا منزل السيدة سهير إبراهيم؟ قال سامر: أجل.. ماذا تريد منها؟ أجابه الرجل: أريد تسليمها هذه الزهور، وتوقيعها باستلامها.

قال له سامر: أنا زوجها، هل تقبل توقيعي؟

أجابه الرجل: طبعاً.. طبعاً.. يا سيدي، تفضل، ناوله الدفتر، فوقع سامر، واستلم منه الورود، ودخل بها البيت، نظر إلى البطاقة المرفقة بسلة الورد فوجد عليها هذه العبارة " بكل الحب والتقدير أتمنى لك السعادة والهناء " التوقيع كمال رستم.

سمع سهير وهي تناديه قائلة: سامر من الطارق؟ ولماذا تأخرت؟

أجابها: إنه صاحب محل الزهور، تعالي يا حبيبتي فاقتربت وهي تقول له: من مرسل هذه الزهور.

قال لها: لست أدري يا حبيبتي، إني لم أسمع بهذا الاسم من قبل، خذي واقرأي البطاقة، فتناولتها من غير مبالاة ونظرت إليها فظهر التأثر على وجهها.

سألها سامر: من هو كمال رستم يا سهير؟ ولماذا ظهر الحزن على وجهك؟

أجابته وهي تستعيد مرحها أنه صديق قديم، فقد أرسلت له بطاقة دعوة، ولكنه لم يحضر.

قال لها: ولكن لماذا ظهر على وجهك الحزن حين قرأت البطاقة؟

أطرقت قليلاً تفكر بماذا تجيبه وأخيراً قالت له: لقد تذكرت موقفي معه حين تقدم لخطبتي؟ قال لخطبتك؟ متى حدث هذا؟ قالت له: منذ أيام قليلة، تقدم لخطبتي لأنه لم يكن يعلم بأني خطبت لك، وحين أعلمته بحبي لك حزن كثيراً، كان منظره يدعو للشفقة.

قال: لماذا؟ هل كان يحبك؟

فارتبكت قليلاً واحتارت ماذا تقول له فهي ليست خائفة من البوح له بالحقيقة ولكنها خائفة على مشاعره أن تجرح.

أجابته بعد صمت قصير: إنه كان يرغب الزواج مني فقط، فقاطعها قائلاً: مهما كان سبب طلبه لك، فهذا لن يبدل من حياتنا شيئاً ولن ينقص من حبنا، فأنا لا يهمني الماضي لأن الماضي ملكك أنت وأنا ليس لي الحق بمحاسبتك عنه، أنا لي الحاضر، فأنا آسف جداً لأنني طرحت عليك هذا السؤال.

فحاولت أن توضح له، ولكنه أسكتها بإشارة من يده ثم قال لها: سهير دعينا من هذه الأشياء التي مضت وتعالي نعيش حاضرنا، فأنا أعرف من أنت، وما

هي أخلاقك، ولست بحاجة لأن تثبتي لي ذلك، تعالي يا حبيبتي لنكمل إعداد الطعام.

نظرت إليه بسعادة وقالت له وهي تغمز بعينيها: تريد إعداد الطعام أم إكمال القبلات.

أجابها بمرح: الإثنين معاً فضحكا ضحكة عالية.

ثم قالت له: ولكن إذا بقينا على هذه الحالة فلن نتذوق الطعام هذا اليوم، فنحن حتى الآن لم نحضر شيئاً.

قال: ومن قال لك أني أرغب بالطعام؟ فأنت طعامي وشرابي، شفاهك كأس خمري أرتشف منهما حتى الثمالة.

فارتمت سهير بين ذراعيه فضمها إلى صدره، وعصرها بقوة وكأنه يحميها من يد تريد انتزاعها منه، ثم حملها إلى المطبخ، وهناك لم يدعها تعد شيئاً من الطعام حيث أكمل ما بدأ به.

دقت الساعة الثانية عشر وهما من غير طعام؛ بينما سهير كانت تمضي الوقت مع سامر بهذا الشكل كانت ناهد غارقة بالعمل حيث استيقظت باكراً على غير عادتها، فأعدت طعام الإفطار للأولاد، ثم ارسلتهم إلى مدارسهم وأوصتهم أن يعودوا إليها، ثم قاما بترتيب المنزل وطهي الطعام، ثم اتصلت بجلال تذكره بموعد الغداء حيث سيكون سامر وسهير بانتظاره.

فقال لها: كيف أنسى مثل هذا الأمر يا ناهد وقد اتفقت معك على ذلك؟

قالت له: أنا لم أقصد يا حبيبي، وإنما أردت أن أذكرك كي لا تتأخر عن الموعد.

قال: لن أتأخر يا حبيبتي، ثم افرضي أني تأخرت فماذا يهم؟ فسهير وزوجها ليسا بغرباء وعلى أي حال لن أتأخر إكراماً لعينيك وعيني صديقتك.

أجابته برقة: شكر لك يا جلال، وأدعو الله أن تدوم لي ذخراً.

قال: لا حاجة لشكر، فأنا ليس عندي أغلى منك، وأضاف قائلاً: ناهد تذهبين أنت لإحضارها؟ أم أعرج أنا في طريقي عليهما وأحضرهما معي؟

قالت ناهد: لا تزعج نفسك، أنا سأذهب إليهما.

قال: حسنا هل ينقصك شيء أحضره معي؟

قالت: لا يا حبيبي، لا ينقصني سوى سلامتك، فقد هيأت كل شيء ثم أرسلت له قبلة عبر أسلاك الهاتف وأغلقت السماعة برفق ونهضت ودخلت غرفتها، بدلت ثيابها وغادرت البيت وخلال ربع ساعة كانت تقف أمام بيت سهير، قرعت الجرس فأسرع سامر وفتح الباب، وحين رأى ناهد رحب بها كثيراً، فباركت له الزواج ثم رافقها إلى الصالون وهو ينادي سهير.. سهير.. تعالي وانظري من جاءنا.

ردت عليه من المطبخ قائلة: من جاء؟

قال لها: إنها ناهد، تعالي فأقبلت مسرعة وهي تقول: أهلاً أهلاً بالغالية، فتحت ذراعيها واحتضنتها وتبادلتا القبلات ثم دعتها للجلوس، وعادت لعبارات الترحيب فقالت لها ناهد: كيف حالك اليوم يا عروستنا الحسناء؟

أجابتها سهير بحماس: إني سعيدة.. سعيدة يا ناهد، بل أنا في منتهى السعادة، اشعر بأنه لا يوجد سعادة في هذه الدنيا كسعادتي.

أجابتها ناهد بحب واندفاع: أتمنى لك ذلك أيتها العزيزة، أتمنى أن تدوم عليك هذه السعادة، وصمتت قليلاً وقالت: جئت أدعوكم لتناول الغداء عندنا فما رأيك؟

قالت لها سهير: وهل بقي لدي صبر لوقت الغداء فأنا أكاد أموات جوعاً.

قالت لها ناهد: لماذا؟ ألم تتناولا إفطاركما بعد؟

فنظرت إلى سامر نظرة اعتذار وشكوى وقالت لها بطريقة تثير الضحك، لا يا أختاه، فأنا لم أذق الطعام منذ يوم أمس.

قالت ناهد وهي تضحك: ولماذا لم تأكلي حتى الآن؟

أجابتها: اسألي سامر فهو يجيب على هذا السؤال، والتفتت إليه وقالت له: أجب على سؤال ناهد.

قال لها: لماذا أجيب أنا وليس أنت؟

قالت: وماذا تريدني أن أقول لها؟ أأقول أنك لم تتركني لحظة واحدة كي أعد الطعام، فقاطعها وهو يضحك ضحكة خفيفة: لا تصدقيها يا أختاه، فأنا ليس لي ذنب بما حدث بل هي لا تصلح لأن تكون ربة بيت، إنها امرأة كسولة.

قالت له سهير: سامر أنا كسولة؟ أم أنت لم تدع لي مجالاً للعمل هل أقول كل شيء؟

قال لها مداعباً: لا.. لا أرجوك أنا رجل كسول، ولا أصلح أن أكون رب بيت، فضحكت ناهد من أعماق قلبها ثم قالت لها: كفاكما كلاماً هيا بنا كي أطعمكما وأمري لله، فلدي طعام لذيذ.

قالت لها سهير متكلفة الجد: إني آسفة يا ناهد، فأنا لم أقدم لك شيئاً فقد ألهانا الكلام.

قالت لها ناهد: لا داعي للأسف يا عزيزتي فأنا لم آت كي أضيف، بل جئت كي أدعوكما للغداء.

ردت لها سهير: لا أيتها الحبيبة هذا لا يجوز فليس من اللائق أن أخرج من البيت صباح دخلتي، ثم هناك الأولاد سيأتون من المدارس.

قالت لها ناهد: لا عليك أنت من الأولاد، فهم سيعودون إلى بيتي كما اتفقت معهم على ذلك، وأضافت قائلة: يجب أن تفهمي بأنني لن أدع الأولاد يعودون إليك قبل أسبوع، أي بعد الانتهاء من تقديم الامتحانات.

قالت سهير: كيف هذا يا ناهد؟ ومن سيشرف على مذاكراتهم؟ فهم متعودون أن أكون بجانبهم دائماً.

نظرت إليها ناهد نظرات عتاب وقالت لها: وهل أنا لا أصلح لرعايتهم.

قالت لها ناهد: كوني مطمئنة، فأنا سأشرف على دراستهم، ثم هم لم يعودوا بحاجة لأحد،فقد أصبحوا يدركون مصلحتهم.

صمتت سهير ولم يعد أمامها سوى الموافقة على شرط أن يزورها الأولاد، وافقت ناهد وأضافت قائلة: هيا بنا، أدخلي غرفتك وبدلي ثيابك كي نعود إلى البيت قبل أن يعود الأولاد فلا يجدوا أحداً.

قالت لها سهير ولكن أليس من الواجب أن ندعوكم نحن للغداء؟

ردت إليها ناهد مازحة: وهل يوجد لديكم ما يأكل أيتها الكسلانة، فأنتم حتى الآن لم تستطيعوا إطعام أنفسكم، فما بالك لو جئنا نحن فسوف نموت جوعاً، غرق الثلاثة بالضحك ثم أسرعت سهير إلى غرفتها لارتداء ملابسها وبعد أن أصبحت

داخل الغرفة نادت على سامر قائلة: سامر ألا تريد أن تغير ملابسك؟ أم أنك ستذهب بملابس النوم، وبعد دقائق كانوا في الشارع، استقلوا سيارة وانطلقت بهم إلى بيت ناهد، ولم يكادوا يرتاحون من مشوار الطريق حتى جاء الأولاد، فأسرعوا إلى والدتهم يقبلونها، ويقدمون التهنئة إلى سامر، ثم جلسوا يتحدثون مع والدتهم، ولكن سهير من شدة جوعها لم تستطع الاستمرار بالحديث، فالتفتت إلى ناهد وقالت لها: ناهد إني أكاد أموت جوعاً.

قالت لها ناهد: اذهبي إلى المطبخ، وتناولي أي شيء تجدينه ريثما يأتي جلال.

قال سامر: تعالي معي لأبحث لك عن أي شيء أطعمك إياه.

فابتسمت ناهد قائلة: طالما أنت الذي سيرافقها وتبحث لها عن طعام فلن تذوق منه شيئاً بإذن الله، والتفتت إلى سهير وقالت لها: إذهبي معه يا حبيبتي وبإذن الله لن تنالي لقمة واحدة، فضحك الجميع، وأمسكها سامر من يدها ودخل بها إلى المطبخ، وبدلاً من أن يبحث لها عن طعام انهال عليها بالقبل، وقبل أن يعود بها إلى الصالون وضع في فمها حبة من الفواكه واختطف عدة قبلات وهي تمضغ اللقمة ثم عاد إلى حيث يجلس الجميع.

قالت لها ناهد: قولي هي وجد ما يطعمك؟

قالت سهير: أجل.. أجل.. فقد امتلأت معدتي، فطعامك لذيذ يا ناهد، قالت ناهد طبعاً طعامي لذيذ طالما أطعمك إياه سامر، أقسم أنك لم تتذوقي شيئاً، أطلقوا ضحكة عالية ثم قالت سهير: صدقيني يا أختاه فأنا لم أتناول سوى قطعة فواكه، في هذه اللحظة دخل جلال وسمع الضحك يتعالى فقال بمرح، مالي أراكم تضحكون هكذا أعيدوا ما قلتم وأضحكوني معكم.

قالت له ناهد: إنه مشهد لا يعاد إلا في المطبخ، ففهم جلال ما تعني.

فقال لها: يبدو أنه مشهد ساخن.

قالت ناهد: أجل واستأذنت كي تعد المائدة، وبعد تناول الطعام وضعوا موسيقى راقصة وارحوا يرقصون على أنغامها، وظلوا هكذا حتى مضى الجزء الأول

من الليل، ثم عاد سامر وسهير إلى بيتهما وهما في منتهى السعادة وحين استقرا في غرفة النوم قال سامر: سهير ما رأيك لو قمنا بقضاء شهر عسل خارج القطر؟

أجابته سهير بمرح مرفقة بابتسامة حلوة، إلى أين تريد الذهاب؟

قال لها: إلى أي مكان تختاريه يا حبيبتي.

قالت له: إني أتمنى ذلك أيها الحبيب، ولكن الأولاد يقدمون الامتحانات ولا نستطيع تركهم.

قال لها: هل يعني هذا أننا لن نقوم بشهر عسل؟

قالت له: ومن قال لك هذا؟ إننا سنقوم بشهر عسل، ولكن بعد أن ينتهي الأولاد من امتحاناتهم.

قال لها: أين تريدين أن نقضي شهر العسل؟ فنظرت إليه نظرات سعادة وقالت له بمرح سنذهب إلى دمشق نمضي فيها يومان، نترك الأولاد عند أهلي، ثم نتابع طريقنا إلى مصر، لأن الأستاذ رأفت قد أرسل لي منذ أيام، ومن هناك نقلع إلى لبنان، فأنا لدي رغبة عارمة لرؤية هذا البلد الجميل، قال لها: إن برنامجك رائع، فابتسمت له برقة وقالت: وخلال هذه الأيام سوف أنهي بعض الأعمال.

قال لها: وما هي هذه الأعمال؟

قالت له: هذا المنزل القديمُ.

قال لها: ما به؟

قالت: سوف أبيعه وأشتري بثمنه سيارة.

قال لها: وهل ثمن المنزل يكفي لشراء سيارة

قالت له: إذا نقصني أضيف فوقه.

قال لها: إذاً احتجت نقوداً خذي مني.

قالت له: لا يا حبيبي لن أحتاج نقود فأنا لدي ما يكفي، فدع نقودك للرحلة.

* * *

الفصل الثامن عشر

مضت أيام الامتحان، أنهيت سهير خلالها جميع أعمالها وسافر الجميع إلى دمشق، وهناك تعرضت لموقف صعب أمام أهلها، لأنهم حتى ذلك اليوم لم يكونوا قد علموا بزواجها من سامر، فعندما علموا، غضبوا شديد الغضب، وتهجموا عليها وهددوها وطلبوا منها الانفصال عنه ولكنها وقفت في وجه الجميع ورفضت طلبهم، فلم يبق لهم سوى الرضوخ للأمر الواقع مرغمين.

أمضت عندهم يومين تجولت خلالهما بين المصايف الجميلة برفقة الأولاد وسامر، ثم سافرا إلى مصر تاركة الأولاد عند أهلها مكثت هناك أسبوعاً قابلت فيه الأستاذ رأفت وتفاهمت معه على بعض الأمور المتعلقة بالعمل، قال لها: بأن كتابها الثاني قد نجح نجاحاً عظيماً، ونفذت منه كمية كبيرة جداً، ثم سألها إذا كانت قد كتبت شيئاً جديداً؟

فقالت له: للأسف إني لم أكتب شيئاً بعد وذلك بسبب الظروف القاسية التي مررت بها، ولكني تجاوزتها والحمد لله فسأعود للكتابة فور عودتي إلى سورية ولن أتأخر عليك بأي شيء، شعراً كان أم قصة.

أجابها رأفت بسعادة: أتمنى لك النجاح، وأرجو ألا يطول انتظاري، فشكرته سهير على هذه الكلمات المشجعة، وبعد الانتهاء من الحديث عن العمل، سألها عن أخبارها، فأخبرته عن زواجها فبارك لها الزواج، وقدم لها هدية ثمينة، فشكرته على هذه الهدية، ومن مصر إلى لبنان، وهناك أمضت أسبوعين كانت من أجمل أيام حياتها، ثم عادت وهي أكثر حيوية ونشاطاً، فباشرت الكتابة فور عودتها من شهر العسل، فكانت تنظم وقتها بين الكتابة وبين واجباتها الزوجية، فكانت لا تدع الكتابة تأخذها كلياً من زوجها الذي كان كل شيء في حياتها. حتى الأعمال المنزلية لم تدعها تأثر على اهتمامها به وكانت تقف بانتظاره فلا يكاد يضع المفتاح في الباب حتى تكون واقفة أمامة تستقبله بالعناق والقبلات فيحملها بين ذراعيه ويدخل بها غرفة الطعام وبعد الغداء ينامان ساعتين ثم يستيقظان ليستعدا للخروج إلى الأماكن

المفضلة لديهما. أما بعد العودة من هذه الأماكن تبدأ في القراءة لمدة ساعتين وهي جالسة في السرير حسب رغبة سامر الذي يمنعها من دخول المكتب وهو في المنزل، لأنه لا يستطيع الجلوس وحده، كانت سهير ترضخ لطلب سامر شريطة أن يشاركها في المطالعة، مضى على زواجها من سامر قرابة عام وكأنه يوم وكأنه شهر عسل قصير، عرف قلبها السعادة، وفكرها الراحة، كان الوقت يمضي مسرعاً لا تشعر بمروره، وكان سامر معها في منتهى الرقة والظرافة يغدق عليها الحب والحنان بغزارة أما إذا أغضبها دون قصد منه أسرع لمصالحتها بهدية جميلة وفيض من القبلات فكانت تسامحه وتصالحه في الحين وإذا تجولا في الأسواق وأبدت إعجابها بأي شيء سواء بملابس أو حلي فيسرع سامر في اليوم التالي لشرائه لها دون علمها، فتقول له: سامر أنت لا يفوتك شيء؟ فيجيبها قائلاً: سهير لو استطعت أن أقبض الشمس في يدي أو أطال النجوم لأتيت بها إليك يا معبودتي الجميلة، أما عندما يخرجان للتنزه، فكانا يتصرفان كطفلين، يركضان ويلعبان بالكرة، ويركبان الأرجوحة وفي أحيان كثيرة كانا ينفردان بعيداً عن الأولاد ويطلب منها سامر أن تغني له وهما بين الزهور والأشجار فتلبي طلبه وتطلق صوتها الشجي بأغنيات عاطفية، هكذا كانا يعيشان، وهكذا مضى العام الأول من حياتهما الزوجية، وحين جاء عيد زواجهما الأول، أقاموا حفلة رائعة حضرتها ناهد مع زوجها، ولفيف من الصديقات والأصدقاء المخلصين، وقدموا لهما التهاني مرفقة بالهدايا، وبعد أن أطفأوا الشموع أخرج سامر هديته وقدمها إلى سهير مرفقة بقبلة حارة على خدها وكانت الهدية قلب من ذهب تتوسطه حجرة كريمة حمراء اللون رسم على طرفها بحبات ماس صغيرة جداً اسم سامر، وعلى الطرف الآخر حبات تشكل كلمة أحبك، ومن الأعلى سهماً من نفس الحبات تناولت سهير الهدية، ونظرت إليها بإعجاب وقالت له بصوت يقطر حباً: يا إلهي ما أجملها من هدية !! إنها أجمل هدية تلقيتها في حياتي ! نظر سامر إليها بحب وقال لها: أن هذا القلب قلبي أقدمه لك يا حبيبتي فرمقته بنظرة حب وظلت صامتة، فتناوله منها برفق وقال لها: دعيني أنا اضعه على عنقك الجميل لأستمع إلى دقات قلبك. مدت إليه عنقها وهي تقول له: سلمت يا حبيبي، وما أن انتهى من تقديمها حتى أخرجت هي أيضاً علبة وقدمتها له،

وطبعت على خده قبلة وهي تقول له كل عام وحياتنا تزداد سعادة، كل عام وحبنا يكبر ويكبر حتى يملأ العالم، كل عام وأنت حبيبي.

فأمسكها سامر من كتفيها وقال لها: كل عام وأنت سالمة قريبة مني أيتها الحبيبة الغالية، ثم فتح العلبة ونظر إلى هديته وإذا بها رسم لسهير من ذهب داخل إطار جميل وكتب من الأسفل بحبات ماس صغيرة سهير، ومن الطرف الآخر كتب أحبك بحبات ماس.

فحدق سامر بها طويلاً ثم قال لها: ما أروع هذا الرسم يا حبيبتي، متى وضعتي هذا الرسم مؤكد أوصيتي عليه، قالت أجل منذ أسبوعين نقلت الفكرة للصائغ كي يصنعه لي بعد أن أخذ صورة لي كي يرسم عليها.

أمسك سامر بيديها وطبع عليهما قبلة وهو يقول لها: شكراً يا حبيبتي على هذا الرسم الجميل، فصفق لهما الجميع، وهكذا تابعوا الحفلة بسعادة ومرح، وفي نهاية السهرة انصرف الجميع ودخل الأولاد إلى غرفتهم للنوم، أما سهير وسامر فتوجها إلى غرفتهما وهناك حاول سامر أن يفاتح سهير بموضوع كان يفكر فيه، فبادرها قائلاً: سهير هل لي أن أطلب منك طلباً يا حبيبتي؟

أجابته ببهجة وارتياح: أنت تأمرني أيها الحبيب قل ما تريد.

قال مرتبكاً: لقد مضى على زواجنا عام، فكم أتمنى أن يأتي العام القادم وأنت تحملين لنا طفلاً جميلاً يزيد سعادتنا سعادة.

أجابته بخوف ودهشة معاً: ماذا تقول؟

قال: أجل أيتها الحبيبة.

قالت له: ولكن تعلم يا سامر أنني لا أستطيع الانجاب لصعوبة الحمل عندي، وتعلم أيضاً أني لا أحب الأطفال.

قال لها: إني أعلم ذلك وأتذكر أيضاً شرطك لي منذ أول لقاء حب بيننا، وهو أنك لا ترغبين في الإنجاب مستقبلاً، وأنا وافقت على هذا الشرط الذي تحاولين به أن لا تأت على ذكره ابداً وأنا لم أنسى ذلك، ولهذا ترددت كثيراً قبل أن أفاتحك في هذا الأمر، ولكن الشيء الذي دفعني إلى ذلك هو شدة حبي لك.

قالت له بصوت هادئ: وما علاقة حبك لي بالإنجاب؟

قال: العلاقة بينهما قوية، فمن شدة حبي لك رغبت بأن يثمر حبنا عن وردة شذية يثير عبيرها في أرجاء المنزل، حبي لك يدفعني لأن يكون لدي طفل يحمل دمك ويكون له ملامحك كي أحدق به حين تكونين بعيدة عني، أرغب بطفل منك كي أتنشق رائحتك من خلاله، أرغب طفلاً لا بل طفلة لها وجهك البريء، لها جميع صفاتك التي نادر ما توجد في امرأة، قالت له وهي تبتسم ابتسامة رقيقة: هل أعتبر هذا مديحاً أم دبلوماسية كي أوافق على طلبك؟

قال لها بحب ورقة: بل هو حقيقة أعشقها فيك.

قالت به بلطف: حسناً إني تحت أمر عينيك أيها الحبيب الدبلوماسي، سأنجب لك طفلاً رغم خوفي من هذا الحمل.

قال لها: لا تخافي؟ ولم الخوف هل حملك خطير إلى هذه الدرجة، فإذا كان كذلك فأنا لا أريد أطفالاً، أنا عندما طلبت طفلاً فإنما طلبته من أجلك، فإذا كان الطفل سيحرمني منك، فكل أطفال العالم لا تعوضني عنك يا حبيبتي.

أجابته: بل سأنجب لك طفلاً يا حبيبي فأنت معك حق، يجب أن يثمر هذا الحب العظيم عن طفل يقوى رابطة الحب ويزيده اشتعالاً فرح سامر كثيراً، وحملها بين ذراعيه، وراح يطوف بها أرجاء الغرفة وهو يقبلها وفي اليوم التالي راجعت سهير الطبيب المختص، ولم تمض عليها أشهر قليلة حتى حملت وبدأ سامر يمنعها من القيام بأي عمل في المنزل وراح يقوم هو مع الأولاد بأعمال المنزل عوضاً عنها، أما الأولاد فكانوا فرحين جداً، وراحوا يترقبون موعد الانجاب بفارغ الصبر.

في تلك الفترة فترة الحمل وبعد شهرتها الواسعة التي جعلتها شاعرة وكاتبة كبيرة طلب منها كتابة مسلسل تلفزيوني.

فكتبته أثناء الحمل، ومثل هذا المسلسل عرض على الشاشة فيما بعد ولاقى نجاحاً كبيراً وحاز على إعجاب النقاد، فكتبوا عنه نقداً جميلاً، مما أحدث ضجة كبيرة فدعوها إلى مقابلة تلفزيونية ظهرت خلالها على الشاشة الصغيرة وتحدثت فيها عن جميع أعمالها وسئلت عن رأيها في الأدب والشعر. فزادت هذه المقابلة التلفزيونية رصيدها من إعجاب الجمهور بها وأحبوها. أما كمال فقد كانت هذه المقابلة بلسماً لجراحه التي لم تندمل، فهو لم يرها منذ أن زارها آخر مرة قبل

الزفاف بأيام، فقد جلس طيلة المقابلة يحدق بها والدموع تنهال من عينيه، وسجل هذه المقابلة على شريط فيديو كي يستمع إليها كلما شعر بحنين إلى صوتها العذب، كان يحدق بها، ويتخيل نفسه معها في حديقة غناء، يركضان خلف بعضهما البعض، ويضحكان ويغنيان، لكنه لم يلبث أن يصحو من تخيلاته على صوتها العذب وهي تجيب على أسئلة المذيعة فيقول: آه سهير من هذا القلب الذي لا يريد أن ينساك، آه من هذا اللهيب الذي يزداد في قلبي اشتعالاً، لقد حرمني منك القدر، ليته أخذ مني كل شيء وعوضني به عنك، صحيح أن كمالاً لم ير سهير منذ زواجها ولكنه كان يتتبع أخبارها خطوة بخطوة، ويقرأ لها كل جديد، أما سهير فبعد أن انتهت من أشهر الحمل، وجاءها المخاض، نقلت إلى المشفى لتعسر الولادة التي طالما أبدت تخوفها منها، وكان سامر يهون عليها الأمر.

أدخلت إلى غرفة العمليات، وقف سامر والأولاد وناهد يترقبون خروج الطبيب وما أن فتح الباب حتى أسرع يسأله عن حالها فأجابه الطبيب بأن ولادتها فيها شيء من الخطورة، فصعق سامر لهذا الخبر، وأمسك بيد الطبيب وقال له: دكتور أرجوك أن تنقذ زوجتي، خذ عمري، خذ كل ما أملك وأنقذ حياتها، دكتور أتوسل إليك أن تفعل أي شيء من أجلها.

قال له الطبيب: إن المنقذ هو الله يا بني، فإذا كان لها عمر سوف تتعدى الخطر، فكن قوياً ولا تدع الخوف يسيطر عليك ويفقدك إيمانك.

همس سامر بصوت متهدج: ونعم بالله، ولكن أرجوك أن تبذل قصار جهدك لإنقاذها.

أجابه الطبيب: سوف أبذل كل جهدي لإنقاذ حياتها ليس من أجل توسلك، بل من أجل شرف المهنة والإنسانية، ثم لست أنت وحدك الذي تحبها، فجميعنا نحبها، وتهمنا حياتها.

همس سامر بصوت عميق: آه صحيح أنكم تحبوها، ولكن ليس بقدر حبي، صحيح تهمكم حياتها، ولكن ليس بقدر ما تهمني، أتعلم لماذا يا دكتور؟ لأنها هي الحياة التي أحياها، هي الهواء الذي أستنشقه، إنها هي كل حياتي فإذا أصابها شيء أصبحت جسداً بلا روح.

قال له الطبيب: هون عليك يا بني، ودع إيمانك بالله قوياً فسوف تشفى بإذن الله.

فسأله سامر بلهفة: حقاً يا دكتور؟

أجابه الطبيب: إن شاء الله، ودخل الغرفة من جديد، أما الأولاد وناهد، فقد كانوا شديد القلق، يغدون ويروحون أمام الغرفة وهم يبكون ويدعون لها أن تنتهي هذه الولادة على خير،وأن تعود لهم سالمة أما سهير فطالت فترة مخاضها وطالت معها آلامها، اجتمع حولها عدة أطباء فأجمعوا على أنه تلزمها عملية قيصرية، وجهزوا كل شيء، وما أن هموا بإجراء العملية حتى توقفوا عن ذلك بأمر من الدكتور عدنان رئيس الأطباء، الذي رأى جسمها قد تراخى ونبضها قد خف، وقواها تلاشت، وراحت في غيبوبة، فأسرع لإنعاشها وبينما هو يعالجها، سمعها وهي تردد سامر بصوت متقطع، فخطرت على باله فكرة، إن نجحت تكون أجمل أسلوب اتبعه الطب.

فأمر بإحضار سامر فوراً، فسأله الطبيب المساعد لماذا تأمر بحضوره الآن وقد منعته من الدخول منذ قليل رغم توسله لك بإدخاله؟

أجابه الدكتور عدنان لأنني سأتبع أسلوباً جديداً في علاجها، ربما ينقذ حياتها، قال له الطبيب المساعد: كيف؟

قال الدكتور عدنان، يبدو لي أنها تحب زوجها كثيراً فهي لم تكف عن لفظ اسمه لحظة، فإذا أتيت به إلى هنا ورأته بقربها وسمعت صوته تنتعش وتقوى المقاومة عندها، ثم تستمد منه القوة وتقاوم الموت من أجل أن تعيش له.

شرح له هذه الفكرة بسرعة، وأدخلوا سامر الغرفة فأسرع سامر إلى حيث هي مسجاة، أمسك يدها وركع على ركبته أمامها وقال لها: سهير أيتها الحبيبة الغالية لا تضعفي أمام الموت، قاومي وعيشي من أجلي أنا الذي لا حياة لي بعدك، فأنت حياتي الماضية، وأنت عمري القادم، قاومي الآلام وعودي إلي دون طفل، فأنا لا أريد أطفالاً، أريدك أنت فقط سهير أنظري إلي كما كنت تفعلين من قبل، سهير قاومي ولا تستسلمي للموت فحبنا أقوى من الموت، لا تدعي الموت يتغلب على

حبنا، فحبنا كبير يحتوي العالم الواسع، إني أحبك أحبك فلا تفجعي هذا الحب، سهير عيشي من أجلي، فأنا لا أستطيع الحياة من غيرك، فدتك روحي.

رسمت على ثغرها ابتسامة واهية وقالت له: سامر أيها الحبيب الغالي، كم أتمنى أن يطول عمري لنربي الطفل معاً فيعيش في ظلنا، كم أتمنى أن أعيش حياة أطول ليس من أجل الحياة بل من أجلك.

فقاطعها سامر قائلاً: سهير يا توأم الروح ويا رفيقة العمر، سهير يا ملاكي الطاهر أنا لا أريد من الدنيا سواك، لا أريد أطفالاً ولا مالاً، ولا جاها، لا أريد سوى حبك، فيجنب أن تعيشي من أجلي، يجب أن تعيشي من أجل حبنا، قاومي الموت يا حبيبتي وعودي إلي، قاومي الموت من أجل هذا الجمال الذي مازال يعبق أريجا، فحرام أن يدفن هذا الجمال تحت التراب، حرام لهذا الوجه الجميل أن يذبل، حرام لهذا الجسم البض أن يتألم، ليتني مت قبل أن أراك تتألمين، ليت لساني قطع قبل أن أطلب منك إنجاب طفل.

فقاطعته بصوت واه، لا تقول هذا يا حبيبي، فأنا أتمنى أن أموت ألف مرة ولا يصيبك أي أذى، بينما كان يدور هذا الحوار بين سامر وسهير، كان الأطباء يبذلون جهداً كبيراً لإنقاذ حياتها، وكانوا مسرورين لهذه المناجاة التي ساعدتهم كثيراً، فقد دبت الحياة في جسمها حين سمعت صوت سامر، وازدادت قوتها وأصبحت قادرة على المقاومة، وأصبح عندها حب للحياة من أجل سامر، وأخيراً ولدت بعد آلام فظيعة، فدنا منها سامر، وقبلها وهو يقول لها: الحمد لله على سلامتك يا حبيبتي، وراح يداعب شعرها، ويتحسس وجهها برفق، فقد كانت فرحته شديدة، لم يصدق أنها خرجت من هذه الولادة سالمة، فنظرت إليه وقالت له بصوت هامس: سامر أين الأولاد؟ أريد أن أراهم.

فقال لها: إنهم هنا يا حبيبتي، أمام الغرفة ينتظرون خروجك منها سالمة، فقاطعته قائلة: سامر أرجوك أن تدعوهم للدخول أريد أن أراهم.

قال لها برقة سوف ترينهم يا حبيبتي بعد أن تخرجي إلى غرفتك.

سألته قائلة: وناهد ألم تأت؟

قال لها: أجل إنها مع الأولاد تنتظر، سوف ترين الجميع.

قالت له: إذن إذهب أنت وأخبرهم بأني بخير كي لا يطول قلقهم أكثر من هذا فأسرع سامر إلى الأولاد وأخبرهم بسلامتها، ففرحوا كثير ثم سألوه ماذا أنجبت؟

فقال لهم والله لا أدري، فأنا من شدة فرحتي بها لم أسأل عن المولود فكان كل تفكيري سلامة سهير.

فقالت له ناهد: هل لي أن أدخل وأراها؟

قال سامر: لا يا أختاه، فهم لا يسمحون بذلك، ثم هي لن تبقى بهذه الغرفة طويلاً، سينقلونها إلى غرفة خاصة بعد أن يطمئنون عليها.

ثم نظر إلى ناهد وقال لها: ناهد اعتني بسهير حتى تستقر في غرفتها ريثما أعود.

قالت له ناهد: إلى أين أنت ذاهب.؟

قال سامر: لدي مشوار مهم سوف أقضيه وأعود سريعاً

قالت له ناهد: كن مطمئناً فأنا سأكون إلى جانبها.

انطلق مسرعاً واستقل سيارته، وراح يسابق الريح قاصداً سوق الصاغة، وابتاع خاتم ذهب وحفر عليه اسمه ثم عرج على محل الزهور، وأتى بباقة ورد، كما اشترى كمية كبيرة من جميع أصناف الحلويات، وعاد إلى المشفى مسرعاً وحين دخل رأى سهير بغرفتها راقدة والجميع ملتفون حولها يمزحون ويضحكون.

فدخل من الباب والبسمة تشع على وجهه وباقة الورد في يده فبادرهم قائلاً: كيف حال حبيبتي الآن؟

اغتصبت سهير ابتسامة وقالت له بصوت ضعيف: إني بخير، فتقدم منها ووضع باقة الورد فوق طاولة صغيرة كانت بجانب السرير وجلس بقرب رأسها، وقد وضع يده خلف رأسها وراح يتحسس وجهها بيد ويداعب خصلات شعرها بالأخرى فنظرت سهير إليه وقالت له: أين كنت يا حبيبي؟ فأنا كنت أتمنى أن أراك أول ما صحوت.

نظر إليها نظرة فيها تساؤل وقال لها: تصحين؟ من ماذا؟ أجابته ناهد: لقد اغمي عليها بعد خروجك، قاطعها سامر قائلاً: كيف حدث ذلك؟ فقد تركتها بعد الولادة وهي بخير، أجابته سهير قائلة: ما تقوله صحيح، ولكن بعد خروجك من

الغرفة تركوني قليلاً وانشغلوا بالطفل، وحين جاؤوا لنقلي إلى غرفتي وجدوني في حالة إغماء والدم ينزف مني بغزارة فأسرعوا لإسعافي بعد أن نقلوا إلي كمية من الدم من ناهد حيث دمها من زمرة دمي، وحين صحوت لم أجدك، سألت عنك، قالوا لي: أنك ذهبت لقضاء أمر هام.

قالت ناهد: أجل يا سامر، وقد سأل عنك الأطباء أيضاً وحين لم يجدوك أدخلوني عوضاً عنك.

قال: كيف كنت تنزفين ولم تستدعي الأطباء؟

قالت: لم أكن أقوى على الكلام لأنني شعرت بعد خروجك بغشاوة على عيني، وضيق في صدري لم ألبث أن أغمي علي، فلم أعد أشعر بما يدور حولي.

دنا منها، وطبع على خدها قبلة وهو يقول لها: فداك عمري يا حبيبتي والحمد لله على سلامتك.

أجابته: سلمت لي أيها الحبيب، وبعد أنْ صمتت قليلاً قالت له برقة: سامر ما هو هذا الأمر الهام الذي جعلك تتركني وأنا لم يمض على ولادتي سوى دقائق معدودة.

فقال لها: لن أقول لك إلا إذا أغلقت عينيك.

قالت له: ولكن ما علاقة عيوني في سؤالك هذا؟

قال: ومع ذلك لن أقول لك قبل أن تغلقي عينيك.

قالت له: حسناً..أغلقت عيني وأمري لله.

أخرج من جيبه علبة أنيقة وضغط عليها ضغطة خفيفة وقال لها: الآن افتحي عينيك، وحين فتحت عيناها وجدت أمامها علبة في داخلها خاتماً جميلاً.

قالت له: ما هذا؟

قال سامر: أنها هديتي لك، هل أعجبتك؟

قالت له إنه رائع، كم هو ذوقك رفيع، وكم أنت طيب ولطيف يا سامر، فأمسك بيدها ووضع الخاتم في إصبعها ثم طبع قبلة على يدها وهو يقول لها: ألف مبروك يا حبيبتي.

أجابته: إني أشكرك على هذه الهدية الجميلة يا حبيبي.

قال لها مازحاً أن ما فعلته لا يستحق الشكر فأنا كل يوم أنجبي لنا طفلاً وأنا أقدم لك أجمل هدية.

فصرخت بصوت خافت: ماذا قلت ألا يكفي ما عانيت حتى تخلصت من هذه الولادة.

فضحك الجميع ونظر سامر إلى شريف وقال خذ مفاتيح السيارة وهات من داخلها علب الحلوى وزجاجات الشراب هيا يا عزيزي.

فقال له شريف: حاضر يا عماه.

وأسرع بالخروج، مضى كل هذا الوقت وسامر لم يسأل عن الطفل، مما دعا سمر تقول له: إنك لم تسأل عن الطفل يا عماه، ألا تريد أن تراه؟

قال سامر: هي هي ولدت طفلاً؟

أجابته ناهد بدلاً من سمر: أجل طفلاً جميلاً جداً.

قال وهو ينظر إلى سهير: كم كنت أتمنى أن تكون طفلة تحمل جمال ورقة أمها، في هذه اللحظة دخل شريف حاملاً بيديه الحلوى وزجاجات الشراب، فنظر سامر إلى ريم وقال لها: ريم انهضي يا عزيزتي وخذي الشراب وهيئيه في المطبخ، ووزعيه مع الحلوى على الجميع ممن يعملون في هذا القسم، وأنت يا عمر وشريف هيا ساعداها في ذلك، أما أنت يا سمر الحقي بريم وضعي قليلاً من الحلوى في طبق وأحضريه لي كي أطعمه لأمك.

نظرت سمر إلى ناهد وقالت لها مداعبة: أنظري يا خالة فقد وزعنا جميعاً كي يخلو له الجو مع ماما، فلم يبق سواك وسوف يأتيك الدور قريباً، فابحثي لك عن عمل قبل أن يصرفك هو، فضحك الجميع لهذه المداعبة الظريفة، ثم قالت ناهد: هل أنا غبية كي أخرج من الغرفة وأدعه ينفذ خطته.

قال سامر مازحاً: الله الله أراكم جميعاً متآمرين علي، ما الخبر؟

قال عمر: باستثنائي أنا يا عمي، فبإمكانك أن تأخذني إلى طرفك؟

قال سامر: إن لكلامك هذا معنى، فما هو يا أستاذ عمر؟

قال له عمر: وهل يوجد له غير معنى واحد؟ هو أن ترشيني.

قال له سامر: وكم تبلغ تسعيرتك؟

قال له: حسب الخدمة التي أقدمها.

قال له سامر: إذن انتظر حتى يصبح لدي خدمة مهمة عندها سوف ألجأ إليك.

قالت سمر متدخلة: عماه أنا تسعيرتي أقل من عمر إذا أحببت.

قال لها: وأنت أيضاً لك تسعيرة؟

قالت له سمر: أنا تسعيرتي متواضعة وليست جشعة مثل غيري.

قال لها سامر: أغربا عن وجهي قبل أن آخذكم إلى قسم الشرطة.

قال له عمر ك وهل هذا يخيف، سنضع له خمسون ليرة في المهمة فيتركنا ونعود إليك سالمين.

قال له سامر: إنكم أولاد عفاريت وأنا ليس لي قدرة عليكم.

انصرفا كلٌ إلى عمله وبقيت ناهد، قالت ناهد: وما الإسم الذي تختارانه لمولدكم السعيد؟ نظرت سهير إلى سامر وقالت: سوف أسميه سامي.

قالت ناهد: ولكنه يشبه اسم والده، لماذا لا تختارين اسماً آخر؟

أجابتها سهير وهي مازالت تنظر إلى سامر: من أجل هذا أنا اخترته كي يبقى اسم سامر على شفتي حتى وأنا أنادي على ولدي.

أمسك سامر بيدها وضغط عليها وقال لها: إني أشكرك أيتها الحبيبة، في هذه اللحظة دخل الأولاد ومعهم الحلوى فقدموا طبقاً منها إلى ناهد وأخر لسامر، وأخذ كل منها قطعة، واقتربوا من سهير وراحوا يطعمونها بالتساوي مع سامر.

فحاولت سهير الاعتذار، ولكنهم ألحوا عليها، فراحت تأكل من كل نوع قطعة ثم اقتربت منها ناهد وقالت لها: لم يبق سواي أنا لم تأكلي مني، هيا كلي معي هذه القطعة الصغيرة وسوف أطعمك بيدي.

قالت لها سهير: ولكني لم أعد أستطيع الأكل.

قالت لها ناهد: سوف تأكلينها، يعني ستأكلينها فلا تحاولي.

قالت سهير: سوف أكلها وأمري لله.

فضحك الجميع وأمضوا اليوم بسعادة وفي اليوم التالي زارتها جميع صديقاتها وهن يحملن لها الزهور والهدايا، ولم ينقطع عنها المهنئون طيلة إقامتها التي دامت

أسبوعاً، عادت بعده إلى بيتها وهي بصحة جيدة، فأقامت حفلة بهذه المناسبة دعت إليها جميع صديقاتها وبعض أصدقاء سامر مع زوجاتهم.

* * *

الفصل التاسع عشر

مضى العام الأول من عمر الطفل سامي وجاء يوم ميلاده، فأقامت له حفلة رائعة، حضرها الأصدقاء، وكانت سهير سعيدة بالطفل الذي أضاف إلى حياتها البهجة والسعادة، كما سعد الأولاد بقدومه وكانوا يكنون له كل الحب والحنان ويقدمون له الرعاية الكاملة، فلم تشعر سهير بأن لديها طفلاً يحتاج إلى عناية، لم يضايقها لحظة فهي لا تحمله إلا نادراً، لأن كل وقتها مخصصاً للكتابة والمطالعة وسامر وإذا ما حملته كانت تغدق عليه كل الحب والحنان.

أما سامر فقد كان سعيداً جداً لأن سهير ظلت كما هي معه بعد الإنجاب ولم يأخذها الطفل منه، ولم تخفف من عواطفها نحوه،كما يحدث مع كثير من الزوجات، هكذا كانت الأيام تمضي مسرعة وهم لا يشعرون بمرورها من فرط السعادة حتى جاء يوم قالت فيه سهير لسامر: سامر أريد منك طلباً ولكني خائفة أن تنزعج مني.

قال سامر: كيف تقولين هذا أيتها الحبيبة؟ أطلبي ما تريدين يا بهجة عمري ومنى خاطري، فوالله لو طلبت عمري لقدمته لك.

فطوقت عنقه بين يديها وقالت له: سلم عمرك أيها الحبيب ودمت لي حبيباً وزوجاً ورفيقاً لعمري.

قال لها: ماذا كنت تريدين طلبه؟

أجابته قائلة سامر: أريد أن أقول لك أني أرغب بالعود إلى دمشق.

سألها: مستغرباً لماذا يا حبيبتي؟

قالت له: كي أكون على مقربة من الناس الذي أتعامل معهم، فليس من المعقول أن أظل هنا، وعملي في دمشق، فقد تعبت من كثرة السفر، ثم الإقامة بدمشق توفر لي أعمالاً كثيرة، فأنت تعلم كم رفضت أعمالاً تلفزيونية لأنها تتطلب مني وقتاً طويلاً أمضيه في دمشق، والأهم من هذا هو أني أحب دمشق كثيراً.

قال سامر: وأنا أيضاً يا سهير أحبها وأتمنى العيش فيها، ولكن عملي هنا يـا حبيبتي، قالت له، ولكنك تستطيع نقل عملك إلى دمشق إن أدرت، فهذا أمر سـهل بالنسبة للطيار أن يطلب نقله إلى دمشق، نظر إليها نظرة حب وقال لها: أمر عينـك الجميلتين، سوف أفعل إذا كان هذا يسعدك يا حبيبتي.

لم يمض شهر على هذا الموعد حتى حصل سـامر علـى أمـر نقلـه إلى دمشـق، وراحت سهير تبحث عن منزل هناك ولم يطـل بهـا الأمـر حتـى عثـرت علـى بيـت جميل في حي راق فباعت بيتها ودفعت ثمن البيـت الجديـد ونقلـت أثاثهـا وعنـدما حان الميعاد حزنت حزناً شديداً على فراق صديقتها ناهد، فقد بكت كـثيراً وتبادلـت معها القبل، ونطقتا بعبارات مؤثرة جداً كما ذرفـت العيـون سـيلاً مـن الـدموع، أمـا سامر فكان حزنه عميقاً على فراق جلال وناهد، فهمـا بالنسـبة لـه أخـوين وبعـد أن استقرت سهير بدمشق ظلت على اتصال دائم بناهـد عـن طريـق الهـاتف والرسـائل، وكانت تقوم بزيارة ناهد بين حين وآخر كما كانت ناهد تبادلها الزيارات.

مضى عامان على إقامتها في دمشق، كتبت خلالها أعمالاً كثيرة، منها قصـص طويلة، ومنها مسلسلات تلفزيونية، ساعدها في ذلك قربها من مكان العمـل، والفـراغ الذي تركته ناهد في حياتها، ففي دمشق لا يوجد ما يشغل وقتها بعـد ذهـاب سـامر إلى عمله سوى الكتابة، أما الأشخاص الذين كانت تتعامل معهم فهي لا تجتمـع بهـم سوى ساعات العمل، فقد شغلها سامر عن جميع الناس حتى عندما تكون في جلسـة عمل كانت تحـرص علـى أن يكـون معهـا، وتبـذل جهـداً كـبير كـي تشـركه معهـا بالحديث حتى لا يشعر بأنه غريـب عـن العمـل، كمـا تحـرص علـى أن توليـه كـل اهتمامها أثناء الحديث كي لا يشعر بتفوقها عليه.

كان سامر يحس بمـا تفعلـه مـن أجلـه، ويقـدر هـذا كـثيراً ويبادلهـا المعاملـة بأحسن منها، خاصة عند قيامها بنزهات إلى مصايف دمشـق بـين الأشـجار والمنـاظر الخلابة وشلالات بردى الجميلة.

* * *

الفصل العشرون

مضى على زواج سهير وسامر أعوام عرفت خلالها طعم السعادة والهناء، مضت هذه السنون بسرعة وكأنها لحظات حققت أثناءها جميع أحلامها.

الأولاد أنهوا دراستهم وتخرجوا من الجامعات ومارس كل واحد منهم عمله في مجال دراسته، حيث فتح عمر عيادة طبية وأصبح طبيباً مشهوراً وشريف صار مهندساً ناجحاً أما سمر فقد أصبحت محامية وتزوجت من طبيب، وريم غدت صحفية لها شهرتها الواسعة وتزوجت من شاب غني يحمل إجازة جامعية وفي الوقت نفسه يعمل في التجارة.

أما سامي الذي بلغ عامه الرابع فقد سجل في حضانة ومنها إلى مدرسة خاصة، كانت سهير سعيدة بل كانت في قمة السعادة وهي ترى جميع أحلامها قد تحققت وارتاح فكرها بعد أن اطمأنت على مستقبل أولادها، ولكن رغم كل هذه السعادة التي كانت تغمرها، فهي تشعر بالخوف من وقت لآخر، وهي قلقة على هذه السعادة التي تعيشها، وكأن قلبها يحدثها بأن سعادتها لن تطول، وأن شيئاً ما سيحدث، ولكنه ما هو لا تدري، وكانت تبدي مخاوفها لسامر فتقول له: سامر لكم أنا خائفة على هذه السعادة التي أنا فيها يا سامر.

فيقول لها: ممن تخافين يا حبيبتي؟

فتجيبه وهي تنظر إلى الآفاق البعيدة: لست أدري يا حبيبي لماذا ينتابني هذا الشعور بالخوف، الخوف من الغد، الخوف من الأيام القادمة التي لا أدري ماذا ستحمل لنا بين طياتها، خائفة من المجهول ومايخبئه لنا من مفاجآت.

فيضمها إلى صدره وهو يقول لها: لا تخافي يا حبيبتي طالما أنا بقربك فالأيام لن تحمل لنا سوى السعادة والهناء.

فتلتصق به وهي تقول له: من أجل هذا أنا خائفة يا حبيبي، خائفة أن يأتي يوم فلا أجدك بقربي، خائفة أن أفتقدك يوماً، خائفة على هذه السعادة أن تسلب مني.

فيقول لها: ومن سيسلبها منك يا حبيبتي؟

فتقول له: لست أدري.

فيقول لها: كوني مطمئنة، لن يستطع أحد سلبك سعادتك طالما أنا على قيد الحياة، فأنا أحبك وسأظل أحبك حتى آخر لحظة من حياتي.

فتقول له: إني أعلم ذلك ولكن القدر هو وحده يستطيع سلبي سعادتي، فأنا خائفة منه من أن يفرقنا، فيعود ويضمها إلى صدره وهو يقول لها: كيف سيفرقنا وأنا لن أسمح لأي قوة في الدنيا أن تفرقنا ولن أبتعد عنك لحظة يا عمري.

فتنظر إليه والدموع تموج في مقلتيها ثم تقول له: أتمنى ذلك يا دنياي، أتمنى أن لا تتركني وأن لا تبتعد عني لحظة.

وتمر الأيام والشهور ويحدث ما كانت تخافه، تحدث كارثة تفوق قدرتها على الاحتمال، فقد عاد القدر إليها ليسقيها من المرارة أمرها فكانت عودته أشد قسوة من الماضي، حدث ذلك في ذات يوم حين عاد سامر من عمله وقال لها: سهير أنا ذاهب في مهمة طويلة يا حبيبتي، نظرت إليه سهير بعينين جاحظتين وقلب مضطرب، ثم قالت له بصوت متقطع: إلى أين يا سامر؟

قال لها: إلى لبنان، صرخت قائلة: إلى لبنان؟ ويلي ! إلى لبنان يا سامر؟ كيف هذا؟

قال لها سامر محاولاً تهدئتها: سهير ما بك يا حبيبتي؟ لما كل هذا الخوف؟

قالت له والخوف مازال يسيطر عليها: كيف لا أخاف يا حبيبي وأنت ذاهب إلى الموت بقدميك.

قال لها: لا تكوني ضعيفة يا حبيبتي، فليس كل من ذهب إلى لبنان مات، هدئي من روعك ولا تدعي عواطفك تتغلب على عقلك.

قالت له: وكم تطول هذه المهمة؟

قال لها: لست أدري فهي مقررة أسبوع إذا لم تمتد إلى أكثر من ذلك، فعادت سهير وصرخت نفس الصرخة قائلة: ويلك يا سهير، أيمكن تمديدها أكثر من أسبوع أيضاً؟ كيف أستطيع أن أعيش بعيداً عنك طوال هذه المدة؟ لا أدري؟

قال لها: لا تحزني يا حبيبتي كلها أسبوع وأعود إليك، ردت عليه والدموع تنهال من عينيها، وهل الأسبوع بقليل؟ فهو سيمر وكأنه دهر؟ قال لها: سهير لا تدعي العواطف تتغلب عليك وتنسيك الواجب الوطني. نظرت إليه نظرة عتاب وقالت له: سامر متى كنت قاسي القلب يا حبيبي، فأنا عهدي بك غير ذلك، فاقترب منها، وأمسك وجهها براحة يديه ورفعه إلى الأعلى، وحدق في عينيها طويلاً ثم قال لها والدموع تموج في مقلتيه: سهير.. أنا لست قاسياً يا حبيبتي، ولن أكون في يوم، فأنا أحبك، وحبك يزداد في قلبي كل يوم أكثر من ذي قبل، أتمنى أن أظل أنظر إلى هاتين العينين الساحرتين اللتين تخترقان القلب كالسهم، وأسمع صوتك العذب الذي يخرج كالموسيقا الهادئة وأسمع عباراتك الرقيقة التي تفيض حباً وحناناً، ولكن عندما يناديني الوطن يجب أن أترك كل ذلك وألبي النداء، فلا يقاسمك حبي سوى حب الوطن، فحبك يا حبيبتي من حب الوطن، طوقت عنقه وهي تقول له والدموع مازالت تنهمر من عينيها: معك حق يا سامر، يجب أن تلبي نداء الوطن، وتساهم بتحرير الأرض المغتصبة وتدافع عن أختنا في لبنان الحبيب، إنه لبنان الحبيب، إنه لبنان الذي كان وما زال جزءاً من سورية، فاذهب لبي النداء وسيكون النصر حليفكم بإذن الله، اذهب يا حبيبي وحمل معك الحب إلى لبنان، كل الحب كي يعيش أهله بسلام، ثم سألته قائلة متى ستذهب؟

قال لها: غداً، مضى ذلك اليوم بسرعة، وجاءت ساعة السفر ودنت ساعة الوداع، فكان مؤلماً وقاسياً، كانت تلك اللحظات من أقسى لحظات حياتها، أما سامر فكان يشعر بأنه يكاد يموت من شدة حزنه وألمه، فبكى الإثنان بحرقة وألم، وذرفا بحراً من الدموع فكان يضمها إلى صدره ويقبلها، وهي تطوق عنقه بذراعها، وكلما أفلتها عادت وارتمت على صدره من جديد، وكلما أبعدته عنها عاد إليها وضمها إلى صدره كأنهما يشعران بأنهما لن يلتقيا بعد اليوم. فيقول لها سامر: صحيح سأعود وأراك ثانية يا حبيبتي، فأنا أشعر بأنني لن أراك بعد اليوم، وأنه سيكون الوداع الأخير.

فتجيبه سهير والغصة تكاد تخنقها: لا تقل هذا يا حبيبي، فسوف تعود إلي بإذن الله وسنلتقي من جديد ونعيش باقي العمر بسعادة.

فيقول لها: سهير إذا كتب لي الشهادة، فاجعلي من ولدنا سامي طياراً، فتقول له من خلال دموعها: بالله عليك لا تقل هذا يا حبيبي.

يردف سامر قائلاً: سهير لي وصية ثانية عندك إذا كتبت لي الشهادة أن لاتبكي علي يا حبيبتي، فأنا لا أحب أن تذرف الدموع من هذه العيون الجميلة، فترد عليه من خلال دموعها: سامر بالله عليك أن تكف عن هذا الكلام، وفأنا أكاد أموت قبل أن ترحل، فكيف تقول لي أن لا أذرف الدموع ولا أحزن إذا حدث لك شيء، قلبي يموت ألف مرة قبل أن يصيبك شيء، وصمت لحظة.

قال بعدها: سهير أرجو المعذرة لأنني أعيد عليك وصيتي وهي أن تجعلي سامي طياراً إذا لم أعد.. فأغلقت فمه بأصابع يدها وهي تقول له: سامر أرجوك لا تقل هذا وتحطم قلبي، فسوف تعود إلي وإلى سامي، بل يجب أن تعود إلي فأنا لا أستطيع الحياة بعدك، لا أتصور حياتي من غيرك، فأنا لا أدري كيف سأمضي هذا الأسبوع دونك.

قال لها محاولاً تهدئتها: لا تكوني متشائمة، كلها أسبوع وأعود إليك، فإذا شعرت بالملل والوحدة سافري إلى أي مكان تحبين، سافري إلى ناهد وامضي عندها هذا الأسبوع فهي الوحيدة التي تجدين عندها العزاء والسلوى.

أجابته بصوت حزين: كفاك يا سامر، كأنك لا تعرف سهير، فكل ما في الدينا لا يعوضها عن سامر، لا السفر ولا النزهات تسلبني عن غيابك، قال: إني أعلم ذلك ولكن على الأقل تجدين من يخفف عنك.

فقالت له: لا تحمل همي، إذهب أنت واعتن بنفسك وكن شجاعاً أثناء المعركة.

فقال لها: سوف أفعل يا حبيبتي، لكن المهم أن لا تبكي ولا تحزني أثناء غيابي، حتى إذا عدت لا أرى هذا الوجه الجميل ذابلاً فحزنك يقتلني يا حبيبتي، ودموعك تضرم النار في فؤادي حتى وأنا تحت التراب، فصمتت سهير ولم تجب فرسم على شفتيه ابتسامة وقال لها: سهير امسحي دموعك وأريني هذه البسمة الفاتنة، دعيني أرى آخر شيء فيك بسمتك كي تمدني بالقوة، فجففت دموعها وابتسمت له بحب وقالت له: اذهب يا حبيبي رافقتك السلامة يا أحب الناس،

اذهب وعد إلي حاملاً راية النصر، فحدق بها لحظات وقال لها: أقاتل قتالاً مستميتاً، لم تستطع سهير حجب دموعها أكثر من هذا فسقطت رغماً عنها، ولكنها ظلت مبتسمة، فودعته بابتسامتها ودموعها تنساب على خديها، عندما مد يده ليفتح الباب قالت له: سامر كن طياراً شجاعاً وقاتل بإيمان وقوة إنها لبنان عروس الشرق التي يريد الصهاينة سلبها، قاتل هذا العدو والغاشم الذي لا يعرف قوة أبطالنا وقومية شعبنا الذي لا يسمح إلى معتدي أن ينال من بلده.

أسرعت إلى الشرفة تلوح له بيدها حتى توارى عن أنظارها، وظل هو يلتفت إلى الوراء ويلوح لها بيده، حتى انعطف في الشارع الثاني، وحتي توارى عن أنظارها دخلت غرفتها وارتمت فوق السرير تبكي بصوت مرتفع وظلت تبكي حتى أعلنت الساعة الثانية بعد الظهر حيث سمعت قرع جرس الهاتف فنهضت من سريرها، رفعت السماعة بيد مرتجفة وقالت بصوت مبحوح من كثرة البكاء: ألو.. من؟ فأتى إلى مسمعها صوت ابنتها سمر وهي تقول لها: أمي أنا سمر.

ردت عليها بصوت أجش، أهلا سمر كيف حالك؟

قالت سمر: إنني بخير يا أماه، كيف حالك أنت وكيف العم سامر؟

فلم تستطع الرد عليها، فقد خنقتها العبرات، فانفجرت بالبكاء. صرخت سمر بخوف: أماه ما بك؟ ماذا حدث يا أماه؟ قولي لي هل حدث شيء؟ فبذلت كل مجهوداتها حتى يخرج صوتها المخنوق، ولكنه خرج متقطعاً لا يكاد يفهم قائلة: لا.. لا يوجد شيء يا حبيبتي، لا يوجد شيء، ثم صمتت.

ردت إليها سمر قائلة: كيف تقولين لا يوجد شيء وأنا أسمع صوتك مخنوقاً في البكاء؟ وكلماتك مضطربة، فأنا أكاد أرى الدموع في عينيك، فلم تستطع الرد عليها وسقطت السماعة من يدها وأجهشت بالبكاء، ارتاعت سمر مما سمعته وقالت لنفسها: ما بها أمي؟ فهذا ليس من طبعها، لا بد وأن يكون شيء ما قد حدث، يجب أن أخبر أخوتي ونسرع إليها لنرى ماذا هناك، اتصلت بأخوتها ونقلت إليهم ما حدث، وطلبت منهم أن يلحقوا بها إلى هناك وأسرعت بالخروج، لم تمض نصف ساعة حتى كان الجميع عندها يسألونها عن سبب حزنها.

أجابتهما بكل أسى: أن سامراً قد سافر في مهمة إلى لبنان، فراحوا يخففون عنها بكلمات طيبة محاولين إخراجها من المنزل كي تنسى قليلاً، ولكن الحزن يظل يسكن قلبها، والدموع لا تفارق مقلتيها، عجزوا عن إبعاد الحزن عنها، أشاروا عليها بالسفر إلى ناهد، لعلها تجد لديها الراحة، فقالت لهم لن أسافر إلى أي مكان، سأنتظر سامر هنا حتى يعود، فربما عاد قبل نهاية الأسبوع، فمن الذي يستقبله؟

وفعلاً عاد سامر قبل نهاية الأسبوع بيوم ولكنه جاء مخضباً بالدم، يلفظ أنفاسه الأخيرة حيث سمعت قرع جرس الهاتف وهي جالسة تداعب سامي وتقول له غدا سيعود والدك يا حبيب وسيأتيك بالألعاب، فيقول لها الصغير: متى يا أماه فأنا بشوق شديد له.

وحين سمعت جرس الهاتف رفعت السماعة قائلة: ألو من؟ فأتى إلى سمعها صوت رجل لم تألف سماعه من قبل وهو يقول لها:

هل هذا منزل المقدم سامر أشرف؟ أجل يا سيدي ماذا تريد؟ قال لها الرجل: أريد زوجته. قالت: أنا زوجته، ما وراءك؟ قال لها الرجل: سيدتي أرجو أن تحضري فوراً إلى مشفى المزة. أجابته سهير بخوف وهلع: إلى مشفى المزة ! لماذا؟

قال الرجل: أنا آسف يا سيدتي لهذا الخبر، فقد أحضروا زوجك هذا الصباح بحالة إسعاف وهو يرقد هنا، وقد أعطانا رقم الهاتف وطلب منا الاتصال بك كي تأتي إليه بسرعة، فأسرعي بالحضور يا سيدتي.

سقطت السماعة من يدها، ولم تستطع سماع كلماته الأخيرة، فقد وقع عليها الخبر كالصاعقة، فارتمت فوق المقعد منهارة، وانخرطت بالبكاء ولكنها أدركت نفسها بعد قليل، وقالت يجب أن أسرع إليه، وقبل أن تخرج اتصلت بعمر وأخبرته بصوت محشرج كما طلبت منه أن يخبر أخوته بالأمر ويلحقوا بها إلى مشفى المزة حيث يرقد سامر جريحاً، وقل لزوجتك أن تأتي لتأخذ سامي إلى بيتكم، سأتركه عند الجيران، ثم أسرعت بالخروج، تهبط على السلم كل درجتين معاً وعندما أصبحت في الشارع رمت نفسها خلف المقود وانطلقت تسابق الريح، وراحت تتذكر سامراً طوال الطريق حين كانت تخرج معه، وكيف يحاورها من أجل قيادة

السيارة، فقد كان يحب دائماً أن تقود هي السيارة، وكيف كان يفعل حين تكون هي خلف المقود، تذكرت كل حركة قام بها، وكل كلمة قالها تذكرت كيف كان يجري خلفها حين يكونان في نزهة بين الأشجار، وكيف يرجوها أن نغني له، وكادت أن تعمل حادث من شدة شرودها، وحين بلغت المشفى قفزت من خلف المقود، وأسرعت بالصعود إلى قسم الجراحة، التقت في طريقها بإحدى المرضات فسألتها عن غرفة الضابط الذي أتى جريحاً ليلة أمس من لبنان.

أجابتها المرضة: من تكوني له؟ قالت لها: إنه زوجي. نظرت إليها المرضة نظرة اشفاق وقالت لها: اتبعيني من فضلك، فتبعتها وهي صامتة، وتركت لدموعها العنان، وحين بلغت باب الغرفة فتحته بعنف ودخلت فرأت سامر وهو ممدد فوق السرير، وعيونه مغلقة نصف إغلاقة، تحدقان بباب الغرفة وكأنهما تترقبان مجيئها، وحين رآها تدخل عليه وهي في حالة يرثى لها من الرعب والخوف ابتسم لها، فركضت وارتمت فوق صدره تبكي وتقبله متغافلة وجود الطبيب والمرضة في الغرفة، فهي لم تعد تعي ما تفعل.

فقال لها سامر بصوت يحتضر: سهير الحمد الله على أنني رأيتك يا حبيبتي قبل أن أموت، نظرت إليه من خلال دموعها وقالت له: لا تقل هذا يا حبيبي فأنت ستعيش فإذن الله، لا.. لن تموت يا سامر ستعود إلي، بل يجب أن تعود إليّ، لا لن تموت، لن تموت يا سامر، لا تتركني وحيدة، لا تتركني يا حبيبي، فأنا أحبك ولا أستطيع الحياة من دونك، ثم التفتت إلى الطبيب وقالت له: دكتور أرجوك أتوسل إليك أن تنقذ حياة زوجي، دكتور خذ حياتي، خذ عمري، خذ كل ثروتي فقط أنقذ حياة سامر، كان الطبيب ينظر إليها بإشفاق وهي تكلمه وقلبه يتفتت ألماً عليها، لقد تركها تتصرف كما تشاء، لأنه يعلم أن سامر يلفظ أنفاسه الأخيرة، فكانت تخلط في الكلام وهي تخاطب الطبيب ثم تعود وتمسك بيد سامر وتحدق به وهي تقول له: سامر أيها الحبيب الغالي، لا تتركني وحدي وترحل، سامر يا حبيب القلب، يا رفيق عمري خذني معك إذا كان لا بد من الرحيل، فأنت لم تذهب يوماً دون أن تصحبني معك، فكيف سترحل هذه المرة وحدك؟ هل أهون عليك يا حبيبي؟ هل.. هل هانت عليك سهير يا سامر؟ فتتركها وحدها وترحل؟

أنسيت ما كنت تقوله لي؟ كنت تقول لي أنك لا تستطيع الجلوس في أي مكان لا أكون أنا فيه، كنت تقولي لي لو كنت تستطيع أخذي معك إلى مقر عملك لفعلت، ألست أنت الذي قلت لي ذلك؟ فكيف الآن سترحل رحلة طويلة؟ وتتركني في دنيا ليس لي فيها غيرك، فكان سامر يستمع إليها والدموع تنساب على خديه، وبعينين مثقلتين تودعان الحياة، نظر إليها وقال لها بصوت واه متقطع: سهير أيتها الحبيبة التي عشت معها أجمل أيام عمري، لا تبكي يا حبيبتي، فأنا لا أحب أن أرى هذه العيون تذرف الدموع حتى وأنا تحت التراب، حرام يا سهير، حرام لهذه العيون الساحرة أن تقرحها الدموع، دعيني أراهما من غير دموع، دعيني أرى الحب فيهما قبل أن أفارق الحياة، دعيني أمتع ناظري بصفائهما وأرى الحب بتدفق منها كي أموت سعيداً، سهير لا تبكي ولا تحزني بعد موتي، فأنا لا أحب أن يسكن الحزن مقلتيك، فدموعك غالية علي يا حبيبتي، ألا تعلمين ذلك؟ أطلب منك فقط أن تذكريني وأن أكون دائماً في قلبك الكبير. فأمسكت بيديه والتصقت به وثبتت عينيها في عينيه وقال له والدموع تنهمر من عينيها كيف تطلب مني أن لا أبكي يا حبيبي وأنا سأفقد أعز وأغلى الناس على قلبي؟ كيف لا أبكي من كان ساكناً في الروح؟ فإذا سحبت الروح ماذا يبقى سوى جسد بارد لا حياة فيه، كيف تطلب مني هذا أيها الحبيب وأنت تعلم أنني لست قادرة على تنفيذه؟ الأجدر بك أن تقول لي ابكي حتى تحترق الدموع، واحزني حتى يعجز الحزن عن حزنك، هذا ما أستطيع فعله، أما ذكراك أنت يا من أحببته حباً فاق كل وصف، أنت يا من أحببته حباً حطم الجبال وهدم السدود وبقي صامداً، سامر يا من أحببته حباً قوياً خالداً، أقسم لك بحبنا الكبير، سيظل حبك في قلبي خالداً خلود النيل، وشمس الأصيل، أقسم لك بكل كلمة شوق نطقنا بها، أقسم لك بكل نظرة حب تبادلناها، أقسم لك بكل لحظة سعادة عشناها سأكون وفية لهذا الحب ما حييت، سأعيش على ذكراه حتى ألاقي وجه ربي، وسيظل حبك متربعاً على عرش قلبي، وستكون أنت وحدك إمبراطور هذا القلب الذي وهبته لك، وسأغلق قلبي على حبك بقيد من حديد، وأرمي مفتاحه في قاع البحر حتى إذا جاء أمهر الغواصين لن يجد أثراً له، ولن يمس هذا الجسد من بعدك سوى التراب، ولو استطعت بعد موتي أن أمنع التراب من لمسه لفعلت،

وأقسم لك أيضاً بروحك الطاهرة بكل قطرة دم نزفت منك، وكل دمعة ذرفتها وسوف أذرفها، إنني سأنتقم لك من هذا العدو الغاشم، ولن أرضى عنك بديلاً بألف قتيل، أجل يا سامر لن أرضى بديلاً لدمك سوى بالأرض التي استشهدت من أجلها والتي رويتها بدمائك الذكية، أقسم لك بكل مقدس لسوف أحول كل دمعة من عيوني إلى قنبلة أفجرها في وجه العدو، وأحول كل آهة خرجت من قلبي الجريح إلى رصاصة تمزق قلب العدو، فالويل ثم الويل لهم من انتقام امرأة محبة خطف منها حبيبها.

قاطعها سامر بصوت هامس: سهير اذكريني يا حبيبتي، اذكريني عند كل شروق شمس وعند غروبها حين ترحل بعيداً وتحتضن الآفاق، اذكريني كلما نظرت إلى وردة حبنا سامي، ثم لفظ آخر نفس من روحه الطاهرة، ما أن رأته سهير حتى صرخت صرخة مدوية، وراتمت فوق صدره، هذا الصدر الذي كان يخفف عنها همومها ويغدق عليها الحب والحنان في هذه اللحظة الحرجة دخل أولادها فوجدوها مغمياً عليها، والطبيب يحاول رفعها عن الأرض فحملوها إلى مستشفى خاص ثم اشتركوا في مراسيم تشييع الجنازة إلى مقبرة الشهداء في حين لم تستيقظ هي من إغمائها إلى بعد ثلاثة أيام من وفاة سامر، وحين أفاقت من غيبوبتها رأت أولادها حولها والدموع تنهمر من أعينهم فأول ما نطقت به هو اسم سامر حيث سألت عمر قائلة: أين سامر يا عمر؟ قل لي أين هو؟ لقد رحل أليس كذلك؟ كيف تدعه يرحل وأنت الطبيب الناجح؟ كيف استطعت إنقاذي ولم تستطع إنقاذه؟ ثم أغمي عليها من جديد.

كان حزن الأولاد شديداً على سامر، فقد اتشح الجميع بالوساد والذي زاد من حزنهم أكثر هو وضع والدتهم التي ترقد في المشفى بين الحياة والموت.

وبعد ثلاثة أيام من مرض سهير تذكرت سمر ناهد، ورأت من الواجب أن تخبرها بالأمر وتدعوها للحضور فوراً لعلها تستطيع التخفيف من ألمها.. فعرضت هذه الفكرة على أخوتها فوافقها الجميع وحثوها على الإسراع.

فهرعت إلى الهاتف وأدارت الرقم وحين سمعت صوت ناهد عبر الأسلاك أجهشت بالبكاء وهي تخبرها بالأمر، فانهارت ناهد على المقعد لدى سماعها

الخبر، وعندما عاد جلال من عمله ورأى ناهد على هذه الحالة سألها بخوف قائلاً: ناهد ما بك يا حبيبتي؟ هل حدث شيء؟

أجابته ناهد من خلال دموعها: جلال اسمع ماذا حدث، قال لها وقد دب الرعب في أوصاله: ماذا حدث يا ناهد تكلمي؟ فقد أخفتني.

قالت له: الذي حدث هو شيء مخيف حقاً، فقد مات سامر، أجابها قائلاً: سامر؟؟ قالت له ناهد سامر أشرف زوج سهير ابراهيم، لا أظنك قد نسيته.

صرخ جلال: سامر زوج سهير؟ طبعاً لم أنسه، ولكني لم أكن أتوقع أنه هو، ولكن قولي لي كيف حدث ذلك؟ ومن أخبرك؟

قالت له: لقد استشهد في لبنان وأخبرتني سمر بهذا، لقد اتصلت بي منذ قليل، وطلبت مني السفر إلى دمشق على جناح السرعة.

قال لها جلال هيا أسرعي في تحضير الحقيبة وارتدي ملابسك كي نسافر، هيا أسرعي، بعد نصف ساعة خرجا من المنزل واستقلا سيارتهما وانطلقا بها يسابقان الريح.

وحين وصلا دمشق اتجاه فوراً إلى المشفى الذي كان معهما عنوانه، ولدى وصولهما إليه توجهت ناهد مسرعة إلى غرفة سهير وارتمت فوق صدرها تقلبها وتبكي، ثم نهضت وعانقت سمر وريم، وصافحت عمر وشريف اللذان كانا يقفان بقرب السرير، أما جلال فقد صافح الجميع وقد لهم التعزية بوفاة سامر، ثم اقترب من سرير سهير وراح ينظر إليها بحب وحنان أخوي ثم سأل عمر: هل هي نائمة؟

أجابه عمر: ليس نوماً طبيعياً فقد حقنوها ابرة مهدئة فهي لا تنام إلا على ذلك.

قالت ناهد: هل يطول نومها؟ فأنا متلهفة لرؤيتها. أجابتها ريم: لا أظنك ستسرين حين ترينها يا خالة، فهي اليوم غيرها في الماضي، لقد تبدلت وأصبحت إنسانة بائسة، تكره الحياة والدمعة لا تفارق مقلتيها والحزن أصبح ثوبها، والصمت غدا رفيقها، وإذا تكلمت فلا تلفظ سوى اسم سامر.

ردت ناهد: هذا لأن الصدمة مازالت جديدة وجرحها ما زال ينزف، ثم نظرت إلى سهير وتحسرت وقالت، مسكينة يا سهير، كم جار عليك الزمان، ثم

جلست قربها تنتظر صحوتها ولم يظل انتظارها كثيراً.. حتى صحت بعد قليل، ونظرت حولها فوجدت ناهد قربها، والجميع ملتفون حولها والدموع في أعينهم فنظرت إلى ناهد والدمع يملأ عينيها قائلة: هل أتيت يا ناهد كي تودعي سامر؟ لقد تأخرت يا أختاه، لقد رحل سامر، كم كان يعزك يا أختاه، لماذا تأخرت عن وداعه؟ لماذا لم يحضر أحد من الذين أحبهم لوداعه، تصوري يا ناهد أنا حبيبته لم أودعه، تصوري حتى أنا لم أحضر لوداعه أكيد هو عاتب علي.

كان الجميع يستمعون إلى سهير وهم يبكون، فقالت لها ناهد من خلال دموعها: هوني عليك يا حبيبتي هذا مصيرنا جميعاً وهل منا من يخلد في هذه الدنيا؟ سنموت يا سهير ولن يدوم سوى وجه الله، فلا تكوني قاسية على نفسك، ارفقي بحالك يا أختاه فصحتك بدأت تتدهور، نظرت سهير إلى الأفق البعيد وقالت لها: لتتدهور صحتي، ولأموت فالموت أرحم لي من الحياة من غير سامر، من أجل من سأحافظ على صحتي بعد سامر؟ فإذا كنت قد حافظت على حياتي في الماضي فكان من أجل سامر، أما الآن فمن أجل من سأحافظ عليها؟ فارتمت سمر وريم فوق صدرها وأجهشتا بالبكاء وهما تقولان لها: من أجلنا نحن يا أماه، ألسنا أحباؤك؟

قالت سهير: لقد حافظت على حياتي من أجلكم حين كنتم بحاجة لي، أما الآن فلم تعودوا بحاجة لي.

قال عمر: كنا وما زلنا بحاجة لك يا أماه، فحافظي على نفسك من أجلنا، وقبل أن يكمل كلامه قال شريف والدموع تتساقط من عينيه إذا كنا قد رخصنا عليك يا أماه وترين أننا لا نستحق حياتك فحافظي عليها من أجل الصغير سامي أليس هو جزءاً من سامر؟ ألم يوصيك به وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة؟

قالت له سهير: كيف تقول هذا يا شريف انكم تعلمون جيداً أن حبكم يعادل حياتي فأنتم تستحقون أكثر مما قدمت لكم، أما سامي، إنه حقاً جزء من سامر، وقد أوصاني به كما أوصاني بأن لا أحزن، ولكن الأمر ليس بيدي إنه سامر يا شريف سامر الذي جعلني أعرف معنى السعادة ألا يستحق مني الحزن وهو الذي منحني ثمانية أعوام من السعادة، ألا يستحق أن أحزن عليه وهو الذي أعاد إلي الحياة بعد أن كاد اليأس يقتلني؟ ألا يستحق أن أحزن عليه؟ وهو الذي لم يزعجني

بكلمة خلال أعوام زواجنا منحي فيها أقصى درجات السعادة، إنه سامر يا ناهد إنه سامر، فلو حزنت عليه العمر كله فلن أرد له جزءاً صغيراً، لو ذرفت عليه نهراً من الدموع لكان قليلاً، ليتني أستطيع أن أحزن عليه أكثر من ذلك.

قالت لها ناهد: صحيح يا سهير ولكن كل هذا لا يفيد بشيء يا حبيبتي، فبكاؤك لن يعيده إليك، فكوني عاقلة وارفقي بأعصابك وارحمي نفسك، فأنت تنتحرين ببطء بهذه الطريقة. صمتت سهير ولم تجب وتركت الإجابة لدموعها التي أغرقت الوسادة. حين كانت سهير ترقد في المشفى كان هناك شخص يعيش في قلق وحزن شديدين وهو كمال رستم، حبيب سهير الأول، الذي أحبته في بداية حياتها وقد قرأ خبر مرضها في احدى الصحف، ويقول " لقد أصيبت سهير إبراهيم بانهيار عصبي اثر وفاة زوجها الطيار سامر أشرف، وقد نقلت إلى مشفى خاص، هي مازالت في حالة غيبوبة، وقد تألفت لجنة أطباء على رأسهم الطبيب عمر مراد ابن سهير.

إبراهيم يحاولن إنقاذ حياتها من الموت، ونحن زملاءها الكتاب نتمنى لها الشفاء العاجل، ونزلت صورتها إلى جانب الخبر ".

فحين قرأ كمال هذا الخبر قذف الصحيفة جانباً وانهار فوق الكرسي وقد وضع رأسه بين يديه،.وراحت دموعه تنهمر رغماً عنه، وفكر أن يسافر إلى دمشق كي يطمئن بنفسه عليها، ولكنه أبعد هذه الفكرة عن رأسه حيث قال: إن ذهبت إليها الآن فلن تصحو علي ولن أستطيع مواساتها، بل ربما سببت لها ولنفسي حرجاً تجاه هذا الحشد من الأهل والأصدقاء، ماذا أقول لهم إذا سئلت من أنا؟ وما صلتي بها؟ لا لن أذهب الآن، سوف أنتظر حتى تتحسن حالتها وتخرج من المشفى، فأنا لا أستطيع رؤيتها وهي على هذه الحالة وظل ينتظر أسبوعاً في قلق وحيرة.

مضى الأسبوع الأول وهي لم تزل على حالتها من الانهيار والإغماء، فكانت لا تصحو حتى تعود للنوم من جديد اثر حقنها بإبرة مهدئة وفي الأسبوع الثاني بدأت تتحسن حالتها تدريجياً، وظلت في تحسن مستمر حتى شارفت على الشفاء، وفي آخر يوم من الأسبوع الثاني سمح لها الأطباء بالخروج من المشفى، على أن تمضي

فترة نقاهة في مكان هادئ، وتحت إشراف الطبيب، أسرعت ناهد والأولاد لنقلها إلى بيتها، وبعد أن رفضت الذهاب إلى بيت عمر أو شريف وصممت على العود إلى بيتها حيث الذكريات الجميلة وحين وصلت أفلتت من يدي ناهد التي كانت تحتضنها أثناء دخول الباب وراحت تمشي بخطوات ثقيلة تجوب أرجاء الصالون، وتحدق بكل قطعة أثاث والجدران والدموع تنساب على خديها كسحاب المطر، وظلت تمشي هكذا حتى دنت من جدار علقت عليه صورة كبيرة لسامر فتوقفت أمامها وأخذت تحدق بها وهي تخاطبها قائلة، سامر هكذا ترحل يا حبيبي وتتركني وحيدة دون أنيس؟ فقد كنت لا تذهب إلى أي مكان إلا وأخذتني معك، كنت لا تحب الخروج من المنزل دون أن تصطحبني معك، فكيف ذهبت هذه المرة من دوني؟ أتراك قد ضجرت مني؟ أم تراك مللت حبي. هكذا يا سامر هانت عليك حبيبتك سهير فتتركها تحترق بنار الفراق، لماذا فعلت ذلك يا حبيبي؟ ألم أقل لك خذني معك يا سامر؟ ليتك فعلت هذا يا حبيبي لكنت مُنحتني السعادة، سامر أيها الحبيب من سيكفف دموعي بعدك؟ من سيلملم أحزاني؟ فأنت حزني وفرحي، فقد مضت هذه السنون التي عشتها معك وكأنها أيام كانت حلماً جميلاً أيقظني منه طعنة خنجر اخترقت القلب ومزقت الفؤاد، صمتت لحظات لتتذكر كل كلمة حب قالها، وكل حركة قام بها، وكيف كان يركض خلفها حين كانت تختبئ خلف قطع الأثاث، فيظل يركض خلفها وهما يضحكان عالياً، ثم يمسك بها فيطوقها بين ذراعيه وينهال عليها تقبيلاً، ثم يحملها ويجوب بها الغرف حتى يستقر في غرفة النوم، تذكرت ماذا كان يفعل حين كانت تطالع كتاباً بعد انتهاء السهرة وهي جالسة في السرير حسب رغبته، فكان يلتصق بها ويداعب شعرها ووجهها وذراعيها، ثم ينهال عليها بالقبل، فكانت تعطيه الكتاب وتقول له خذ اقرأ هذا يا حبيبي ودعني أكمل قراءتي، فينظر إليها نظرة العاشق الولهان قائلاً: سهير اقرأي أنت الكتاب وأنا أقرأ في شفتيك، فدعيني أتعبد هذا الجمال فترمي له الكتاب قائلة: خذ أيها الكسول أقرأ ولا تكن طماعاً فالقناعة كنز لا يفنى. فينظر إليها نظرات استسلام ثم يتناول الكتاب ويبدأ بالقراءة ولكنه لا يلبث أن يرمي بالكتاب أرضاً ويعود عما كان عليه فتقول له: ابتعد عني أيها الرجل، وإلا.

فيقول لها: وإلا ماذا؟ أتهدديني يا امرأة حسناً سأريك ما سأفعل بك. فتقول له: ماذا ستفعل يا فارس الصحراء؟ فيستوي في السرير ويقول لها: أتهزئين بي أيتها المرأة الجميلة؟ ألست خائفة مني؟ فتقول له: لا لست خائفة، افعل ما يحلو لك، فيهب واقفاً ويخطف منها الكتاب ويرميه جانباً، ثم يحملها بين ذراعيه ويجوب بها أرجاء الغرفة الواسعة وهو يمطرها بالقبل، ثم يضعها فوق السرير، وقبل أن يقفز إلى جانبها تقفز هي من فوق السرير بسرعة وتحمل الوسادة وترميه بها وهي تضحك عالياً فيلتقطها هو ويرد لها الضربة، فتعود هي لحمل غيرها وترميه بها ثم تركض فيجري خلفها حتى يمسك بها فتضربه بقبضة يدها برفق ودلال، تصورت كل هذه الأشياء أمامها وكأنها شريط سينمائي وهي واقفة أمام صورة سامر، فصرخت: سامر.. سامر.. لماذا تتركني يا حبيبي وسقطت على الأرض تبكي بصوت مرتفع فأسرعت ناهد وسمر من حيث كانتا تنظران إليها، ولحق بهما الجميع، وحملوها إلى سريرها وهي منهارة تهلوس بالكلام، فتنطق بالكلام لا يفهم وتبكي جلست ناهد بجانب رأسها، والتف الجميع حولها، فقالت لها ناهد والدموع تملأ عينيها: سهير يا عمري، سهير أيتها الغالية لا تقلقينا عليك كما فجعنا بزوجك، ولا تكوي قلوبنا بالنار يا حبيبتي، سهير أرجوك أن تشفقي على نفسك، فإذا هانت عليك نفسك فهل نهون عليك نحن، بالله عليك أن تكفي عن هذا وترحمي قلبي، فدموعك تحرقني وحزنك يقتلني، سهير أشفقي على سامي الصغير الذي لم يرك منذ أسبوعين، سهير يا حبيبتي ساعدي الأطباء على معالجتك كي تشفي سريعاً، فأعود إلى بيتي وأنا مطمئنة عليك، فإذا بقيت هكذا لا أستطيع أن أرك وأسافر وقد مضى على مكوثي عندك أسبوعين. فدنا عمر منها وقال لها: أجل يا أمي ساعدي الأطباء على شفائك، اعملي بنصيحة خالة ناهد، وكفي عن البكاء، فالبكاء لا يفيد شيئاً فقد مات سامر ولن يعيده البكاء، فلو أن البكاء يعيده لكنا بكينا عليه جميعنا العمر كله، فأنت تعلمين كم نحن نحبه، ونحن حزينين عليه، فلست أنت وحدك التي تحبينه، نظرت سهير إلى الأفق البعيد وقالت له: إني أعلم يا بني كم تحبونه جميعاً، وكم حزنتم عليه ولكن لم ولن يحبه أحد كما أحببته أنا، لم ولن يحزن عليه أحدكم كما أحزن أنا عليه، أتعلم لماذا؟ لأنه كان حياتي وحدي وكان عمري ودنياي وحدي.

فصمت الجميع وراحوا ينظرون إليها باشفاق، وبعد أيام من خروجها من المشفى طلبت سهير من عمر أن يجسم لها عدد من صور لسامر وهو معها في لقطات مختلفة، ويضعها ضمن إطار جميل، حقق عمر أمنيتها فأحضر الصور وزينت بها جدران الصالون، وغرفة النوم وراحت تمضي معظم الوقت واقفة أمام هذه الصور وهي تناجي طيف سامر وكأنه يقف أمامها، وناهد تنظر إليها وقلبها يذوب شفقة وألماً عليها. فتقترب منها وتضع يدها فوق كتفيها برفق وتقول لها بصوت مبحوح من شدة التأثر: سهير يا حبيبتي إلى متى ستظلين على هذه الحالة ألا يكفيك عذاباً؟ ألم تجف دموعك بعد؟ ألم ترتوي من تعذيب نفسك؟ كفى يا سهير، إن بقيت على هذا الحال سوف يصيبك مس من الجنون. فكوني عاقلة يا عزيزتي، وعودي إلى أولادك وعملك، فالوضع الذي فيه أولادك يثير الشفقة، فهم منذ أن وقع ذلك الحادث الأليم لم يذوقوا طعم الراحة، فالحزن في أعينهم والكآبة تغلغلت في أعماقهم، نظرت سهير إلى صورة سامر التي تضمها معه في ثوب الزفاف وهما في لحظة عناق وقالت لها: صدقيني ياناهد إني أتألم كثيراً عندما أنظر إلى وجوه الأولاد وأرى الحزن ساكناً فيها والقلق يملأ عيونهم، فهذا يزيد في حزني وعذابي ولكن الأمر ليس بيدي، أود لو أستطيع إخفاء حزني عنهم، ولكني فشلت يا أختاه، لم أتسطع فطيف سامر يطاردني في كل مكان، ولا يفارقني لحظة، وتصرفاته ترافقني كظلي، فقد قدم لي من السعادة الشيء الكثير، فأنا أرى أعماله في كل زاوية من هذا البيت، وآخر شيء كان سيقدمه لي في عيد ميلادي الذي سيأتي بعد شهر، عثرت عليه بين أشيائه ورقة كتب عليها برنامج الحفل الذي سيقيمه لي، وما نوع الهدية التي سيقدمها، هكذا وضع البرنامج دون علمي كي تكون لي مفاجأة، لقد كان يحب المفاجأة وقد قدم لي منها الكثير، فهو لم يدع شيئاً يعلم أني أحبه إلا وفعله من أجل إسعادي، فكيف بعد ذلك أستطيع أن أنساه، قولي لي يا أختاه كيف لي أن أنسى كل هذا؟ فلو فعلت كل ذلك لكنت من الجاحدات فردت عليها ناهد: ما تقولينه صحيح يا سهير، ولكن أنت أيضاً قدمت له من السعادة الشيء الكثير، فقد ابتعدت عن كل شيء لا يحبه، وفعلت كل ما يريد، وما يجلب له السعادة، أنسيت ماذا كنت تفعلين لإرضائه ولإسعاده، أنسيت كيف تخليت عن العالم من أجله، فعلت كل

ذلك كي لا يشعر بالغربة بيْن الأدباء ولكي لا يشعر بعدم أهميته أمام الإهتمام الذي تلقيته أنت من قبل الأدباء والشعراء والمعجبين، قالت لها سهير: ولكن لم يغصبني يوماً على ما فعلت، فعلت ذلك من تلقاء نفسي، فهو لم يفرض علي أي شيء في يوم من الأيام.

قالت ناهد: ليس مهماً أن يفرض هو عليك شيئاً، المهم فعلت هذا من أجله لأنك تعلمين جيداً أن هذا يسعده، فانتشلت سهير تنهيدة عميقة وقالت لها: ما تقولينه صحيح يا ناهد، لقد قدمت له كل شيء، إلا شيئاً واحداً لم أستطع تقديمه وهو أنني لم أستطع أن أفديه بحياتي.

قالت لها ناهد: هذا لي بيدك يا سهير، هذا بيد الله سبحانه، فهو الذي يمنح العمر وهو الذي يأخذه، فأنت مؤمنة بالله، فلا تدعي الحزن يفقدك إيمانك بالله، سهير سلمي أمرك لله، واطلبي منه الصبر، فقالت سهير: ونعم بالله يا أختاه، بينما كانت سهير تمضي أيامها هكذا، كان هناك كمال يترقب أخبارها في المجلات، وأخيراً قرأ الخبر الذي كان ينتظره وهو شفاءها وعودتها إلى بيتها، وكان الخبر مكتوباً بالخط العريض، ولدى قراءة كمال الخبر سافر إلى دمشق وقد وصل إليها في ساعة متأخرة من الليل، فبات ليلته في أحد الفنادق وفي اليوم الثاني استيقظ مبكراً واستقل سيارة أجرة وانطلق بها إلى بيت سهير، وما أن وصل حتى قرع الجرس وهو يشعر بنبضات قلبه تكاد تمزق صدره، وحين فتحت له ناهد الباب قال لها: أليس هذا منزل السيدة سهير إبراهيم؟ أجابته ناهد برقة: أجل يا سيدي ماذا تريد منها؟

قال لها: هل هي موجودة؟.

قالت له ناهد: أجل، هل لي من خدمة أقدمها يا سيدي؟

قال لها: لا يا سيدتي شكراً لك ولكن أريد فقط مقابلة السيدة سهير.

قالت له ناهد بلطف: أرجو المعذرة يا سيدي فهي معتكفة ترفض مقابلة أي إنسان.

قال لها بتهذيب: أرجو يا سيدتي أن تذهبي وتقولي لها كمال رستم يريد مقابلتك، وأنا واثق أنها لن ترفض مقابلتي.

قالت له: سيدي أرجو أن تفهمني، قلت لك أنها مرهقة الأعصاب ولا تقوى على ذلك.

قال لها بتوسل: سيدتي أرجوك أن تنفذي ما طلبته منك.

نظرت إليه بحيرة وقالت له: حسناً سأحاول انتظر هنا لحظة من فضلك، وتركته واقفاً أمام الباب ودخلت إلى سهير حيث كانت جالسة في غرفة النوم تنظر إلى صورة سامر. قالت لها: سهير لقد جاء رجل يريد مقابلتك يا عزيزتي، أجابتها سهير بهدوء ولا مبالاة: لا أريد مقابلة أحد، قالت لها: ولكن يلح بطلبه يا حبيبتي.

أجابتها سهير بعصبية: قلت لك لا أرغب بمقابلة أحد، ألا تعلمين ذلك؟ ألم أقله لك مراراً؟ صمتت ناهد قليلاً، ثم قالت لها بلطف وحنان: إني أعلم ذلك يا حبيبتي ولكنه ألح علي بشدة وتوسل، وكأنه يعرفك معرفة قوية.

فعادت سهير إلى هدوئها وقالت لها: وما أدراك بأنه يعرفني؟ قالت لها: من كلماته، والحزن البادي في وجهه، فلو رأيت موجة الحزن التي تسكن عينيه والطريقة التي يرجوني بها لأبلغك اسمه لما كنت.. فقاطعتها سهير قائلة بصوت هادئ رقيق: إني آسفة يا ناهد عمار بدر مني من عصبية.

قالت لها: لا حاجة بك للأسف يا عزيزتي، فأنا أختك، ومن حقك علي أن أقدر ظرفك، وأحتمل ما يصدر منك، فأنا لن أشعر بضيق حين تغضبين، ثم قالت لها وكأنها تذكرت شيئاً قد نسيته: سهير لقد أنسيتني ما جئت لأجله وهو الرجل، ماذا أقول له؟ فهو ينتظر أمام الباب، قالت لها: قلت كان يرجوك أن تبلغيني اسمه، فما هو اسمه؟ وما يريد؟

أجابتها ناهد: يقول أنه كمال رستم، أما ماذا يريد، فهذا لم أعلمه لأنه لم يخبرني بذلك.

أجابتها سهير باستغراب ودهشة: كمال رستم؟ ماذا جاء به الآن بعد كل هذه السنين؟

سألتها ناهد باستغراب: وهل تعرفينه؟

قالت لها: أجل إنه صديق قديم، ثم قالت لها: أدخليه يا ناهد، فأنا قادمة إليه، ذهبت ناهد وأدخلت كمال إلى غرفة الضيوف وقالت له برقة: انتظر لحظة يا سيدي فهي قادمة إليك.

نظر كمال إليها نظرة امتنان وقال لها: إني أشكرك مرة أخرى يا سيدتي، فقد أتعبتك معي، فقالت له ما فعلته لا يستحق الشكر يا سيد كمال.

ولم تكد تنتهي من العابرة حتى ظهرت سهير مقبلة إليه بفستانها الأسود الذي أضاف إليها سحراً وزادها جمالاً وشعرها الأشقر المبعثر فوق كتفيها دون ترتيب، وحين صارت على مقربة منه قالت له: أهلاً أستاذ كمال، فتقدم منها خطوتين ماداً لها يده وهو يقول لها: البقية في حياتك يا سيدة سهير، والحمد لله على سلامتك.

قالت له: سلمت يا أستاذ كمال، وشكراً لك على هذه الزيارة، ثم أشارت له بالجلوس فجلس وهو يحدق بها بأسى وحزن فجلست إلى جانبها ناهد، فنظر كمال إلى سهير قائلاً، لم تعرفني بالسيدة.

أجابته سهير: إني أشفة فقد نسيت ذلك، إنها صديقتي ناهد أمين، ونظرت إلى ناهد وقالت لها: إنه الأستاذ كُمال رستم صديق قديم، وصمتت قليلاً.

فقال لها: هل هي مقيمة هنا؟

قالت له: لا، ولكنها جاءت إلى هنا حين علمت بما حدث لي، ولن تتركني حتى أشفى، إنها صديقة مخلصة وفية، فشكرتها ناهد بنظرة من عينيها وصمت الثلاثة، وبعد صمت قصير نظرت سهير إلى كمال وقالت له: قل لي يا أستاذ كمال متى وصلت إلى دمشق؟

قال: ليلة أمس ولكني كنت أود أن أقوم بزيارتك منذ أن قرأت هذا الخبر المؤسف، ولكني ترددت لأني لم أكن أحتمل رؤيتك وأنت فاقدة الوعي، فأنا لو رأيتك لانهارت قواي أمام الجميع، كنت أتتبع أخبارك طيلة مكوثك في المشفى وتألمت كثيراً، حتى قرأت أمس نبأ خروجك من المشفى في احدى المجلات فأتيت مسرعاً، قالت له: شكراً لك يا سد كمال على تعبك هذا.

رد عليها: تعبي على ماذا يا مدام سهير؟ فهذا واجب علي، فأنت لا تعلمين كم أنا حزين عليك، وكم تألمت لما أصابك، وهنا هبت ناهد وقالت لكمال: ماذا يشرب السيد كمال؟

قال: لا تزعجي نفسك يا سيدتي.

فابتسمت ناهد وقالت له: لا يجوز هذا يا سيد كمال، يجب أن تشرب شيئاً.

قال: إذا كان ولا بد من ذلك أفضل القهوة.

فتركتهما وانصرفت إلى المطبخ تعد القهوة، نظر كمال إلى سهير فرأى دموعها تنساب على خديها.

فقال لها برقة وحنان: سهير أيتها المخلوقة التعيسة، كفاك دموعاً، فهذا قدرك ولا تستطيعين الهروب منه.

ردت عليه بصوت مخنوق: ماذا فعلت بدنياي يا كمال حتى أستحق كل هذا؟ لماذا هذا القدر مصمم على تعذيبي؟ فأنا على صراع معه منذ وعيت الحياة.

قال لها بصوت يقطر حباً: أيتها الغالية لا تحزني فكلنا على هذا الطريق سائرون، فقد خلقنا من التراب، وسنعود إليه ولا أحد منا يعرف متى سيأتي دوره.

نظرت سهير إلى الأفق البعيد وقالت له: كيف تقول لي هذا يا كمال؟ ألا أحزن على سامر الذي أمضيت معه أجمل أيام حياتي؟ ألا أحزن على من كان الحبيب والزوج الذي قطف كالزهرة وهو في ريعان الشباب، أجابها كمال بصوت فيه رنة حزن: أنا لا ألومك على حزنك يا سهير لو كان يثمر عن شيء مفيد، ولكن الحزن لن يرد لك ما فقدت، فكوني حكيمة ولا تحكمي على نفسك بالإعدام، وفي هذه اللحظة دخلت ناهد بالقهوة، فتناولها كمال وراح يرشف منها وهو يراقب دموع سهير المتساقطة بعد أن انتهى من رشف القهوة، قال لها: سهير كفاك دموعاً وحاولي تقبل الواقع مهما كان مراً يا عزيزتي، أجابته بصوت مخنوق: ليتني أستطيع ذلك يا كمال ليتني أستطيع، فصمت ولم يجبها لأنه رأى نفسه عاجزاً عن مواساتها فاستأذن منها وانصرف عائداً إلى فندقه، بعد أن وعدها بزيارتها في اليوم الثاني، وظل يتردد عليها طيلة أيام الأسبوع لعله يخفف من أساها، ثم ودعها وسافر، أما سهير فقد كان حزنها أكبر من أن تنساه بشهر أو سنة أو حتى بالعمر

كله، فلم تنجح معها جميع الوسائل التي اتبعها كل من الأولاد وناهد، مما اضطر ناهد أن تعود إلى بيتها وزوجها بعد أن قضت ثلاثة أسابيع مع سهير، كانت لها المرضة والأخت والصديقة، وظلت تزورها كل شهر وأحياناً كل أسبوعين وهكذا لمدة عامين، حيث كانت سهير خلالهما منعزلة عن جميع الناس منزوية في بيتها، تعيش مع ذكرياتها الجميلة، فانقطعت عن الكتابة رغم الجهود التي بذلها الأستاذ رأفت فهمي مدير دار النشر التي توزع وتطبع لها جميع كتبها التي ملأت الأسواق، كما أقلعت عن هواية القراءة التي كانت شغوفة بها، حتى رسائل القراء التي كانت تصلها بشكل يومي، تسأل عن صحتها، لم تعد تقرأها فتطوعت ريم وسمر لقراءتها لها، وكانت تستمع إليها وهي صامتة لا تبدي أي كلمة، فتردان على معظم هذه الرسائل التي تحتاج إلى رد، وكانتا تحاولان دوماً إخراجها من هذا الصمت، وهذا الشرود وتبديد وحشتها بمساعدة ناهد التي كانت لا تنقطع عنها باختلاق أشياء مفرحة، والجو المرح، ولكنها لم تكن تشعر بما يدور حولها فهي تعيش في عالم ثان، عالم الأموات، كانت روحها هناك مع سامر، أما هذه الدنيا فلم يكن لها فيها سوى جسدها الضعيف، أما كمال فقد وقف إلى جانبها كل هذه المدة وقفة صديق مخلص، فكان يتردد عليها باستمرار، ويحاول مداواة جروحها أملاً في أن ينتهي حزنها وتعود كما كانت تحس به ويحبهْ، ويعيد عليها طلب الزواج، وهذا ما فعله في احدى الزيارات حين قال لها: سهير هل ستظلين هكذا؟ فقد مضى على وفاة سامر عامان، وأنت مازلت كما أنت عليه من حزن وعزلة، بل يخيل لي أن كل يوم يأتي تكونين فيه حزينة أكثر من اليوم الذي قبله، لماذا يا سهير؟ لا تقابلين أحداً؟ ولا تكفين عن ذرف الدموع ولا تعودين للكتابة، أنظري إلى نفسك في المرآة لتري ما فعل بك الحزن، فقد ذهب بنضارتك ويكاد يقضي على الباقي من صحتك، فكري في نفسك قليلاً، ولا تكوني قاسية عليها، حرام.. حرام أن تقضي على هذا الجمال، وتحرمي من أحبه أن يتمتع بالنظر إليه.. فنظرت إليه وقالت له بصوت حزين وبريق دمعة في مقلتيها: لقد انتهت حياتي يا كمال منذ أن رحل سامر، لم يعد لها قيمة، فلن أستطيع الكتابة بعد الآن، ولم يعد يغريني النجاح والشهرة في الحياة، لم أعد أريدها وإذا كنت ما تزال تراني أعيش حتى الآن فهذا من أجل الصغير سامي

الذي له علي حق الأمومة، فأنا أعيش كي أكمل رسالتي كأم، هذا قدري دائماً، فنظر إليها نظرة حب وقال لها: سهير يا أعز الناس يجب أن تعلمي أن سامراً قد ما وانتهى، وأن الحي أفضل من الميت، يجب أن تعيشي حياتك كما كنت في السابق، سهير أنا أقدر إخلاصك ووفائك هذا، فالإخلاص شيء عظيم ولكن إلى حد، فأنت فقت كل حد، وصمت قليلاً ثم قال بصوت خافت ولسان متلعثم قليلاً: سهير لقد مضى عامان وأنا أحترم حزنك، وانتظر الوقت المناسب الذي يخف به حزنك كي أحدثك بأمر خاص ورأيت الوقت مناسباً بعد مضي عامين على وفاة زوجك، ولكني أظنه ليس مناسباً بالنسبة لك.

فقاطعته قائلة: كمال تكلم ماذا هناك؟

قال لها: سهير يجب أن تعلمي أني مازلت أحبك رغم مرور كل هذه السنين، وأتمنى أن يكون لي في قلبك القليل من الحب، وضغط على شفته السفلى.

فقالت له: كمال أنت تعلم أني أعزك وأحترمك، فلماذا تقول ذلك؟

قال لها بخجل: أحقاً ما تقولين يا سهير؟

قالت له: أجل يا كمال، ولكني لم أفهم لماذا هذا السؤال؟

قال لها بشيء من الارتباك: سهير إني أعيد عليك ما طلبت منذ منذ عشرة أعوام أي منذ تزوجت من سامر.

فنظرت إليه بدهشة وقد فهمت ما يعني وقالت له: ماذا تعني يا كمال لم أفهم؟

قال لها: الزواج يا سهير، أجل الزواج، فأنا مازلت أحبك بل أعبدك وأتمنى أن تكوني لي زوجة.

فنظرت إليه نظرة ليس لها معنى وقالت له: أن طلبك هذا يا كمال يشبه أمنية طبيب بإعادة الروح إلى جسد إنسان قد مات منذ زمن، وقلبي مات بموت سامر، ولم يعد فيه مكاناً للحب، وروحي لم يعد لديها رغبة للحياة، فإذا قلت لك أنني أعزك منذ قليل فلم أكن أقصد ما يدور في رأسك، فأنت أصبحت بالنسبة لي أخاً وصديقاً ألجأ إليه في وقت الشدة، وأرجو أن تعتبر نفسك هكذا يا كمال.

وصمتت قليلاً قالت بعدها: إني آسفة إذا قسوت عليك وضايقتك بكلامي، فقد فعلت ذلك كي لا تعيش في وهم كبير، فأنت تعلم ما في نفسي من حزن وألم يجعلاني لا أقدر على إسعاد من حولي، فأنا لعنة تقع على كل من يقترب مني. فلا يناله سوى العذاب والألم، إني أكرر أسفي يا كمال لأني لا أستطيع مجاراتك بالعواطف، ولو أستطيع الحب لما أحببت غيرك، ولكن ماذا أفعل لهذا القلب الذي أغلق أبوابه على حب سامر ويأبى فتحه لأي إنسان؟ فلا تحزن أيها الصديق العزيز فقدرك أن تأتي دائماً متأخراً، وكتب عليك أيضاً أن تكون قاسماً مشتركاً لأحزاني.

فنظر إليها نظرة يأس وقنوط وقال لها بمرارة: إنك على حق يا سهير، هذا قدري الذي أصر على تفريقنا كحبيبين، ولكن لن يفرقنا كصديقين، فأنا سأكون لك منذ الساعة الصديق المخلص الوفي، ولكن لي طلب عندك ولن أتراجع عنه لأنه من حقي كصديق، فنظرت إليه بسعادة وفرح وقالت له: إني أعتز بصداقتك يا كمال وأقدسها لأنها أطهر وأسمى شيء في الدنيا، فأطلب ما تريد وأنا موافقة مسبقاً لأنني متأكدة من أخلاقك، ونبل مشاعرك، فلن تطلب مني ما يسيء إلي.

قال لها: أنا مسرور جداً يا سهير وسعيد لأني أحتل في نفسك هذه المكانة الرفيعة، فقاطعته قائلة: دعك من هذه المجاملات وقل لي ما هو طلبك؟ فقد شوقتني لسماعه.

أجابتها أنه طلب بسيط ولكنه يجلب السعادة لكل من حولك.

فقالت له سهير: قل ما هو.

قال: لن أقول لك قبل أن تعديني وعداً قاطعاً بتنفيذه.

قالت له: أعدك بذلك يا كمال، ولكن هل هو خطير إلى هذه الدرجة.

قال لها: لا ليس خطيراً بمعنى الخطورة، وإنما هو خسارة فادحة للأدب إذا لم تنفذيه.

فصمتت سهير، وقد فهمت ما يرمي إليه فاحترم كمال صمتها، وصمت هو الآخر قليلاً، ثم تابع كلامه قائلاً: سهير يجب أن تعودي للكتابة، يجب أن تعودي إلى قرائك الذين أحبوك، وينتظرون إنتاجك بلهفة وشوق، سهير اعتبري هذا رجاء مني واقبلي رجائي إذا كان فعلاً لي في قلبك معزة صديق.

نظرت إليه نظرة استسلام وقالت له: حسناً يا كمال سوف أحاول رغم شعوري بعدم قدرتي على ذلك.

قال لها: يجب أن تضغطي على نفسك، وتتغلبي على حزنك يا سهير، فأنت مثال الإرادة القوية.

قالت له: حسناً.. حسناً سأحاول، سوف أفعل، سوف أفعل.

وبعد أن خرج كمال من عندها وقفت أمام صورة سامر وراحت تخاطبه قائلة، سامر أيها الحبيب الغالي لقد أقسمت لك بأن أنتقم لك من هذا العدو الغاشم ولسوف يدفع ثمن دمك غالياً، ولكني تأخرت قليلاً بتنفيذ قسمي يا حبيبي وذلك لأن الحزن أخذني لفترة فاعذرني أيها الحبيب لانشغالي هذا فحزني عليك أفقدني صوابي، وفقدانك شكل تفكيري، ولكن لا دموع بعد الآن، سوف أكفكف دموعي وأتركها متحجرة في الأحداق وأعود للكتابة، سوف أحارب بقلمي الآن، وأعد ولدي سامي لأن يكون طياراً، ثم أخوض حرب الانتقام التي سأدمر بها كل غاز مغتصب، وفي اليوم التالي شرعت سهير بالكتابة وراحت تكتب للصحف والمجلات مقالات سياسية تهاجم فيها العدو والمتخاذلين معه، وتكشف النقاب عن أشياء كثيرة بالإضافة إلى هذه المقالات التي كلفتها جهداً كبيراً وأخذت من وقتها الكثير، راحت تكتب قصصاً بين الفينة والفينة، ونجحت نجاحاً كبيراً على الصعيد السياسي، واتسعت شهرتها في عالم السياسية، وقامت بنشاطات كثيرة جعلتها حديث معظم الناس وكتبت مسلسلات سياسية تمس الوطن العربي كله، وفي السنة الأخيرة التي أتم ولدها سامي دراسته الإعدادية، ختمت كتاباتها بتدوين قصة حياة فكانت عملاً أدبياً رائعاً، جعلتها من أعظم الأعمال التي كتبتها، لقد حققت هذه الرواية نجاحاً منقطع النظير ودخلت مسابقة الرواية وأخذت الجائزة الأولى وسلمت جائزة أفضل كاتبة عربية، ودعيت على حفل تكريم بعد عودتها من فرنسا، أقيم لها حفل من قبل أولادها وصديقاتها وفي المقدمة ناهد وزوجها جلال وكمال.

تقلبت هذا الحفل على مضض لأنه أعد مسبقاً، أي قبل أن تعود من أوربا رغم كل هذا النجاح الذي حققته، وهذا الاحتفال الذي أقيم لها، كان الحزن يغمر قلبها، والكآبة تغزو وجهها، فتستغل انشغال المحتفلين بالحديث والموسيقى لتزوي

بنفسها وتناجي طيف سامر وتشكو له ألمها وحزنها، فكان الأولاد يلاحظون ذلك، وتلحق بها ناهد بعد أن تقول للأولاد لا تقلقوا عليها، ودعوني أنا إلى جانبها، فتواسيها بكلمات رقيقة وبعد أن انصرف الجميع، اختلت بغرفتها، وحملت صورة سامر وراحت تحدق بها وهي تقول لها: سامر أيها أيها الحبيب الذي لوعت قلبي وكويته بنار الفراق، ماذا تفيدني الشهرة بعدك يا حبيبي؟ كيف أفرح بنجاحي وألهوا في الحفل وأنت بعيد عني؟ أسمعت بنجاح قصتي الأخيرة يا حبيبي التي سطرتها بدماء قلبي أرأيت كيف نجحت نجاحاً كبيراً ولكنها لا تعني لي شيئاً لأن النجاح لم يعد له عندي أي طعم، ولم تعد الشهرة تسعدني بعدك، لا سعادة في حياتي بعدك يا سامر، ليتني فقدت الشهرة والثروة وبقيت أنت معي لكنت أسعد إنسانة في الدنيا.

وراحت تبكي بدموع محرقة وقلب دام.

ولكنها فجأة كفت عن البكاء وكأنها تذكرت شيئاً قد غاب عن فكرها طويلاً، وعادت وأمسكت الصورة من جديد ونظرت إليها نظرة تحد وقالت: سامر أيها الحبيب لقد حان موعد الانتقام أيها الغالي بعد أن حققت وصيتك، وألحقت سامي بالكلية الجوية، وسيغدو طياراً بعد سنين قليلة، آن لي أن أنضم إلى صفوف المقاتلين، فأنا لم يعد لي مكان هنا، لم يعد لي مكان في الداخل، فمكاني هناك في الجبهة أمام العدو.

غداً يا حبيبي سأنضم إلى صفوف المقاتلين وأموت هناك، فوق التراب الذي رويته بدمائك، سأقاتل هنا يا حبيبي حتى الموت، هناك ستلتقي روحانا وتصعدان إلى السماء.

كانت سهير تتكلم بغضب وعصبية، وكان الحقد يملأ عينيها، وفي اليوم التالي ذهبت إلى ولدها سامي تزوره في الكلية لتودعه وتخبره بما عزمت عليه، وحين سمع سامي كلامها قال لها: أماه ماذا تقولين يا أماه؟ فأنت لا تصلحين للقتال، قالت له سهير: لماذا لا أصلح للقتال يا ولدي؟

قال لها بارتباك: لأنك.. فقاطعته قائلة: لأني ماذا يا سامي؟ ألأني تجاوزت الخمسين عاماً؟ ولكني ما زلت قوية أستطيع القفز وأنا حاملة السلاح، قال لها

سامي محاولاً الاعتذار: لا يا أماه ما قصدت هذا، فأنت مازلت قوية كما قلت ولم يظهر عليك الكبر رغم كل هذا الحزن الذي مر بك، أنا أقصد أن مكانك هنا في الكتابة وسلاحك حمل القلم وليس حمل السلاح.

قالت له: لا يا ولدي لا تخطئ، فمكاننا جميعاً هناك على الجبهة، نقاتل العدو ويا لسعادته الذي يموت هناك في سبيل الوطن، سامي يا ولدي لا فرق بين شاب أو عجوز، لا فرق بين أديب وعامل، أو رجل وامرأة، يجب علينا جميعاً أن نقاتل، قال لها: أنت على حق يا أماه، يجب أن نقاتل جميعنا، ولكن أنت لديك مهمة لا تقل أهمية عن حمل السلاح فلم تجبه سهير وإنما نظرت إليه نظرة حب ووداع، وكأنها تقول له أننا لن نلتقي بعد اليوم يا حبيبي.

ثم ضمته إلى صدرها تقبله وتعصره وكأنها تعصر ألم قلبها، ثم أفلتته برفق وانصرفت عائدة إلى بيتها فحزمت حقيبتها وذهبت إلى لبنان، إلى حيث قتل سامر وانضمت هناك إلى المقاومة.

* * *



من القرية وعذاباتها إلى المدينة وقلقها وتعقيداتها ترسم وليدة عتو فصول روايتها دموع تحترق في ملحمة روائية تحترق فيها كل حواس شخوصها بتصويرات ابداعية وخصوصية قل أن تجد مثلها في الرواية النسائية العربية .

كما أننا أمام عمل روائي يحمل في سطوره شاعرية الإحساس وشاعرية ال... فتحار في لوحة الجملة أنها شعر روائي في جمال باهر .



